كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

أفكار معاصرة

أحمد بهاء الدين



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

العدد ٢٣٠ – محرم ١٣٩٠ – ابريل ١٩٧٠

No. 230 - Avril 1970

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ – فى سائر أنحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية أو ٤٠ شلنا – والقيمة تسـدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية : فى الخـارج بتحويل أو

ع.م) – والاسعار

ضاف رسوم البريد

لاسعار المحددة

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنان حلمي التوني

أحمد بهاء الدين

أفكار معاصرة

الطبعة الثانية

دار الهلال

روسيا وأمريكا..
والإنسان والآلة

قال لى « سافيل ديفز » رئيس تحرير جريدة الكريستيان ساينس مونيتور ، ومن أبرز رجال الصحافة فى أمريكا :

ـ اسمع منى !.. لقد انفقت حياتى فى قلب الحياة السياسية لهذه البلاد ... واستطيع أن اقول لك اننى لم ار أمريكا تمر بفترة من النقد الذاتى ، ومحاسبة النفس ، ومحاولة اكتشاف الخطأ .. كهذه الفترة التى تمر بها الآن !

كان هذا الحديث فى مبنى الجريدة العريقة ، فى بوسطن ، سنة ١٩٦٠

ويومها كانت مظاهر النقد الذاتى الحاد .. لا تقاس شيئاً الى مظاهر هذا النقد المتفاقمة اليوم : من تمرد الزنوج الذى وصل الى حد مظاهرات مئات الالوف ، والاشتباكات الدموية العنيفة .. الى حركات التمرد العنيفة ضد حرب أمريكا على شعب فيتنام.. واحراق المجندين لبطاقات تجنيدهم .. الى تجمعات الشباب فى الجامعات تحت شعارات ترفض سياسات أمريكا بشكل او بآخر .. الى الانشقاق الكبير بين أعضاء الكونجرس الامريكى نفسه ، حول تفسير امريكا لدورها فى العالم بوجه عام

وقد سئل الكاتب المسرحى الامريكى الكبير ارثرميلر اخيرا عن رايه فى الصدمات التى أصابت السياسة الامريكية الخارجية اخيرا فى اكثر من مكان.. من اليابان الى كوبا ، فقال ميلر : « انا متفائل جدا ! لقد بدأ الامريكيون يتعلمون انه لا يكفى أن تقول للناس : أنا امريكى لكى يعاملوك على انك آلة !.. اننى أجد أن روح النقد ، وعدم الاذعان ترتفع فى هذه البلاد مرة أخرى »

فى العشر السنوات الاخيرة كان من المستحيل أن تحدث أحدا فى الاخطاء الامريكية، فقد كان كثيرون يعتقدون انه ليس فى الامكان أبدع مما كان ، أما الآن فقد بدأ كثير من الناس يعترفون أن هناك أشياء كثيرة خاطئة.. وهذا حسن . فانك لا تستطيع أن تغير أى شىء الا اذا أحس الناس حقا انه فى حاجة الى تغيير ! »

وأظن ان ما قاله الاثنان صحيح الى حد بعيد . ولا يمكن طبعا القول بأن روح النقد والتغيير قد شملت أغلبية الناس ، أو انها شملت الجهات المسئولة والجهات ذات القوة والنفوذ ولكن وجود هذا النقد على أى حال ظاهرة هامة .

ومن أبرز الاسماء التى تقترن فى امريكا بالنقد و (المخالفة) والمطالبة بالتغيير ، كاتب ومفكر اقتصادى وأستاذ فى جامعة هارفارد . لمع فى السنوات الاخيرة كواحد من اكبر الرؤوس الاقتصادية فى أمريكا .. وهو الدكتور جون كينيث جالبريث ...

وقد اشتهر الدكتور كينيث جالبريث بثلاثة كتب ضخمة أصدرها عن الحياة الاقتصادية فى امريكا وهى :

AMERICAN CAPITALISM, THE AFFLUENT SOCIETY, THE LIBERAL HOUR,

ودكتور جالبريث ليس أستاذ اقتصاد بالمعنى المتجهم الجامد لهذه الصفة .. ولكنه كاتب لامع الاسلوب ، يتدفق ذكاء وسخرية وبساطة .. وكل بحث أو راى له يثير حوله عواصف من السخط والرضى ، والذم والمدح وقد اخترت أن أنقل رايه فى ثلاثة موضوعات رئيسية :

* ما هو المحور الحقيقى للمنافسة بين الاتحاد السوفييتى وامريكا ؟
* هل صحيح ان قيمة الآلات ترتفع ، بينما تهبط قيمة الانسان ؟
* كيف أثر التنافس الاقتصادى فى أمريكا على الذوق .. وعلى الفن ؟

اما عن التنافس بين الاتحاد السوفييتى وامريكا .. فان جون جالبريث له فيه رأى خطير .. فهو يقول :

– لو درسنا التاريخ .. لوجدنا أن هدف التنافس العسكرى دائما واحد ، وهو أن تتغلب على العدو ، بأقل ضرر يلحقك . ولكن الاسلحة قد تقدمت وتطورت الى درجة جعلت تحقيق هذا الهدف مستحيلا ، لأى طرف ، مهما كانت درجة تفوقه .

والبديل الوحيد للتنافس العسكرى هو التنافس الاقتصادى ، فاذا كان الاسلوب الاول بشعا فلا مفر من الاتجاه الى الاسلوب الأقل بشاعة !.. السوفييت يريدون أن يسبقوا أمريكا فى الانتاج ولذلك يجب على أمريكا أن تسبق نفسها . والجائزة فى النهاية للدولة التى يزيد الدخل القومى فيها بنسبة أكبر ..

وفى السنوات الاخيرة نجد أن الاتحاد السوفييتى يزيد انتاجه بمعدل ٧ ٪ بينما يزيد انتاج امريكا بمعدل ٣ ٪ . وازاء هذه الظاهرة يرى بعض الناس ان امريكا يجب أن ترفع معدل زيادة الانتاج فيها حتى تزداد

تفوقا على الاتحاد السوفييتى.. فى حين ان هناك آخرين يحاولون أن يطمئنوا انفسهم بمحاولة اثبات ان الارقام التى يذيعها الاتحاد السوفييتى عن تقدمه غير صحيحة. وقد نشأت فى أمريكا صناعة جديدة ناجحة ـ هى صناعة اثبات ان الارقام السوفييتية غير صحيحة .. ولعل فى الاتحاد السوفييتى أيضا صناعة أخرى مقابلة تحاول اثبات ان امريكا تتأخر !

ومع ذلك فان هذا ليس معناه ان هدف امريكا الوحيد يجب ان يكون الدخول فى سباق مع الاتحاد السوفييتى حول معدل زيادة الانتاج . ان زيادة الانتاج بالنسبة للاتحاد السوفييتى لها معنى ، وبالنسبة لأمريكا لها معنى آخر .

الاتحاد السوفييتى كان حتى وقت قريب بلدا متأخرا ضعيفا .. فالنمو السريع بالنسبة له هام جدا لانه يسمح له بأن يرفع مستوى المعيشة فيه ويفتح أمامه مجال التقدم الواسع فى المستقبل . ثم لكى يصبح لديه بعد ذلك فائض يوجهه الى العالم الخارجى حيث يساعد سياسته الخارجية . ان الاتحاد السوفييتى يريد القضاء على فكرة أنه يأتى فى المرتبة الثانية بعد دولة رأسمالية ، لكى يبدد الشك فى أن يكون نظامه هو المسئول عن هذا الوضع .

ولكن السبب بالنسبة لامريكا يختلف . السوفييت يريدون أكثر لأن أمريكا لديها أكثر . ولكن ، لماذا تحتاج أمريكا الى الأكثر ؟.. هذا هو السؤال الهام الذى يجب أن تفكر فيه امريكا . ان مجرد الجرى الى الامام للاحتفاظ بالاولوية فى كمية الانتاج ، لا نتيجة له الا الخراب .

هل تزيد امريكا من انتاجها فى الطعام مثلا ؟ بالتأكيد

لا ! فمرض امريكا الآن هو التخمة وليس ضعف التغذية !.. والتقدم فى أمريكا ينصب الآن على طرق تعبئة المأكولات وتقديمها وليس على انتاج المأكولات ذاتها. وحتى فى هذا المجال وصلت امريكا الى آخر الشوط ولم يعد هناك الكثير مما يمكن ابتكاره . كذلك بالنسبة للملابس . لقد عبرت أمريكا مرحلة الحاجة الى زيادة الملابس وأصبحت تصمم الملابس للتنافس فى الذوق وللمباهاة لا لمجرد الحاجة اليها . وفى مجال السلع الاخرى كالسيارات كادت أمريكا تصل الى معدل انتاج ١٠ ملايين سيارة فى السنة . وكادت الطرق والجراجات تملأ كل مكان فى البلاد حتى فى صميم الريف .

سيقول الناس : ولكن ما زال فى أمريكا من لايجدون كفايتهم من الطعام والكساء والسيارات والبيوت المريحة وهذا صحيح. ولكن مجرد زيادة الانتاج ليست العلاج. فقبل ايجاد السلع ، يجب أن يكون لهؤلاء الناس دخل كاف لشراء هذه السلع.. ويجب أن يكون لديهم كفايتهم من التعليم والصحة والفرصة لكى يكسبوا ويشتروا .

هناك من يقول ان الاتحاد السوفييتى يزيد من الصناعة الثقيلة عنده لكى يضاعف قوته الحربية . وان امريكا لهذا السبب يجب أن تنافسه . ولاشك ان القوة الصناعية هى أساس القوة العسكرية . ولكن يجب أن نعرف أن هذا يتوقف بمجرد بلوغ مرحلة معينة من القوة الصناعية . فبعد الوصول الى مرحلة معينة من القوة الصناعية تصبح كل زيادة فى الصناعة تافهة الاثر بالنسبة للقوة العسكرية واظن ان الاتحاد السوفييتي قد وصل او كاد يصل الآن الى هذه المرحلة . فى الحروب القديمة ، عندما كان الحديد يحارب الحديد ، كنا نجد أن هناك حدا أقصى لاستخدام الحديد فى

القتال . وقد استطاعت المانيا مثلا فى الحرب العالمية الثانية أن تهزم جيوشا معادية بكمية أقل من الحديد والصلب . فما بالنا والحرب الحديثة ـ كما يسمونها ـ وكأنها كأى موضة جديدة ، تحتاج الى حديد أقل وخامات أقل ؟ . . ان المهم الآن ليس كمية الحديد وقوة الصناعة. بدليل ان الاتحاد السوفييتى سبق أمريكا فى مجـال الصواريخ ، رغم ان قوته الصناعية أقل .

فالتفوق الصناعى ، من حيث الكمية ، ليس هو المهم . بل انه يمكن القول ان هذا التفوق احيانا يزود الناس بسلع ورفاهيـة أكثر مما يجب لدرجة انهم يصبحون عاجزين عن الاستغناء عن هذه الاشياء بالسرعة اللازمة فى الوقت اللازم . الأمر الذى يعد عنصر ضعف وليس عنصر قوة . وصناعة السيارات هى أول مثل وانذار . لقد وصلت صناعة السيارات فى أمريكا الى درجة استهلكت قوتها البدنية ! وكم كان صعبا على جنـود أمريكا فى حرب كوريا مثلا أن يتعودوا كيف يحاربون خصوما لا يركبون سيارات الجيب !

وأخيرا يقال ان زيادة الانتاج فى حد ذاتها سوف تمكن أمريكا من مساعدة أصدقائها وحلفائها فى الخارج. ولكن الواقع ان الذى كان يمنع أمريكا عن مساعدة العالم الخارجى فى الماضى لم يكن قلة الانتاج ، بل كان عدم الرغبة فى الانتاج من أجل هذه الغاية !

وهذا يذكرنا بمشكلة أخرى : ان السلع الامريكية ، خصوصا الثقيلة منها ، أصبحت أسعارها عالية بالنسبة للعالم الخارجى الى درجة هائلة . والواقع ان السعر الآن أهم من الكمية . فلا قيمة لهذا الانتاج اذا ارتفعت أسعاره الى درجة جعلت الآخرين عاجزين عن شرائه .

اذن : فمجرد زيادة الانتاج للاحتفاظ بالتفوق على

السوفييت لا قيمة له . ان الزيادة لن تذهب الى المحتاجين لها . ولن تزيد من قوة أمريكا العسكرية أو الاقتصادية . ولن يكون لها أثر الا فى تحويل أنظار الامريكان الى أشياء أقل اهمية .

اذن فماذا ؟

يستطرد الدكتور جالبريث قائلا :

لكى تفهم امريكا طبيعة المنافسة بينها وبين الاتحاد السوفييتى ، يجب أن تنظر أولا الى الاقمار الصناعية والسفر الى الفضاء .

لنترك جانب العنصر العسكرى ، اذ ليست له قيمة كبيرة . ان هذه الاقمار قد زادت من سمعة الاتحاد السوفييتى ونفوذه وهيبته الى حد كبير . ذلك انه غير الفكرة العالمية القديمة التى كانت تفترض دائما ان كل اختراع انما يأتى من أمريكا أولا . وان التفوق العلمى الامريكى لا غالب له . والعلم اليوم ليس شيئا نظريا . انه مرتبط تماما ، لا بالقوة العسكرية وحدها ، ولكن بالطعام والصحة والتقدم فى كل ميدان . فالسوفييت قد حققوا تفوقا فى ناحية من نواحى العلم لا نظير لقوتها (الاعلانية) والدعائية !

التفوق فى السفر الى الفضاء اثبت ان المجتمع السوفييتى يتمتع بنشاط وحيوية ذهنية وثقافية ضخمة . وهذا هو ما ترك اثره فى العالم كله ، وفى أمريكا نفسها أيضا . وقد كان السوفييت بارعين ، اذ لم يركزوا دعايتهم على الاهمية العسكرية لهذا التفوق ، لأن هذا كان كفيلا أن يقلل من صورة التفوق العلمى فى حد ذاته ، وهى الأكثر أهمية . لقد أراد السوفييت أن يؤثروا فى العالم ، لا أن يخيفوه !

اذا أخذنا هذا النموذج السوفييتى فلا بد من القول

ان التنافس مجاله فى الميادين التى تدل على مدى قوة النظام الاجتماعى وسلامته وحيويته . فهو أيضا ليس تنافسا علميا ضيقا . ان كل ما يثبت كفاءة المجتمع هام فى هذه المنافسة . المجتمع الذى سيثبت انه يتمتع باكبر درجة من نقط القوة والحيوية واقل درجة من نقط الضعف .. هذا المجتمع هو الذى سينال اكبر احترام ، وبالتالى اكبر تأييد ، أىسينال فرصة اكبر للاستمرار. هذا هو جوهر التنافس بين البلدين الآن !

وفى امريكا ينتشر وهم غريب يقول ان المجتمع الذى يؤمن بالاقتصاد الحر سوف يحقق كل شىء ويتفوق دون اى توجيه أو تدخل . وهذا معناه الا تهتم أمريكا بمنافسة الاتحاد السوفييتى . تمسكا منها بمبدأ الحرية الاقتصادية ! وهذه نظرية لا ترجمة لها الا « يجب أن نفشل ، لأن النجاح يتعارض مع عقيدتنا ! » ذلك انه لا مفر من مواجهة الحقيقة وهى : ان كل ما تتطلبه المنافسة ، ينطوى على مزيد من « القيادة الحكومية » . ليس هناك اى حل آخر !

ويقول الدكتور جالبريث :

بعض الناس يرددون هذه الايام بكثرة ان الانسان تقل قيمته بينما تزداد قيمة الآلات ! فالاوتوماشين فى المصانع ، والرقابة الالكترونية عليه ، سوف يجعل الصناعة تقوم على الآلة لا على الانسان . وحتى فى مجال الحرب ، الصواريخ الموجهة اصبحت ادق واجدى من الطائرة التى يقودها انسان ويتعب نفسه فى القاء القنابل على الهدف. والصواريخ الموجهة سوف تقابلها فى القريب صواريخ مضادة تقابلها فى الفضاء وتفجرها فى الهواء .. وهذا قمة انتصار الآلة على الانسان ..

والواقع ان العكس تماما هو الصحيح . ولم يحدث

ان ارتفعت قيمة الانسان كما ترتفع الآن !

اول مظهر يدل على ذلك هو ان الانسان صاحب الخبرة ترتفع قيمته ، فى حين ان الانسان صاحب المال تهبط قيمته . ان من يملك الخبرة يستطيع أن يكسب بها المال . اما من يكسب المال وتنقصه الخبرة ، فهو لايمكن أن يصنع شيئا . واغلب الظن انه سيفقد امواله. فهو حتى لكى يتبرع بأمواله لشىء منتج سوف يحتاج للذهاب الى خبير !

فى امريكا كانت اغلب المؤسسات الكبرى يديرها أصحابها .. الآن لا نجد بين من يديرون المؤسسات الكبرى الا القليلين جدا من اصحابها . القوة الآن هى قوة المديرين . المديرون الآن يرشحون مجلس الادارة الذى ينتخبه المساهمون . ومجلس الادارة بعد ذلك يعين المديرين الذين رشحوه . الرجال الأقل ثروة ، استولوا الآنعلى السلطة فى مجال الصناعة لأنهم أكثر ثقافة وأكثر دراية بعملهم واطول خبرة . وكثير جدا من الشركات التى اصابها الدمار ، كان سبب دمارها ان اصحابها حاولوا الاحتفاظ بالسلطة فى أيديهم وتقليل سلطة المديرين والخبراء . فى الفترة بين سنتى ١٩٣١ و ١٩٤٠ كادت مؤسسات فورد تفلس لأن هنرى فورد الكبير ، مؤسسها ، أصر على أن يحتفظ بالسلطة فى يده . فلما مات ، أسرعخلفاؤه الى تحويلالسلطة الى أيدىالمديرين والخبراء ، فأنقذت مؤسسات فورد وعادت الى النجاح. ان اصرار الرأسمالى على أن يدير أمواله بنفسه أصبح مصدرا لكثير من الكوارث .

وارتفاع قيمة الانسان فوق قيمة المادة والآلة يظهر على جميع المستويات وليس على هذا المستوى فقط..

ومع ذلك .. فان أمريكا لا تهتم بالانسان الاهتمام

الكافى فى وجه المنافســـة المتزايدة .. أى انها لا تهتم بالتعليم الاهتمام الـكافى ...

ان أى أسرة أمريكية تستطيع أن تحصل على سيارة فى خمس دقائق . ولـكنها لا تستطيع أن تجد مكانا لابنائها فى المعاهد المناسبة بسهولة. بل لعل مدير مصنع السيارات نفسه ليس واثقا من أنه سيجد لابنه المعهد المناسب !

والتقدم الصناعى الآن ـ كما قلنا ـ مرهون بالتقدم العلمى التكنيكى ، لابزيادة كمية الخامات والأيدى العاملة فقط . ومراجعة النمو الصناعى الامريكى نفسه تدل على أن التقدم العلمى ساهم فيه بدرجة أكثر مما ساهمت فيه زيادة الخامات أو الأيدى العاملة .

ولكن الابتكار العلمى والاتقان التكنيكى هما من انتاج الانسان ولا يمكن أن يكونا من انتاج الآلات . التقـدم العلمى هو نتيجة عمل الانسان المتقدم والاختراع كما هو معروف الآن لم يعد كما كان قديما رهن صدفة أو الهام عبقرى يهبط على أحد المخترعين. كلا. الاختراع الآن أصبح وليد التعليم والتنظيم فى المعامل ومراكز الابحاث . المنطق العلمى والتنظيمى والتجريبى هو الآن الاشياء التى تخلق الاختراع .

التقدم الصناعى يقوم على تحسين الآلات . وتحسين الآلات لا يتم الا عن طريق تحسين الانسـان نفسه . اننا نكسب من الانسان المتقدم أكثر كثيرا مما ننفق عليه .

ان الانفاق على الانسان الآن وعلى تعليمه وتدريبه أصبح أهم لسلامة أى مجتمع من الانفاق على السلاح !

وهذا لن يتم الا بأموال عامة ، وبكمية كافية . وأموال عامة معناها أموال الدولة .. أموال الحكومة الاتحادية لاحكومات الولايات. ولا يصح أن يخجل أحد المتحررين

بعد الآن من الدعوة الى هذا !

والدكتور جالبريث من هواة الفن ، وفن الرسم بالذات .. وقد ألقى محاضرة عن هذا الموضوع قال فيها :

من أهم الاشياء التى جنى عليها الاسراف فى التنافس التجارى ، الفن ، والفنان ...

فهناك دائما صراع بين نزعتين : نزعة تحسين الانتاج ، ونزعة زيادة المبيعات .

ان ذوق اغلبية الناس ليس دائما الذوق الاحسن وليس دائما الذوق الأكثر تقدما . ان الفنان عادة قائد لذوق الجماهير . ولكن المصنع الذى ينتج سلعة للناس يهمه طبعا أن ينتج ما يأخذه النـاس بسرعة . فهو لا يحاول أن يصنع ما هو اجمل . انما هو يتحرى : ما هو الذى يعتبره الجمهور جميلا .. ثم ينتجه له ، ليبيعه فى نطاق أوسع بدرجة أسرع . حتى ولو كان هذا المطلوب تافها أو قبيحا ..

ولكن الصناعة ، فيما أعتقد ، بدات تعانى حتى من هذا . ان الذوق ليس شيئا ثابتا . انه شىء متغير . والتغير فى الذوق يبدأ بين ذوى الحاسة الفنية المتفوقة ، ثم يبدأ فى الانتشار ، عن طريق الاقتناع والقدرة والتقليد . والصناعات عندما عزلت نفسها عن الفن ، واستبدلت به « دراسة السوق » ، انما عزلت نفسها عن الحاسة التى تسبق الى التذوق . وهكذا بدلا من أن تتقدم الى الامام درجة ، تراجعت درجة الى الوراء .

ومن نتائج هذا الوضع ، ما تراه من ازدياد وصعوبة تصدير السلع الامريكية الى الخارج وازدياد استيراد السلع الاجنبية الى أمريكا . ذلك ان الصناعة هبطت من حيث لا تشعر عن مستوى ذوق الشعب الامريكى .

نرى هذا فى مصنوعات الاثاث والزجاج والخزف والجلد، حيث هجر الامريكى صناعته الى المستحضرات الايطالية والفرنسية والسويدية .

ان البلد الفقير لا يتمنى أكثر من أن يصنع السلعة التى يستعملها . اما البلد الغنى فيجب ان يطلب شيئا اكثر من هذا : يطلب الجمال أيضا ! فى البداية يكون « الميكانيكى » هو المهم وعندما يتوفر الميكانيكى ... يأتى دور الفنان !

ثم انظروا الى المبانى والمدن فى امريكا . ان منطق المنافسة التجارية يسىء اليها . تصوروا مثلا ميدان سان مارك فى ايطاليا لو امتلأ باعلانات الكوكاكولا وشركات اسو وتكساكو وهوارد جونسن « محلات جيلاتى وسندويتشات منتشرة فى كل أنحاء الولايات المتحدة » ! ان هذا يحدث فى المدن الامريكية . فاذا اعترض واحد قالوا له انه رجل غير عملى ، وانه ينتقص من النظام الذى صنع لأمريكا كل هذا الرخاء !

ان الاعلان يقوم على لفت النظر . والشىء يلفت النظر حين يتعارض مع ما حوله ويشذ عنه .. وتصوروا ما يحدث من اجتماع عشرات الاشياء المتعارضة ، غير المنسجمة ، بل التى تتعمد عدم الانسجام ! !

ان المجتمع فى أمريكا مازال أقل تقبلا لفكرة التخطيط ، من أجل ايجاد التناسق بين الفنان والوسط المحيط به . اننا نقبل تحطيم الجمال اذا كان يبيع أكثر . الذين يفسدون جمال المدن ما زالوا يقولون انهم انما يخدمون الغاية العليا للمجتمع !

ان رجل الاعمال الامريكى ، كما استطاع ان يوفق بين مصلحته وبين ضرورات العلم .. أصبح عليه أن يوفق بين مصلحته وبين ضرورات الفن !

ويستطرد جالبريث فيقول : أن التقدم العلمى والصناعى ليس وحده الدليل على تقدم المجتمع ! ان التقدم الفنى والثقافى هام أيضا . ان المثقفين ما زالوا هم الذين يقولون الكلمة الاخيرة عن مدى تقدم هذا المجتمع أو ذاك !

وينتقد جالبريث ، بهذه المناسبة ، البرنامج الذى وضعته أمريكا لزيارة خروشوف مثلا : « لقد جعلوه يقابل الساسة ورجال المال والصناعة فقط . وبعض من رآهم لايمثلون الشعب الامريكي مطلقا . لقد جعلوه يرى المصانع الضخمة وكيزان الذرة الهائلة ولكنهم لم يرتبوا له أى مقابلة مع فنانين أو كتاب . لم يضعوا فى برنامجه زيارة متحف الفن الحديث أو متحف جوجنهايم « من أعظم وأحدث متاحف العالم » . لم يهيئوا له أن يرى آرثر ميلر ، أو تنيسى وليامز ، أو غيرهما من الكتاب المبدعين . لم ير أى مكتبة ضخمة ولا أىجامعة كبرى.

ويقولجالبريث : لاأعرف اذا كان هذا يهم خروشوف أو لا . ولكن حذف أمريكا لهذه الاشياء من برنامج الزيارة له معنى عميق . معناه ان القائمين على مثل هذا لايعرفون ان هذه أشياء عظيمة .. لها أكبر الاثر فى كسب احترام الآخرين !

قصة فاطمة

« فاطمـــة » هو الاسم الذى تعود الفرنسيون أن يرمزوا به للمرأة الجزائرية ، فالكاتب الفرنسى اذا قال « الفاطمات Les Fatmas » فهو يعنى : الجزائريات .

ومن الوهـــلة الاولى ، يندهش الزائر فى الجزائر لانتشار الحجاب و « الحايك » الى هذا الحد . الحجاب هو مثلث من القماش الابيض المطرز فى نهايته ، يغطى الوجه ، و « الحايك » هو الاسم المحلى للملاءة البيضاء الواسعة التى تلتف المرأة المتحجبة بها ..

يندهش الزائر لانتشار الحجاب و « الحايك » فى مجتمع قريب من أوروبا الى هـــذا الحد . وممتزج بالاوروبيين على هذا النطاق . فى مجتمع خاض غمار ثورة تقدمية لا نظير لها ، اشتهرت خلالها البطلات جنبا الى جنب الابطـــال .. وذاع صيت « الجميلات » أو بالاحرى « الفاطمات » اللائى يفجرن القنابل ، ويحملن المدافع الرشاشة ويصمدن للتعذيب الوحشى فى أعماق السجون .

فكيف صمد هذا الحجاب الحريرى الرقيق فى وجه كل هذه الاحداث ؟..

من حديثى مع الجزائريين والجزائريات ، ومن قراءتى لكتاب بديع اســـمه « الثورة الجزائرية فى عامها

الخامس » للمرحوم المناضل الدكتور فرانز فانون ، خرجت بالاجابات التى اسجلها فى هذا المقال ..

منـــذ سنة ١٩٣٠ تقريبا ، بدأت معركة الاستعمار الفرنسى ضد الحجاب .

ولم تكن معركة بريئة تستهدف تحرير المرأة وتطويرها بدليل عدم اهتمام الاستعمار بتحرير الرجل أوتطويره . بل بدليل اهتمام الاستعمار بعدم تحرير الرجل وبعدم تطويره .

ولــكن الفرنسيين كانوا قد وجدوا أن القضاء على الحجاب هو خطوة هامة للقضـــاء على « شخصـــية » الشعب الجزائرى ، بوصفه رمزا يدل على شخصيـــة المرأة الجزائرية وموقفها وحالتها الاجتماعية . ولاحظوا مرة أخرى ان هدف الاستعمار هناك لم يكن الاستغلال فقط بل ومحو الشخصـــية الجزائرية واذابتهـــا فى الشخصية الاوربية .

ولم يكن هـــذا قرارا « اداريا » اتخـــذته الادارة الفرنسية ، ولــكنه كان قرارا توصل اليه خبراء فرنسا فى العلوم النفسية والاجتماعية والســياسية .. وقد صاغوا قرارهم هذا فى عبارة شهيرة هى : « اكسبوا النساء أولا ، والبقية تتلو » .

وذلك ان خبراءهم قالوا لهم : ان المجتمع العربى بوجه عام اذا كانت تسوده فى الظاهر سلطة الأب ، فان الذى يؤثر فيه ويوجهه ــ فى الخفاء وخلف الحجب والأستار ــ سلطة الأم والخالة ، والجدة العجوز .

وبناء على ذلك فمَا على فرنسا الا أن « تغزو النساء أولا ، وبذلك تكسب عنصر المقاومة والعزلة والمقاطعة فى المجتمع الجزائرى » . على فرنسا أن « تفتش عن المرأة الجزائرية ، خلف حجابها ، وحيث يخفيها الرجل » .

ثم أن هذا سوف يكسب الادارة الاستعمارية صورة تقدمية . فهذه الادارة الاستعمارية سوف تدعو الى « تحرير » المرأة « المظلومة » .. « المضطهدة » .. « السجينة » خلف حجابها ، وخلف مشربيتها . انها فرصة ذهبية لوضع الرجل الجزائرى فى قفص الاتهام. وايقافه فى موقف « الظالم » .. « المتعسف » .. « المستبد » ..

كذلك فانها فرصة لالقاء تبعة التخلف والتأخر والفقر والامية ، لا على عاتق الاستعمار والاستغلال الاجنبى ولكن على عاتق « المجتمع » الجزائرى وعلاقاته الداخلية المتخلفة ..

كان المستعمر يعتقد ـ بوجه عام ـ انه كلما قل « الاختلاف » بين المجتمع الجزائرى والمجتمع الاوربى ، قلت مقاومة المجتمع الاول لسطوة الثانى ، وقلت قدرته على المقاومة ، والتمنع ، والرغبة فى الاحتفاظ بشخصيته الأصيلة ..

كانت الدعوى الاساسية للاستعمار الفرنسى فى الجزائر هى : انه لايوجد شىء اسمه شعب جزائرى . ولا يوجد شىء اسمه شخصية جزائرية . ولذلك فقد كانوا حريصين أولا وقبل كل شىء على تدمير كل ما يمكن أن يميز هذا المجتمع الجزائرى ويذكره بأن له شخصية مستقلة حتى ولو كان هذا المثلث الرقيق من القماش الابيض المشغول ..

وبالعكس ، كان المجتمع الجزائرى ، كلما اشتدت ضراوة الهجوم على ملامحه هذه ، لا يفكر الا فى أن يزداد تمسكا بها ، وتأكيدا لاستمرارها ..

وقد بلغ الهجوم الفرنسى على الحجاب درجة وصلت احيانا الى أن بعض المصانع والمؤسسات ذات الادارة

الفرنسية كانت تعمد الى اقامة حفلات تدعو فيها الجزائرى البسيط الذى يعمل فيها للحضور مع زوجته ، ويضغط رئيس العمل الفرنسى على مرءوسه الجزائرى « ان المصنع أسرة كبيرة يجب أن تحضر زوجتك وبناتك. هل هن محجبات ؟ مستحيل . يجب ! » ويتأزم الرجل الجزائرى . هل يحضرها الى الحفلة ، وبذلك يكون قد خضع لمشيئة الفرنسى .. وفيما يتعلق بزوجته بالذات. أم يقول له : « زوجتى لن تنزع الحجاب » ، ويفقد عمله ؟.. نعم . فقد كان أحيانا يفقد عمله لهذا السبب. وكان هذا الاصرار الفرنسى كافيا لأن يقنع الجزائرى ــ والجزائرية ــ ان نزع الحجاب عمل مشبوه ..

أما بالنسبة للجزائرى المثقف ، فالحملة أشد . فالفرنسى كان يعرف جيدا أن الجزائرى المثقف لايؤمن بالحجاب كحقيقة اجتماعية ، ولا يوافق من حيث المبدأ على استمراره ، ولذلك فلا تفسير لموقف هذا الجزائرى حين يصر على بقاء زوجته محجبة الا انه رجل « وطنى » متعصب وانه فى باطنه شديد الكراهية للاستعمار ، لأنه يحتفظ بالحجاب لأسباب وطنية عارية .

فاذا تركنا الاوروبى المشترك عامدا فى هذه الحملة على الحجاب ، وحاولنا أن نعرف موقف الاوروبى العادى منه .. فسوف نجده غريبا بدوره . فالمحامى أوالطبيب الاوروبى الذى يرى ــ بحكم مهنته ــ بضع جزائريات سافرات ، لا يمل من التعجب أمام مجتمعه من هؤلاء الناس . ان المجتمع الاوروبى حين يمتلك جمالا أو اتقانا من صنع الطبيعة ، يعمد الى اظهاره وابرازه ، والتباهى به .. فكيف يفسر موقف هذا الشعب العكسى ، واخفاءه لما يتمتع به من جمال ، خلف هذا الستار الكثيف من التحجب والكتمان ..

او يكون رد الفعل ، على العكس ، معاديا يثير فى الاوروبى الغيظ والحفيظة والرغبة فى الاعتداء : يجب نزع حجاب هـــذه المرأة ، يجب تعرية سرها وتحطيم مقاومتها ، وجعلها مجالا للمغامرة . أن اخفـاء الوجه لا معنى له الا اخفاء سر ، واقامة عالم مصمم على أن يظل رافضا منفصلا .

هذه المرأة التي ترى المستعمر دون أن يراها ، تثير أعصابه . ليس فى هـــذا الوضع أى مســاواة . انها لا تستسلم ، لا تهادن ، لا تعطى .
والاستعمار الفرنسي ، ودخول جنـــوده الى القرى الجزائرية ، اقترن منـــذ بدايته الاولى بالاعتــداء على النسـاء ، مما جعل لهذا التشبث بالعبــاءة والحجاب سببا تاريخيا خاصا ..

ولهذا ظلت امكانيات اللقاء بين الجزائرية والاوروبى – على المستوى الفردى – نادرة الى أقصى الحدود . ولهذا فالاوروبى كان اذا ساورته أحلام يقظة عن المرأة الجزائرية ، لم يخطر له قط أى حلم عن لقاء فردى ، عادى مع جزائرية ، كلقائه مع الاوروبية . لقـــاء فيه تدرج ، وتطور ، ومعرفة. كلا كانت أحلامه عن الجزائرية يعرف انهـــــا لن تتحقق الا بدرجة عالية من العنف ، والقسوة ، فلا أسلوب هناك يوصله الى هذا اللقاء الا الاغتصاب .
ازاء كل هذا الموقف الاوروبى المريض المعقد ، الفاسد ، الشاذ .. وازاء التاريخ الطويل ، وازاء الاغتصـــــاب والانتهاك والتدمير ، وازاء الرغبة فى محو الشـــخصية الجزائرية محوا نهائيا .. ازاء هذا كله .. اكتسبت هذه الرموز الميتة .. الحجاب والحايك .. حيـاة جديدة ، واصبح لها مغزى جديد ..

ازاء تركيز الاستعمار ضد الحجاب عمد الوطنيون الى تقديس الحجاب .
ازاء محاولة الاســتعمار نزع الحجاب كدليل على « التعايش السلمى» بين المجتمعين الاوروبى والجزائرى ، احتفظ الجزائريون بالحجاب كدليل على المقاومة السلبية للمجتمع الاوروبى .
وهكذا .. بعد ان كان الحجاب شيئا يعبر عن موقف المرأة من الرجل .. أصبح رمزا على موقفها – بل وموقف أسرتها – من الاحتلال .
فى هذا الجو النفسى والسياسى معا ، انفجرت الثورة التحريرية الخالدة ، يوم أول نوفمبر سنة ١٩٥٤ .
ثورة قوميـــة ، فهى بالتالى تحافظ على مقومات الشعب ، وتنمى شخصيتـه ، وتعتز بكل ما له من تراث ..
وثورة تقدميـــة ، فهى بالتالى تعرف ان الحجاب منقرض .. والعباءة منقرضة .. وان التطور لابد آخذ طريقه ..
فماذا حدث ؟
حتى سنة ١٩٥٥ كانت الثورة الجزائرية ثورة الرجل فقط . فالطابع الثورى الفدائى لهذه الثورة فى أيامها الاولى ، والحاجة الى السرية المطلقة ، جعلت المناضل يخفى عن زوجته – تماما – العمل الخطير الذى يشترك فيه . ولـكن تطور الثورة أدى الى تطور اشكال الارهاب الفرنسى وبالتالى أصبحت الحاجة ماســة الى تطوير أساليب النضال ذاتها . لم يعد هناك بد ازاء تشبث العدو ووحشيتـه من الحرب الشاملة ، الحرب التى لا تستثنى أى عنصر أساسى من عناصر الأمة .. وهكذا برزت ضرورة اشراك المرأة الجزائرية فى المعركة . ولم يكن هذا القرار سهلا .

كان لابد من تحقيق هدفين : الاول اشراك المرأة فى المعركة . والثانى هو الاحتفاظ للمعركة بمستواها العالى من الاستعداد للتضحية والفداء وتحمل كل آلام الكفاح الهائل . أى ان المرأة سيكون عليها أن تقدم نفس ما يقدمه الرجل من تضحيات .

كيف ؟ ..

كيف تواجه المرأة الجزائرية المستعمر ، وتتصدى له ، وهى التى تربت — كما رأينا — على أن تتجنبه ؟

المرأة التى تعودت الحجاب ، وجدار البيت ، وأمان العزلة .. كيف تتحمل مواجهة السفور ، والطريق المزدحم ، والخطر المتربص ، والمكائد ، والطلقات القاتلة ، بهذه السرعة ؟

وقد رأى رجال الثورة وحشية المستعمر.. اذ مروا جميعا بسجونه ، ومعسكرات اعتقاله ، وغرف التعذيب فيها .. ولن يتردد المستعمر فى ارتكاب نفس الوحشية مع النساء .. المرأة التى تقع سوف تعذب بالتأكيد حتى الموت ، كالرجل تماما .

الا يمكن أن يكون قرار ادخالها المعركة ذا أثر قاتل على الثورة ذاتها ؟..

ان المرأة الجزائرية لم تدرب على القتال كالرجل . لم يسبق لها مواجهة الموت فى صفوف الجيش الفرنسى كبعض المناضلين . لم تفكر قط فى العمل السرى . بل انها لم تقرأ قصص البطولة فى الروايات ولم تشاهدها فى السينما حتى يقال انها إندفعت وراء الخيال .. لا شيء من هذا قط . ومع ذلك فقد فوجىء العالم بهذه المرأة تخرج دون أى سابقة ، وفى طيات ثيابها قنابل يدوية ، أو رسالة سرية ، تواجه أقسى تجربة : تجربة المتآمر الوحيد ، فى الشارع الصاخب المزدحم ، الذي

يعج بالجنود ، وبنظرات الأعداء الفاحصـــة .. أقسى تجربة يمكن أن تتعرض لها الأعصاب .

ان الثورة ــ فى تطورها ــ تحتاج الى مهمات جماعية كثيرة غير القتال فى ساحات القتـــال . جمع الأموال ، التدريب ، التجسس ومقاومة التجسس ، نشر الوعى السياسى ، تكوين التشكيلات السرية الواسعة ، اعداد ثلاث خلايا بمثابة احتياطى لـكل خلية تناضل فعلا ، لتحل محلها اذا ضربت أو انكشفت .. كل هذا أجبر رجال الثورة على البحث عن عنصر جديد يقوم بالمهمات ذات الطابع الفردى . وهكذا تقرر ، بعد تردد طويل ، أن تدخل المرأة ساحة النضال والشرف .

وفى البدء تقرر ألا يشترك فى التنظيمـــات السرية الا النساء المتزوجات من مناضلين . ثم أدى اتساع الثورة الى اشراك الأرامل والمطلقـــات . ثم كل النساء دون الفتيـــات . لأن البنت الجزائرية التى لم تتزوج قلما يكون قد سبق لها الخروج الى الشارع على الاطلاق . ولـكن الفتيات بدأن يتطوعن بكثرة ، ويثرن اذا رفض تطوعهن . ويروى شهود العيان ان البنات الصغيرات فى ذلك الوقت كن يجتمعن ويقسمن أن لايتزوجن الا اذا كان العريس عضوا فى جبهة التحرير!.. وهكذا اتسعت الثورة فشملت كل نساء الجزائر ، دون قيـــد ، كما شملت من قبل كل رجالها .

وفى البدء ، كانت المرأة المناضلة تقوم بمهمة ضابطة اتصال بين خلايا أو ناقلة لرسائل ومعلومات ، أو حاملة لمتفجرات أو بطاقات شخصية مزورة بالمئات ، أو أموال الثورة بالآلاف ، أو تقوم بمهمة السير فى الطريق بضع عشرات من الامتار أمام مناضل رئيسى أو فرقة من المناضلين لتسرع بتحذيرهم اذا اكتشفت حركة غير عادية

أو كمينا معدا .. كانت المرأة تقوم بكل هذا وهى مازالت فى حجابها وعباءتها التقليديتين .. ولكن ضراوة المعركة كسرت كل قيد .. لم يعد حى « القصبـــة » حصنا طبيعيا للنساء . لقد اقتحم الغزاة حى القصـــبة كما أصبح على المناضلين أن يقتحموا أحياء الغزاة ..

ان الاوروبيين والجزائريين لايعيشـــون مختلطين . ولكن كلا من الفريقين له احياء خاصة به تماما . وعلى ذلك فالمرأة التى تؤدى مهمة فى حى أوروبى ، اذا لبست عباءة أو حجابا فسوف تلفت الانظار .. وسوف تسقط فى الحال .. لابد لها أن تسير فى الزحام كما تســـير الاوروبيات ، حتى لايعرف حقيقتها أحد . لابد اذن أن تخلع الحجاب والعباءة ، خصوصا اذا كانت شقراء حتى يحسبوها فرنسية عابرة .

لم تكن المرأة الجزائرية تعبر الاحياء الاوروبية قبـــل الثورة قط الا لضرورة ماسة كالذهاب الى المقـــابر فى أقصى المدينة اذا مات أحد ، ويومها تعبر الحى الاوروبى فى سيارة ، وفى الصباح الباكر جدا على الاغلب ، لأنها تعبر أرضا حراما ، تخشاها . فالآن عليهـــا أن تخلع حجابها وتقتحمها وحيدة ، متخفية ، فى طيـــات ثيابها حيثيات عذابها وموتها ...

وفى بعض الاحيـــان ، كان يحدث أن يقع على عاتق امرأة جزائرية لم تعرف القراءة والكتابة قط ، ان تذاكر بضعة أيام متواصلة تعليمات دقيقة معقدة ، حتى تحفظها شفويا عن ظهر قلب ، ثم تخترق بها — فى ذاكرتها — الاحياء الاوروبية ، لتصل الى خليـــة اخرى فى أقصى المدينة تبلغها التعليمات المعقدة ، التى قد تؤدى غلطة واحدة فيها الى ارتباكات خطـــيرة ، ثم تعود ، حتى لا تحمل ورقة تدينها أو تكشف اتصالاتها ..

وقد يحدث أن يكون على فتاة الا تبتعد كثيرا عن مبنى معين يجتمع فى داخله المناضلون حتى تنبههم الى الخطر وعليها أيضا الا تقف ساكتة حتى لا تلفت النظر .. فلا يكون أمامها مفر من ان تتمشى على الرصيف على طريقة بائعة الهوى الاوروبية التى تنتظر زبونا يلتقطها. وتشعر فى باطنها بالخجل الهائل ، بل الرعب ، وتحتاج مع ذلك الى كل أعصابها لـكى تتحاشى الزبائن الذين يظنونها بالفعل بائعة هوى ولـكى ترى كل صغيرة وكبيرة تدور فى الطريق الساكن أو المزدحم .

وعنـــدما مرت الســـنوات ، كان كل الجزائريين « الخطرين » فى أى مدينة من المدن قد أصبحوا معروفين للبوليس الفرنسى ، فاذا مر واحـــد منهم فى الطريق فتشوه اكثر من مرة . لهذا ابتكرت طريقة أن يســير المناضل الذاهب الى مهمة مسلحة ، دون أن يحمل أى سلاح.. الى مقهى سينسفه بقنبلة مثلا أو مكان يحتشد فيه الجنود الفرنسيون سيطلق عليه مدفعه الرشاش.. اما السلاح فتحمله فتاة جزائرية بريئة ذات مظهر عادى ولا يفكر البوليس فى خطرها .. وفى لحظة معينة وفى نقطة قريبة من مكان العمل المسلح ، تسلم الفتاة السلاح للرجل ، الذى يستخدمه خلال لحظات فى اداء المهمة . هذه الفتاة تكون أشبه بقائد الاوركسترا . فهى التى تستطلع ، وتقيس الخطر ، وتتصرف . لأن الاستشارة مستحيلة . تتصرف سواء بأن تسلم السلاح للرجال فلا يكون ثمة مجال للتراجع عن المخاطرة ، او تتصرف بالعودة بسلاحها اذا اكتشفت أن الظروف غير ملائمة .

هكذا وصلت المرأة الجزائرية الى قلب عمليات النضال المسلح ذاتها . وأصبح الكثير من خطط المقاومة يعتمد أساسا عليها . ولم تمض سنوات قليلة حتى خطت المرأة

الجزائرية خطوتها الاخيرة : أصبحت تقوم هى بنفسها بتفجير القنـــابل بين البوليس الفرنسى ، وضـــباط الباراشـــوت ، ومراكز تجمع المستعمرين ، وحتى فى العلاقات الاجتماعية ذاتها ، حدث تغير كبير .

كانت المرأة ــ الزوجة ــ تترك بيتها وتسافر فى مهمات بعيدة أياما طويلة ومعنى هذا أن تسافر بمفردها وتبيت فى عربة القطار بين ناس لا تعرفهم ، وتقضى الليالى فى معسكر سرى للجنود . أو يسافر الرجل المناضل ويترك فى البيت مع العائلة رجلا غريبا ومناضلا آخر مختفيا حيث لايعرف مكانه أحد . ويكون على المرأة وأولادها أن يخفوا سره ويقوموا على طعامه والعناية به حتى يعود الأب ..

علاقات انسانية جديدة ، جديدة تماما على البيت الجزائرى المحجب ، المنفصل ، أحاطتها الثقة والشرف والفداء .. وحررت النفسية الجزائرية تحريرا سليما عميقا ..

ولعل من اللحظات التى لا تنسى ، تلك الايام الاولى لدخول المرأة ساحة النضال .. حين كان النـــاس يصادفون فتاة جزائرية يعرفونها تسير سافرة ، دون أن يعرفوا انها فى مهمة . فيتهامسون عن سيرتها وعن تقليدها للفرنسيات . ويصل الهمس الى الأب . وحين يواجهها الأب بغضبته ، يكتشف بعد اللحظة الاولى ــ من عينيها ــ ان الأمر ليس أمر سفور . انما الأمر هو ان ابنته الشابة قد دخلت التنظيم السرى . ويحل محل خوف الأب التقليدى على سمعة ابنته خوف من نوع جديد .. خوف عليها من الموت ، أو من التعـــذيب الرهيب ، وفى أيام تصبح الأسرة كلها ، بما فيها الأب القديم صـــاحب الأمر والنهى ، واقفة خلف البنت

الشابة ، كل أعصابها مشدودة اليها ، ويكون التطور الطبيعي : أن تصبح الأسرة كلها أعضاء في التنظيم السري .. بعد أن دخلته « أضعف » عناصر الأسرة ...

هكذا ، فوق موج الأحداث ، دخلت الجزائر كلها ، رجالها ونساؤها وأطفالها ، بوتقة الثورة ، لتصهرها الأحداث ، كما لم تصهر قبلها شعبا عربيا قط !

وأصبح جنود الاستعمار يطاردون الجميع : السافرة والمحجبة .. والجزائرية التي تشبه الاوروبيات ، والاوروبية التي تشبه الجزائريات ..

كان عذاب نساء الجزائر شديدا ..

وكان يأس جنود الاستعمار أشد ..

وقد كانت « صحوة الموت » بالنسبة للاستعمار الفرنسي في الجزائر هي : ثورة المستوطنين في ١٣ مايو .. واسقاط الجمهورية الرابعة في فرنسا ..واستيلاء ديجول على الحكم ..

يومها فتش الاستعمار في دفاتره القديمة عن كل سلاح مفلول ، يحاول أن يجربه لآخر مرة . ومن بينها سلاح السفور وتحرير المرأة الجزائرية ..

وعقد سوستيل اجتماعات « شعبية » سيق اليها الناس بالقوة . وخطب داعيا الى تحرير المرأة . وتحت ضغط السلاح اكرهت بعض النساء على خلع الحجاب في حركة مسرحية أمام الجماهير بعد الخطاب .

وكان هذا الحادث كله كأنه كلمة سر . ففي اليوم التالي لم تظهر امرأة جزائرية واحدة في الطريق سافرة . حتى اللواتي كن قد أسفرن عن وجوههن عدن الى الحجاب .. كأنهن يقلن للمستعمر ان المرأة الجزائرية لا تخلع حجابها بدعوة من المستعمر الفاجر ! ولكنها تخلعه في ساحة القتال .. أو في وطن مستقل حر !

من هم الذين ينجحون في الحياة .. ولماذا ؟

لماذا يتقدم شخص ويتأخر شخص آخر ؟.. مهن المحاماة والهندسة والمحاسبة .. هل كل منها له عصر ؟ متى يبرز ذوو الاعصاب الثائرة ومتى يبرز ذوو الاعصاب الهادئة ؟ .. « المحلل » مهنة من ابرز المهن فى هـذا العصر .. فما هى بالضبط ؟ .. كيف حلت عبقرية « التنظيم السياسى » فى العصر العلمى محل عبقرية «الفصاحة» و «الخطابة» ؟ .. هناك حقائق انسانية .. تتغير فيها أجزاء وتبقى منها أجزاء !.. وهـذا كتاب طريف وهام معا .. الترجمة الحرفية لعنوانه هى : « من يملك ماذا ؟ ومتى ؟ وكيف ؟ »

وهو للمؤلف الامريكى هارولد لاسويل !

وموضوعه موضوع خالد ، هو : مكان كل فرد فى المجتمع .. على ضوء ثروته .. أو مهارته .. أو الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها .. أو مزاجه الشخصى..

يقول المؤلف : ان « صاحب النفوذ » أو « الشخص القوى » .. هو ذلك الشخص الذى يحصل على اكبر كمية ممكنة من الاشياء التى يمكن الحصول عليها .

الاشياء التى يمكن أن يحصل عليها الانسان ــ مادية ومعنوية ــ تتركز آخر الأمر فى ثلاثة أشياء أساسية هى : الأهمية ..

والثراء ..
والأمن ! ..
والذين يحصلون على القدر الأكبر من هـذه الاشياء هم « النخبة » ..
ولنبدأ بعنصر « الأهمية » مثلا ..
ان توزيع « الأهمية » بين الناس واضح لا يحتاج الى بيان . وهو شيء بديهى ، بل حتمى ، يوجد فى كل مجتمع وتحت أى نظام من الـكنيسة الـكاثوليكية الى الحزب الشيوعى السوفييتى .. والفرق فى درجـــة التركيز فقط ... أى فى مدى تركيز الأهمية فى أيدى افراد قليلين أو توزيعها على عدد أكبر نسبيا من الناس

الكنيسة الكاثوليكية مثلا .. على ضخامتها وانتشار رعاياها فى أنحاء العالم .. يرأسها عدد قليل نسبيا . فهناك « بابا » واحد فقط ، يليه ٥٥ كاردينالا ، ثم ٢٢ مندوبا بابويا ، ثم ٢٤٥ اسقفا .

والحزب الشيوعى السوفييتى ، أكبر حزب حاكم فى العالم ، هرم الأهمية فيه ساحق الانحدار ، ينتهى الى قمة شاهقة ، هى المكتب السياسى للحزب ، الذى كان عدد أعضائه عادة لايزيد على تسعة أعضاء ، وفى بلد ذى نظام اجتماعى مختلف، كالولايات المتحدة الامريكية ، نجد فى قمة بناء الأهمية فيه رئيسا واحدا للجمهورية ، وتسعة هم أعضاء المحكمة الاتحادية العليا ، ومئات قليلة هم أعضاء الكونجرس بمجلسيه .
فالتدرج الاجتماعى من حيث « الأهميـــة » اذن واضح .. وهو عادة يتركب فى صـورة هرم شـــديد الانحدار ..
الشيء الثانى الذى يمكن أن يحصل عليه الناس ـ بعد الأهمية ـ هو « الأمن » وهو مدى استقرار الفرد

فى حياته واطمئنانه الى مصيره ومستقبله ، وعدم تعرضه للهزات ، ان « الامن » دائما مطلب عميق فى نفوس الناس .. اى شيء يحصلون عليه لا تكون له قيمة ما لم يكن مستمرا أو قابلا للاستمرار .

وهنا نجد أن توزيع « الامن » بين الناس يبدو غريبا بعض الشيء . فليس أقوى الناس او اغناهم أو اهمهم هو بالضرورة أكثرهم أمنا .

لقد أجرى المؤلف احصاء بعدد الملوك فى العالم خلال فترة تاريخية معينة فوجد أن عددهم ٤٣٩ ملكا . ظهر أن ٣٢٪ منهم ماتوا ميتة غير طبيعيـــة .. فى حين أن نسبة الموت غير الطبيعى بين الناس العاديين البسطاء أقل من هذا بكثير جدا .. بل ان ٩ ٪ من البابوات الكاثوليك ـ رغم ان أهميتهم دينية لا دنيوية ـ ماتوا بالعنف وهى أيضا أعلى من نسبة الموت بالعنف بين الناس العاديين .

ونسبة توافر الامن للناس ـ بوجه عام ـ تختلف من عصر الى عصر .. حسب حالة الحروب والأوبئة والمجاعات والاضطرابات الاجتماعية .

الشيء الثالث هو الثراء .. ونحن نعرف جميعا أن الثراء ليس موزعا بين الناس بالتساوى . واننا فى بعض البلاد قد نجد ١٠ ٪ فقط من السكان يملكون ٧٠ ٪ مثلا من ثروة البلد .

هذا هو التقسيم العام .

ومنه نرى ان صاحب القوة أو صاحب النفوذ هو الذى يتمتع بقسط أكبر من هـــذا المزيج الثـلاثى : الاهمية ، والثروة ، والامن .

ولكن حظوظ الناس فى الحياة لا تختلف طبقا لاختلاف هـــذه القيم فقط .. ولــكن هناك اشياء كثيرة يؤدى

توافرها أو عدم توافرها الى وضع الافراد فى هذا المكان أو ذاك . والى تمتع الفرد بقسط كبير او بسيط من الأهمية والثروة والامن .

هناك المهارة مثلا ..

المهارة فى أى فرع من فروع الحياة .

ولكن ليس كل المهرة سواء . فهناك فروع من الحياة تدفع الماهر فيها الى الامام بعكس فروع أخرى. والأمر يتوقف أيضا على الظروف التاريخية والاجتماعية. فان الفرع الذى قد يكون مهما فى وقت من الاوقات ، كثيرا ما تقل أهميته فى وقت آخر .

المهارة فى الحرب مثلا ، كانت دائما احدى المهارات البارزة التى تقود الناس الى القمة بسرعة.. سواء كانت الحرب فى سبيل الله أو الأمة أو الطبقة . ولكن هذا كان يقتضى أن تكون المرحلة مرحلة حروب واصطدام عسكرى. فبغير هذا لا يصعد أصحاب المهارة العسكرية الى القمة ، مهما كانت درجة مهارتهم .

وهناك المهارة فى التنظيم السياسى انها تكاد تكون أبرز أنواع المهارة التى تقرر حظ الانسان من الأهمية على الأقل . ويضرب المؤلف مثلا بالصراع الفذ الذى دار بين ستالين وتروتسكى ، والذى كتب النجاح فيه للأكثر عبقرية فى التنظيم والتكتيك السياسى ، وهو ستالين . رغم ان تروتسكى مثلا ، أكثر فصاحة وأنصع بلاغة وأوسع ثقافة من ستالين . فقديما كان التقدم فى السياسة يتوقف على المهارة فى الخطابة والكتابة والاثارة أما الآن فهو يتوقف على المهارة فى التنظيم السياسى ، وفى الفهم المذهبى معا .

واذا استبعدنا هذه المهن ــ مهن الحرب والسياسة ــ ونظرنا الى مهن الحياة العادية الشائعة .. الطب

والمحاماة ، والهندسة ، والزراعة ، والصناعة ، الى آخره ، نجد أن المهارة فى الحرفة التى يعيش منها الفرد من أهم العوامل التى تحدد مركزه ووضعه الاجتماعى. ولكن هذه المهن نفسها تختلف من عصر الى عصر .

ففى بعض العصور .. نلاحظ ان مهنة المحاماة مثلا تفوق سائر المهن . فى بلادنا كانت هى الطريق الأسرع الى مناصب الحكم والسياسة والاقتصاد والنفوذ من اى لون ، ذلك ان المحاماة تغلب فى المجتمعات التى تطالب بحريتها . أما فى البلاد التى تمر بمراحل البناء مثلا فاننا نجد أن مهنا أخرى تصبح أنجح فى دفع صاحبها الى المقدمة ..

ولكن رجال الهندسة والزراعة والمحاسبة فى نفس الوقت ، مهما برزوا ومهما نالوا من الثراء أو الأهمية الا انهم من النادر جدا أن يصبحوا من « معبودى الجماهير » .

ومن الاعتبارات الهامة جدا التى تؤثر أثرا حاسما فى تحديد حظوظ الناس : الطبقة الاجتماعية التى يولدون فيها .. وينتمون اليها ..

ففى بعض العصور والبلاد .. حيث يسود النظام الارستقراطى والعائلى .. نجد أن أبناء الطبقة الارستقراطية هم الذين ينالون أكبر قسط من الاشياء الثلاثة : «الاهمية ، والثراء ، والامن» مهما كانت حرفتهم أو مهارتهم .. أو عدم حرفتهم وعدم مهارتهم !..

فى دراسة لهارولد لاسكى .. يقول : انه من بين السبعين وزيرا الذين تولوا الحكم فى بريطانيا من سنة ١٨٠١ الى سنة ١٨٣١ يوجد ٥٢ وزيرا من أبناء النبلاء !

وفى وزراء الفترة بين سنة ١٩٠٦ وسنة ١٩١٦ ، تساوى عدد أبناء النبلاء بأبناء سائر الطبقات .. اى

اصبح الوزراء أبناء الطبقة الارستقراطية ٥٠ ٪ بعد أن كانوا ٧٥ ٪ « مع ملاحظة قلة عدد أفراد الطبقة الارستقراطية نفسها». وبين سنة ١٩١٧ وسنة ١٩٢٤ «بعد الحرب الاولى» هبطت نسبتهم الى ٢٥ ٪ فقط.. وهكذا ! ..

وفى اليابان .. عندما قامت الثورة الصناعية ، لم يمتلك الصناعة أبناء طبقة جديدة . انما امتلكها أبناء الطبقة الاقطاعية ذاتها التى تملك الارض اذ كانوا مستعدين ـ بما لديهم من ثراء ـ لتسلم وامتلاك مصدر الثروة الجديد .

ويمضى المؤلف فى التقسيم والتفتيت الى أبعد من هذا ..

انه ليس الطبقة ولا المهنة ولا المهارة فقط هى التى تحدد حظ الفرد من الأهمية والامن والثراء .. ان المزاج الشخصى أيضا له أثر .

ذلك ان كل مرحلة معينة تحتاج الى مزاج خاص .

فى فترات الهياج والغليان والسخط مثلا .. يبرز زعماء من ذوى الاعصاب الملتهبة .. زعماء لديهم قدرة التهييج واثارة السخط ورفع درجة الحماسة .. فى حين أنه فى فترة ما بين الأزمات أو فترات البناء يبحث الناس عن زعيم هادىء الاعصاب يوحى اليهم بالثقة .

ويضرب المؤلف المثل مرة أخرى بالتاريخ الانجليزى القريب ..

فحين ثارت عاصفة هتلر والحرب، تخلى «تشمبرلن» التاجر الهادىء الطبع عن مركزه لتشرشل المغامر الحاد المزاج الحماسى النزعة . وحين انتهت الحرب ، أسقط الشعب تشرشل وأتى بأتلى الهادىء الاعصاب البارد الطبع للاصلاح والترميم !

وقد رويت عن المؤلف منذ قليل : أن الزراعيين ، والمهندسين ، والمحاسبين ، وأصحاب المهن المشابهة ، مهما نالوا من تقدم وبروز ، ليسوا عادة الفئة التى تكون من « معبودى الجماهير » أى الذين يتمتعون بحب شعبى عارم لهم .

لماذا ؟ ..

يقول المؤلف ان هناك أناسا مهمتهم التخصص فى « الاشياء » كالصناعة ، والزراعة ، والطب .. وهناك اناس مهمتهم التخصص فى « المعانى » التى تملأ احلام الجماهير .. كالزعماء السياسيين والكتاب والفنانين . ان هؤلاء يمثلون « معانى » و « رموزا » فى حياة الجماهير . لذلك فهم يتمتعون بالحب أو الكراهية ، بالتأييد الشديد أو العداء الشديد .

فى المجتمعات التى تؤمن بالخرافة نجد أن حملة « المعانى » و « الرموز » هم الرجال المتخصصون فى « الطقوس » الدينية . ثم أصبحوا رجال السياسة والمعبرين عن السياسة والافكار السياسية سواء كانوا زعماء أو مفكرين أو فلاسفة . ويذكر المؤلف ان أول كرسى فى جامعات امريكا لتدريس العلوم السياسية أنشىء سنة ١٨١٨ فقط ، وقبل ذلك كانت السياسة والاقتصاد يدرسان مع الكيمياء فى مادة واحدة ! ..

وهناك مهنة جديدة فى حياة الانسانية ، أصبح أصحابها يتمتعون بفرصة كبرى للنجاح والتقدم الاجتماعى .

انها مهنة « المحلل » .. الـذى يبرع فى تحليل العلاقات الاجتماعية من اى ناحية . المحلل السياسى ، والمحلل الاقتصادى ، والمحلل الاجتماعى

يقول المؤلف : ان « المحلل » فى هذا العصر العلمى

يشغل مكان « المتنبىء » و « المنجم » فى عصر الخرافات.

قيمة كل منهما انه «يقرأ المستقبل» اذا صح التعبير! أى أن يفرش الطريق أمام اتخاذ القرارات ذات التاثير المستقبلى ! ..

كان « المتنبىء » أو « المنجم » فى عصر الخرافات يحظى بأهمية كبيرة .. ولكن « قراءته للمستقبل » كانت كلها من وحى الخرافة .

أما الآن « فقراءة المستقبل » ، والتنبؤ بالاحداث ، وبرد الفعل المنتظر .. لكل حادث أو قرار .. تحتاج الى ثقافة واسعة جدا وعميقة جـــدا ودراية بالواقـــع الاجتماعى وبعشرات الاعتبارات الاخـــرى ، فالمحلل أو الخبير فى العلاقات الاجتماعية سواء كانت سياسيه أو اقتصادية أو نفسية يحظى بأهمية كبيرة !

وبعد ..

لقد قلت فى أول المقال .. ان هناك حقائق انسانية تتغير فيها أجزاء .. وتبقى اجزاء .. !

ومن هذا النوع : تلك الموضوعات التى يطرقها هذا الـكتاب .

ان مكان كل فرد فى المجتمع سيظل دائما موضـــع صراع وكفاح ، وموضع حرص كل فرد ونضاله وجهده .. فبهذا تتقدم الحياة ، بل تستمر .

صـــحيح أن هناك عوامل يقل أثرها .. كالطبـــقة الاجتماعية .. التى يقل اثرها بتحطيم الحواجز الطبقية .. ثم بالغاء الفوارق الطبقية . وشيوع الملكية العامة للعناصر الاساسية المؤثرة فى حياة المجتمع .. ولـكن هناك عوامل ستبقى .. كالميـــل الشخصى ، والطبيعة المزاجية والجهد والمهارة .. فبهذا يستمر طعم الحياة المتجدد ..

الاشتراكية الوطنية
وسقوط الرايخ الثالث

من أهم الكتب التي صدرت عن مأساة النازية فى المانيا كتاب « قيام وسقوط الرايخ الثالث » ، وهو كتاب من ١٢٤٥ صفحة من القطع الكبير ، يروى قصة هتلر والحزب النازى والنظام الاستبدادى الفذ الذى فرضه هتلر على شعب ذكى متحضر عريق كالشعب الالمانى ، والنهاية التى انتهى اليها هتلر ، ونظامه ، وشعبه ، كنتيجة منطقية لمثل هذا النظام .

وعندما صدر هذا الكتاب سنة ١٩٦١ ، أثار من الضجة والجدل أكثر مما أثاره أى كتاب سياسى آخر فى تلك السنة . وأعنف هذا الجدل كان فى المانيا بالذات. فالمؤلف امريكى . والمانيا هى موضوع الكتاب . والكتاب لا يجعل النازية جريمة فردية ارتكبها هتلر وأفراد آخرون ، ولكنه يصورها على انها جريمة جماعية ارتكبتها فئات ومؤسسات وقوى اجتماعية عريقة فى المانيا . يضاف الى ذلك ان الكتاب صدر فى وقت اشتد فيه الخلاف بين المعسكر الشيوعى والمعسكر الرأسمالى بسبب المانيا بالذات ، واحس فيه العالم انه اذا كان هناك احتمال لقيام حرب عالمية ثالثة ، فأغلب الظن ان المانيا ، للمرة الثالثة ، سوف تكون السبب . لكل هذه الاسباب كان الرأى العام الالمانى حساسا جدا وهو يقرأ

هذا الكتاب . وكانت الصحافة الالمانية عنيفة جدا وهى تهاجمه وتهاجم مؤلفه . ولأول مرة نجد السفارات الالمانية فى أنحاء العالم تطبع نشرات تهاجم فيها الكتاب ومؤلفه !

ولاشك ان من يقرأ الكتاب ويستخلص منه حكما بالادانة على الشعب الالمانى ، يكون مخطئا . صحيح ان الشعوب تختلف فى كثير من سماتها وملامحها . ولكن ليس صحيحا ان هناك شعبا من صفاته الاستبداد وقبول الطغيان وشعبا آخر من صفاته حب الحرية والمساواة. ان حب الحرية والمساواة صفة غريزية فى كل فرد من البشر بوصفه انسانا . ولكن الظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية هى التى تجعل هذا الشعب أو ذاك يقع صريع نظام استبدادى ، بل ويتقبله . لو اننا جردنا أى فرد من كل الظروف التى تصنعه ، وهو فرض نظرى لايمكن أن يتحقق فى الحياة الواقعية ، لوجدناه نفسا جياشة بحب الحرية والمساواة ، تماما كما انه جسد حى لايمكن أن تعيش خلاياه دون طعام أو غذاء . وقد نجد فردا أو شعبا تعود على حياة الجوع والشظف والحرمان ، ولكننا لا نستنتج من ذلك ان هذا الشعب يحب الجوع ويستسلم للشظف والحرمان . كذلك فاننا حين نجد شعبا أوقعته الظروف بين أنياب نظام استبدادى وحشى لحقبة من الزمن ، يجب ألا نستنتج من هذا إنه شعب من طبيعته أن يقبل الاستبداد ويسلس قياده للطغيان ..

والذى يؤيد هذا المنطق هو اننا نكاد لا نجد شعبا واحدا لم يعرف تاريخه ساعات من الانطلاق والحرية ، وساعات من القهر والطغيان .

والتجربة الانسانية التعيسة حين تحدث فى بلد من

البلاد ، فهذا البلد فى الواقع يفدى سائر البلاد ! ذلك ان فشل التجربة فى بلد يجعل البلاد الاخرى تتجنب تكرار النموذج البشع . وهكذا فنحن نلاحظ انه حين كان هتلر فى أوج سلطته ، والنازية فى قمة نجاحها المظهرى الاول ، لم يكن هناك بلد فى العالم يخلو من زعيم يحاول أن يكون « هتلر » ومن حركة تحاول أن تكون حكومة نازية . ولكن انهيار النازية الرهيب فى المانيا ، والآلام التى صبتها على شعب المانيا ، والبشاعات التى تكشفت بعد سقوطها ، كل هذا أدى الى اختفاء هـذه الحركات النازية من كل أنحاء العالم تلقائيا تقريبا . فكما ان التجربة النافعة تصبح ملكا للانسانية كلها ، كذلك فان التجربة الضارة تصبح عبرة للانسانية كلها ..

وقد يتساءل قارىء : ألم تصـبح حكاية هتلر ، والنازية ، والحرب العالمية كلها ، حكاية قديمة ؟.. ألم يفت أوان الحديث عنها والصراع حولها ؟ ..

ولكننى أحب ان اقول للقارىء الذى قد يطرح مثل هذا السؤال : انه لايوجد سطر فى التاريخ يمكن أن يموت . الانسان نفسه فى رأيى حيوان له تاريخ . الفرق الاساسى بين الانسان والحيوان هو ان السلالة الواحدة من سلالات الحيوان تعيش مليون سنة لايتعلم «جيل» فيها من «جيل» !.. الفار يتم اصطياده اليوم بنفس الطريقة التى كان يصطاد بها منذمئات أوآلاف السنين : مصيدة وقطعة خبز !.. أما الانسان فبالعكس : انه يعرف التاريخ ، ولذلك فهو يتعلم ويتقدم .

على ان لقضية هتلر والنازية أهمية خاصـة . ان النازية ليست الا « اقتراحا » من الاقتراحات لحل المتناقضات الاجتماعية التى عرفتها الحضارة الحديثة . ان حضارة الآلة والصناعة الضخمة والعلم الذى يتقدم

بسرعة قد صادفت ، كغيرها من الحضارات ، مشاكل اجتماعية جسيمة ، وكالعادة ، تجرب الانسانية حلولا كثيرة لاجتياز هذه المشاكل ، حتى تستقر على حل أو على عدة حلول ، والنازية محاولة فاشلة . انها مصل قاتل . ولهذا يجب ان نعرفه . السنا نجد ان الصراع العالمي الضاري الذي نعاصره الآن، يحتدم أكثر مايحتدم بسبب الخلاف بين المذاهب والنظريات والنظم .. أي بسبب الخلاف بين «الحلول» المقترحة لمشاكل الحضارة الحديثة والعلاقات الانسانية المتغيرة ؟ ..

ومؤلف الكتاب « وليم شيرر » ، من الصحفيين الامريكيين الذين اشتهروا بمؤلفاتهم السياسية والروائية. وقد عاش أخصب فترات حياته مراسلا صحفيا في المانيا. فرأى رأي العين النازية وهي تولد ، وعرف الأفاقين والمغامرين وهم يقفزون الى مراكز السلطة ويديرون تاريخ العالم كله في اتجاه الحرب . كما انه عاش المراحل الاولى من الحرب في ألمانيا وخلف قواتها الزاحفة. وقد كان على بعد أمتار قليلة من هتلر وهو يرقص طربا على ارض فرنسا ، ساعة كانت جيوشه تمزق آخر معاقل المقاومة الفرنسية وتطرق أبواب باريس .

وكما رأى المؤلف اقطاب النازية وهم مغامرون فقراء منبوذون في حانات ميونيخ ، ثم قادة وحكاما ترتجف الدنيا أمام كلماتهم ، رآهم في آخر القصة ذابلين شاحبين في قفص الاتهام خلال محاكمات نورمبرج قبل أن تحملهم اعواد المشانق ..

وليست هذه هي العناصر الوحيدة لدراية المؤلف وليم شيرر بالموضوع الذي يتعرض له . فقد حدث في نهاية الحرب ان كل وثائق العصر النازي وقعت في أيدي القوات الامريكية التي دخلت المانيا .. من المذكرات

الرسمية والخطط العسكرية التفصيلية خلال شتى مراحل الحكم النازى والحرب .. الى المذكرات و «المفكرات» الخاصة بزعماء وأقطاب مثل جوبلز وزير الدعاية والساعد الايمن لهتلر ، وبقادة كبار مثل «هالدر» رئيس هيئة أركان حرب الجيش الالمانى خلال الحرب ..

وقد كان من حظ وليم شيرر أن يقع على هذا الكنز الذى لايحلم بمثله مؤرخ .. ومن هذه الثروة التى لانظير لها ، الى جانب المعرفة الشخصـية التى ظفر بها ، يستمد المادة الغزيرة لـكتابه الضخم ..

واول حقيقة تبرز من ثنايا الـكتاب ، وتلخص لنا الكثير مما فيه ومما فى العصر النازى ، هى ان النازية تدخل فى بند ما يسميه المؤرخون السياسيون بالثورة المضـادة .

فالثورة هى التى تحطم الاشكال الاجتماعية القديمة لتحل محلها أشكالا اجتماعية أرقى ..

والثورة المضـادة هى التى تتوخى ـ على العكس ـ الرجوع الى الاشكال الاجتماعية القديمة او تدعيمها ولو انطوت على تغيير مظهرى .

وقد اضطر المؤرخون السياسيون الى استخدام هذين التعبيرين ـ تعبير «الثورة» وتعبير «الثورة المضادة» ـ حتى لايضل الناس فى فهم أحداث التاريخ . لأن بين الثورة والثورة المضادة شبها ظاهريا خادعا ، كلاهما عمل عنيف يستولى على السلطة ويقلب الحكومة القائمة ويحطم ويدمر . ولكن «الحكومة» بالمعنى الادارى والرسمى ليست هى القوى الحقيقية للمجتمع . فالانقلاب على الحكومة قد يكون غرضه الانقلاب على ما تحميه الحكومة ، فهو هنا ثورة . ولكن قد يكون غرضه عزل الحكومة بسبب عجزها مثلا عن حماية القوى التى تمثلها ، فالانقلاب هنا غايته

توفير حماية أحسن للنظام القديم ، فهو «ثورة مضادة»

والمؤلف لم « يفلسف » حركة هتلر على هذا النحو. ولكننى مع ذلك لا أتجنى على المؤلف حين أستخلص هذه الحقيقة الاولى . فالوقائع والمعلومات التى يرويها المؤلف هى التى تؤدى الى هذا الاستخلاص ..

يروى المؤلف فى أكثر من موضع ان هتلر كان يقول دائما ، قبل أن يستولى على الحكم ، ان تكتيكه للوصول الى الحكم يقوم على أساس واحد هو : أن يكون صديقا لكل القوى العريقة فى البلاد ، وهى : الجيش ، وأصحاب القوة الاقتصادية ، والكنيسة ! ..

وقد كانت ألمانيا فى تلك السنوات تضطرم بالحركات الساخطة على هذه القوى .. الحركات الساخطة على الجيش ، بضباطه البروسيين الذين يكونون طبقة اجتماعية خطيرة والذين يقودون البلاد الى حروب متوالية ويكرسون اقتصادها بل وحتى ثقافتها للحرب ، مقابل المزايا الاجتماعية الضخمة التى يتمتعون بها. وأصحاب الثروات الكبيرة ، سواء كانت اقطاعات شاسعة معفاة من الضرائب تقريبا أو صناعات هائلة . وأخيرا الكنيسة التى تبرر التفرقة الاجتماعية وتحمى الامتيازات الطبقية وتدافع عنها ..

ولكن هتلر كان يتوخى أن يصل الى السلطة بوفاق تام مع هذه القوى القديمة . متعهدا لها بحماية كل امتيازاتها . فهو فى الواقع حين قاد « انقلابه » لم يكن ينقلب على القوى الاجتماعية القديمة . انما كان يعرض عليها قيادة أقوى وأحسم . كان يعرض عليها زعامة تنقل هذه القوى الاجتماعية القديمة من موقف الدفاع ضد التيارات الداعية للتغيير الى موقف الهجوم على هذه التيارات لسحقها . ومن هنا فهو حين وصل الى

الحكم لم ينكل بالقوى القديمة . ولم يطارد الذين امتصوا دماء الشعب وقادوه الى حرب خاسرة وهزيمة مؤسية قبل سنوات قليلة ، بل انه على العكس حمى هؤلاء وكرمهم وأخفى هزائمهم ، فى حين شن هجومه واضطهاده ومذابحه ضد كل المطالبين بالتغيير والتطوير . ومن هنا انتهى بألمانيا سنة ١٩٤٥ الى نفس الموقف الذى انتهى به النظام القديم سنة ١٩١٨ ، ولكن الكارثة اكبر وأفدح

وقد كانت «البرشامة» التى استخدمها هتلر بسيطة فى «تركيبها» : أن ينافس كل الفئات الاخرى فى المطالبة بالعدل والمساواة والتغيير الاجتماعى علنا ، ثم يذهب سرا الى أصحاب القوى القديمة يقول لهم ان هذا الصياح هدفه خداع الشعب لاغير ، وانه حين يصل الى الحكم سوف يكون رجلهم . وسوف يسحق كل المطالبين بالتغيير ولو كانوا فى صفوف حزبه ، بل خصوصا الذين هم فى صفوف حزبه ، وهو ما حققه بدقة بواسطة حمامات الدم الشهيرة .

واهم صفحات الكتاب فى رأيى هى الصفحات التى تروى أسرار هذه العملية الغريبة ، التى تمكن بها هتلر من شراء رضا الجيش ، وأصحاب الاحتكارات الاقتصادية الكبرى .

بالنسبة للجيش مثلا ..

كان الجيش فى المانيا ـ تقليديا ـ ليس مجرد جيش ، أى ليس مجرد جهاز من أجهزة الشعب والدولة . ولكنه كان منذ دولة بروسيا القديمة ثم منذ تاسيس دولة المانيا ، سلطة فوق الدولة . سلطة لها نفوذ سياسى واجتماعى . ولها بالتالى امتيازات سياسية واجتماعية . وكان يبرر هذا ان الجيش والضباط البروسيين لعبوا دورا بارزا فى بنـاء الوحدة الالمانية وفى اقامة الروح

العسكرية الالمانية الشهيرة . ثم جاءت الحرب العالمية الاولى لتكون أول هزيمة عسكرية ساحقة للجيش الالمانى، وقد كان المسئولون عن شن هذه الحرب هم القيصر ، والجيش ، وملوك الصناعة الكبار . وقد رحل القيصر بعد الهزيمة وبقى الجيش وملوك الصناعة .

وهبت التيارات تطالب بأن يتحول الجيش من سلطة توجه البلاد الى جهاز فى يد البلاد . وكان الضباط يدافعون بالطبع عن سلطتهم القديمة وعن امتيازاتهم . وتحقيقا لهذا الفرض بدأوا يقولون ان الجيش لم يخسر الحرب ولكن المدنيين هم الذين استسلموا وعقدوا الصلح وطعنوا الجيش من الخلف . نفس ما يقوله ضباط الجيش الفرنسى المندحر فى الهند الصينية والجزائر وغيرهما . وأراد الضباط ان يطمسوا الحقيقة التى تقول ان القادة الكبار مثل هندنبورج ، ولوندورف ، هم الذين قالوا رسميا انهم خسروا الحرب وانهم غير مسئولين اذا استمر القتال . أراد الضباط أن يطمسوا هذه الحقيقة التاريخية ويلصقوا الهزيمة بالقوى الاجتماعية الجديدة والزعامات الجديدة التى تطالب بالتغيير . وبهذا الثمن اشتراهم هتلر . فهو أيضا تبنى هذه الدعوة ليطعن الاحزاب الاخرى وليتحالف مع الضباط القدامى، الذين سيحتاج اليهم بعد ذلك فى بناء جهازه الحربى .

يضاف الى ذلك ما يسجله الكتاب من ان هتلر أنقذ اقطاعيات الضباط الكبار من الضرائب المستحقة عليها ومن كل قوانين الدولة ومن الدعوة الى توزيعها .. بما فيهم هندنبورج نفسه ، اكبر ضباط المانيا واعظمهم اسما فماذا عن ملوك الصناعة ؟ ..

يروى الكتاب كيف ان هتلر ، قبل أن يستولى على الحكم ، كان فقيرا معدما ، ثم انقلب فجأة الى زعيم

ينفق عن سعة ، ويسكن عشيقته فى أفخر بيوت ميونيخ ، ويركب أغلى السيارات ..

وكانت الضرائب تلاحقه ، تسأله عن مصادر ثروته ، وكان هتلر يراوغ دائما ، ولا يقدم اجابات شافية ، حتى وصل الى الحكم ، فكان من أول ما اهتم به أن ينتهز فرصة احدى مذابحه ليقتل الرجل الذى اطلع على هذه الاوراق فى الضرائب !

ويرجح كذلك ان كبار رجال الصناعة والأغنياء بدأوا من ذلك الوقت فى تمويل هتلر . ولكن الترجيح يصبح يقينا فى السنوات التالية ، التى سبقت وصول هتلر الى الحكم ، حينما انطلق المالى الشهير «دكتورشاخت» ، يعرف هتلر بملوك المال والصناعة ، ويشرح لهم حقيقة حركته ، فيدفعون له الملايين سرا .

فى محاكمات نورمبرج ، روى « والتر فونك » مدير بنك الرايخ فى عهد هتلر ، ان « أصدقائى من كبار الصناعيين خصوصا من أصحاب المناجم طلبوا منى أن أنضم الى الحزب النازى سنة ١٩٣١ ، لكى أفرض نفوذهم فيه » . وكان هتلر قد كون « فرق العاصفة » التى بلغ أعضاؤها ١٠٠ ألف شاب ورجل قبل أن يصل الى الحكم . وكان لابد من انفاق مبالغ هائلة على هذه الفرق التى بثت الرعب فى قلب أوروبا كلها .. والمال لا يوجد الا عند أقطاب المال والصناعة .

وكان هتلر يحيط علاقاته بملوك المال بستار كثيف من السرية . لأن انكشاف هذه العلاقة للناس قبل أن يصل الى الحكم كان معناه تحطيم آرائه نهائيا . حتى أن قليلين جدا فى الحزب كانوا يعرفون هذه العلاقات التى لم تنكشف تماما الا من الوثائق المضبوطة بعد الحرب . مثلا ..

اميل كيردورف ، ملك ألفحم ، بدأ يدفع لهتلر بانتظام من سنة ١٩٢٩ ، وفريتز تيسن رئيس اتحاد الصلب ، ذكر أن أول ما دفعه لهتلر وحزبه كان ١٠٠ ألف مارك ذهبا . وكان ملوك صناعات الحديد والفحم بالذات هم اكبر ممولى هتلر لـكى يصل الى الحكم .

ويمضى الكتاب فيذكر القائمة التى اعترف بها «والتر فونك» عن أسماء ملوك المال الذين كانوا يمولون الحركة النازية لكى تصل الى الحكم وهى قائمة طويلة من بين أسمائها فون‌شنيتزلر مديرشركة فارين‌الكبرى للصناعات الكيمائية ــ اوجست روسترج واوجست واين صاحبا صناعة البوتاس ــ كونو صاحب خطوط السفن الكبرى « هامبورج ــ امريكا » ــ مناجم براون للفحم فى وسط المانيا ــ كونتى للمطاط ــ كورت فون‌شرودر رئيس‌اتحاد البنوك فى كولونيا ــ بنك دويتش ــ بنك التجارة ــ بنك درسدن ــ أكبر شركة تأمين المانية وهى شركة اليانتز .

بل ان عددا من ملوك الصناعة والمال اسسوا «حلقة» لتمويل هملر وفرق العاصفة بالذات تحت ستار الانفاق على دراسات خاصة بالجنس الآرى المتفوق !

ثم دفع ملوك المال والصناعة لهتلر حتى يوم وصوله الى الحكم ! ..

قال فونك فى اعترافاته ان المبلغ لايزيد عن مليونين من الماركات . ولكن المالى الكبير تيسن يقول فى كتابه : « أنا دفعت لهتلر » ، انه شخصيا دفع مليون مارك خلال بضع سنوات .. فالمبلغ لابد أن يكون أكبر من هذا بكثير!

وعندما كلف هتلر بتشكيل أول وزارة برئاسته ، كانت سلطته لم تكتمل بعد . كانت أمامه معركة انتخابية قاسية . فكان أول ما فعله بعد تشكيله الوزارة أن عقد اجتماعا مع دكتور شاخت واثنى عشر آخرين من ملوك

المال ، والصناعة ، وكان اجتماعاً سرياً لم يعرف به أحد، ولكن المحضر الكامل له ظهر بعد نهاية الحرب . ومنه نعرف أن هتلر قال لهم ان مصانعهم وامبراطورياتهم المالية والصناعية لايمكن ان تبقى لهم لو استمرت الديموقراطية فى المانيا . ولذلك فقد تقرر أن يقضي على الديموقراطية . وقال انه حتى لو خسر الانتخابات فلن يترك الحكم بل انه سوف يبقى فيه بالقوة . ويروى الدكتور شاخت ان ملوك المال قفزوا طربا وبعدها — كما يقول شاخت — « دعوتهم للتبرع لتمويل دعاية النازى الانتخابية ، فجمعت منهم ثلاثة ملايين مارك فى هذه الجلسة الواحدة ! »

ومع ذلك فان الرجل الذى قام بهذا كله سمى حركته باسم : الاشتراكية ... الوطنية .

لقد وجد هتلر ان القوة النامية هى الشعب وجماهير العمال الواسعة فى بلد صناعى مثل المانيا .. فاراد ان يستولى على قيادة هذه الفئات الواسعة ثم يقوم بترويضها حتى يسلس قيادها فى خدمة الاهداف اليمينية

هل يبدو هذا الكلام غير معقول ؟ ..

ربما . ولكن هذا هو ما حدث بالضبط ..

فعندما أسس دريكسلر وفيدير وهتلر سنة ١٩٢٠ ، « حزب العمال الوطنى الاشتراكى الالمانى » — ومن اختصار هذا الاسم جاء اسم « النازى » — وضع هتلر فى برنامج الحزب ، بناء على الحاح دريكسلر ، فقرات لاغراء الشعب . فنصت المادة ١١ من البرنامج على الغاء كل ايراد بدون عمل . ونصت المادة ١٢ على تأميم الصناعات ذات الطابع الاحتكارى . ونصت المادة ١٣ على دخول الدولة شريكة فى الصناعات الكبرى .

ولكن هذه المواد لم تكن للتطبيق . كانت غايتها ان

تعيد الشعب الناقم المتخبط فى بئر سحيقة من الهزيمة والفقر والبطالة الى استسلامه القديم تحت قيادة القوى القديمة ، وهى الرأسمالية والاقطاع والجيش ..

ولهذا ...

فعندما حوكم هتلر سنة ١٩٢٤ ، لأنه حاول القيام بانقلاب مسلح للاستيلاء على الحكم ، قال أمام المحكمة : « نعم أنا ثورى .. ولكن ضد الثورة ! » بمعنى انه يريد أن يشن ثورة يسبق بها الثورة الاجتماعية ويمنعها

وعندما جلس فى السجن بعد ذلك يكتب مؤلفه الشهير «كفاحى» قال : «ان الدولة ليست مؤسسة اقتصادية ، ولكنها كيان عنصرى . ان قوة الدولة لا تلتقى مع الرخاء الاقتصادى الا فى حالات نادرة . بل ان الرخاء الاقتصادى على العكس ، كثيرا مايكون دليلا على بدء التحلل والانهيار!»

وفى سنة ١٩٣٠ ، عندما أصبح حزبه حزبا قويا له نسبة كبيرة من مقاعد البرلمان ، قدم بعض نوابه ــ جريجور ستراسر وفيدير وفريك ــ الى المجلس مشروع قانون لتأميم البنوك الكبرى تطبيقا لمبادىء الحزب ، فثار هتلر وأقطاب حزبه على هؤلاء «العصاة» داخل الحزب ثورة هائلة .. وأمرهم بسحب مشروع القانون من المجلس. وأراد نواب الاحزاب اليسارية المعادية لهتلر أن يكشفوا حقيقته فقدموا نفس المشروع الى المجلس ، ولكن هتلر لم يتزحزح عن موقفه ولم يحرج ، بل أمر نوابه بالتصويت صراحة ضد المشروع ، ففعلوا !

وعندما دخل بعض زعماء الحزب النازى بعد ذلك فى وزارة ائتلافية برئاسة الجنرال شليشر ، حاول رئيس الوزراء أن يقدم قانونا بتوزيع ٨٠٠,٠٠٠ هكتار من أراضى الاقطاع التى تملكها طبقة الجونكرز ، على ٢٥ الف عائلة من الفلاحين ، ولكن الحزب النازى ــ أو الاشتراكى

الوطنى ــ احتج وهدد بسحب وزرائه من الحكم ، فمات المشروع ...

ومع ذلك فقد ظل فريق كبير من رجال الحزب الاشتراكى الوطنى يصدقون كلمة الاشتراكية الواردة فى اسم الحزب . كانوا يظنون ان هذا كله «تكتيك» من هتلر حتى يصل الى الحكم . ولم يكونوا يعرفون أن هتلر كان خلال هذا كله يلتقى بملوك المال والصناعة والبنوك سرا . وان الحزب كان يتلقى منهم ملايين الماركات سنويا لينفق على منظمته العسكرية وفرق العاصفة الشهيرة . وان «دكتور شاخت» الاقتصادى الشهير الذى ما زال يعيش فى ميونيخ الى الآن ، كان قد أصبح الوكيل السرى لهتلر فى دوائر ملوك المال والصناعة .. وكان شاخت فى ذلك الوقت يعمل مديرا لأكبر شركة تأمين فى ألمانيا .

فلما تولى هتلر وحزبه الحكم ، دهش أنصاره المخدوعون حين وجدوه على العكس ، يأمر فرق العاصفة باحتلال نقابات العمال وحلها ، والغاء طريقة المساومة على الأجر بين نقابات العمال وأصحاب العمل ، وأعلن انه يجب أن تعود السلطة المطلقة فى المصانع « الى القادة الطبيعيين وهم أصحاب رأس المال » ..

أما الذين طالبوه بالثورة الاجتماعية فقد أعلن لهم صراحة : « انه لا توجد ثورة ثانية » . ولكنه لم يكتف بهذا . بل انه انتهز فرصة « حمام الدم » الشهير الذى قام به ليلة ٣٠ يونيو سنة ١٩٣٤ ، فقام رجال فرق العاصفة بقتل كل خصومه السياسيين فى بيوتهم بحجة انهم كانوا يدبرون انقلابا ضده ، وكان فى مقدمة الذين قتلهم فى تلك الليلة الرهيبة التى سارت مثلا فى التاريخ : الذين بدأوا يتململون ويقولون له أين الاشتراكية ؟..

فى تلك الليلة الرهيبة قتل هتلر ، اغتيالا ، كل خصومه

القدماء ، والمختلفين معه داخل الحزب ، وزعماء المعارضة ، وكل الذين يعرفون عنه وعن اتصالاته أكثر من اللازم . ويومها قيل أن عدد القتلى فى تلك الليلة بلغ اربعمائة ، ولكن ظهر بعد انهيار هتلر أن عددهم وصل الى ألف قتيل .

واستطاع هتلر بعد ذلك أن « يفلسف الاشتراكية » ، فيقول : « الاشتراكى هو الذى يؤمن بشعار (ألمانيا فوق الجميع) .. »

وبقى من «الاشتراكية الوطنية» أو من النازية جانبها العنصرى وحده . ومضت هذه النازية تقول للشعب : ان مهمة الدولة الاساسية هى حماية « العنصر » الالمانى نقيا من التلوث بأى عنصر آخر . وان سبب فناء الدول ليس الخراب الاقتصادى ، ولا حتى الهزيمة فى الحرب ، ولكنه تلوث الدم النقى للأمة بدم آخر غريب . وبناء على هذه الفكرة بدأت عملية ابادة الأجناس والشعوب الاخرى التى ارتكبها النازى !

ولم يكن ممكنا فى حقيقة الأمر ، منذ البداية أن تلتقى الفكرة الاشتراكية مع الفكرة العنصرية فى اطار واحد . لأن الفكرة الاشتراكية تؤمن بالمساواة بين كل البشر مهما كانت أجناسهم وأديانهم . ولكنها كذبة كبيرة ، انتهت وألمانيا كلها تحترق !

وبنفس الدقة والتفصيل اللذين يروى بهما وليم شيرر خطوات صعود هتلر .. يروى خطوات هبوطه وأفول نجمه ..

والصورة البعيدة لهتلر توهم الناس انه انهزم وانهار لمجرد انه رجل مجنون . ومن هنا يعجب الناس كيف ان مجنونا استطاع أن يحكم شعبا عظيما ، ويخضع لارادته قادة عسكريين عباقرة ، واقتصاديين دهاة ،

وفلاسفة وأساتذة ، وأن يحرز انتصارات عسكرية وسياسية ساحقة ...

ولكن هتلر لم يكن مجنونا .. وان كان الخبل قد بدأ يستولى عليه من تأثير الهزائم . فهو من الشخصيات التى لا تتحمل الهزيمة . ولا تعيش الا بخمر الانتصار .. ولذلك فهو شخصية قابلة للكسر ..

والذى يدافع عن قضية عادلة وبأسلوب نظيف لا تصيبه الهزيمة بالجنون ، بل ربما تحمل اليه مزيدا من الحكمة . انها تجعله شهيدا لا غير . أما الذى يرتكب الجرائم والمظالم البشعة ثم ينهزم ، فهو لا يجد حتى اقتناعا معنويا بريئا يتكىء عليه فى محنته .. فينكسر ..

اذن .. بما انه ليس مجنونا .. فكيف يصور له عقله انه يمكن أن يحارب الدنيا كلها بمفرده .. من روسيا الى امريكا ، وهو يعرف مواردها الهائلة ؟ ..

أليس هذا القرار فى ذاته يدل على الجنون ؟

الجواب الذى نجده فى صفحات الكتاب هو : ان التقارير الكاذبة هى التى صورت لهتلر ان هذا ممكن .

فقد كانت النتيجة الطبيعية للطغيان الذى لايرحم أن أصبح كل العاملين مع هتلر يكذبون عليه ، ويقدمون له الحقائق كما يحب هو أن يراها لا كما هى فى الحقيقة ..

فالتقارير التى قدموها له عن قوة الجيش الروسى كانت مضللة ! ..

والتقارير التى قدموها له عن الرأى العام البريطانى كانت مضللة ! ..

والتقارير التى قدموها له عن الموقف فى أمريكا كانت مضللة ! ..

ولم تكن هذه تضليلات مرجعها جهل الذين قدموا له التقارير بقدر ما كانت نفاقا منهم ، الأمر الذى يدلل

عليه الكتاب بقصص ووثائق تفصيلية كثيرة ..

وفى هذا المجال يروى الكتاب مآس مضحكة حقا .. لعل أغربها تلك القصة التي زين فيها بعض الناس لهتلر انه يمكن التفاوض مع دوق وندسور ، الذى كان ملكا على بريطانيا ثم تنازل عن العرش ، على أن يتزعم حركة لعقد الصلح مع ألمانيا وعزل أخيه والعودة الى العرش. وكيف ان موظفى هتلر لم يجرؤوا على أن يصارحوه بالحقيقة وهى أن هذا لايمكن أن يحدث فمضوا يزيفون التقارير عن مباحثات وهمية جارية !

فاذا جاءت النهاية ، رأينا هتلر ، فى أيامه الاخيرة ، واقفا فى مخبئه يصدر أوامر وهمية ، الى جيوش غير موجودة ، بشن هجمات مضادة لم تبدأ ابدا .. كأن الأمر كله مسرحية فى الخيال !

أزمة الضمير الحديث

مات اوبنهايمر .. ابو القنبلة الذرية الاولى التى القيت على هيروشيما .

مات بعد أن عذبه ضميره .. وطارده .. فأخرجه من عمله .. وارسله الى قاعات التحقيق ..

الضمير ..

انه ذلك الشيء الغامض المركب فينا جميعا ـ نعم فينا جميعا ـ والذى يخفق بالراحة أو القلق ... بالحيرة أو الهدى ..

وهو من أجل ذلك كان هدفا لكتاب المآسى وشعرائها منذ أقدم العصور ... يتخذون من ذلك الشيء الغامض مسرحا لأروع مآسى الانسان ... وليس مجهولا ماذا صنع الضمير ب « ماكبث » بعد أن قتل الملك ، ليظفر من بعده بالعرش فلم يكسب الا صياحه : « ان نفسى تأكلها العقارب » ولا ما صنع الضمير ب « عطيل » بعد أن خنق ديدمونة الطاهرة لأنه زوج أحمق غيور ..

وليس الضمير بعد ذلك مسرحا لقصص الشعراء وحدهم .. ففى الحياة الواقعية أيضا نجد أمثلة كثيرة كانت حياة تولستوى كلها فرارا من ضميره .. كان هذا الاقطاعى الذى يملك آلاف الفدادين يعرف انه لا حق له في الترف الذى يحيا فيه على حساب آلاف التعساء

.. وكان ضميره يعذبه لأنه كان ينفق على مائدة القمار في ليلة واحدة ما يطعم عشرة بيوت بأكملها لعام بأكمله..

ولم تكن كل كتاباته دفاعا عن الفقراء ــ وهو يملك هذه الارض ــ لتسكت ضميره المرهق .. فهو يكتب فى يومياته : « اننى لا أستطيع ان أحرر نفسي .. فأكتب عن الحق كلمات رنانة لأخدع نفسى .. اننى أدعو الى الماء وأشرب الخمر .. ان ضميرى يهتف بى ، فكيف أستطيع أن أفسر له ما لايمكننى تفسيره لنفسى ؟ »

كيف أستطيع أن أدافع أمامه عن نفسى ؟

وفر تولستوى من بيته وأملاكه وزوجته .. ليموت على رصيف قطار .. وهذا الضمير هو الذى جعل نوبل بعد أن اخترع الديناميت يكفر عن اختراعه المدمر بأن يهب أمواله لتكون جائزة للسلام ..

هذا الضمير نفسه.. هذا الشيء الغامض الحساس ، هو الذى يقدم لعالم اليوم أروع مآسيه جميعا ، وهى مآس لا تتخذ مسرحها فى ضمائر العشاق أو الأزواج الغيورين ، بل ضمائر الذين تتكون منهم صفوة الذكاء والمقدرة الانسانية فى هــذا العصر : العلمــاء الذين يصنعون الذرة ..

ان هؤلاء العلماء بشر مثلنا وليسوا شياطين... انهم ينفضون أيديهم آخر كل يوم من أجهزة الذرة التى قد تدمر المدن وتقتل الملايين ، ويعودون الى بيوتهم حيث يضمون ــ بنفس الأيدى ــ زوجاتهم الجميلات ويداعبون أطفالهم الباسمين وأن لهم بعد ذلك ضمائر .. تنتبه بين حين وآخر ، وتناقشهم الحساب ..

واصبحنا ، لا تمضى بضعة شهور، الا ونقرأ أن واحدا من هؤلاء الذين كرسوا حياتهم للعلم، وانصرفوا يكتشفون المفاتيح السرية لهذا الكون ، قد فر أو اختفي .. أو

اتهم بالخيانة والقى به فى السجن ..
والمؤكد ان هؤلاء العباقرة النادرين لايمكن أن يكونوا خونة أومأجورين، كذلك فانهم ليسوا شيوعيين بالعقيدة، فهم لايهربون من أمريكا لمجرد خدمة المعسكر الشيوعى .
فما هو السر اذن فى هذه المأساة ، أو فى هذه المآسى جميعا ؟ ..
السر تكشفه لنا قصة آخر وأروع مأساة من هـذا النوع.. مأساة الدكتور أوبنهايمر الذى تخوض صحف العالم كله فى قصة حياته ، وتغوص فى أعماق ضميره .. والذى يمكن أن نقول عنه انه : «هاملت» هذا القرن العشرين
ان الدكتور أوبنهايمر هو العقل الثانى فى العالم كله .. بعد انشتاين .. وهو الذى صنع القنبلة الذرية الاولى التى ألقيت على هيروشيما وحسمت الحرب الاخيرة ، وهو نفسه الذى أبعده ايزنهاور اخيرا وأمر باقامة جدار كثيف أسود بينه وبين الأسرار الذرية بعد أن حامت حول براءته الشكوك ..
اما أقوى دليل ضده فهو انه « يبدو منذ سنوات وكان ضميره غير مستريح.. وصاحب مثل هذا الضمير المزق يجب ألا يعهد اليه بأمانة عمل خطير ... »
وازاء هذا الاتهام... نشر أوبنهايمر على الناس قصة ضميره كاملة.. نشرها فى مذكرة طويلة من ثلاث وأربعين صفحة .. رسم فيها صورة صادقة للانسان المثقف ، المزق فى هذا القرن العشرين ..
لقد ولدت فى نيويورك سنة ١٩٠٤ ، اى مع مطلع هذا القرن تقريبا ، وقد هاجر أبى من المانيا وهو فى السابعة عشرة من عمره الى هذه البلاد ، حيث أصبح من رجال الاعمال الناجحين... ودخلت جامعة هارفارد لأدرس الرياضة سنة ١٩٢٢ .

وفى جامعة هارفارد بدأت آيات ذكائه النادر تظهر : كان يلعب الكرة مع بعض زملائه فى فناء الكلية ، عندما قذف احد الزملاء الكرة بشدة ، وكان احد الاساتذة يمر فنهرهم ، وقال لهم ان الكرة قد تصيب أحد العابرين .. وبسرعة غريبة أجرى اوبنهايمر للأستاذ عملية حسابية ، حسب فيها قوة الدفع ومقاومة الهواء وما الى ذلك حتى اثبت له بسلسلة من المعادلات الرياضية أن الكرة لايمكن أن تصل الى اىعابر فى الطريق

ثم اغرم فجاة بالادب الاغريقى القديم الذى تعد دراسته أصعب دراسة لغوية فىالعالم، وبعد ثلاثة شهور كان قد تعلم اليونانية القديمة واتقنها حتى اصبح قادرا على أن يقرأ سوفوكليس فى لغته الاصلية بلا قاموس .

وبعد ان درس الادب اليونانى درس الادب الفرنسى ... ثم الهندى .. ومضت به الايام حتى أصبح من اندر المثقفين فى العلم والادب جميعا ... ولما تخرج أصبح هذا الشاب ذو العقلالذى يشع كالجوهر الاصيل مدرسا للرياضة فى الجامعات الامريكية . على انه كان بالرغم من ذلك كله منطويا على نفسه ، يعشق الوحدة ، ليس له أصدقاء ولا زملاء يختلط بهم . ربما لأنه أعلى منهم مستوى ، فهو يشرف على الناس من قمة عالية بل انه رفض أن يعمل فى نيويورك او غيرها من المدن المزدحمة ، وآثر أن يكون عمله فى الغرب ... حيث السهول الواسعة والوديان العميقة ، التى يستطيع أن يركب فيها جواده ، ويرخى له العنان أميالا طويلة دون أن يعكر صفو وحدته وانطلاقه مع نفسه انسان .

ويعترف أوبنهايمر بأن تربيته كطفل « جعلته لايعرف ان فى هذا العالم أشياء رديئة او قاسية » وهو اذ يعدد قراءاته الادبية الرائعة يقول : « ولكنني لم أقرأ شيئا

قط فى السياسة أو الاقتصاد ، كنت أعيش فى انفصال تام عن الحالة العامة فى هذه البلاد أو غيرها ، بل لم اكن أقرأ أبدا أية جريدة أو مجلة ، ولم أقتن فى بيتى أبدا راديو أو تليفون ... كنت مهتما الى أقصى حد بالعلم .. وبدراسة الانسان فى ذاته . دون أن يكون لدى أى فهم عن علاقة الانسان بمجتمعه » .

ولكن الانسان الشريف لا يجد راحة ضميره أبدا فى هذا القرار ، وفى النجاة من أمواج المجتمع بالركون الى صخرة عالية ... وأوبنهايمر رجل شريف .

لايمكن أن يجد انســـان شريف راحة ضميره فى أن يكرس علمه وجهده لكى يحقق لنفســـه أحلام الراحة والهدوء والامن ... فى وسط عالم يزخر بالقلق والظلم والصراع .. لايمكن أن يقرأ مجلداته فى حجرة مضـــاءة وخارج نافذته عالم بأكمله يطبق عليه الظلام ، وهذه الثقافة الرفيعة كلها اذا كانت لا تخلق فى صاحبها ضميرا حيا فكأنها لم تصنع به شيئا .

ان العقل فى الانسان مهما بلغت قدرته ، لا يغنى عن الضمير ، وان ضميرا بغير عقل ، لخير الف مرة من عقل بلا ضمير .

وأوبنهايمر كما قلت رجل شريف ! وضميره ينتظر الهزة التى تخرجه من القوقعة وتنزله من برجه العاجى .

وجاءته الهزة الاولى كما يقول فى سنة ١٩٣٦ ، عندما سمع عن انتصار الظلام النازى فى أوروبا .. وما يهدد به من القضاء على حريات الناس وكرامتهم . « ورأيت الى جانب ذلك آثار الأزمة الاقتصادية تبدو على تلاميذى » فهناك اذن فقر يسببه الظلم الاجتماعى ! « فبدأت أشعر بأننى يجب أن أساهم بقسط أكبر فى حياة المجتمع . ولكن ذهنى كان خاليا من أى صورة سياسية صحيحة أو

اى خبرة تعطينى القدرة على هذه المساهمة » .

وهنا يقول المعقبون : « ان من تعلم اللغة اليونانية فى ثلاثة شهور ، ليس صعبا عليه أن يتعلم السياسة والاقتصاد فى ثلاثة شهور أخرى ! .. »

وبعد نشوب الحرب ، ألقيت على كاهل أوبنهايمر مهمة رهيبة ، لعلها من اخطر مهام الحرب .

كان عليه أن يطوف امريكا ليختار صفوة علمائها ، ثم يجمعهم فى فريق واحد يعيش داخل معامل مغلقة ، فى قلب الصحراء ، تحت حصار عسكرى صارم ، حيث يعملون تحت رئاسته بلا كلل لصنع أول قنبلة ذرية !..

واذا كان أوبنهايمر قد اكتشف المجتمع منذ سنوات ، فانه خلال صنع القنبلة الذرية اكتشف شيئا آخر : قدرته على الزعامة والتفوق والتأثير فى الناس .

نعم .. فقد أصبح زعيما روحيا لعلماء الذرة هؤلاء من جميع الجنسيات .

واستمر العمل بلا كلل ..

وفى ١٦ يوليو سنة ١٩٤٥ ، عندما انفجرت أول قنبلة ذرية ــ للتجربة ــ فى صحراء مكسيكو .. وعندما ارتفع السحاب الذرى القاتل الى عنان السماء .. ارتعد أوبنهايمر لأول مرة . ارتعد وهو يتأمل ميلاد هذا السلاح الرهيب وقال : « لقد عرف العلماء طريق الخطيئة !! »

وهذا التعليق الحزين هو الذى يسجله عليه الاتهام اليوم ، كأول بادرة من بوادر ازمة هذا الضمير .. ولاشك انه بات تلك الليلة مؤرقا يحرق عشرات السجاير ويسأل نفسه آلاف الأسئلة : « هل كان هذا الدور الذى شارك به فى حياة المجتمع دورا شريفا ؟ هل يضمن الا يستعمل هذا السلاح الرهيب فى المستقبل الا لحساب العدل والحرية وحدهما ؟ أو انه سيؤدى الي قتل المزيد من

البشر عبثا ؟ .. »

ولاشك ان هذا الضمير اليقظ قد ارتعد رعدة شديدة عندما القيت اول قنبلة صنعها على هيروشيما. وعندما جاءت أنباء النجاح بموت عشرات الآلاف وحرق آلاف البيوت ، وتلويث الجو ، وبأن الذين سيولدون ممن تعرضوا للاشعاع سيكونون مشوهين .. و .. و ..

ولكنه ظل بوجه عام متفائلا . كان يعتقد أن نهاية هذه الحرب وظهور هـذا السلاح سيحملان للانسان سلما طويلا ، وكان زملاؤه العلماء يشعرون بالزهو والفرح لأنهم نقلوا العالم فى وثبة واحدة الى عصر جديد تماما . تستطيع الذرة فيه أن تحقق للناس رخاء لم يسبق له مثيل ، وتعلقت آمالهم بأوبنهايمر أن يقود الأبحاث فى هذا الطريق.. وفعلا استطاع أوبنهايمر بقوة شخصيته أن يجعل الحكومة تقرر وضع شئون الذرة فى أيدى المدنيين لا العسكريين .. وقام بالنصيب الأكبر فى وضع أول مشروع للرقابة الدولية على الطاقة الذرية ..

على أن الايام مضت ، وأخذت آمال ما بعد الحرب فى الذبول ، وعاد التوتر الدولى مرة أخرى . وبدا أن مظاهر الظلم والاستبداد والاستعمار لن تختفى بسرعة. وكرست أبحاث الذرة للحرب لا للسلام. وتحدث الناس عن الدمار الرهيب الذى سيراه عصر الذرة .. وتمزقت ضمائر الكثيرين من العلماء الذين صنعوا الذرة ... فهربوا بأسرارها الى المعسكر الآخر ، وأعلن من قبض عليهم منهم فى المحاكمة أنهم وجدوا أن خير طريقة لمنع الحرب الذرية هو أن تكون أسرار الذرة متعادلة عند الطرفين .. فيضطرون الى عدم استخدامها . فهم يرتكبون ما يوصف قانونا بأنه الخيانة .. وفاء للجنس البشري نفسه .. وللحضارة الانسانية بوجه عام !

واوبنهايمر وسط ذلك كله ينوء ضميره بأهوال ثقال.
وقد بدأ أصدقاؤه وزملاؤه يلاحظون انه يبدو.. وكأن شيئا ما يرهق ضميره .. كما يقول الاتهام !.. وان الكثير من سلوكه يضطرب ، وأن ذكاءه اللامع يختلط ! وقال الذين يعرفونه أيضا : انه أصبح يعتقد أن الظروف ألقت عليه هو وزملائه تبعة تغيير هذا الكون والقضاء على مشاكله . وانه ثائر لأن الساسة والعسكريين على السواء يقودون العالم الى الدمار.. الدمار بالقنبلة التى صنعها هو وزملاؤه ! وقال آخرون : كأنه يعتقد أنه مكلف بانقاذ الانسانية ولكنه لايعرف ماذا يصنع !

انه لايستطيع أن يهرب كما صنع بعض زملائه ، لأنه لا يقر الوسيلة ، ولا يستطيع أن يبقى مطمئنا . ويقف جهده عند الحدود السلبية : فعندما عرض أمر صنع القنبلة الايدروجينية عارض فى صنعها معارضة شديدة ، وعرض نفسه بذلك لاتهام آخر ، وشك جديد !

واخيرا .. لكل هذه الاسباب .. ولأن ضميره غير مستريح ، قررت الحكومة الامريكية أن تبعده عن أسرار الذرة ! ..

أليس أوبنهايمر هذا .. طبعة جديدة من «هاملت» .
لقد رأى هاملت بعقله الذكى المثقف الفساد الذى ينخر فى كل شىء حوله . ورأى أنه مكلف بازاحة كل هذا الفساد .. ولكن الفكر فيه يشل الارادة ويوقف العمل .. فهو يقف دائما على حدود العمل دون أن يعمل شيئا ! ..

حتى عندما رفع خنجره ليقتل الملك الذى هو أصل الفساد ، عاد فتراجع ... لأنه لايستطيع أن يرتكب جريمة ! ..

ومن يدرى ؟.. لعل أوبنهايمر سهر ليالى طويلة يفكر

فى الفرار ، أو فى أى شىء آخر ، ثم عاد فتراجع .. كما تهاوى الخنجر فى يد هاملت ، لأنه ليس متأكداً تماما من الوسيلة .. ولا من أى شىء ! ! ..

ومن يدرى ؟.. لعل هذا الذهن النادر الذى قرأ الآداب كلها قد قارن نفسه فعلا بهاملت .. ولعله صاح فىنفسه وهو يرى ترددها وحيرتهاكماكان يصيح هاملت : حراكا أيتها الرأسحراكا ! وأماما أيها العزم أماما !..

نعم.. ان مأساة أوبنهايمر هى مأساة كثير منالمثقفين فى هذا القرن . ننتظر شكسبير جديدا لكى يكتبها ! مأساة الذين تتحول العزيمة فيهم بفعل التفكير الى شحوب ! ..

***

والحديث عن أوبنهايمر يذكرنا بعالم آخر.انجليزى هذه المرة ، هو : ج . هالدين .

فعندما هجمت القوات الانجليزية على بورسعيد ، اعلن استقالته من منصبه فى جامعة لندن وتنازله عن الجنسية الانجليزية ، وقال : انه سيسافر الى الهند ، ليبحث هناك عن عمل ، وليطلب منحه الجنسية الهندية .. « ان انجلترا دولة مجرمة منذ شنت هذا الغزو ، وانا لا أريد أن أموت انجليزيا ، اريد أن أموت حاملا جنسية أكثر مدنية وتحضرا ! .. »

وذكرت ، عندما قرأت هذا النبأ ، ان هـذا العالم العظيم له فى مكتبتى كتاب حملته معى من لندن ، اسمه « اذاعة ممنوعة » . وعندما أخرجت الكتاب لأعيد قراءته ، تداعت فى رأسى عشرات من القصص الغريبة ، التى تتكون منها قصة حياة هذا الرجل الغريب ..

والواقع أن حيـاة هالدين حافلة « بالانفجارات » لا بالقصص العادية فحسب ..

وهذه الانفجارات جاءت من انه ليس عالما من العلماء الذين يحبسون أنفسهم فى سكون المعامل ، لا يبالون اذا كان هذا العلم الذى يصنعونه لخير الانسانية أو دمارها ، انه ليس عالما من الذين يظنون أن بحث العالم لايختلف عن عمل أى «سمكرى» أو «سباك» عليه أن يصنع ما يطلبه منه الذين يدفعون الاجر فحسب ! ! ..

ان جداول الحساب فى هذا الذهن العبقرى مرتبطة بتاريخ التطور البشرى ، ان العلم الذى يكرس له حياته ليس الا وسيلة لكى يجعل حياة الناس حافلة بالعدل والحرية والفكر والجمال ، ومن هنا كان اشتغال هالدين بالسياسة ، وانغماسه فيها ، وشهرته عن طريقها ، لا تقل عن اشتغاله بالعلوم ، وعكوفه فى معاملها ، ونبوغه العلمى فيها ..

وفى أول الأمر،كان هالدين عضوا فى الحزب الشيوعى الانجليزى ، وكان فى نفس الوقت رئيس هيئة التحرير المشرفة على جريدة «الديلى وركر» لسان الحزب ، وكان أيضا متزوجا من رفيقة له فى الحزب ، ومن النشيطات فى الحركة الشيوعية الانجليزية ، ثم ثارت زوجته على الحزب الشيوعى ، وأصبحت خصـــما لدودا للحركة الشيوعية فى انجلترا ، وتحطم زواج هالدين على صخرة الخلاف السياسى ، فطلق زوجته ، وبقى هالدين زمنا بلا زواج ، حتى تزوج من مساعدته فى العمل ، فزواجه الثانى زواج علمى بحت ، وليس زواجا سياسيا كالزواج الاول ! ..

وكان أول انفجار هام فى حياته العامة ، هو خروجه من الحزب الشيوعى ، وكان سبب خروجه سببا اقترن فيه العلم بالسياسة ..

فقد حدث ان خرج العالم الروسى المشهور ليسنكو،

بنظريته العلمية المعروفة عن البيئة والوراثة ، وثارت مناقشات عنيفة حول هذه النظرية اشترك فيها كثير من علماء البيولوجيا ، ومن بينهم هالدين، وفجأة أعلن العالم الروسى ليسنكو أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى روسيا تؤيد نظريته العلمية ..

ومنــذ تلك اللحظة أصبحت نظرية ليسنكو نظرية رسمية فى الاتحاد السوفيتى .. ولم يرتح هالدين الى هذا الوضع ، لم يقبل أن يحسم البحث العلمى بقرارات سياسية من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، وزاد سخط هالدين ، أن الحزب الشيوعى الانجليزى بدأ بعد ذلك حملة دعاية لنظريـــة ليسنكو العلمية عن البيئة والوراثة ! بدأ ينشر كتبا لأساتذة غيرمتخصصين تماما، يقولون فيها أن النظرية صحيحة . فى حين أن هالدين ، أكبر ذهن بيولوجى فى انجلترا ، وعضو الحزب ، لا يقر تماما هذه النظرية ..

وأعلن هالدين استقالته من الحزب الشيوعى ! قال انه ما زال محتفظا بمعتقداته السياسية ولكنه لايستطيع أن يطيع أوامر الحزب فى مسائل علمية ! ..

وقد كانت الحرب العالمية الثانية من انشط الفترات فى حياة هالدين ، من الناحية العلمية او السياسية ، على السواء ، كان يكتب فى الصحف بلا انقطاع ، يشرح ويبسط النظريات العلمية المعقدة ، ويربط الثقــافة العلمية بالتيارات السياسية ، ويبث الوعى بضرورة مكافحة الفاشية حتى النهاية ، وفى نفس الوقت ، كان يكرس مجهوده العلمى البحت فىخدمة المجهود الحربى. لجأت اليه انجلترا فى أبحاثها على صــناعة الغواصات وكان من أجل التجارب على قياس الضغط تحت الماء ، يحبس نفسه احيانا فى غرف التجارب ، كان يجرى

التجارب على نفسه ، متعرضا لأخطار الموت اختناقا أو بالانفجار الداخلى ، وفى احدى تجاربه على نفسه أصيب هالدين بجراح ، ولكنه ظل حتى آخر الحرب يقاوم الفاشية بعلمه وبقلمه ، وبثقافته ..

وفى آخر مرة تحدث فيها فى الاذاعة البريطانية ، كان المذيع يوجه اليه أسئلة وهو يجيب ، فقال انه يتمنى ان يسافر يوما الى الهند ، وأن يساهم فى برنامجها الثانى للسنوات الخمس ، وانه معجب بالطريقة التى تتجه بها الهند الى الاشتراكية ، ولم يكن هالدين يتوقع ان تجىء المناسبة لتحقيق امنيته بهذه السرعة ، عندما بدأ العدوان الانجليزى على مصر ..

واعود الى كتاب هالدين « اذاعة ممنوعة » ..

ان لهذا الاسم أيضا قصة .. قصة انفجار من انفجارات حياته .. فقد نظمت محطة الاذاعة البريطانية سلسلة من أربعة أحاديث عن موضوع واحد هو : « لماذا تقوم الحرب ؟ » واختارت أربعة متحدثين من أبرز الشخصيات ، وهم :

القسيس انج ، وسير نورمان انجل ، ولورد بيفربروك ، ثم هالدين . وأذيعت الأحاديث الثلاثة الاولى ، وجاء الدور على هالدين ، فاذا به يقدم حديثا ناريا يهاجم فيه السياسة البريطانية ، والاستعمار البريطانى ورؤوس الأموال الاحتكارية فى انجلترا . ويسخر من المتحدثين الثلاثة الذين سبقوه ! ..

ورفضت الاذاعة البريطانية أن تذيع الحديث ! وأعاد هالدين النظر فى حديثه ، فخفف بعض الكلمات القاسية ، ورفع المعانى الجارحة .. ولكن الاذاعة رفضت أيضا أن تذيعه ، ورفض هالدين أن يغير فى حديثه أكثر من ذلك ، ونشره بصورته الاصلية فى جريدة الديلى هيرالد ، جريدة

حزب العمال ، مع حمـــلة عنيفة على الديمقراطيـــة الانجليزية ، والحياد المزعوم لمحطة الاذاعة البريطانية..

وعندما جمع هالدين مجموعة مقالاته وأحاديثه فى كتاب ، أعاد نشر هذا الحديث ، وأطلق على الكتاب كله اسم « اذاعة ممنوعة » ! ..

ماذا قال هالدين فى هذه الاذاعة الممنوعة ؟

* ان الذين يقولون أن الحرب سببها الخوف والحقد كمن يقول ان الحرائق سببها وجود مادة الاكسجين فى الهواء ، نعم ان الاكسجين موجود فى الهواء ، وهو قابل للاشتعال ، ولـكن ما هى الاسباب العميقة الاساسية لاشتعال الحرائق ؟ ..

* اذا اشتعلت الحرب ، فابحث عن الذين يكسبون منها . هذه كلمة قديمة ، وليس كارل ماركس هو الذى قال : « حيث توجد أموالكم ، توجد قلوبكم ! »

* أنا لا أقول بالطبع ان حاملى الأسهم فى شركات السلاح يطالبون بالحرب ، كلا ، ولكنهم فقط يعرفون أن زوال شبح الحرب يهبط بالأرباح التى توزع عليهم فى آخر السنة .. اننى أريد أن أقول الحقيقة فى أرق كلمات ممكنة ، حتى لا يغضب أحد ويقلق الراديو ، ان حملة الأسهم هؤلاء لايتألمون كثيرا ، اذا قامت حرب صغيرة فعلا ، فى مكان بعيد عن بلادنا ، اذا كانت هذه الحرب الصغيرة ، البعيدة ، ترفع ايراداتهم ! ..

* ان الجيوش المحاربة لا تحتاج الى السلاح فقط ، انها تحتاج الى كل شىء من الثيـــاب الى الاحذية الى الخضر واللحوم . فلو قامت حرب ، حرب بعيدة جدا ، حتى لاينزعج أحد ، بين روسيا واليابان مثلا ، فسوف تروج التجارة ، سوف يشتد طلب الدول المحاربة على كل شىء ، من السلاح الى أحذية الجنود وطعامهم ! ..

واقلب بعد ذلك صفحات الكتاب ، والتقط منه هذه الخواطر والأفكار :

* يقول لورد بيركنهد: انعلم السياسة وعلم القانون هما أقل العلوم قابلية للتغيير العميق ، وهـذا خطـأ تماما .. لقد راح عهد احتكار المحامين ورجال القانون للسياسة ، اننا نجد الآن بين رؤساء الدول من كانوا مهندسين أو علماء أو ضباطا ، ان أفول نجم « المحامى السياسى » وذهاب احتكاره له مغزى عميق.. ولنضرب مثلا بسيطا : ان العلماء يعرفون مثلا ان « النحاس » و « الالومنيوم » لهما خصائص واحدة ، فكلاهما موصل جيد للحرارة ، وعلىهذا الأساس نعاملهذين العنصرين معاملة واحدة ، ولكن انظروا الىالامبراطورية البريطانية مثلا : ان فيها عناصر كثيرة مثل السكسون والعرب والهندوس والزنوج ، كلها عناصر بشرية لها خصائص واحدة ، ولكن الساسة الانجليز لايعاملونها بالطبع معاملة واحدة ، ولا يعطونها حقوقا واحدة ! ..

* الامبراطورية البريطانية (من حيث الاستراتيجية الجغرافية) دولة قوية فى حالة الهجوم ، لأن قواعدها منتشرة فى كل مكان ، ولكنها دولة ضعيفة جدا فى موقف الدفاع ، لأن حياتها تعتمد على الخارج ، فهى عرضة للاختناق السريع .. أما روسيا ، فهى بحكم وضعها الجغرافى أيضا ، على العكس تماما ، فهى ضعيفة فى الهجوم ، ولكنها قوية جدا اذا كانت فى موقف الدفاع..

ووضع الامبراطورية البريطانية هذا (اذ هى قوية فى الهجوم وضعيفة فى الدفاع) سيىء من ناحيتين : فهو يجعل الآخرين يكرهوننا ويخافون هجومنا عليهم ، من ناحية ، ويجعلهم يظنون أن الهجوم علينا سهلمن ناحية أخرى ، فلو قوينا أنفسنا داخليا ، ووجهنا أقل تهديد

للآخرين ، فسوف تقل ولا شك أسباب الحروب ! ..

* ان أروع ماصنعه هتلر .. هو انه وحد صفوف الكثيرين ضده . انني أحارب ضد هتلر ، من أجل شيء يتفق عليه .. أنا ، وعامل انجليزي وفلاح صيني ، ومليونير أمريكي ، وقومسير سوفييتي .. هذا الشيء الذي اتفقنا عليه هو : ان كل فرد في الحياة يستحق أن يكون له اعتبار ، وهذا ما ينكره هتلر .

* انني أحب أن أرى وطني انجلترا ينتصر ، ولكن ليس معنى ذلك انني كنت أتمنى أن ينتصر وطني ضد ثورة الاستقلال في أمريكا . أو ضد ثورة الهند ..

* انني أريد ان أرى الاشتراكية تسود في انجلترا . ولكنها لن تكون اشتراكية كالموجودة في روسيا ، ان الكنيسة البروتستنتية مثلا تختلف عن الكنيسة الارثوذكسية ولكن كلتيهما مسيحية ..

* انني أعرف كثيرين ألمان وطليان ويابانيين ، سعداء لأنني احارب ضد حكوماتهم ، ذلك انني احارب من أجل حريتهم ! ..

* أعلن أخيرا ان ثلاثة من المؤرخين اخذوا جائزة ضخمة لأنهم ألفوا كتابا من ثلاثة أجزاء عن تاريخ الفلسفة ، وقد سألني ناس كثيرون : ما قيمة نظريات الفلسفة القديمة الآن بالنسبة للعلم !.. ما معنى أن نبذل مجهودا لدراسة أفكار ناس قدامى ، ثبت بطلان أغلبها ..

لهؤلاء أقول : ان هناك أسبابا كثيرة تبرر دراسة ما قاله الفلاسفة قديما ، ان هذه الأفكارالقديمة الخاطئة ، كان لدى أصحابها أسباب وحجج قوية لاعتناقها ، وعندما ندرس هذه الحجج ، ونعرف التجارب التي اثبتت بطلانها بعد ذلك ، فهذا يساعدنا على معرفة

الصواب من الخطأ فى كثير من المسائل التى تعترضنا اليوم ..

ودراستنا لهؤلاء الفلاسفة القدماء تعلمنا كيف ان كل مفكر انما يعكس العصر الذى يعيش فيه فقط ، وبناء على ذلك فأى مفكر اشتراكى اليوم لايستطيع أن يصف المجتمع بعد عدة أجيال قادمة من تطبيق الاشتراكية .

ثم ان معرفتنا لهذه المبادىء القديمة تجعل مبادئنا التى تؤمن بها اليوم اكثر صلابة ، ان كثيرا منا يأخذون هذه المبادىء على انها بديهيات مفروغ منها ، ولكن دراستنا لمن سبقونا تعلمنا كيف ان أناسا آخرين أذكياء ، كانت لهم آراء مختلفة عنا تماما ..

ثم اننا محتاجون لأن نستعد للمستقبل ، ولن نستعد للمستقبل الا بناء على فلسفة ما ، ان بعض الناس يقولون : علينا أن نؤدى واجبنا طبقا لما تواضع عليه البشر ، والله بعد ذلك يصنع ما يشاء ..

وآخرون يقولون : ان التطور التاريخى سيقع حتما ، سواء عملنا أم لم نعمل .. وكلا القولين خطأ ، ان المستقبل يتوقف أيضا علينا ، حتى ولو كنا نحن أنفسنا جزءا من حركة التاريخ ، وهذا الايمان شىء عظيم ، يلهمنا العمل والفكر والانتاج ..

ونحن اذن محتاجون دائما الى فلسفة والى مرشد يقودنا الى العمل ، وأيا كان نوع المذهب الذى نؤمن به ، فلن نفهم الا اذا عرفنا تاريخه جيدا .

لهذا كانت معرفة تاريخ الافكار والفلسفات أمرا هاما وضروريا .

* قراء كثيرون يسألوننى عن بعض مشاكل علم النفس : كيف أتغلب على خوفى من كذا ؟ كيف أعالج نفسى من نقص كذا ؟ وأنا لا أفهم كثيرا فى علم النفس ،

ولكنني أقول لهؤلاء ببساطة : ان الانسان يستطيع أن يتغلب على كثير من مشاكله النفسية الداخلية اذا أهتم بشيء كبير ، خارج حدود نفسه .

ان هجرة هالدين ، وطنه وجنسيته ، وهجرة علماء كثيرين تحت وصف قانون مختلف ـ هو خيانة الأسرار الذرية من هذا المعسكر الى ذاك ـ ظاهرة من ظواهر عصر العلم .. عصر الوصول الى مفاتيح رهيبة لها أعظم الأثر فى حيـــاة العالم .. حاربها مكتشفوها ، فى أى مجتمع وأى نظام يضعونها .! ! ـ

فى مطابخ الثورات

انهم يعملون للثورة بأيديهم وأسنانهم . كل واحد منهم وضع مصلحة الثورة فوق مصلحته الشخصية ، وفوق حاجاته الخاصة ، بل وفوق وجوده وحياته ذاتها

حياتهم متسممة بأفكار الذات المطلق ، والتخلى عن كل طيبات الحياة . وغالبا ما تنتهى حياتهم هذه بتضحيات بطولية كالاساطير . انهم ناس لا ينتمون الى النمط العادى للناس . انهم مفرغون من كل ما يشغل الناس العاديين ، من مشاكل الأسرة ، والنجاح فى العمل، والسعادة الشخصية . انهم لايعيشون فى الحاضر، ولا يتذوقون له طعما .. انهم يعيشون فى المستقبل .. يتظلمون حين تهب رائحته عليهم !

هؤلاء هم الثوار !

انك اذا نظرت اليهم من بعد ، خيل اليك انهم ـ جميعا ـ متشابهون . ولكنك اذا عشت معهم، وخالطتهم عن قرب ، فسوف تجد انهم نماذج مختلفة متفاوتة ، بل انك قد تدهش حين تجد بين أعنف الثائرين من هو فى حقيقته أبعد ما يكون عن محتوى الثورة الحقيقى !

هذا رأى واحد من الثوار أنفسهم . واحد من الثوار الذين اشتركوا فى ثورة أكتوبر الكبرى فى روسيا سنة ١٩١٧ ..

ان ستينبرج هو الوحيد الحى الباقى الى الآن من مجلس وزراء لينين الاول الذى أسفر عن الثورة فى بطرسبرج التى أصبحت ليننجراد ! كان زعيما للجناح اليسارى فى حزب الاشتراكيين الثوريين ، الذى تحالف مع حزب لينين البلشفى فى تدبير الانقلاب المسلح ضد حكومة كيرنسكى ، ثم كان وزيرا فى أول مجلس وزراء سوفييتى ، وكان يومئذ فى التاسعة والعشرين من عمره فقط .

ولكنه لم يلبث بعد ذلك ان أصبح واحدا من « الذين كنسهم التاريخ فى ترابه » . وهو التعبير الذى أطلقه تروتسكى آنذاك على الذين عجزوا عن مواصلة الثورة الى النهاية . فقد أصبح معارضا للينين ، ثم قبض عليه ، ثم فر .. الى حيث يعيش الآن ، فى الولايات المتحدة الامريكية .. فهناك لحق ستينبرج بمن انقلب عليه «كيرنسكى» الذى كان قد سبقه الى هناك ، ثم لحق بالاثنين، الى المكسيك ، تروتسكى نفسه ، أشهر الأسماء التى كنسها التاريخ فى ترابه !

والف ستينبرج كتابا سماه «فى مطبخ الثورة» تحدث فيه عن الايام التاريخية بين سنتى ١٩١٧ و ١٩٢١ . والكتاب بالطبع ملىء بالأحكام والحملات الشخصية ، ومكتوب بكل غيظ وموجدة « واحد من الذين كنسهم التاريخ فى ترابه » بعيدا عن مجرى الثورة .. ولكن ما لفت نظرى فيه هو فصل يقول فيه الكاتب : ان الثوار، وان بدوا متشابهين، الا أنهم فى الواقع ينقسمون الى خمسة أنواع .. عرفتها ، وستظل تعرفها ، كل الثورات ...

النوع الاول هو الثائر من أجل نفسه ، انه ذلك المواطن الذى يثور بسبب الظلم الواقع عليه شخصيا . انه ذلك

الذى يندفع اندفاعا تلقائيا ، ويحارب باخلاص ، من أجل نفسه ، من أجل حقوقه المنتهكة ، وحياته الضائعة المهدورة . انه عنصر أساسى فى كل ثورة من ثورات التاريخ : عنصر جمهور الثورة ، وتابعيها ..

هــذا النوع من الثوار ، هو الجمهور الذى صنع انتفاضات العبيد فى العصر القديم ، وثورات الفلاحين فى العصور الوسطى ، وهو الذى صنع العواصف التى اجتاحت شوارع باريس فى الثورة الفرنسية .

انهم الرجال المسحوقون، الذين يحدث لهم ، فى لحظة تاريخية خاصة ، أن يكتشفوا أنهم يمكن أن يكونوا بلا أغلال على الاطلاق .. وفى قوة بركانيــة ، تنفجر من قلوبهم نيران الألم والغضب والحقد والانتقام ! كل حب الفرد لعائلته وناسه ، مقترنا بالكبت المرهق الطويل ، ينفجر ! لا يبقى ولا يذر !

وليس معنى ذلك ان هذا النوع من الثائرين «انانى» بالمعنى الضيق الشائع .. انه يقدم أكبر التضحيات ، ويأتى أروع ضروب البسالة والاستشهاد .. ولكن نقطة البدء فى نفسه هى : حقوقه المكبوتة ، شرفه المثلوم ، ايامه الحافلة بالفقر والضعة ، خوفه من أن تفشــل الثورة وتعود الايام السوداء !

أن المؤلف يروى لنا مشهدا مؤثرا ، عاشه فىموسكو سنة ١٩١٩ .

كان المسرح يقدم رواية عن سجن كارتوجا القيصرى الرهيب . لم تكن رواية لها حبكة وبداية ونهاية.كانت مجرد عرض أمين دقيق لروتين الحياة فى ذلك السجن. مجرد المنظر الحقيقى للسجن والزنزانات ، والمساجين والسلاسل ، والمشاجرات والفظاعات.. بدون اى مؤثر

مصطنع ، ولا حتى لحن موسيقى . وكان المسرح مكتظا بمئات الرجال الخشنين الشجعان ، الذين خاضوا وما زالوا يخوضون أعنف الأحداث . وفجأة ، فى لحظة واحدة ، بكت القاعة كلها ! تلفت المؤلف حوله فرأى أعتى المحاربين من العمال والفلاحين والجنود وقد تكسوا رؤوسهم ، يبكون كالاطفال ، وبكاء يذيب الصخر !.. وكان الواحد منهم يهمس بين دموعه المتساقطة : تمام ! مثل زنزانتنا بالضبط ! كيف احتملنا ! كيف عشنا هذا ! تصور ! تصور لو عاد هذا مرة أخرى !

دموع خارجة من بئر عميق .. من قلب عرف المرارة بكل خلية فيه ! ..

ويروى الشاعر الروسى «الكسندر بلوك» ، وكان من الاقطاعيين ، انه كان يتنزه هو وعروسه على ظهر جواديهما ذات يوم فى احدى مزارعه .. وقد بدا لهما ان كل شىء جميل سعيد .. حتى الشمس ، والخضرة المزدهرة ، كانت كأنها تشاركهما الفرحة . وفجأة ، لاح على الطريق فلاح عجوز .. واحد من عشرات الملايين الذين يعملون فى الارض الروسية .. ظهر فى أسمال بالية ، محنى الظهر ، مغضن الوجه بآلام أجيال من العبودية . ولم يكد الفلاح يراهما حتى تنحى بسرعة ، ووقف فى الحقل صامتا ريثما يمر السيدان .. وفى لمحة ، التقت عينا الشاعر سليل النبلاء بعين الفلاح العجوز .. وفى هذه اللمحة رأى فى عينيه مزيجا مثيرا من الرهبة ، والاحترام ، والحقد ، والخوف ، وكراهية عميقة . وفى تلك اللحظة ادرك الشاعر ماذا حدث فى نفوس هؤلاء النـاس ، والهوة الساحقة المخيفة التى تفصل بين القلة المتمتعة والكثرة من التعساء .. فلما نشبت الثورة ، وجاءت أنبـاء

الفلاحين الذين هجموا على بيوت الاقطاع فى بسسالة واحرقوها ، تذكر الكسندن بلوك على الفور : هاتين العينين ! ..

النوع الثانى من الثوار ، هو : الثائر العلمى ..

هذا الثائر لا ينبع نشاطه الثورى من العاطفة ، أو من التجاوب التلقائى مع الحوادث ، ولكنه يستمد دافعه من اقتناعه المطلق بنظرية علمية واضحة ، وعملية حسابية محددة . انه يحمل فى نفسه منطلقا صارما لايرحم ، واقتناعا بحتمية تاريخية لا مفر منها .

وليس معنى ذلك ان الثوار من هذا الطراز لايحسون المشاعر الاخرى .. كالألم للواقع الانسانى الظالم مثلا.. فلا شك انهم قبل كل شيء ناس من ذوى الضمائر، ولكن القوة الكبرى التى تدفعهم الى تقديم التضحيات الهائلة هى : قوة الاقتناع العقائدى ، والحساب اليقينى ..

والثائر العلمى فى الثورة الروسية كان الثائر الماركسى اللينينى . ولكن الثوار العلميين كانوا موجودين فى كل ثورة أخرى حتى قبل ظهور الماركسية : كل ثورة كان فيها الثوار أصحاب الحساب الواضح والاقتناع الراسخ بأنهم أداة مرحلة حتمية من مراحل التاريخ .

والنموذج الاساسى الذى يقدمه المؤلف على هـذا الطراز من الثوار ، هو ، لينين نفسه . فقد كان لينين يعتقد أن الثورة هى الأداة أو العجلة التى يسير بها التاريخ فى طريقه الحتمى . وانه ـ أى لينين ـ ليس الا «ميكانيكى» يعمل فى خدمة هذه الأداة أو العجلة والعناية بها .. ومن هنا كان عزوف لينين عن أية محاولة لفرض اسمه الشخصى على مسرح الحوادث ، ونفوره من أى دعاية شخصية له .. اذ كان يعتبر هذا عملا ضارا ،

وغير علمى !

والمؤلف يوجه نقدا عنيفا لهذا النوع من الثوار ، فيقول : انهم عادة أقدر النـــاس على اتخاذ القرارات القاسية . انهم يركزون على المستقبل ، وعلى تحقيق العمل التاريخى الكبير ، لدرجة انهم لا يبالون بالثمن ، أو بالآلام التى قد يدفعها الافراد من أجل تحقيقها .. « نفس المنطق ، الذى جعل النمل البشرى ، منذ أربعة آلاف سنة ، يبنى الاهرام ، من أجل مجد فرعون الخالد»

هذا الثائر يطلب من الفرد العادى ثمنا باهظا « ومن أين للرجل الصغير ، المحدود الزمن والمسافة والنظرة ، أن يستوعب الصورة الشاملة لزحف التاريخ العظيم ؟ »

انه يريد أن يحصل على ثمرة تنفعه اليوم ، لا غدا . انه يقول : بيتى ! ولا يقول : العالم ..

الثائر العلمى يظن أن كل انســـان يمكن أن يحتمل ويضحى كما يضحى الثائر ، وهذا غير صحيح !

والواقع ان هناك ردا بسيطا على كلام المؤلف . والرد هو ان قرارات الثائر العلمى ، تجد من التاريخ دائما ما يبررها . والمسألة تتوقف على نوع البناء : فبناء خزان هائل يرفع مستوى معيشة الناس وينتشلهم من وهدة الفقر ، ليس كبناء أهرام هائل لدفن فرعون واحد ميت !

والثائر الجمالى هو النوع الثالث من الثوار . انه الثائر الذى تدفعه الى الثورة حاســـة مرهفة تتذوق الجمال وتتفهمه .

فقد تجد ــ مثلا ــ انسانا يعتنق الاشتراكية ، لأن النظام الرأسمالى أو الاقطاعى ، بما ينطوى عليه من اسراف فى ناحية وفقر فى ناحية أخرى ، يؤذى احساسه

الفنى بالجمال .. انه يرى القبح والتشويه والكآبة والضياع .. فى حياة الفقير وحياة الفنى على السواء ..
ان هؤلاء الثوار ناس أزعجتهم عفونة المجتمع ، فهم يحلمون بمستقبل « أجمل » !

ويضرب المؤلف لهذا النوع أمثلة من كتاب انجلترا وفنانيها ..
كان « جون رسكين » مثلا يصف المستقبل الذى يريد صنعه وصفا فنيا فيتحدث حتى عن تغيير الثياب ، وطراز البيوت ، ومفرش المائدة ..

وأوسكار وايلدكان يريد تدمير حياة الارستقراطيين ، لأنها خالية من الجمال.. لأنه كان يراها حافلة بالتظاهر ، والسخف ، والثراء المضيع ، والجفاف الروحى ..

و « وليم مدريس » فى كتاب له بعنوان : « كيف اصبحت اشتراكيا » يقول : ان نقطة البدء فى الثورة هى احياء فن الشعب ، وهى أن تخلق لدى الشعب الفقير الرغبة فى الاستمتاع بالجمال ، وتقنعه بأن الجمال والفن أشياء هامة فى حياته كالخبز .

وهناك من ثوار الجمال هؤلاء نوع آخر ، اولئك الذين يجدون فى « اللحظة العظيمة » جمالا فنيا بديعا . فى ذهنهم صور وثورات تاريخية سلفت ، وأحداث وأمجاد .. ثم هم يجدون أنهم يعيشون فى لحظة ثورة أخرى مجيدة .. ويرون أمام أعينهم مشهدا مهيبا ، فيجدون فى ذلك لذة غامرة ، لذة خروج حياتهم من الروتين العتيق .

ويروى المؤلف قصة طريفة عن ثائر مشهور من رفاق لينين ، هو « لوناتشارسكى » ، الذى كان على ما أظن أول وزير للتعليم بعد الثورة الروسية .. فيقول : ان

اكبر همومه خلال أيام ثورة أكتوبر العاتية ، كان الخوف من أن يصاب أثر من الآثار الفنية أو الكنوز التاريخية بالدمار ، وعندما أصابت قنبلة طائشة متحف الفنون ، ثار وقدم استقالته احتجاجا ، ونشر بيانا علنيا يندد بذلك ، وكان لينين يطيب خاطره ضاحكا ..

الثائر الرابع فى هذا الجدول من الثوار ، هو الثائر الشفوق .

هذا الثائر لايثور لظلم وقع عليه شخصيا ، ولا لأنه يؤمن بنظرية علمية تدفعه الى الثورة ، ولكنه يثور بسبب الظلم الواقع على الآخرين. انه ذلك الذى يمكن أن نسميه بالرجل الشريف ، ذي الضمير الحى .. أنه لايطيق أن يرى الآخرين محطمين مهانين .

ويقول المؤلف ان الادب الروسى فى القرن التاسع عشر ، كان يركز جهده على اثارة هذه الروح فى النفوس ، على ايقاظ عواطف الناس وضمائرهم : ففى رواية «الجريمة والعقاب » لدستويفسكى لابد أن يعطف القارىء على «راسكولينكوف» .. كما لابد أن يعطف على «كاتيوث» فى رواية «البعث» لتولستوى ، وعلى المشردين الذين تحفل بهم روايات مكسيم جوركى .

انه الثائر الذى يثور ، نيابة عن الضعفاء والتعساء !

وعيب هذا النوع من الثوار ، ان علاقة العطف والشفقة تفترض وجود قوى وضعيف . القوى هنا يشعر أن الضعيف يحتاج الى مساعدته وعطفه ، ومن العطف والمساعدة يتدرج الى الرغبة فى الوصاية على هذا الضعيف . انه يشعر بأنه مسئول عن الضعفاء . وهذا فى رأى المؤلف طريق قصير الى : الدكتاتورية ...

وعلى العكس من ذلك ، النوع الخامس والاخير من

الثوار ، وهو الثائر المحب ! ..

ان الثائر بدافع الحب ، يثور أيضا بسبب الظلم الواقع على غيره ، ولكنه يختلف عن الثائر الشفوق ، لأن علاقة الشفقة ليست علاقة مساواة ، أما علاقة الحب فهى علاقة مساواة كاملة ..

ويضرب المؤلف مثلا على هذا النوع من الثوار بحركة المثقفين الروس قبل الثورة ، التى سميت «حركة الرجوع الى الشعب» . ونماذجهم موجودة فى المثقفين الذين نصادفهم فى رواية « الأم » لمكسيم جوركى .

ان الثائر المحب يحب الانسانية كلها حبا عميقا .. يريد لبنى البشر كلهم أن يتحرروا . انه يربط مستقبله تماما بأقل طبقات المجتمع . انه يرتكب العنف مع انه يكره العنف ، انه يحمل السلاح وهو يكره السلاح . ان نموذجه هو الثائر جريجورى جرستون الذى قال للقضاة الذين كانوا يحاكمونه :

ـ اننا نكرهكم ، لا لأنكم تسفكون دماءنا .. ولكن لأنكم ترغموننا على أن نسفك دماءكم !!

ونموذجه أيضا: الفتاة الروسية نيستولارا جوزينيكوف ، التى وضعت الديناميت حول جسدها وهى فى العشرين من العمر ، لتنسف مقر البوليس القيصرى ، وتخلط اشلاءها بأشلائه .. وعندما ذهب بها جلادوها الى حيث ينفذون فيها حكم الاعدام ، كانت تغنى فى الطريق ، وتداعب الجنود ، الذين كانوا يرتجفون رعبا وتأثرا لمشهد ثباتها وتفاؤلها .. وحتى اللحظة الاخيرة رفضت أن تبوح باسم واحد من أسماء رفاقها .. وقالت لهم : ليس الواجب وحده هو الذى دفعنى الى هذا العمل .. ولكنه شىء أكبر من ذلك . انه الحب ! حب الانسانية كلها .

ما اجمل أن نحب الناس ! وما أعظم القوة التى يمنحها لنا الحب ! »

***

ربما كانت الملاحظة التى يمكن أن تقال تعليقــا على هذا الكتاب : هى ان هذه الانواع الخمسة ليست ـ بالضرورة ـ منفصلة . ولكنها كثيرا ما تمتزج كلها ، أو يمتزج بعضها ، فى نفس ثائر واحــد .. فنجد ثائرا واحدا يثور بالمنطق العلمى ، وبالحب ، وبحاسة الجمال معا .. وهو عادة النوع العظيم من الثائرين !

الإعلانات .. الإعلانات

هل يوجد شيء اسمه حرية اقتصادية ؟

بل هل يوجد شيء اسمه « حرية » على الاطلاق ؟..

هـذا هو السؤال الذى يسأله المرء لنفسه ، حين ينتهى من قراءة هذا الكتاب العجيب الغريب.. الكتاب الذى يقول مؤلفه ـ على غلافه ـ « انه يكشف لنا كيف ان رجال الاعلانات يستغلون غرائزنا وأمراضنا النفسية لكى يبيعوا لنا كل شيء .. من الثياب النايلون الى الزعماء السياسيين » .

وقد أحدث الكتاب ضجة هائلة حين صدر فى الولايات المتحدة الامريكية.. ومن يوم صدوره دخلت اصطلاحاته وتعبيراته فى أغلب الكتب والمقالات .. وأصبح عنوانه : « الدعاة المتسترون » لقبا يطلق على رجال الدعاية ، والاعلان ، والعلاقات العامة ، من جميع الاشكال والالوان

ودائما ، حين أقرأ أو افكر فى أى موضوع سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى ، أجد انى اتأمل فى النهاية صورة واحدة : صورة المواطن العادى.. الرجل البسيط أو المرأة البسيطة أو الطفل البسيط ..

وحين اكتشف ـ فيما أقرأ ـ القوى الهائلة التى تتحكم فى الفرد فى عالمنا هذا الحديث .. تفزعنى صورة الفرد العادى البسيط .. فى وحدته وفى ضآلته .. فى

وقفته أمام الأدوات الجبارة التي تصنع له آراءه السياسية وعقائده الاجتماعية ، وذوقه في اختيار الثياب ، وطريقته في معاملة زوجته .. ثم تبتسم هذه الأدوات الجبارة ، كاشفة عن أسنانها الفولاذية الضخمة ، وتقول للفرد الصغير البسيط :

ــ أنت حر ! ..

نعم حر ! حرية الريشة في مهب الرياح ! حرية النملة في غابة تسكنها الأفيال ! ..

وقد كانت الطريقة القديمة ، البدائية ، التي يفقد بها الفرد حريته ، هي أن تصدر اليه الأوامر والنواهي من الخارج ، مصحوبة بالتحذيرات والتهديدات ، فيخضع ويذعن، ويتصرف كما تقول له الأوامر والتعليمات. ولكن هذه الصورة أصبحت قديمة . ففيها قد يتقيد الانسان في الظاهر ولكنه يحتفظ ــ على الأقل ــ بحرية مطلقة في باطنه .

كانت مشكلة الفرد في مثل هذا الوضع أن نصفه ــ الخارجي ــ عبد ، ونصفه ــ الداخلي ــ حر ! ..

أما العصر الحديث ، وأدوات العصر الحديث ، وعلوم العصر الحديث .. فهي لا تكتفي بأن تصدر الى الفرد تلك الأوامر والنواهي من الخارج . لقد اكتشفت في هذا الفرد آلافا من الثقوب تستطيع أن تتسرب منها الى باطنه ، وتحتل نصفه الداخلي الحر ، وتصدر اليه الأوامر من الداخل ! ..

أليس هذا فظيعا ؟ ..

ان الانسان يعيش الآن في مرحلة تتميز بأن الأدوات التي خلقها الانسان والعلوم التي اكتشفها أصبحت أقوى منه ــ أي من الانسان نفسه .

وصراع الانسان الاجتماعي ، وكفاحه للبحث عن

فلسفة اجتماعية جديدة ، غايته فى الواقع أن يحل هذه المشكلة ، وأن يتوصل الى نظم تضع الانسان على عرشه الطبيعي : حيث يستطيع أن يكون أقوى من الادوات التى خلقها .

واذا كان هذا الوضع فظيعا ، فالأفظع منه ان الانسان لايدرى الى أى حد هو يعيش فاقدا حريته !.. بل انه أحيانا يتشدق ويزهو بأنه يعيش فى حرية مطلقة !..

أليس الانســـان الامريكى مثــلا ، من ابرز الذين يتباهون بهذا الوهم ؟..

ان هذا الـكتاب The Hidden Persuaders لمؤلفه « فانس باكارد» يروى لنا قصة غريبة !.. قصة فن الاعلان !

كانت الطريقة البسيطة هى أن يعمد البائع الى سؤال الناس واستفتائهم عما يريدون . ثم ظهر أن الاجابات التى يدلون بها لا علاقة لها أبدا بالحقيقة . ما يقولونه للسائل لا يمت بصلة لسلوكهم الحقيقى لحظة الشراء . فلو سألت واحدا من الناس ماذا يسمع فى الاذاعة مثلا ، فقد يقول لك «الاحاديث» لمجرد أن هذا هو ما يليق بمقامه ، فى حين انه فى الواقع لن يفتح الراديو الا ليستمع الى الاغانى ، فالمهم اذن معرفة هذه الحقيقة . ووصل خبراء الإعلان الى ثلاث حقائق :

أولا : ان الفرد لايعرف بالضبط ماذا يريد .

ثانيا : انه حتى اذا كان يعرف ، فانه لن يعترف لك بالحقيقة . انه يجيب بما يناسب الصورة التى يرسمها لنفسه أمام الناس ، لا بما يعبر بصراحة عن نوازعه الخفية .. سئل الناس مرة عن المجلات التى يقرأونها ، فكانت أغلب الاجابات تشير الى المجلات ذات المستوى الرفيع ، فى حين ان هذه المجلات لا تبيع الا قليلا .

وفى مرة أخرى أرادت احدى مؤسسات الاثاث أن

تعرف ذوق الناس فجاءت قبل احدى المحاضرات التى تقبل عليها النساء وفرشت حجرتين للانتظار : حجرة فرشتها بأثاث عصرى بسيط ، وحجرة فرشتها بأثاث كلاسيكى قديم وتحف تاريخية .. الى آخره ، ولاحظ المراقبون الواقفون سرا ان النساء يقبلن على الجلوس والانتظار فى الحجرة الاولى . ولكن حين سئلن اى طراز من الاثاث يفضلن؟ أجبن : الاثاث التاريخى. ذلك ان هذه الاجابة تظهر من تقولها فى هيئة المثقفة بنت العائلة العريقة فى حين انها فى لحظة الاختيار التلقائى ، ذهبت وجلست فى الحجرة البسيطة .

شركة سيارات كريزلر صدقت ما قاله الناس فى الاستفتاءات من انهم يفضلون سيارة بسيطة ، حجمها معقول ليسهل ركنها فى الشوارع المزدحمة .. الى آخره وصنعت سياراتها على هذا النحو واذا بها تكسد كسادا رهيبا هدد الشركة بالخطر . فقد اشترى الناس السيارات الكبيرة ذات الاجنحة والتى لاتتناسب أبدا مع الزحام ، لأنها ترضى أثرا نفسيا معينا فى أفئدتهم .

وقد واجه المعلنون فى أمريكا مشكلتين خطيرتين :

المشكلة الاولى انكل أمريكى تقريبا أصبح يملك سيارة وثلاجة وراديو وجهاز تليفزيون وما الى ذلك ، وعدم استبدال هذه الاشياء الا بعد أن تستهلك .. معناه ان يقل البيع بشكل ذريع ، وهذا غير معقول ، اذن لابد من اثارة سخط المواطن على ما لديه . لابد من جعله يشمئز من فكرة بقاء سيارته دون تغيير أكثر من ثلاث سنوات ، لابد من اقناعه أن سيارته التى اشتراها وكان شكلها بديعا منذ سنتين قد أصبح الآن شكلها قبيحا جدا ! ويسمى المتخصصون فى هذا الفرع باسم « تجار السخط » .

المشكلة الثانية هي ان كل السلع ذات النوع الواحد بدأت تتشابه الى حد بعيد ، فلا يوجد فى الواقع أى فرق جوهرى بين الانواع المختلفة للسيجارة أو الويسكى او البيرة أو معجون الاسنان أو البوتاجاز.. اذن كيف يقنع المعلن المستهلك بأن يشترى هذه الماركة دون تلك ؟.. واجتمع مؤتمر المعلنين لمناقشة مشكلة اتجاه السلع الى التشابه السريع واتفقوا على انه لايمكن اقناع المستهلك هنا عن طريق العقل الواعى .

اذن فلا بد لمواجهة المشكلتين السابقتين من التأثير على العقل الباطن !

وقد توصل علمـاء النفس الذين يخدمون شركات الاعلان الى أن وعى الانسان ـ أى انسان ـ له ثلاثة مستويات أو ثلاث درجات :

الدرجة الاولى : يكون فيها وعى الانسان كاملا ، فهو يعرف ما يريد بالضبط ولماذا يريده .

الدرجة الثانية : هى العقل الباطن ، والانسان فيها ربما يتحسس بوجه عام ما يريد ، ولكنه متأثر فى ذلك بعوامل خفية..كمخاوفه وأحلامه غير المتحققة ونوازعه وما الى ذلك .

والدرجة الثالثة : هى النوازع والمشاعر التى لايعرفها الانسان .. واذا عرفها فهو لايناقشها .

وقال خبراء الاعلان : أن رسالتهم هى التركيز على الدرجتين الثانية والثالثة فى نفس الانسان .

ومن هنا ولد مبدأ تطبيق قواعد التحليل النفسي على سوق التجارة .

ومن أشهر الاسماء التى يذكرها الكتاب فى هذا المجال ، اسم ايرنست ديتشر مدير معهد البحث فى الحوافز البشرية.. والذى تقصده الشركات لكى تستشيره

فى عمليات البيع والشراء .. ولدى هذا المعهد مئات من العائلات التى يستخدمها كحيوانات التجارب ، لاكتشاف النوازع النفسيــة الكامنة التى تتحكم فى الفرد حين يشترى هذا أو لايشترى ذاك . ولهذا الخبير «ديتشر» عبارات أصبحت أقوالا مأثورة يهتدى بها التجار والمعلنون. فهو القائل مثلا : « انت لا تبيع للمرأة حذاء ، ولـكن تبيع لها أملا فى قدمين جميلتين ! » . وفى معهد ديتشر هذا يعمل مئات من علماء النفس والباحثين والاخصائيين. ودستوره أن السلعة لا تباع لمجرد انها جيدة ، ولـكن يجب أيضا أن « تلبى حاجة فى نفس الانسان وفى مشاعره أو فى غرائزه » ..

ويروى الـكتاب بعض تجارب هذا المعهد والنتائج العجيبة التى حققها .

فى تجارة الويسكى مثلا : لقد وجد تجار الويسكى ان ٨٠ ٪ من الخمور يشربها مدمنو الخمر ، لا الشاربون العابرون ، ووجدوا أن المدمن يشرب الخمر لأن الخمر تعطيه شخصية أخرى غير الشخصية التى يعيش بها فى العادة . ولذلك تتحول شخصية المدمن تماما فى لحظة السكر . فبعض الاشـــخاص الهادئين جدا يصبحون عدوانيين ، وبعض الذين عرفوا بقلة الكلام يصبحون ثرثارين ، وهكذا ..

وأرادوا أن يكتشفوا « الشخصية الاخرى » التى يحن كل فرد اليها من خلال الخمر فكانوا يحضرون للفرد مثلا عشر صور لعشرة أشخاص . كل واحد من هؤلاء العشرة معروف للشركة جيدا ومعروف انه مريض بشىء معين .. شذوذ جنسى ، أو بارانويا ، أو هستيريا ، الى آخره . ويسألون « الزبون » اذا كان مسافرا فى قطار لمدة طويلة : من يختار من هؤلاء ليكون فى صحبته ؟..

ان الزبون فى هذه الحالة سيختار تلقائيا الشخص المصاب بالمرض الذى توجد ملامح خفيفة منه لدى الزبون ، دون أن يدرى بالطبع .

لماذا ؟ ..

لكى تنشر هذه الصورة فى اعلانات تغرى على المزيد من الشرب !

وبعض السلع يشتريها المستهلك لمجرد انها تقترن فى ذهنه بصورة معينة لمن يستهلكها ، وهو يريد أن يرى نفسه فى هذه الصورة ، وهذا ينطبق على أشياء غريبة ، من السجاير والسيارات الى محطات البنزين ..

فبالنسبة للسيارات مثلا ، ظهر من التحليل النفسى للجمهور ان الفرد العادى قلما يهتم بالجانب الميكانيكى للسيارة ، ولكنه يهتم بمنظرها وبما تمثله من صورة اجتماعية ، يرى انها تعبر عن شخصيته ، أو يريد أن يظهر بها أمام الناس : « فالسيارة الكاديلاك يشتريها صاحب الذوق المبهرج ، الذى يريد أن يبهر الناس ، رجل الاعمال الذى يعقد الصفقات التى تقدر قيمتها بالملايين ، الرجل المتوسط العمر ، والسيارة «الفورد» يشتريها الرجل السريع الحركة ، العملى ، ابن الطبقة المتوسطة الناجح ، الشاب بوجه عام » . و « الستودى بيكر يشتريها المثقف ، الذى يريد أن يتميز بفرديته وأخلاقه عن الآخرين ، الشاب أيضا ، والبونتياك يشتريها رجل مستقر غير طموح ، أو رجل عادى يجد سعادته فى أن يكون كالآخرين ، أو امرأة متزوجة ، أو أم ! » .

وقد اكتشف علماء النفس أيضا ان التاجر يستطيع أن يكسب الملايين اذا عرف كيف يستغل فى الناس مخاوفهم الكامنة ، وشعورهم بالذنب ، وقلقهم واحساسهم بالوحدة ، والتوتر العصبى الذى يشكون

سنه ...

فتدخين السجاير مثلا عادة تقترن دائما باحساس مبهم بالذنب .. اما بسبب تحريمها على الفرد وهو صغير واما بسبب ما يقال من انها مضرة بالصحة أو انها تسبب هذا المرض أو ذاك ..

كانت شركات السجاير عادة ترسم فى اعلاناتها وجه رجل ينفث دخان السيجارة وقد ارتسمت على وجهه آيات السعادة والراحة والاطمئنان . وقال دكتورديتشر لمنتجىالسجاير انهم مخطئون. ذلك انالمدخنين يعرفون جيدا انهم يحتاجون الى السيجارة حين يكونون تحت ضغط معين أو حالة اجهاد أو يصارعون ضد الزمن . وقال لهم ان تركيز الدعاية على ان السجاير غير ضارة سوف يقتـل تجارة السجاير . وبعد أبحاث نفسية وتحاليل معقدة ارجعوا التدخين الى أسباب محددة منها : تهدئة الاعصاب ، والظهور بمظهر اجتماعى ، كتعويض عن التعب بعد مجهود شاق ، كمساعد على التفكير ، كدليل على الشجاعة والجراة ، كدليل على مشاركة الناس فى عاداتهم وعدم الخروج عنها. كما ظهر ان من الافراد من يشعل سيجارة حين يدخل حجرة ممتلئة بالناس لكى يبدو اقل توترا وقلقا ، أو ليخفى خجله ، أو ليبدو أكثر رفاهية واستعلاء ... وسجل البحث انالامريكيين بالذات يدخنونكثيرا لسبب رئيسى هو : أن يبرهنوا على أنهم ناضجون ، نشـيطون ، اكفاء ! وانالشاب الصغير يدخن ليبدو أكبر من سنه ، والرجل العجوز يدخن لكى يبدو أصغر من سنه !

وباستغلالهذه التحليلات ، يمكن رسم صورالاعلانات عن هذه السيجارة ، ولكن بالطريقة التى تلبى فى نفس الجمهور الصورة التى يريد أن يراها لنفسه ، أو تلمس

الحاجة الكامنة في عقله الباطن .

ويضرب الكتاب عشرات الامثلة عن عشرات من السلع، من اللبان الذى ساعد على ترويجه نشر حالة من الرعب من جراثيم الفم ، الى الحديد والالومنيوم والادوات الكهربائية .

فأحد الجرارات الزراعية الممتازة لم يلق رواجا لأن مقعد السائق يبدو مكشوف الظهر وفى مكان ضعيف ازاء مقدم الجرار الضخم الثقيل ، الأمر الذى يشعر سائقه بعدم الأمن ، ولذلك بدأ يروج حين أمكن تلافى ذلك فى تصميم مكان السائق وتوزيع الثقل بين مقدم الجرار ومؤخرته ...

والطائرات كان سر عدم الاقبال عليها ليس خوف الرجل من الموت ، ولكن خوف زوجته وأهله الذين لا يسافرون فأصبحت الاعلانات كلها ترسم صورة الزوجة تودع زوجها وهى باسمة مشرقة ، أو تضغط على فكرة ان الطائرة تعيد الزوج الى زوجته بسرعة أكثر .. الى آخر كل مايؤكد فكرة موافقة الزوجة ومشاركتها لزوجها الذى سيركب الطائرة ...

واقبال النـــاس على الاقتراض من شركات الاقراض واعراضهم عن الاقتراض من البنوك ، سببه ان البنوك لها مهابة معينة . وأن الفرد حين يذهب الى البنك ليقترض يكون كالطفل الذى ارتكب ذنبا وهو ذاهب الى أهله الذين سيعاقبونه وينظرون اليه شذرا .. فى حين انه يذهب الى شركات الاقراض بالربا الفاحش كالرجل الذى يذهب الى مكان سيىء السيرة.. المكان هو الجدير بأن يخجل من الرجل !

وأحدى شركات معجون الاسنان استغلت شعور الناس بالذنب لأنهم لاينظفون أسنانهم بعد الأكلات الثلاث ،

وانما يستخدمون المعجون مرة واحدة فى اليوم ، فكسبت الشركة ملايين الجنيهات لمجرد أنها أضافت الى اعلاناتها كلمة : « هذا المعجون يفيد الذين لايجدون وقتا لدعك أسنانهم ثلاث مرات ! .. »

واحدى الشركات التى تطبع وتبيع بطاقات المعايدة ، وجدت من التحليل النفسى للزبائن ان أكثر الناس اقبالا على شراء بطاقات المعايدة فى المناسبات هم الذين يعانون من الشعور بالوحدة ، كالأرامل والمطلقات والذين يعملون فى أماكن بعيدة عن أهلهم ، فأصدرت أوامرها الى الرسامين الذين يرسمون لها البطاقات بأن يختاروا لرسومهم موضوعات تجذب أصحاب هذه النفسية بالذات، كشجرة وحيدة فى جزيرة ، أو قمر حزين فى سماء زرقاء خالية !

ان القاعدة الذهبية فى فن البيع كما يقول الكتاب هى : انك لا تبيع السلعة نفسها فقط .. ولكنك تبيع المعنى الذى يرتبط بها فى ذهن المشترى ، وبقدر نجاحك فى استغلال هذا الضعف المعين فى نفس المشترى ، بقدر ما تنجح فى مضاعفة مبيعاتك ..

وأهم « المعانى » التى تباع للناس هى :

● بيع الاحساس بالامن :

لقد وجدت شركات انتاج الثلاجات ان شراء الطعام ووضعه فى الثلاجة ثم استخدامه ليس عملا اقتصاديا ولا مبرر له . اذن فلا داعى للتركيز فى الاعلانات على الناحية الاقتصادية . ولكنها وجدت ان استخدام الفريجيدير قد زاد بشكل ساحق منذ الحرب العالمية الثانية وما حدث من قلق على ندرة الطعام واختفاء هذا الصنف أو ذاك ، واكتشفت أن الثلاجة فى البيت تعطى احساسا بان الطعام موجود دائما فى البيت ، ووجود الطعام فى البيت يعطى احساسا بالامن ، والدفء ..

وان الذين لايشعرون بالامن يحتاجون الى أن يكون لديهم من الطعام أكثر مما يستهلكون بالفعل .

وتكييف الهواء يشتريه بعض الناس ليلبى فى نفوسهم رغبة فى العزلة ، والانطواء ، والبعد عن الناس ، بالاحتفاظ بالنوافذ مغلقة ، بل أحيانا يلبى فى الفرد حاجة خفية للعودة الى رحم الأم !

والادوات التى تباع لأنها تقول للفرد : « اصنع هذا وذاك بنفسك » قال ديتشر انه من الخطأ أن يتركز الاعلان عنها فى انها توفر فلوسا .. انها تلبى لدى الفرد حاجة الى الانطواء والعزلة وعدم الاحتكاك بالناس .. فالفرد العاكف على آلة خاصة ، يصنع لبيته شيئا ، هو فى الواقع فرد ينعم لحظة بعالم مغلق خاص به ، انه متحرر من ضغط العلاقات الاجتماعية . انه مشغول بحوار هادىء مع نفسه ! ..

● بيع الاحساس بالاهمية :

فقد نصحت احدى مؤسسات التحليل النفسى لشركة من شركات الأدوية بألا تقول فى اعلاناتها ان هذا الدواء او ذاك يشفى المرض بسرعة وببساطة . لأن هذا يتحدى شعور الاطباء ، ويبدو كأنه يحاول الغاء مهنتهم ، فمن الصعب أن يصفه طبيب لمرضاه ، اذ سيبدو انه يكرر لهم ما يعرفونه مقدما من الاعلانات انما الاحسن أن يضغطوا فى الاعلان على فكرة أن استشارة الطبيب ضرورية أو انه يجب أن يستعمل تحت اشراف الطبيب. ان هذا يرد للطبيب شعوره بالاهمية وبأنه هو الذى يشفى المريض ، فلا يجد الطبيب حرجا من أن يصف الدواء لمرضاه .. وبالتالى يريد توزيع الدواء !

● بيع الاحساس بالخصوبة :

فالمرء يحب دائما أن يشعر بأنه خصب ، منتج ،

مثمر . لذلك لوحظ ان اثارة الاهتمام بالحدائق والزهور ينجح لدى النساء العجائز أو الرجال الذين لا أولاد لهم فان العناية بحوض من الزهر كالعناية بطفل . كذلك لوحظ ان احساس المرأة حين تصنع كعكة لأسرتها يشبه احساسها بانجاب طفل . فالاعلانات التى تريد أن تبيع أنواع المواد اللازمة لصنع أصناف « التورتة » لا تحدث المرأة عن فوائدها الغذائية ، ولكنها تركز على منظر المرأة الفخور التى ترتاح نفسيا لأنها خصبة ، مثمرة .

وبعض شركات الأغذية المحفوظة تقدمت فى الصناعة لدرجة انه لم يعد على ربة البيت أن تصنع أى شىء لتقديم كعكة مثلا أكثر من وضع كمية من الماء . ولكن اكتشفت هذه الشركات أن المرأة لاتقبل على هذه الاصناف . وانها تريد أن تشترى شيئا يحتاج الى أن تضيف اليه ربة البيت اى شىء قبل أن يصبح صالحا للطعام . لأن هذا الشىء مهما كان بسيطا يعطيها الاحساس بأنها ما زالت ربة البيت ، وان صفاتها كامرأة هى التى أدت الى صنع هذا الشىء !

● بيع الحب :

كحالة المطرب « ليبراس » الذى كسب شهرة هائلة سريعة . لقد لوحظ انه معبود النساء اللواتى تخطين السن الصالحة للحمل والانجاب . فكان التركيز فى تقديمه على هذه الناحية ، حتى لقد صففوا له شعر رأسه بشكل يجعله أقرب الى الاطفال ، حتى تشعر كل امرأة تعدت سن الانجاب أنها تود لو ربتت بيديها على وجنتيه !

● بيع الاحساس بالقوة :

وهو ما تريده شركات السيارات حين تصنع للسيارة ذيولا ضخمة ، واطرافا من النيكل اللامع الشامخ ، لا فائدة لها الا انها تعطى لصاحبها احساسا بالقوة

● بيع الاحساس بالخلود :

فقد لوحظ فى الدعاية للتأمين على الحياة ، ان اقناع رب الأسرة بالتأمين على حياته خشية الموت المفاجىء لاينجح بقدر ما ينجح اقنـاعه عن طريق اثارة رغبته الكامنة فى أن يكون مؤثرا فى حياة أسرته حتى بعد وفاته على أساس انهذا نوع من البقاء الذى يحن اليه الانسان

وليس غريبا أن يلتفت خبراء الاعلان بعد ذلك الى الجنس ، وما له من دور خطير فى الاغراء بالشراء ..

ومن أطرف الامثلة ما لاحظه باعة السيارات من أن الرجال يقبلون فى صالات عرض السيارات على مشاهدة السيارة المكشوفة والاعجاب بها الى أقصى حد ، ولكنهم يشترون بعد ذلك سيارات عادية غير مكشوفة .

وقال لهم دكتور ديتشر أن المسألة بسيطة جدا . ان السيارة المكشوفة تشبه العشيقة فى نظر الرجل . انها تعطيه جوا من المغامرة ، والشباب ، والمخاطرة ، والمتعة المسلوبة . وكما فعل قديما حين عرف أكثر من عشيقة ولكنه تزوج فتاة محتشمة ، فهو يفعل الآن نفس الشىء حين يعجب بالسيارة المكشوفة ثم يشترى سيارة عادية مقفلة ، انه يتزوجها ، انه يشعر انها أقل روعة وجاذبية واغراء ولكنها أكثر الفة وامنا واستقرارا واستكانة ! ولو أمكن صنع سيارة يمكن أن تكون مكشوفة ولكن لها سقف معدنى يمكن أن يركب فيها لكان هـذا أشـبه بالعثور على امرأة فيها مزايا الزوجة ومزايا العشيقة ! وبالفعل ، نفذت شركات السيـارات هـذه النصيحة وكانت أنجح أنواع السيارات لسنوات طويلة !

ولكن استغلال الجنس فى الاقناع بالشراء يبرز الى حد كبير ، الاعلان عن أدوات التجميل والملابس الداخلية للنساء .. الى آخره . وقد كانت النغمة اولا هى اقناع

المرأة بأن هذا الشيء أو ذاك هو الذى « يلفت اليها نظر الرجل الذي تريده » . .

ثم أصبحت هـذه نغمة قديمة . واكتشف خبراء التحليل النفسى ان المرأة يهمها فى الاعلان أن يؤكد لها أولا ان هذه السلعة تحفظ لها أنوثتها — أى يهمها أولا أن ترى هي نفسها جميلة .. ثم أن تبدو جميلة فى نظر النساء الأخريات .. وبعد ذلك يأتى الرجال فى المرتبة الثالثة من الاهمية .

فصورة امرأة معطرة بعطر معين وهى داخلة الى الحفلة وقد نظرت اليها النساء الأخريات فى حسد .. تبيع أكثر من صورتها والرجال يتطلعون اليها فى اعجاب !

ويتساءل المؤلف بعد مائتى صفحة يسرد فيها عشرات الحالات : هل هذا النوع من « الاقناع الخفى » يعد عملا أخلاقيا .. أم انه عمل غير أخلاقى ؟

ويرد قائلا : « ان الاعلان لاشك خدمة كبيرة للبائع وللمشترى على السواء . ولايمكن أن نتصور الحياة الانتاجية والاستهلاكية الحديثة بدون اعلانات .. »

ولكن أين العنصر الأخلاقى فى اقناع ربة البيت بأن تشترى أشياء لاتلزمها ولا تؤدى الا الى افلاس زوجها ؟

أين العنصر الأخلاقى فى استغلال نقط ضعف الناس ، وفى البحث عن مشاعر الاحساس بالذنب والقلق والنقص فى نفوس الناس ، لا لعلاجها ، ولكن لتنميتها والنفوذ منها الى بيع مزيد من السلع ؟

أين العنصر الأخلاقى فى استغلال الغرائز الجنسية لرفع أرقام المبيعات ، ولو أدى الأمر الى تشويه هذه الغرائز ؟

أين العنصر الأخلاقى فى استنزاف موارد البلاد عن طريق اقناع المستهلك بأن ما لديه ردىء ويجب أن يلقيه

فى الزبالة ليشترى بدلا منه ؟

ثم يعقد المؤلف بعد ذلك فصلا مثيرا يسجل فيه كيف ان خبراء البيع عن هـذه الطرق قد دخلوا ميـدان السياسة .. وأصـبحوا هم المسيطرين على الحملات الانتخابية.. وهم الذين أشرفوا على عمليات بيع كنيدى أو نيكسون أو ايزنهاور للناخبين !

ويقول : ان خبراء «الاقناع الخفى» يصنعون للانسان نفسا على هواهم : نفسا معبأة فى ربطة أنيقة ، كأية سلعة أخرى من السلع التى يصنعونها ويبيعونها !

ثورة الأمال الكبيرة

أعلن يوجين بلاك ، مدير البنك الدولى ، مولد مهنة جديدة !

أعلن ظهور « دبلوماسي التنمية » و « دبلوماسية التنمية » .. وهى مهنة تختلف عن مهنة الدبلوماسى السياسى كما عرفها العالم قبل ذلك ..

قال يوجين بلاك فى كتاب أصدره : « ان العالم قد عرف السياسى الذى لاينظر الا الى الاعتبارات السياسية .. كما عرف التاجر والمستثمر اللذين لايعرفان الا التجارة والربح والخسارة أى لايعرفان الا الاعتبارات الاقتصادية المحضة .. ولكن بين الاثنين فجوة واسعة ظهرت الآن ليملأها نوع جديد هو « الدبلوماسى الاقتصادى » .. أو « دبلوماسى التنمية » ! .. »

أعلن يوجين بلاك هذا فى كتاب اسمه « دبلوماسية التنمية الاقتصادية » ..

والذى أوحى له بتأليفه ، بالطبع ، هو منصبه كمدير للبنك الدولى ، والتجربة التى أضاءت له الفكرة تجربتان :

الاولى ــ الدور الذى قام به بعد حرب السويس ، مع الجمهورية العربية المتحدة ، لتصفية الآثار الاقتصادية للمشكلة .

والثانية ــ الدور الذى قام به لحل الخلاف بين الهند

وباكستان حول استغلال نهر السند .

يقول يوجين بلاك ان هذه « الدبلوماسية الاقتصادية» الجديدة هى التى تصنع أكبر الانباء فى هذا العصر .. وان كانت هذه الانبـاء ليست من النوع الذى تنشره الصحف فى صفحاتها الاولى .

ويطالب يوجين بلاك بأن يكون لهذه الدبلوماسية كيان قائم بذاته مستقل عن الجهاز الدبلوماسى السيـاسى المعروف ..

يقول يوجين بلاك ان دبلوماسية التنمية الاقتصادية هى فن تحقيق التنمية بأقل قدر ممكن من الصراع . ذلك ان كل تطوير اقتصادى ينطوى حتما على تغيير اجتماعى . والتغيير لا يتم بسهولة . ومن هنـا كانت التنمية مهمة دقيقة وخطيرة .

ويقول يوجين بلاك ان الناس فى البلاد الفقيرة بدأوا يرفضون الاعتراف بأن فقرهم حظ لامفر منه ، ويؤمنون أن الانسان يستطيع أن يسيطر على حياته ويغيرها . وقد وجد هذا التغيير الشعبى قادة يعبرون عنه ، وزعماء يريدون أن يحققوا لشعوبهم فى أجيال قليلة كلما وصلت اليه الحضارة عبر قرون طويلة . ويطلق يوجين بلاك على هذا اسم : ثورة الآمال الكبيرة !

ودبلوماسية التنمية الاقتصادية عليها أن تواجه هذه الآمال المتحمسة ، فالدبلوماسية السياسية منذ قرون تعرف عملية « توازن القوى » .. أما الدبلوماسـية الاقتصادية فعليها أن تواجه عمليـة جديدة يمكن أن تسمى « توازن الآمال » .. اى : كيف تكون للبـلاد المتخلفة اقتصاديا آمال متوازنة .

ويركز يوجين بلاك موقف البلاد الناشئة فى أن مشكلتها الكبرى هى الفقر وازدياد عدد السكان . وهذه الزيادة

فى السكان قضت على الأمل التقليدى للمواطن فى تلك البلاد ، وهو امتلاك قطعة خاصة به من الارض ، لأن الارض لا تكفى. فنحن هنا نواجه حالة «انهيار» الآمال القديمة » . وهذا الفلاح نفسه اذا اضطر للهجرة الى المدينة فانه يحس – أول الأمر على الاقل – بالضياع وعدم الأمن ازاء هذا الشكل الجديد للحياة والعمل والعلاقات .

أما الآمال الجديدة فهى فى الواقع مركزة فى الاقلية المتعلمة . ويعتقد يوجين بلاك ان الاقلية المتعلمة هى أبرز عوامل الخطر فى البلاد المتخلفة اقتصاديا . انها تواجه أزمة نفسية حادة. فالثقافة أعطتها من الآمال والاحساسات أكثر مما قدمت لها من فرص مادية لتحقيق هذه الآمال. الطبيب الذى يعرف ماذا يستطيع الطب أن يصنع من معجزات ، ولكنه لا يجد الادوات . المهندس الذى لايجد المصانع. المدرس الذى لايجد المدارس. والكاتب السياسى الذى لايجد الأتباع الذين يفهمون حقا ما يريد أن يصنعه من اجلهم .

هذه الفئات المرهقة نفسيا ، التى قادت ثورات التحرر الوطنى فى البلاد المتخلفة . وهى التى عليها الآن مهمة اعداد بلادها لنظم اقتصادية حديثة .

ان يوجين بلاك يعتقد ان الزعماء فى تلك البلاد يواجهون مهمة من اقسى واصعب ما واجه الزعماء من مهمات فى جميع مراحل التاريخ !

انهم يعرفون أن شعوبهم لابد أن تضحى ، لكى تتخلص من فقرها وتخلفها .

والسؤال الخطير هو : هل يستطيع مجتمع فقير أن يتطور ، دون أن يضطر الى الأخذ بنظم قاسية ، أو غير عادلة ؟ . .

وفى الفصل الثانى من هذا الكتاب وعنوانه «دبلوماسية المساعدات الاقتصادية » يبدو يوجين بلاك أكثر فهمـــا لمشاكل البلاد الناشئة من كثير من المفكرين الاقتصاديين فى الغرب .

فهو يعترف بالدور القيادى الذى يجب أن تقوم به « الدولة » فى عملية التنمية الاقتصادية .. ولا يتشبث بفكرة اعطاء كل شىء للاقتصاد الفردى كما يطالب عادة الاقتصاديون الرأسماليون .

وهو يعترف بأهمية أسلوب « التخطيط » فى انهاض البلاد الناشئة .. بل ويطالب بالتخطيط كسلاح أساسى فى هذه المعركة .. فالتنمية الاقتصادية ليست مجرد اقامة سلسلة من المشروعات. بل لابد أن تكون هذه المشروعات داخلة فى اطار خطة عامة اقتصادية .. وهذه الخطة الاقتصادية لابد أن تكون جزءا من السياســة القومية للبلاد .

وهو يطلق على التخطيـــط تعريفا طريفا فيقول : التخطيط معناه أن يعرف السياسى نتائج القرار الذى يتخذه قبل أن يتخذ هذا القرار ، وليس بعد ذلك . والتخطيط معناه ايجاد صلة وتجارب مستمر بين الذين يتخذون قرارات الخطة ، والذين يتولون تنفيذها ..

وهو بعد ذلك يحذر بشدة من وضع خطة شـــاملة بشكل أكاديمى على أساس ما يتمناه الناس ، لا على أساس الحقائق . لأن مثل هذه الخطة غير الواقعية ، اذ تصبح قانونا للبلاد ، قد تؤدى الى عواقب وخيمة .

ولكن يوجين بلاك ــ وهو يسجل أهمية دور الدولة واهمية أسلوب التخطيط ــ يقول : ان الأخـــذ بهذا الاسلوب لايحتاج الى عقيدة معينة أى « ايديولوجية »

معينة . فهو يعترف بهذه الاساليب ، لأسباب عملية محضة .

والمعنى من هذا الكلام واضح .. فهو يريد أن يستبعد اى فكرة اشتراكية من الموضوع . انه ، كمؤمن بالنظام الاقتصادى الغربى ، يعترف بدور الدولة وبأسلوب التخطيط ، ولكنه يرفض أن تكون هذه الاساليب جزءا من عقيدة اشتراكية . انه يرفض فكرة ان الاشتراكية قد تكون أكثر فهما لمشاكل الدول الناشئة واكثر ملاءمة للنهوض بها . فهو يرفض فى الواقع أن يوجد أسلوب آخر للحياة غير الاسلوب الغربى ، ولكنه يقبل الأخذ باجراءات استثنائية لفترة مؤقتة ، تعود بعدها الحياة الى شكلها الطبيعى ، أى شكلها الغربى .

انه لا يقول هذا طبعا ، ولكن هذا هو المعنى النفسى الكامن فى الكتاب .

ولذلك فهو يستبعد من الموضوع كله أى لون عقائدى . ويقول : ان الاعتراف بدور الدولة القيادى فى التنمية وبضرورة التخطيط الشامل ، لايحتاج الى عقيدة معينة

فهو يحاول اقامة «جسر» بين هذه الاتجاهات وبين الدول الراسمالية .. بدلا من أن يقوم جسر آخر بينها وبين الاشتراكية .

وليس هذا استنتاجا محضا . فالمؤلف نفسه ، فى الصفحات الاولى من الكتاب ، يذكر هذا البحث لروستو بالتقدير الكبير ..

ثم يعود يوجين بلاك الى اظهار تقديره للصعوبات الجمة التى تواجه البلاد الناشئة ، فى هذا المجال .. فيقول فى صفحات بليغة ان عملية التنمية تصطدم كل يوم وكل ساعة باعتبارات كثيرة .

فهناك صراع دائم بين مطالب التنمية، وبين مطالب الناس

العادية ورفاهيتهم .

وهناك صراع دائم بين مطالب التنمية وبين مطالب الامن والدفاع الوطنى .

وهناك صراع بين مطالب التنميـــة وبين الرغبة فى تشغيل أكبر عدد .

كل هذه الانواع من الصراع تواجهها خطة التنمية ، كل لحظة يواجه المسئول عنها موقفا يحتاج الى اختيار .. والقاعدة ان أى انفاق فى اى شىء آخر ، يعد ضارا بمصلحة التنمية ، وبالتالى يؤجل حل مشكلة الفقر .

ولكن الزعيم السياسى لايستطيع أن يلغى كل شىء فى سبيل التنمية فحسب .. ان عليه أن يوائم بين أشياء كثيرة .. بين مصالح البلاد السياسية ، وظروفهـــا الدفاعية ، ورغبات الناس العادية ، واتجاهات الفئات المحافظة التى لا تتلاءم بسرعة ، وعشرات أخرى من الظروف .

ويقول يوجين بلاك ان «دبلوماسى التنمية الاقتصادية» يجب أن يعترف بأهمية هذه الظروف كلها ويدركها . فلا يمتحن كل شىء على ضوء الربح والخسارة فقط .

ونقطة الخلاف الاساسية مع يوجين بلاك هى انه بعد أن يسرد فى فهم دقيق كل ظروف البلاد الناشئة .. لايصل الى النتيجة المنطقية لذلك وهى : أهمية العقيدة فى الموضوع . فبغير العقيدة فى الواقع لايمكن ربط هذه الاشياء كلها فى حركة متناسقة مندفعة الى الامام .

وقد ركز يوجين بلاك حديثه على ناحية رفع الانتاج ، ولم يشر بشىء الى عدالة التوزيع . وقد يقال ان هذا موضوع خارج عن اختصاصه كمدير بنك لا شأن له بالسياسة الداخلية لأى بلد ولكن اذا كان المجال مجال دراسة لوجهة نظر متكاملة .. فلا بد من القول بأن عملية

رفع الانتاج لابد أن يراعي فيها «اعادة التوزيع» تدريجا. وهذا في الواقع هو أهم ما أراد يوجين بلاك أن يستبعده من دراسته ، وهو من أهم ما تؤمن بضرورة وجوده في أي خطة اقتصادية للتنمية .

فالمجتمع لايمكن أن تقوده في تطلعه الى المستقبل مهمة اقتصادية فقط، انما لابد أن تقترن هذه المهمة الاقتصادية بمهمات أخرى معنوية ، وأن تكتسب صفات أخرى كالعدالة ، والتحرر الاجتماعي ، والكبرياء القومي ، والمساواة ، أي لابد أن تقود الشعب عقيدة شاملة على نحو ما ، تشعره أنه يغير «نوع» حياته ذاتها ، لا كمية طعامه وكساءه فقط . وبغير ذلك نكون قد اقتصرنا في التنمية على جانب اقتصادي تجاري بحت ، ونكون قد وقعنا في الغلطة التي وضع يوجين بلاك كتابه لكي يحذرنا منها !

المحنة التى تواجهها الإشتراكية

الاهمية الخاصة للمقال الذى اريد ان أعلق عليه هو انه يلخص فى تركيز شديد ، أهم مايردده خصوم الثورة وخصوم الاشتراكية على المستوى العالمى .. .

يقول « سرفان شرايبر » الكاتب السياسى الفرنسى المعروف ما معناه انه يعلن موت الشـــورات ، «موت الاشتراكية » فى العالم ، يقول ان الاشتراكية قد هزت العالم اكثر مما هزه اى شىء آخر خلال الخمسين سنة الاخيرة . ولكن الآمال التى كانت معقودة على الاشتراكية قد تبخرت . روسيا باقتصادها المخطط لم تلحق بأمريكا ذات الاقتصاد الحر . شرق اوروبا ما زال يناضل لرفع مستواه وغرب أوروبا غارق فى الرخاء . وقد بدا له أن الثورة والاشتراكية ربما تكون حلا ملائما للدول المتخلفة النامية .. ولكن ها هى ذى كوبا والجزائر وغينيا تقاسى ألوانا من المتاعب . أما الذى جعله يعلن هذه النتيجة فهو مايحدث هذه الايام فى الصين. فبعد آمال جديدة فى مساواة لا مثيل لها ، وجيش بلا رتب عسكرية ، وما الى ذلك ، تحول الأمر الى ما يشبه الحرب الاهليـــة صراعا على السلطة « ان احفاد فورد وروكفلر ــ يقول الكاتب ــ ينعمون بالرخاء والنجاح فى حين أن تلاميذ ماركس ولينين وتروتسكى يتناحرون فى كل مكان ! » .

وهكذا انتهت الثورة العالمية. وانتهت أحلام الاشتراكية. العصر الحالى لم يعد عصر الملاحم المثيرة ، ولكنه عصر العقول الحاسبة والتنظيم العلمى للعمل .

ولو كان هذا الخلط الشديد موجودا فى ذهن الكاتب الشهير وحده لما كان للأمر أهمية . ولكن هذا الخلط نموذج لما يختلط فى الذهن الاوروبى الغربى بوجه خاص وفى الذهن « البورجوازى » العالمى بوجه عام ..

الذهن البورجوازى الاوروبى لايرى على الارض الا مدرسة ثورية واحدة هى الماركسية اللينينية ، ويعتبر كل شيء آخر متفرعا عنها ، ناسيا ان الينابيع التى تفجر الثورات هذه الايام كثيرة ، وان التراث الثقافى والفكرى للثائرين متنوع .. فهناك ما يجمعهم وهناك ما يفرق بينهم .

والذهن البورجوازى ـ الاوروبى والعالمى ـ يجد أوروبا الغربية غارقة فى الثراء والرخاء ، ويرى باقى النظم والبلاد ليست على هذا المستوى ، فيرى فى هذا أقوى حجة لمصلحة النظام الرأسمالى ..

ولكن ..

ما هو عمر « الاستقلال » فى آسيا وافريقيا ؟.. عمره ـ فى المتوسط ـ عشر سنوات !

ما هو عمر « الوجود الاوروبى » فى آسيا وافريقيا قبل ذلك ؟.. عمره ـ فى المتوسط ـ مائتا سنة !

ماذا استفادت آسيا وافريقيا من «الوجود الاوروبى» فيهما خلال مائتى سنة ، وماذا استفادت من الاستقلال ـ وأحيانا الاستقلال النسبى فقط ـ خلال عشر سنوات ؟

أوروبا تركت الجزائر والكونغو وغيرهما وليس فيها عشرة أطباء ، ولا جامعة واحدة ، ولا عشرة محاسبين اقتصاديين . تركتها هكذا بعد وجود يزيد على القرن ..

ثم يجيء الخواجه شرايبر فيتساءل عما صنعته الجزائر وكوبا والكونغو وغيرها بعد سنوات من الاستقلال لا تبلغ العشر سنوات . بعد فترة لا تكفى لأن يدخل الطفل المدرسة الابتدائية ويتخرج ويصبح فنيا نافعا لبلده .. طبيبا أو مهندسا أو محاسبا ..

وهذا الوجود الاوروبى الذى دام ــ فى المتوسط ــ مائتى سنة فى آسيا وافريقيا .. وكان مأساة بالنسبة لآسيا وافريقيا .. هو نفسه الذى كان خيرا وبركة على غرب أوروبا . فنهب ثروات الهند والصين والشرق العربى وافريقيا لحساب أوروبا قصة لا تحتاج الى تكرار .. ولا تحتاج الى تذكير .. لأن الكثير منها مازال قائما الى اليوم !

الغرب نهب من آسيا وافريقيا كل شيء وتاجر فى كل شيء ، تاجر حتى فى البشر ، حين شحن ملايين الزنوج فى تجارة بشعة واسعة الى مزارعه فى أمريكا. وأفسد حتى شن حربا رسمية ضد الصين لارغامها على اباحة تجارة الافيون فى الصين .. الافيون الذى خدر الصين مايقرب من قرن بأكمله.. بنيت بأرباحه الآلات والمصانع والسفن والجامعات فى انجلترا وغيرها . واذا كان هذان النموذجان ــ العبيد والافيون ــ لهما صفة اخلاقية ابشع من صفتهما التجارية ، فلمجرد التدليل على ان الغرب لم يقف عند أى شيء فى سبيل امتصاص اكبر قدر من الثروات من آسيا وافريقيا .. وترك أكبر قدر من الفقر والتخلف فيهما .

لا مقارنة اذن بين بلاد عرفت المصانع والجامعات والانسيكلوبيديا والبارود منذ مئات السنين .. وبلاد عشعش فيها الظلام هذه المئات من السنين ، وبسبب فعل فاعل هو هذه البلاد المتقدمة ذات المصانع والجامعات

والانسيكلوبيديا ! والنموذج حاضر فى مصر ذاتها ـ وان لم يذكرها الكاتب فى مقاله ـ فالانجليز عندما احتلوا مصر سنة ١٨٨٢ كان أول ما عملوه أن فكوا كل ما كان لدينا من صناعات بازغة.. صناعات الاسلحة والاقمشة والسفن والزجاج وغيرها وباعوها خردة ..

قبل مائة سنة كانت مصر ـ سياسيا ـ فيها احزاب تطالب بالدستور والديمقراطيـــة واتاحة الفرص أمام المصريين .. متقدمة بذلك على بلاد فى أوروبا لم تكن قد عرفت ذلك بعد . وكانت فيها صناعات بازغة لم تكن بعض بلاد أوروبا تجاريها بعد. ولكن عجلة الدول الكبرى الممثلة ذلك الحين فى انجلترا ، داست هـذا وتعمدت تحطيمه وتدميره حتى يتحقق ما قاله كرومر فى زهو : « اختفت كل الصناعات المصرية من الدكاكين التى امتلأت بالسلع الواردة من أوروبا » .

يتحدث الكاتب الفرنسى عن فشل «الثورة» بمعناها الواسع العالمى ، بعد أن هزت العالم وأربكته خمسين سنة .. لأن الدول التى قامت فيها هذه الثورات لم تصبح بعد مثل فرنسا وانجلترا وامريكا . يكفى أن هذه الخمسين سنة اسقطت معظم أبنيـــة الاستعمار التى أقامها الغرب عبر مئات طويلة من السنين ! أما قضية تركة التخلف وتحويل العجلة فى اتجاه التقدم. وتحقيق المستوى العالمى من التعليم والتصنيع التكنولوجى فهذا أمر يستـــغرق أجيالا طويلة مهما كان نوع النظـــام الاجتماعى .. « أولا » لأنه صعب وقد استغرق فى الغرب نفسه قرونا . و « ثانيا » لأن الغرب ما زال من وجوه كثيرة يقاوم هذا التطور نفسه . وها نحن نرى الكونغو مثلا تحاول بكل بؤسها وتعاستها أن تستخلص ثروتها الوطنية لتنفق منها على نفسها فى وجه مؤامرات

هائلة من الاذكياء الاغنياء الاقوياء المترفين !

هذا هو الخلط الاول الذى يردده العقل البورجوازى العالمى والمحلى ، حين يعقد مقارنة لا تتوفر أسبابها من الاساس . ينعى الثورة الوطنية العالمية الى الناس ، بطريقة يصبح لا بديل معها الا العودة الى الاذعان للغرب! كأن مئات السنين الماضية بنتائجها المخربة ليست درسا كافيا !

الخلط الاول خاص بالمستوى المادى ، أما الخلط الثانى الذى يردده العقل البورجوازى العالمى ، فهو عن الاستقرار . انظروا الى الاضطرابات والانقلابات والقلق فى العالم الثالث .. وانظروا الى الاستقرار فى أوروبا وامريكا .

نعم .. تعالوا ننظر الى الاستقرار فى أوروبا وامريكا.

سنفترض ـ لكى يسهل التركيز على نقطة الاستقرار ـ ان دول غرب أوروبا مثلا قد وصلت الى نوع مستقر من النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادى متشابه بين شتى دولها .. وان علاقاتها كدول قد استقرت بحيث لم يعد مجال لقيام حروب أو اصطدامات أساسية وهى مؤامرات متبادلة.. وانها توشك أن تحقق مرحلة أخرى من النضج وهى السوق المشتركة وربما الوحدة الاوروبية

ولكن .. عبر اى طريق وصلت أوروبا الغربية الى هذه المرحلة من الاستقرار ؟ ..

اذا كان تاريخ النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى الاوروبى الحالى قد بدأ بالثورة الصناعية والثورات البورجوازية كالثورة الفرنسية ونظائرها .. فهذان القرنان تقريبا قد شهدا فى أوروبا عددا من الانقلابات والثورات والحروب المحلية والعالمية ، لم يعرف العالم

لها مثيلا في عشرة قرون مجتمعة في أي حقبة من تاريخه الطويل ..

كم مرة دخلت جيوش الفرنسيين المانيا وكم مرة داست جيوش الالمان باريس .. كم من ثورة وكم من انقلاب ودستور وكم من ملكية وكم من جمهورية عاشتها فرنسا في مائة سنة فحسب ؟ كم مرة توالت النظم بين ديمقراطية مطلقة وديمقراطية موجهة ونازية وفاشية ودكتاتورية عسكرية ورأسمالية مطلقة ورأسمالية مقيدة .. على فرنسا والمانيا وايطاليا ؟.. كم مرة نزلت جيوش انجلترا أرض القارة وكم مرة قاطعت القارة انجلترا أو حاصرتها اقتصاديا أو دمرتها بالقنابل ؟.. كم مرة انفجر القتال في الشوارع وشكلت فرق الاعدام وافلست البنوك وجاع العمال واحترقت المدن ؟.. كم مرة تمخضت أحشاء أوروبا عن مذاهب وحركات عنصرية ورأسمالية وشيوعية واشتراكية ودينية والحادية وفوضوية حتى تلخص قليل من هذه التيارات في قليل من المؤسسات السياسية المستقرة نسبيا ؟ خاضت أوروبا غمار هذا كله ، قبل أن تعرف درجة الاستقرار الحضارى التى تتباهى بها اليوم . كان هذا هو المخاض الذى تحملته أوروبا والذى لابد أن يتحمله أى كيان حضارى فى مرحلة النمو والتطور . والبحث عن الذات قبل الرسو عند شاطىء الهيكل القابل للاستمرار والاستقرار حقبة تاريخية من الزمن ..

ان ما يحدث فى الصين اليوم .. بصرف النظر تماما عن معناه ومغزاه والمذهب الذى يدور حوله الصراع .. ما يحدث فى الصين ذات السبعمائة وخمسين مليونا اليوم لايختلف عن التقلصات الداخلية التى حدثت فى مرحلة النمو الحضارى ـ فى اطار النظام الرأسمالى تلك

المرة ـ فى المانيا وفرنسا وايطاليا فى هذا القرن او القرن السابق عليه .. ألم تعرف أمريكا مثلا حربا أهلية طاحنة فى احدى مراحل نموها الحضارى بعد الاستقلال .. ما زالت آثارها باقية فى ولايات الجنوب حتى اليوم ؟.. ألم يكن الصراع بين نظام الحزب الواحـــد والاحزاب المتعددة دائرا فى أوروبا منذ قرن فقط .. وتخضبت أوروبا بسببه بالدماء فى اسبانيا ثم فى ايطاليا ثم فى المانيا .. فضلا عن الاصطدامات داخل كل دول القارة حتى وصل الأمر الى الحرب العالمية الثانية ؟ ألم تكن الحرب العالمية الثانية صراعا على ترتيب بيت الرأسمالية على مستوى أوروبا وعلى العالم .. انتهى ببدء افلات العالم من قبضة أوروبا ؟ ..

حوادث الصـين الراهنة لاشك مخاض هائل . قد يكون تطورا وقد يكون مأساة . لا أحد يعرف بعد. ولكن أى فرق بين الظروف الحضارية للصين اليوم والصـين التى كانت نائمة تحت أقدام الغرب قبل نصف قرن ؟ أى فرق بين الصين ذات الافيون وبيع الاطفال واقتناء الجوارى والاحتلال منعدة دول والمذابح اليابانية والهوان العميق.. من صين اليوم التى تربض كالتنين الهائل يرهبه الاصدقاء والاعداء على السواء ؟ ..

ولكن ... أين مكان « الاشتراكية » من هذا الجدل كله ؟ ..

هذا هو الخلط الثالث المقصود ، الذى يردده «العقل البورجوازى» فى كل مكان ، والذى عبر عنه « سيرفان شرايبر » فى مقاله الذى أثار هذا التعليق ..

فالكاتب الفرنسى الذى يعبر عن العقل البورجوازى المعاصر، عندما يضرب الأمثلة بالبلاد التىتواجه صعوبات، لايختار اى نموذج فى بلاد العالم الثالث فحسب ، تلك

البلاد التي تشترك فى تركة التخلف وفى مخاض البحث عن صورة مستقرة ، ولكنه يختار بالتحديد البلاد ذات التجارب الاشتراكية أو ذات التجارب الشيوعية.. فهو يذكر الصين مثلا فى آسيا ولا يذكر تايلاند . وهو يذكر كوبا ولا يذكر سلفادور ونيكاراجوا وكورستاريكا وكولومبيا . وهو يذكر غينيا ولا يذكر ساحل العاج أو داهومى . ويذكر الجزائر ولا يذكر السعودية . ولا قياس طبعا بين حالة الاغلبية الساحقة من الشعب فى البلاد من النوع الاول وبينها فى البلاد من النوع الثانى ..

هذا فى حين ان الانقلابات فى البلاد ذات النظم الثورية كما يسميها لا تزيد على الانقلابات فى امريكا الجنوبية ، جنة الرأسمالية الغربية والامريكية بالذات ، مع فارق طبعا هو ان البلاد فى النوع الاول ربما تحاول عبر الانقلابات أن تبحث عن شيء ، بعكس انقلابات البلاد من النوع الثانى التى تقع عادة بين نوع واحد من الجنرالات الذين يشتريهم راس المال الاجنبى .

ويتفرع عن هذا الخلط ان الكاتب يفترض ان فى العالم نوعين فقط من النظم : مجتمع راسمالى ومجتمع غير راسمالى ، تارة يسميه شيوعيا وتارة يسميه اشتراكيا. هذا فى حين ان عالم اليوم فيه اشكال وانواع من النظم . فهناك الرأسمالية المطلقة . وهناك الراسمالية المطعمة بخدمات كبيرة مأخوذة من الفكر الاشتراكى . وهناك الشيوعية . وهناك الاشتراكية . بل ان هناك اليوم اكثر من نوع من الشيوعية واكثر من نوع من الاشتراكية . ثم هناك نظم ما زالت اقطاعية ونظم ما زالت قبائلية .

والكاتب المعبر عن العقل البورجوازى يحاكم النظم الاشتراكية والثورية بأضعف تجاربها ، اى انه يريد أن يجمع كل مايواجه هذه النظم من مشاكل وعقبات واخطاء

ومتناقضات ويضعها كلها على رأس كل دولة على حدة.
ويرجع الكاتب الى « معدل النمو » مقياسا يقيس به كل شيء ...

ومعدل النمو الاقتصادى مقياس هام ، ولاشك ، ولكن كيف نستعمله استعمالا صحيحا ؟ ..

حين نستخدمه فى المقارنة يجب أن نقارن بين بلاد تتفق فى ظروفها الحضارية، وتاريخ تحررها من الاستعمار ومستواها الحضارى العام ، وثرواتها الطبيعية المتاحة. فى هذا الاطار يمكن استخدام معدل النمو للمقارنة بين نظام ونظام . اما أن نقارن هكذا خبط عشواء بين المانيا والهند أو بين أمريكا وبلغاريا ، فهو خلط آخر يمارسه العقل البورجوازى عن تعمد وقصد لأن هذا هو بيت القصيد فى كل الدعايات البورجوازية .

اذن.. فالمحنة التى تواجه الاشتراكية ، والتى يذرف الكاتب الدموع عليها كاشتراكى سابق ، لا وجود لها ..

ليست محنة .. ان الثورية والاشتراكية هزتا العالم خلال خمسين سنة وحررتا أو كادتا تحرران آسيا وافريقيا كلها . ومهما كانت شطحات بعض الدول التى تحررت وانزلاق بعض الثورات أو تعصبها أوانكفاؤها ، فقد كان لابد أن تستقل هذه البلاد أولا ، ثم تبدأ التجربة والخطأ ..

ليست محنة .. ان العالم الثالث يتقدم ويقع ويتعثر وينهض من جديد . ذلك ان العالم الثالث يعلم جيدا انه يصعد جبلا شاهقا حافلا بالمزالق والمهالك .. ولكن لا مفر من صعوده ..

ليست محنة ان العالم الغنى المترف لايدرك بعد مسئوليته ازاء العالم الثالث ويتصرف فى معظم الظروف محاولا الضغط عليه وابقاءه فى مكانه .. فالعالم الثالث

الذى كسب استقلاله سوف يكسب سائر معاركه وفى مقدمتهـــا ايجاد منطق عادل لتوزيع الثراء بين العالم بأكمله ..

ولكن ، اذا كان هذا كله ليس محنة بالمعنى الذى يذهب اليه العقل البورجوازى.. واذا كان الذى يعنينا فى الدرجة الاولى من شتى أنواع النظم والمذاهب هو النظام الاشتراكى بالذات ... فما الذى يواجهه اليوم حقا ؟ ..

هل تواجهه محنة ما ؟ .. أم تواجهه تحديات هامة ؟ سؤال .. سنحاول الاجابة عليه فى المقالين التاليين ..

هل الاشتراكية تنتقل من الراسمالية .. أم العكس؟

كتبت فى الفصل السابق عن « العقل اليمينى » وكيف يفكر فيما يسميه بالمحنة التى تواجهها الاشتراكية .. واستعرضت الالوان الثلاثة من المغالطات الكبيرة التى يروجها العقل اليمينى ..

وكان المفروض أن يكون الفصل الثانى عن « العقل اليسارى » وكيف يفكر فى « التحديات » التى تواجه الاشتراكية . فهناك ولاشك مشاكل وتحديات تواجه الاشتراكية ، وان كانت غير ما يتحدث عنه « العقل اليمينى » .

ولكننى استأذن القارىء فى أن استكمل فى هذا الفصل الحديث عن تفكير العقل اليمينى ..

فبعد الافكار الثلاثة التى ذكرتها فى الفصل السابق التى يروجها العقل اليميني بوجه عام .. هناك فكرة رابعة يروجها ويرددها العقل اليمينى بنفس الاصرار والتكرار تحتاج الى وقفة خاصة بها ..

يقول العقل اليمينى : انظروا ! هؤلاء هم الاشتراكيون فى كل مكان يستعيرون من النظام الراسمالى ! هذا ليبرمان فى روسيا يدعو الى اللامركزية فى الانتاج والى قدر من المنافسة ، هذه يوغوسلافيا تعترف بقوانين العرض والطلب فى السوق ، هؤلاء هم الاشتراكيون

يتحدثون عن تشجيع الحافز الفردى .

وهم يستنتجون من هـذا ان الافكار الاشـتراكية تنقرض ، وان موجتها تنحسر ، وان الدنيا عائدة يوما الى « الشكل الطبيعى » العادى ، الشـكل الفردى الراسمالى ..

والآن لننظر الى هذه القضية التى يروج لها العقل اليمينى بنشاط ، ونتأملها جيدا ..

الاشتراكية والراسمالية ، فى هذه المرحلة المتغيرة من حياة العالم ، اى نظام منهما يستعير من الآخر ويبحث لديه عن اكسير الحياة ؟ ..

هناك أسس واحـدة للفكر الاشتراكى ولـكن هناك تطبيقات كثيرة لها ، ومرة أخرى نفرق هنا بين تطبيقات «ماركسية لينينية ستالينية» أعلنت الشيوعية هدفا لها، وبين تطبيقات اشتراكية مختلفة عنها ، هى التى نؤمن بها ونتحدث هنا عنها .

هذه الافكار الاساسية فى الاشتراكية هى :

١ ــ الملكية العامة لوسائل الانتاج والتوزيع الاساسية

٢ ــ القضاء على الاستغلال ، والمعنى العام النظرى للاستغلال هو أن يحصل فرد على ايراد مصدره عمل فرد آخر .

٣ ــ الاخذ بنظـام التخطيـط فى توجيه الاستثمار القومى .

٤ ــ سياسة ديموقراطية فى الخدمات ، تكفل للمواطن تكافؤ الفرصة فى العمل والعلاج والتعليم والترفيه وما الى ذلك .

هذه المبادىء الاساسية ، لايوجد اى فكر أو نظـام اشتراكى الا ويعترف بها .. سواء طبقها كلها ، أو بدأ فى تطبيقها ، أو وضعها فى برنامجه الى أن يتمكن من

تطبيقها .. كالاحزاب الاشتراكية فى غرب أوروبا ذاتها.

ما هى حدود الملكية العامة ؟ ما هى درجة استئصال صور الاستغلال ؟ ما هو نطاق التخطيط ؟.. هنا ندخل فى دائرة القضايا النسبية لا المبدئية ، هنا تختلف تجربة عن تجربة وتختلف ظروف عن ظروف .

وهناك بالطبع الحرفيون الجامدون الذين يطبقون هذه المبادىء على اطلاقها والى آخر حدودها مهما كان الثمن وبصرف النظر عن كافة الظروف الاجتماعية والسياسية والتاريخية ، ويعتبرون أى شىء غير ذلك انحرافا عن الاشتراكية .

وهناك آخرون ــ نحن منهم ــ يرون ان المبدأ الاساسى شىء ودرجة تطبيقه وتوقيته وظروفه شىء آخر. لأننا نعتقد ان المبادىء تخدم الواقع وليس العكس .

المهم .. انه فى مجال التنازل عن الافكار الاشتراكية والنقل عن الرأسمالية .. نجد انه لايوجد اشتراكى واحد ينفى التزامه بهذه الافكار الثلاثة الاساسية أو يتحلل منها .

اما سائر التفاصيل .. كايجاد درجة من المنافسة بين مؤسسات الملكية العامة ، والاعتراف بوجود سوق تؤثر على الاسعار بشكل أو بآخر .. وتنشيط الحافز الفردى .. فهذه أشياء لاينكرها الفكر الاشتراكى السليم طالما بقيت فى اطار الاشتراكية .

فالحافز الفردى فى نظام اشتراكى غيره فى نظام راسمالى .

واثر السوق فى نظام اشتراكى غيره فى نظام راسمالى.

والتنافس بين قطاعات من وسائل الانتاج المملوكة ملكية عامة أو التنسيق بينها غير التنافس الفردى والاحتكار الفردى فى نظام رأسمالى .

فهذه كلها أساليب فى ادارة العمل ورفع مستواه وتحريك حوافزه ، لا ينصب عائدها فى النهاية فى جيب الرأسمالى ولكن ينصب — فى الاشتراكية — فى الدخل الذى يوزع ويعاد استثماره بطريقة عادلة .

والاشتراكية نظام تال فى التاريخ الانسانى للنظام الرأسمالى ، وهو يجيء بعده ..

وعبر التاريخ الانسانى ، كان كل نظام اجتماعى تال يحمل معه بعض ملامح وخبرات النظام الاجتماعى السابق عليه. وهذا طبيعى ، لأن توالى النظم الاجتماعية نوع من النمو والتقدم الانسانى المستمر المرتبط ، وبعض الخبرات الانسانية تبقى مراحل تاريخية طويلة . فما اكتشفه العقل الانسانى عقب الثورة الصناعية من ترشيد الانتاج وتنظيم علمى للعمل وأساليب لخفض التكاليف وتقدم تكنولوجى. هذا كله تراث انسانى مستمر ، يستفاد بالمزيد منه فى اطار العلاقات الاجتماعية الجديدة .

وليس بين مراحل التاريخ الانسانى جدران صماء تفصل بينها تماما ، والانتقال من مرحلة الى مرحلة ليس كالانتقال من الارض الى المريخ .

أما النظام الذى ينقل عن غيره حقا ، ويبحث لديه عن اكسير الحياة ، فهو نظام الرأسمالية ، الذى ينقل باستمرار عن الاشتراكية ، محاولا أن يطيل فى عمره .

● ان كل أنواع الخدمات والضمانات الاجتماعية التى تعرفها دول الغرب .. كالعلاج المجانى والتأمين الصحى ، والحد الادنى للأجور ، والتأمينات ضد البطالة والعجز والشيخوخة .. كل هذه النظم ، جاءت وليدة للفكر الاشتراكى ، ويضطر المجتمع الرأسمالى الى تقبلها يوما بعد يوم ، كطريقة لتخفيف الضغط عليه ، أو كاستسلام فى بعض المواقع لحماية مواقع أخرى أهم .

وكل نظام من هذه النظم لم يطبق الا بعد مقاومة شديده عاتية من المؤسسات الرأسمالية والعقل اليمينى سواء فى ذلك انجلترا أو فرنسا أو أمريكا أو غيرها .

الفكر الرأسمالى المتكامل يرفض أنواع الرعاية الاجتماعية كلها ، اذ يعتبر أنها تدعو الفرد الى التواكل والاعتماد على المجتمع فى حين أن الفرد يجب أن يكون مسئولا عن نفسه فى الغنى والفقر والصحة والمرض ، فاذا جاع أومرض وعجز عن العلاج أو بلغ سن الشيخوخة دون مدخرات كافية فهذا ذنبه وتقصيره ، يرفض الفكر اليمينى ان تكون الظروف الاجتماعية أحيانا مسئولة عن بؤس البؤساء وحاجة المحتاجين . واذا كان هذا الكلام يبدو لبعض القراء قديما .. فيمكنهم الرجوع الى كتب ألفها زعماء معاصرون مثل لودفيج ايرهارد فى كتاب «الرخاء للجميع» وجولد ووتر فى كتاب «ايمان محافظ»

● ومن جوهر النظام الرأسمالى ، رفض التخطيط الذى يتولاه المجتمع فى جميع صوره وأشكاله ، فالمحرك الوحيد للنمو الاقتصادى فى رأيهم هو المنافسة ، وفى ساحة المنافسة ــ وهى السوق ــ يسقط مشروع وينجح مشروع ، وتتجه رؤوس الاموال مدفوعة بعنصر البحث عن الربح الى أكثر أنواع المشروعات ربحا وبهذا وحده ينمو الانتاج وتسد حاجات المستهلكين ..

وقد بدأ العقل اليمينى يستسلم تدريجيا فى هذا المجال ، فى البدء قال : ربما كان التخطيط ضروريا للبلاد الناشئة بالذات . اذ ليس لديها عادة فائض كبير من الاموال يسمح لها بترف المنافسة ، وهى أيضا محتاجة الى اقامة مشروعات أساسية غير مربحة ولا يمكن أن يتجه اليها المال الخاص كمد طرق المواصلات وتوليد الطاقة الكهربائية وما الى ذلك ، ولكن النظام الرأسمالى حتى فى الدول المتقدمة بدأ يشعر بالحاجة

الى التخطيط ، ازاء ارتفاع تكاليف أنواع الانتاج المتقدمة ، وظهور قوى دولية أخرى منافسة ، وعجز الوفرة الانتاجية فى حد ذاتها فى حل مشكلة رفع مستوى المعيشة العام وتحقيق المساواة .

هكذا بدأت بلاد فى غرب أوروبا مثل انجلترا وفرنسا تأخذ على استحياء بفكرة التخطيط ، فرنسا فيها درجة من التخطيط يشترط فيها أن يحصل أى مشروع صناعى جديد على اذن من الدولة بمكانه الجغرافى ونوع انتاجه ، وانجلترا فى أواخر عهد حكومة المحافظين ومن باب محاولة انقاذ ما يمكن انقاذه كونت أول هيئة للتخطيط. فلما جاءت حكومة العمال وسعت سلطته ووضعت أول خطة عامة للتنمية ، ولست هنا فى مجال الحديث عن الفرق بين تخطيط وتخطيط ، ولكن فى مجال الاجابة عن سؤال محدد فقط هو : اى نظام يتعاطى جرعات من النظام الآخر ، يتقوى بها ؟

● على ان القضية الكبرى فى الموضوع تبقى : قضية الملكية العامة لوسائل الانتاج والتوزيع الاساسية .

وما أكثر ما نجد المجتمع الرأسمالى اليوم يتقبل — طائعا أو مضطرا — فكرة الملكية العامة فى بعض وسائل الانتاج الاساسية .

ولا يهم هنا ان المجتمع الرأسمالى يصل الى هذه النتيجة عن غير الطريق الايديولوجى ، فاذا كان المجتمع الرأسمالى يضطر اليها من باب الواقعية فالمذاهب الفكرية انما تستمد جذورها من الواقع !

فى السنوات الاخيرة منذ نهاية الحرب حتى الآن اتجه كثير من دول غرب أوروبا الى تأميم صناعات أساسية ، فمعظم البنوك المركزية وشركات الطيران والبترول

والكهرباء والفحم وبعض شركات السيارات وغيرها تؤمم بصورة أو بأخرى فى انجلترا وفرنسا وايطاليا وغيرها .

والواقع انه قد ذكرنى بهذا الموضـوع كله قضيتان عاشتهما انجلترا مؤخرا :

القضية الاولى : هى قرار مجلس العموم البريطانى بالعودة الى تأميم ٩٠ ٪ من مصانع الحديد والصلب فى انجلترا .

ان هذا القرار ذو أهمية خاصة لما لابسه من ظروف. فقد اممت حكومة العمال فى انجلترا هـذه الصـناعة الاساسية لأول مرة سنة ١٩٤٨ ، فلما عادت حكومة المحافظين الى الحكم ابقت كل قرارات التأميم ما عدا تأميم الصلب ، فقد الغته وأعادته الى الملكية الخاصة من جديد . وفى مكتبتى أكثر من كتاب ضخم لمؤلفين انجليز أعلنوا فى مؤلفاتهم موت التأميم بهذا العمل ، وقالوا ان أكبر سبب لسقوط حزب العمال هو تأميم الصلب .

وعندما عادت حكومة العمال الى السلطة منذ بضع سنوات عادت بأغلبية بسيطة قيل ان سببها تمسك الحزب بتأميم الحديد والصلب . فلما اجريت انتخابات عامة جديدة بعد ذلك ، ركز المجتمع الراسمالى ، الحاكم الحقيقى فى انجلترا ، كل ثقله على قضية تأميم الصلب. كان الظن ان التركيز على هذه القضية هو الذى يمكن أن يسقط حكومة حزب العمال ، ولكن الحزب عاد الى السلطة بأغلبية كاسحة . وعاد تأميم الصلب بعد الغائه بأربع عشرة سنة . عاد هذه المرة ليبقى بالتأكيد .

لماذا عاد ؟ ..

لأن اليساريين ظلوا على اعتقادهم القديم الذى عبر عنه وزيرهم « ستافورد كريبس » سنة ١٩٥٣ ، وهو

يقدم قانون التأميم الاول من ان صناعة الصلب التى تعد أساس كل الصناعات بما فيها صناعة الاسلحة لا يمكن أن تبقى فى أيدى افراد يملكونها فيكون أساس الاقتصاد القومى فى أيدى افراد هم أقوى من الحكومة ومن البرلمان. ولان بعض المعتدلين وحتى اليمينيين وجدوا ان بقاء عدة شركات متنافسة لم يعد الوضع الذى يمكن صناعة الصلب الانجليزية من التجمع والتكامل والتجديد وتخفيض النفقات بحيث تواجه المنافسة الخارجية الخطيرة . المهم ان الواقع قد جمع أكثر من اتجاه على انه لا مفر من جعل هذه الصناعة الاساسية تحت سلطة المجتمع بأن تكون مملوكة له .

هل يمكن ان يكون لملوك الصلب حقا مثل هذه السلطة فى بلد كبير قوى كانجلترا ؟ نعم . بل وفى أمريكا ذاتها.. حيث نذكر جميعا القصة الشهيرة .

كلنا نذكر كيف ان ممثل اتحاد أصحاب مصانع الصلب فى امريكا ذهب الى البيت الابيض أيام رئاسة كيندى فى ساعة متأخرة من الليل وسلم اخطارا بأن سعر الصلب سيرفع من صباح غد.. تماما كالطريقة التى كان يتبعها هتلر فى انذار الدول الصغيرة قبل أن تجتاحها جيوشه.

كان معنى هذا رفع أسعار كل شىء حتى فى بلد ضخم كأمريكا .. من ابرة الخياطة الى السيارة الى الدبابة الى المبانى .. الى كل شىء . فهو قرار أقوى من أي سياسة اقتصادية يمكن ان تضعها اية حكومة أو اي مجلس منتخب .

كان معناه أن نفقات الدولة بالذات تزيد بمئات الملايين من الدولارات فلا يكون مفر من فرض ضرائب جديدة وهكذا يصل قرار ملوك الصناعة الى جيب كل مواطن ، ويومها لم يجد كيندى فى يده أى سلطة قانونية لوقف

هذا القرار .. فعمد الى استخدام سلاح المشتريات الحكومية الهائلة خصوصا فى مجالات التسلح وامر بألا تشترى الحكومة من أية شركة حديد ترفع اسعارها . ومع هذا كان مطلوبا لينجح هذا القرار أن «تخون» احدى شركات الصلب زميلاتها وتبيع بالسعر القديم . وهذا ما فعلته شركة بتلهيم للصـــلب ، فانهزم قرار ملوك الحـــديد واضطروا الى التراجع .

ولكنهم ظلوا يتحينون الفرصة ، ومات كيندى وجاء جونسون وزاد تورط أمريكا فى حرب فيتنـــام وزادت نفقاتها . وعاد ملوك الحديد الى رفع الاسعار، بالاجماع هذه المرة . وأصدرجونسون بيانات يعبر فيها عن أسفه لهذا القرار الذى سيؤدى الى التضخم الاقتصادى والى التأثير على مجهود أمريكا الحربى ، ولكن دون جدوى..

وبعد شهور أعلن ملوك الالومنيوم قرارا مشابها .. وأصدر جونسون بيانات أسف واحتجاج مشابهة ! !

● القضية الثانية التى عاشتها انجلترا مؤخرا ، هى قضية جريدة التايمز ، أهم مؤسسة صحفية أو اعلامية يزهو بها الانجليز ويفخرون ..

ان منطق التنافس الرأسمالى سعيا وراء الربح ينطبق على المؤسسات الصحفية كأى مؤسسات حديد أوخشب أو زلط . ومع تزايد نفقات الصحف وزيادة اعتمادها على الاعلانات والصلة الحميمة بين الرأسماليين أصحاب الصحف اليمينية وبين الرأسماليين أصحاب الاعلانات.. بدأت الصحف التى تحاول أن تكون مستقلة تفلس أو تبيع نفسها لمالك أكثر ثراء ..

حدث هذا أكثر من مرة فى السنوات الاخيرة . وفى كل مرة كانت تحدث ضجة .. لكن ليست كالضجة التى ثارت يوم عرف ان المليونير الكندى الاصل الذى يشترى

الصحف لأغراض تجارية ، والذى يعلن انه لاشأن له بالسياسة مطلقا ، والذى قال مرة فى زهو ان المقالات والاخبـــار لا قيمة لها لديه الا انها لازمة لتوضع بين الاعلانات .. هذا المليونير روى طومسون ، أعلن انه اتفق على شراء جريدة التايمز !

وقال رئيس الوزراء ان الأمر أصبح يحتاج الى تدخل من الحكومة !

وكلف اتحاد الصحف مجلة الايكونومست بعمل دراسة فى أحوال الصحف الإنجليزية ولماذا يحدث هذا ..؟

والسبب بسيط ...

ان القوة الاقتصادية للمؤسســة الصحفية أصبحت هى مصدر قوتها الصحفية ، وليس العكس .

القوة الاقتصـــادية تمكنها من شراء آلات أحدث ، واستئجار كفاءات أكبر ، والقيام بعمليات ترويج أوسع، وبالتالى فقدقالت دراسةمجلة الايكونومست ـ اليمينية ـ انالمؤسسة ذات «الادارة» القوية والموارد الاقتصادية الكبيرة لابد أن تطحن الصحف التى ليست لديها هذه الاسلحة .. مهما كان رأيها ، أو لونها ، أو رسالتها . وانه فى مرحلة معينة من مراحل تراكم القوة الاقتصادية تصبح المنافسة غير صحفية على الاطلاق !!

ومن أين تجىء هذه القوة الاقتصادية ؟

من رأسمالى كبير ، أو من نفوذ خاص يشق الطريق لدى المعلنين الرأسماليين ، كما فعل بيفربروك من قبل.

ولم يتمكن أحد طبعا من أن يفعل أى شىء لوقف روى طومسون من شراء فخر انجلترا ورمز صحافتها «المستقلة» !

ولكن لأول مرة يقف نواب انجليز ويقترحون تأميم جريدة التايمز أو وضعها فى يد هيئة عامة مستقلة على نحو ما!.. حتى يبقى فى انجلترا صوت «مستقل» حقا !

الإشتراكية مازالت تبحث عن شكلها السياسى!

نطرح خلف ظهرنا ، الوان الخلط المتعمد الذى يستخدمه « العقل اليمينى » فى وصف الموقف الراهن للاشتراكية ، ونوع المشاكل التى تواجهها .. كما تعرضت له فى المقالين السابقين .

ماذا اذن يقول العقل اليسارى ، اى العقل الاشتراكى

يقول : ان دحض مزاعم اليمين ليس معناه ان الاشتراكية لا تواجه مشاكل وتحديات شتى . فهى على العكس ، منذ دخلت مرحلة التطبيق فى أماكن مختلفة وتحت ظروف متباينة ، كان لابد لها أن تواجه أنواعا من المشاكل والتحديات ، بعدد البلاد والظروف التى نبتت فيها ...

وهذا بحث قد يكون له أول ، ولكنه ليس له آخر ..

ولا مفر من الوقوف ، عند بعض أنواع هذه التحديات الكبيرة .

التحدى الذى يخطر على البال ساعة كتابة هذه السطور ، ربما لأننا نوشك فى مصر أن نتباحث فى وضع دستور دائم جديد ، هو مشكلة الحكم فى ظل الاشتراكية ، أو بتعبير آخر الشكل السياسى للمجتمع الاشتراكى ، أو بتعبير ثالث المؤسسات السياسية التى تناسب علاقات اجتماعية اشتراكية ...

بصـــورة أو بأخرى نجد أن المجتمع الراســـمالى البورجوازى ، له صورة سياسية عامة يمكن التعرف عليها . البرلمان المنتخب انتخابا مبـــاشرا وتتركز فيه السلطة التشريعية والسياسية العليا . تعدد الاحزاب. الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية.

ليس معنى ذلك ان هذه الصورة السياسية صورة مستقرة ثابتة واضحة فى كل مجتمع راسمالى بورجوازى. فعلى الرغم من أن النظام الراسمالى البورجوازى فى غرب أوروبا بالذات عمره يقرب من مائتى ســـنة فى جانبه الاقتصادى والاجتماعى ، الا ان شكله السياسى ظل يهتز بعنف حتى وقت قريب ، ولايزال . وكما لاحظ المفكر الفرنسى اليمينى « ريمون آرون » فى سنة ١٩٣٦ ، قبل الحرب العالمية مباشرة ، كادت هذه الصورة للديمقراطية البورجوازية تختفى فى أوروبا عدا انجلترا واسكندنيفيا، اختفت الديمقراطية البورجوازية من مجتمعات راسمالية مثل المانيا وايطاليا واسبانيا ورومانيا والنمسا والمجر وتشجعت العناصر الفاشية فى بلجيكا وفرنسا ذاتها .

لم يكن هناك اذن تلازم تلقائى بين النظام الراسمالى والديمقراطية الغربية بالملامح السابقة حتى فى أوروبا بتقدمها الصناعى والاجتماعى والحضارى . والى الآن نجد أن هذا التلازم غير قائم فى البلاد الراسمالية التى ليست فى مستوى أوروبا من حيث التقدم. فنظم الحكم الفردية والدكتاتورية موجودة مع المجتمعات الراسمالية فى امريكا الجنوبية وفى ايران وغيرها وكل بلاد افريقيا التابعة للمعسكر الغربى .

بعد هذه التحفظات الهامة ، أعود من باب التبسيط الى القول بأن المجتمع البورجوازى الراسمالى ، فى حالة النضج الاقتصادى ، له صـــورة سياسية عامة يمكن

التعرف عليها ، بالملامح التي سبق ذكرها ..
ولكن الاشتراكية ـ فى تقديرى الشخصى ـ لم تجد بعد الصورة السياسية النهائية لها.. اى الشكل السياسى النهائى لممارسة السلطات فى المجتمع الاشتراكى ...

وقد يبدو ذلك غريبا ، وهو فى الواقع ليس بغريب اذا ذكرنا ان العلاقات الاشتراكية فى المجتمع عمرها يقاس بعشرات السنين وأحيانا بآحاد السنين ، فى حين أن الرأسمالية يقاس عمرها بالقرون ...
وقد يبدو ذلك مستنكرا لدى بعض الاشتراكيين ، ولكن هذا البعض من الاشتراكيين هم على الاغلب الذين يقيدون فكرهم بنصوص معينة أو بتجارب معينة أى هم الاشتراكيون الماركسيون اللينينيون بالذات ...

ولـكن ، ليس أسهل من التدليل على انه حتى فى التجارب الماركسية اللينينيـة بالذات ، التى تعتبـر « مراجعـة النظرية » عارا وتهمة لا تغتفر .. تجرى المراجعة على قدم وساق .
روسيا فيها مراجعـة ، والصين فيهـا مراجعـة ، ويوغوسلافيا فيها مراجعة ، ورومانيا فيها مراجعة .
فى الجانب السياسى المحض الذى أحصر فيه حديثى هذه المرة ، نجد ان الثورة الثقافية معناها أزمة حكم ، معناها ان التعبير السياسى الذى كان موجودا عن المجتمع هناك ما زال فى رأى البعض فى حاجة الى تغيير ، فى الجانب السياسى المحض ، نجد ان نقد ستالين وماتلاه من تغيرات معناه ان التعبير السياسى عن المجتمع هناك قد تبينت فيه ثغرات سمحت بعبادة الفرد وسمحت بهتك الشرعية وانه لابد من تطوير لها ... وهكذا ..
وهذا بدوره موضوع طويل ، ولكن يكفى هنا مجرد تسجيل الظاهرة كما أراها ، لمجرد اثبات : انه حتى

اكثر القائلين بكمال النظرية وثبات التجربة ، يراجعون ويراجعون ، الأمر الذى يعنى ان الوصـــول الى ثوب سياسى يناسب العلاقات الاجتماعية الجديدة هناك لم يتم بعد ، وليس هذا غريبا ولا هو ضد طبيعة الأمور.

فماذا عن التجارب الاشتراكية التى لا تعتبر أقوال ماركس ولينين كتبا مقدسة ولا مراجع وحيدة ، انما تعتبرها اضافات فكرية كبيرة سبقتها اضافات وتلتها اضافات وسيتلوها أكثر مما تلاها الى الآن ؟

معظم هـــذه التجارب الاشتراكية الجديدة فى بلاد تحررت حديثا من الاستعمار ، وفى المراحل الاولى لتثبيت استقلالها وتنمية اقتصادها .

ومعنى هذا انها فى معظمها ــ ان لم تكن كلها ــ تواجه مصاعب التحول الاشتراكى فى حد ذاته من جهـــة ، ومصاعب التنمية الاقتصادية من جهة ثانية ، ومصاعب تثبيت الاستقلال الوطنى ودرء الضــغوط الاستعمارية عنه من جهة ثالثة ...

هذه المرحلة التى تواجه عملية انتقال مثلثة الجوانب ، من شأنها أن تكون مرحلة تجربة وخطأ وبحث عن الشكل السياسى المتطور للعلاقات الاجتماعية المتطورة ...

ولكن ما هى القيمة النظرية للتأكيـــد على ان هـــذه المرحلة فى حيـــاة التجارب الاشتراكية مرحلة تجربة وبحث وانتقال ، لامرحلة ثبوت ووجود وتشكل نهائى ، فى الجانب السياسى ؟

قيمة هذا التأكيد تكمن فى نقطتين :

النقطة الاولى ــ انها تجعلنا نفرق بين ما هو وقتى وبين ما هو دائم . بين ما هو خاص بالاشتراكية كشكل اجتماعى وما هو خاص باعتبارات أخرى ...

فالاشتراكية مثلا لم تجىء الى أى بلد من البـــلاد

حتى الآن ، مهما كان لون هذه الاشتراكية ، الا عن طريق الثورة ، والثورة من طبيعتها انها تنطوى على درجة من «الفرض» لأنها تحطم هياكل اجتماعية قديمة وتقيم هياكل جديدة وتجرى جراحات اجتماعية تختصر الزمن. هذا شأن كل ثورة وليست الثورة الاشتراكية وحدها. فالبورجوازية الرأسمالية فرضت نفسها بالثورة العنيفة على الاقطاع وبتدمير العلاقات الاقطاعية أحيانا بحمامات الدم كما حدث فى الثورة الفرنسية ، فالثورة التى تفرض ارادتها ، لأن هذه الارادة متمشية مع منطق التاريخ ، ولأن هذه الارادة تلبى الحاجات العميقة للشعب ، الحاجات التى لا يقدر الشعب على انجازها بالوسائل العادية ، «الفرض» فيها سمة من سمات كل ثورة تنقل المجتمع من صورة الى صورة .

« الفرض » اذن صفة مرتبطة بالحدث الثورى ، وبمرحلة الانتقال التى تتحمل الثورة مسئولياتها ، ولكنها ليست صفة مرتبطة بالاشتراكية كنظام اجتماعى أو بالاشتراكية حين تصبح نظاما اجتماعيا عميق الجذور.

والثورة حين تفرض ارادتها بنجاح ، لا تكون فى عزلة عن الشعب ، بل انها تتغذى وتستمد قوتها الدافعة من التأييد الشعبى ، ولكنه تأييد شعبى مباشر ، وليس عبر مؤسسات سياسية محددة ، اذ لا يكون هناك فى أول مراحل الانتقال الا المؤسسات السياسية بأشكالها القديمة التى ثبت عجزها فحطمها الحدث الثورى . ومعنى هذا ان على الثورة بعد ذلك أن تسعى لصياغة مؤسسات سياسية جديدة تناسب المجتمع الجديد .

ومن الأخطاء التى ارتكبها بعض الاشتراكيين فى بعض التجارب ، انهم ظنوا ان الاشكال التى لازمت الحدث الثورى وكانت ضرورة له ، هى الاشكال النهائية ،

فتجمدوا عندها ، وافقدوا التطبيق الاشتراكى كثيرا من خصوبته ، وعطلوا عملية التوصل الى أشكال سياسية أكثر صلاحية للثبات والاستقرار ، وأكثر تعبيرا عن العلاقات الاشتراكية .

النقطة الثانية ـ انالاشتراكية ليست نظاما «شموليا Totalitarian للمجتمع»ولكنهانظام يستهدفالديمقراطية

ان الاشتراكية قامت على أساس ان الديمقراطية البورجوازية ناقصة ، لأنها ديمقراطية سياسية فقط ، تقف عند حد منح الفرد حق الانتخاب وحق تكوين تجمعات سياسية ، ولكنها لا تمنع بأن تكون الرأسمالية والاحتكار وتركز ملكية أدوات الانتاج فى ايدى أفراد قلائل ، عقبة تسلب حق الانتخاب والتجمع مغزاه الحقيقى ... فحين تكون البنوك والمصانع والاراضى والمتاجر والصحف ومحطات الاذاعة فى أيدى طبقة محدودة ، يصبح لهذه الطبقة قوة أكبر من ان توازنها اي قوة أخرى فى المجتمع .

الاشتراكية تقوم لكى تكون الديمقراطية سياسية واجتماعية معا. أو بالاصح اجتماعية وبالتالى سياسية. لهذا فالديمقراطية ، أىمشاركة الشعب مشاركة فعالة فى التفكير لنفسه لا حكم نفسه ، هدف أصيل من أهداف الاشتراكية .

وفى بحث الاشتراكية عنتعبيرها السياسيالديمقراطى لابد لها أن تتجنب خطأين شائعين كبيرين :

الخطأ الاول ـ هو أن تقع تحت تأثير العقل اليمينى فى قوله بأن الديمقراطية البورجوازية هى الشكلالوحيد للديمقراطية . فالمجتمع الرأسمالى ، وقد أصبحت هذه بديهيات ، مجتمع طبقى تعبر الاحزاب المختلفة فيه عن مصالح مختلفة بينها تناقضات أساسية . وفى هذا

التقسيم الطبقى نجد ان كل الاسلحة ذات الأثر من أموال وملكية وبنوك وصحافة وأحيانا اذاعة وتليفزيون. وقد ترتبت على هـذا الوضـع كل ملامح ومعانى النظـام الديمقراطى البورجوازى .

ولنقرأ الآن ما تنشره الصحف الغربية هذه الايام . فنجد الصحف الفرنسية مثلا تتحدث عن اجتمـاعات رجال المال والصناعة فى فرنسا لتقرير استراتيجيتهم فى الانتخابات المقبلة ، وأى حزب يمنحونه أموالهم لتساعده فى الانتخابات ، وكيف انهم اختاروا حزبى الوسط ـ حزب جان لوكانويه وحزب جيسكار ديستان ـ لاعطائهما هذه الأموال ، حتى يقللوا من قوة اليسار الذى يطالب بتأميم بعض البنوك والشركات ، ومن قوة حزب ديجول الذى يتعارض تخطيطه للسياسة الفرنسية العامة مع مصالح رؤوس الأموال أحيانا ، كموقفه من أمريكا . ولنقرأ ما تنشره الصحف الامريكية والاوروبية من أن كبار الرأسماليين بحثوا عن رجل جذاب وأجوف هو الممثل السابق رونالد ريجان لكى ينفقوا عليه ويضعوه فى مركز حاكم كاليفورنيا ، حتى يقضى على التيـارات المتحررة التى نمت فى جامعة كاليفورنيا ، فكان أول قرار له بعد تسلم السلطة فصل مدير الجامعة لأنه ترك الطلبة يحتجون على حرب فيتنام ... الى آخره .

واذا كان نظام الديمقراطيـة اليمينية فى المجتمعات الراسمالية الغنية المتقدمة يقف أثره عند تثبيت الوضع الاجتماعى الرأسمالى ، فان هذا النظام ـ وأهم ملامحه تعدد الاحزاب ـ فى البلاد النامية الصغيرة يصبح بابا لاخطار أكبر: يصبح بابا لأن تشترى بعض هذه الاحزاب لقوى خارجية أكبر وأقوى .

الخطأ الثانى ـ الذى يجب أن يتجنبه الاشتراكيون

هو أن يخلط البعض بين « الجماعية » التى تنطوى عليها الاشتراكية والتى هى جوهر ديمقراطى، وبين «الشمولية» التى لا تنطوى عليها الاشتراكية فى معناها الديمقراطى النهائى ..

ان الشمولية Totalitarianism فى تفسير فقهاء السياسة هى أن تجتمع كل السلطات الاقتصادية والدعائية والعسكرية فى يد فرد أو فئة محدودة ، بقصد فرض فكرة واحدة تحكم كل شيء من الاقتصاد الى الفن الى البحث العلمي والاكاديمى .

والشمولية ، تهمة يحاول أن يلصقها اليمين بالفكر الاشتراكى ويربطها به ، فى حين أنها تيار أو انحراف يقع فى مجتمعات ذات نظم سياسية متعددة . فالنازية رأسمالية وشمولية معا .

أما الاشتراكية غير الجامدة ، فهى فى عملها لاذابة الطبقات ، ووضع مرافق الثروة والانتاج الاساسية فى المجتمع، تحاول فى نفس الوقت أن توسع دائرة المشاركين فى السلطة وفى الحكم والادارة على كافة المستويات وتفرق مرة أخرى بين منطق الثورة لبناء الاشتراكية ومنطق الاشتراكية ذاتها ، فالحدث الثورى يحتاج فى أي مرحلة تاريخية الى تثبيت وحماية وتدعيم ، ونجاحه النهائى هو أن تصبح أفكاره هى القاعدة ، بحيث تتحمل الجدل والمناقشة والتجديد والنقد دون أن تتأثر ركائزه الاساسية بشرط أن يكون هناك انتباه مستمر الى ما هو مؤقت وما هو دائم ، والا يعيش المؤقت أكثر من مرحلته التاريخية اللازمة .

والاشتراكية غير الشمولية بهذا المعنى ، تفترض استمرار المتناقضات مرحلة طويلة بعد بدء التطبيق الاشتراكى وبالتالى تفترض درجة من التفاعل والنقاش

فى اطار الاتجاه الاشتراكى، وهى تنفتح على قوى الشعب العاملة كلها ، غير آخذة بنظام الفئة المحدودة التى تحتكر الحكم وهى تضع قوى الشعب العاملة فى بوتقة تنظيم واحد لكى يتخذ الخلاف بينها شكل التفاعل ويتجه نحو اذابة الفوارق الطبقية ، بدلا من أن تتجه كل قوة منها الى اقامة تنظيمها المستقل ، فتنمو نموا متنافرا ، وتتحصن كل منها فى حصونها ، ويتحول التناقض المحدود والذى يجب أن يذوب الى تناقض اساسى وصراع ، وعودة تدريجية الى تدعيم النظام الطبقى غير الديمقراطى

والاشتراكية غير الشمولية ترفض البيروقراطية الفكرية وتحذر منها ، هذه البيروقراطية التى تتجه عادة ، بحكم ضحالتها الفكرية ، الى رفض التجربة والتجديد والاستكشاف وحق الخطأ ، فتهبط بالفكر الى مستواها البيروقراطى ، وتحرم المجتمع من محركات التجديد والتطور .

وبعد ...

فاننى لا اعرف اذا كنت قد وصلت الى ذيل المقال دون أن افقد الصلة برأسه ، أم لا . وقد كان رأس القضية ان الاشتراكية تواجه تحديات بالفعل . وهذا ليس غريبا . وان الاشتراكية ما زالت تبحث عن أشكالها السياسية النهائية ، وهذا أمر طبيعى ، اذا حسبنا عمرها التطبيقى القصير وماتريد أن تدخله من تغيير انسانى عميق

واذا كان اليمين يشوش على هذا البحث عن الشكل السياسى النهائى بالقول بأن الشكل السياسى البورجوازى هو الشكل الخالد ، فان بعض اليسار يشوش على هذا البحث حين يرفض القول بأن هناك تحديا من هذا النوع ، أو حين يعتبر ان ماقام من اشكال بحكم الحدث الثورى وظروفه فى بلد آخر ، هو خاتمة المطاف .

فى الشباب والحب

هلَ صحيح ان شباننا وشاباتنا غير جادين ؟

هل صحيح ان الشباب ـ قبل الثورة ـ كانوا أكثر اهتماما بالسياسة من الآن ؟

هل السينما والتليفزيون ، وارتداء الملابس الشاذة ، و « معرفة الجنس الآخر » هى كل ما يشغل بال الولد والبنت فى هذه الايام ؟

هل صحيح ان الشبان والشابات فى البلاد العربية الاخرى ، عدن مثلا ، أو الاردن ، أو العراق ، أكثر انفعالا بالقضايا القومية والفكرية من شباب القاهرة ، ودمشق ، وحلب ، والاسكندرية ؟

أسئلة تلح فى عقول كثيرة وفى مجالس كثيرة !

وهى تلح على الاقل على عقل تلك الفتاة من الخليج العربى التى قالت لى : انه لا يعجبها فى بنات القاهرة اهتمامهن الكبير بالخلاف حول موضوع فريد الاطرش وعبد الحليم حافظ ، وأيهما يتمتع بصوت أعذب !

هذه الاسئلة .. أحب أن أقرنها بهواجس اخرى تدور فى خاطرى ، ولعلها أيضا تدور فى خواطر الكثيرين .

عندما كنا ـ نحن أبناء الجيل الذى انتمى اليه ـ طلبة فى الجامعات .. لم نبلغ العشرين من العمر بعد ، كنا نحلم بقيام نظام جمهورى . وكأننا نحلم بخطيئة كبرى.

لو كانت رؤوسنا زجاجية شفافة ورأى الناس ما فيها من أحلام لحطموا لنا هذه الرؤى ! كان الحلم بالنظام الجمهوري حلما خطرا . وكنا اذا تحدثنا به كأمنية قد نرأها ، وربما لا نراها ، رحنا نهمس به كأنه عالم مسحور دونه مغامرات رهيبة . ذلك ان نظام الحكم كان ملكيا . وأجهزة الدولة كان شعارها ملكيا. ومناهج الدراسة ـ حتى فى الجامعات ـ تدرس لنا مزايا النظام الملـكى !

ولكننا الآن نعيش فعلا فى نظـام جمهورى ، بكل ما ينطوى على ذلك من تطور عميق . ونحن الذين عشنا النظامين : الملكى ، والجمهورى ، نكاد ننسى أحيانا اننا كنا نعيش ذات يوم فى ظل نظام ملكى . وحين نتذكر هذه الحقيقة ندهش ! ولا نكاد نتصـور كيف عشنا ـ حقا ـ فى ظل ملك اسمه فاروق ، اذ يبدو لنا هذا كأنه حدث فى عصر ما قبل التاريخ . وحين كنت جالسا فى أحد المطاعم منذ أيام ، ودخل أحد الأمراء السـابقين دهشت ! ودهش من كانوا معى ! دهشنا من مجرد وجود هذا الأمير السابق على قيد الحياة . لا لأنه أكبر سنا من سائر الاحياء ، ولكن لأنه ينتمى فى ذهننا الى عصر يبدو لنا بعيدا سحيقا .. رغم أننا كنا نعيش تحت وطأته منذ بضع سنوات ! ..

هذه كلها هى مشاعرنا نحن الذين عشنا العصرين ، فماذا عن الاولاد والبنات الذين تبلغ أعمارهم الآن عشرين سنة أو أقل قليلا ، أى الذين كانوا أطفالا يوم قيام الثورة فلم يكونوا يدركون ـ بعمق ـ معنى هذا الذى زال .. هل تراهم يأخذون «الجمهورية» قضية مسلما بها ، وبديهية ؟.. أم هل يتحمسون لها حماستنا نحن الذين عرفنا النظام الاخير ؟ ..

نموذج آخر ، هو .. الاشتراكية ..
على أيام صبانا ، كانت الاشتراكية كلمة محرمة ، وكانت اليسارية مرضا يجب أن يخفيه صاحبه ، وكان هذا جزءا من جاذبيتها فى نظرنا !.. كان الاشتراكى يخفى عقيدته وهو يشعر انه يخفى سرا يتحدى به المجتمع ، السر الذى سيقلب به كل شىء ، الاختراع الذى سيغير به وجه الحياة ! ..
وحين كان الاساتذة يدرسون لنا محاسن الراسمالية والاقطاع ، كنا نضحك منهم فى أكمامنا ، وكنا نهزأ منهم . نهزأ من انهم جبناء لا يجهرون بالحق ، أو نسخر منهم لأنهم لا يعرفون الصيحة الجديدة فىعالم النظم الانسانية وكان هذا يغيظنا منهم ، ولكنه كان يرضى فينا ذلك الزهو الذى يحب أن يحس به كل جيل جديد ، احساسه بأنه هو الذى سيغير الحياة ، وسيحرك عجلة التاريخ ، وسيأتى بما لم تستطعه الأوائل .
اما الآن .. فالذى يتزعم الدعوة الاشتراكية هو رئيس الدولة ، والاذاعة والصحف الكبرى ، والمدارس تبشر بالاشتراكية وتشرحها ، ووزير الاقتصاد والخزانة يجلل بها ميزانية الدولة ، وضابط الشرطة يحميها . فما هو يا ترى شعور الشاب الجديد الذى ولد وجدانه فى هذا الجو ؟ ما هو شعوره نحو هذه الشعارات ؟ !
الذين عاشوا حين كانت الاشتراكية خطرا تطارده الدولة .. ما زالوا يرون ما فى هذه الكلمة من لهب .. ويحسون مافيها من ثورية .. وما تصنعه من تفجير للهياكل القديمة . ولكن ما هو شعور الشبان الجدد نحوها ؟.. الذين ولدوا وهى شىء مشروع ، هل يجدون لها هذا الطعم نفسه ؟ ...
واذا كانوا لا يجدون هذا « المذاق الثورى » لكلمات

الاشـــتراكية والجمهورية وما الى ذلك .. فمـا هو « الثورى » فى حياتهم اذن ؟ ..

واعود الى الاسئلة التى طرحتها فى اول المقال ، وهى وثيقة الصلة بهذا الاستطراد ! ..

ان أمامنا الآن سؤالين :

الاول ، هو : هل شباب هـذا الجيل أقل جدية وحماسة من الجيل السابق ؟

والثانى ، هو : هل ـ اذا ثبت ذلك ـ يكون السبب هو ان الاهداف « الثورية » اصبحت الآن اهـدافا « شرعية » ليس فيها مغامرة ولا مخاطرة ولا خفاء ؟..

اننى أعتقد ــ وهو اعتقاد مطروح للمناقشة ــ ان الفرق ليس فرقا من ناحية الدرجة ، ولكنه فرق من ناحية النوع . فمن الخطأ أن نقيس الحماسة والجدية بدرجات واحدة . ولـكن نوع الجدية ونوع الحماسة يختلفان . ذلك ان المرحلتين التاريخيتين ــ ما قبـل الثورة وما بعدها ـ مختلفتان اختلافا عميقا .. ومن الطبيعى أن يختلف « نتاجهما » من الشبان والشابات نفس الاختلاف العميق ! ..

كيف ؟ ..

ان هناك نوعا من الأعداء ، لابد أن تواجهه بعمـل صاخب . .هو القتل مثلا !

وهناك نوع آخر من الأعداء .. لابد أن تواجهه بعمل هادىء .. فيه من المثابرة أكثر مما فيه من الشجاعة .

وعندما نتأمل الكلمة الشـــهيرة التى قالها على بن ابى طالب : « لو كان الفقر رجلا لقتلته ! » نجد هذه الحيرة ازاء العدو الذى لايمكن التخلص منه الا بواسطة القتل ! ..

انت تقتل المستعمر او الغاصب او تسجنه أوتطرده ،

..

ولكن الفقر مثلا لا يمكن اقصاؤه بهذا العمل الدرامى العنيف . انه ليس هدفا محدودا تصيبه بضربة واحدة. انه هدف واسع متشعب عميق الغور ..

ولنطبق هذه الصورة العامة على موضوعنا ..

إن الشاب يكون ثائرا ، بقدر ما يكون هناك شىء آخر يثيره ويستفزه ويتحداه .

الاحتلال الاجنبى مثلا.. اننا نراه فى كل زمان ومكان يستفز الناس الى الثورة ويجعل الغليان والعنف طابع الشباب بوجه خاص . ذلك أن الاحتلال الاجنبى حقيقة صارخة ، واضحة ، مهينة ، تصفع الناظر اليها كل يوم وكل ساعة .

وقد نشأت الاجيال السابقة فى عصر حافل بالحقائق المهينة ، التى تتحدى وتستفز ، التى تشعل الحرقة وتزرع المرارة العميقة ..

الاستعمار الاجنبى ..

الهوان الدولى ..

النظام الملكى الخائن ..

المجتمع الاقطاعى الراكد ، بينما المجتمعات الاخرى تقفز وتتحرك وتخترع ، التعطل بالوراثة يتربع على عرش يعنو له كل الذين يسفحون عرقهم فى التراب !

الى آخره .. الى آخره ..

هذه الاشياء وغيرها كانت تصدم الشاب منذ بضع سنوات وتستفزه وتلسع مشاعره . لذلك كان من المنطق أن يكون طابع شباب ذلك العصر الحماسة الملتهبة والانفعال والتطوع للخطر وكان هذا يصل الى القاء القنابل على الانجليز ، واطلاق الرصاص على الوزراء ، وحرق عربات الترام .. الى آخره ..

وهذه المظاهر الانفعالية .. هذه الأدلة على الجدية

والحماسة .. ليست أشياء مقصودة لذاتها ، ولكنها نتيجة أوضاع معينة . فهى فى حد ذاتها ليست علامة النضج والاهتمام بالمسائل العامة .. انما هى علامات استثنائية تبدو على الشباب فى ظروف استثنائية ..

ولكن .. هل زال كل نقص فى حياتنا .. وبالتالى هدأ كل غليان فى نفوس الشباب ؟ ..

بالطبع ، لا .. وان أكثر ما كان يبعث على الغليان ليس وجود هذه المشاكل والاوضاع الصارخة فقط ، ولكن عدم وجود حركة شاملة قوية للتخلص منها . فهذا وحده كان يبعث أعظم الغليان فى نفوس الشباب . لم يكن الشباب يعتقدون أن المهمة الطبيعية لهم مثلا هى القتال لاخراج الانجليز من القناة ، ولكنهم كانوا يغتاظون أكثر وأكثر من جمود الاحزاب والزعماء والوزارات وتقاعسهم عن هذه المهمة ، فكانوا أحيانا يصبون غضبهم على الانجليز ، وأحيانا على هذه القوى التى كان يجب أن تكون مهمتها الاولى هى محاربة الانجليز ..

أما الآن .. فقد حدث تغيير فى المهمتين :

ــ فمن ناحية ... زال « اصرخ » ما كان يستفز الضمير والاعصاب . كالاحتلال والتبعية الدولية والعرش الخائن والاقطاع والرضا بالمكان المتخلف .

ــ ومن ناحية أخرى .. زال « جمود » الدولة والقيادة والمجتمع ازاء المشكلات ... فلم يعد هناك الاحساس القديم المستفز بأن من يمسكون الزمام لايتحركون ولا يتقدمون .

وهذه أشياء لها أثر عميق جدا فى نفوس الشبان والشابات .. وان كانت لا تبدو واضحة للعيان ..

الشبان والشابات الآن فى سن ١٧ أو ١٨ أو ٢٠ ؛

يجدون أن بلادهم تسير فى ركب الصيحات الجديدة التى تتردد فىجنبات العصر الحديث : الجمهورية والاشتراكية والصناعة .. فهم يشعرون ان القضايا الاساسية لا خلاف عليها ..

ثم ان الشبان والشابات لا يرون حولهم ركودا ولا جمودا . بل يجدون الدولة فى حركة عنيفة واسعة النطاق ، حركة تكاد تصم الآذان ، وتجعل الانفاس تتلاحق لاهثة !

فمن الطبيعى اذن الا تكون لاهتمامهم بهم طبيعة صاخبة . ومن الطبيعى اذن أن نستبعد « الانفعال » و « الغليان » كأدلة على الجدية والاهتمام !

ان الشائع فى وصف الشباب الآن هو: انهم منصرفون الى طلب الرزق .. فى شكل عمل أو وظيفة أو اى شىء آخر ..

ولكن .. ما هو « طلب الرزق » آخر الأمر ؟

ان طلب الرزق ليس عملا هداما بل انه عمل بناء من الدرجة الاولى. فى لحظات الخطر أوالثورة أوالاستفزاز يكون مطلوبا من الناس أن يتركوا طلب الرزق ، لأن الثورة والتطوع هنا يكونان لطلب الحياة الكريمة نفسها. يكونان لصيانة الوطنالذى سنطلبفيه الرزق بعد ذلك! أما فى الاحوال الطبيعية ، حين يكون الوطن كله فى حالة سعى وعمل من أجل التقدم والصعود والارتقاء .. فان طلب الرزق يكون اشتراكا ايجابيا فى عمليات البناء هذه . الشاب الذى يطلب الرزق انما يدفع نفسه الى الأمام فى دراسة ، أو فى اتقان عمله ، أو فى البحث عن عمل أحسن .. وهكذا .. ومن مجموع هؤلاء الشباب الذين يطلبون الرزق يحدث « الصعود العام » وتتكامل عملية البناء الشاملة ..

ولكن .. هنا يرد تحفظ خطير، ونحن نناقش «جدية الشبان والشابات» .

لابد أن نوضح ان هناك فرقا بين طلب الرزق بشكل انتهازى ، وبين طلب الرزق عن طريق المجهود ومحاولة التفوق والاتقان واحترام الخدمة العامة . وفى رايى ان هذه الناحية لا تتوقف على الشباب أنفسهم ، ولكنها مرهونة بالكبار ، بالاجيال السابقة عليهم ..

كيف ؟ ..

ان الشاب يبدأ حياته ونفسه طاهرة .. والمثل العليا فى فؤاده بريئة من الشوائب الى حد كبير . والمجتمع هو الذى يضيف الى وجدانههذه الشوائب او لايضيفها. وهو المجتمع الذى يحكمه الكبار ، والاجيال السابقة على جيل الشباب الجديد ...

لننظر مثلا الى صــورة شــاب دخل الجامعة وجد واجتهد لكى يتفوق ويضمن عملا يحبه ويحلم به . ثم فوجىء لحظة تخرجه ان أحد الذين كانوا أقل منه مجهودا ينال هذا العمل وتنفتح أمامه الفرصة .. بسبب قرابة أو صداقة أو محسوبية منأي نوع.هذه الصدمة تذهب بطهارة الشـــاب كلها . انها تقلب كل القيم التى كان يصدقها رأسا على عقب .انه يتصور ان هذه « القيم » نوع من الدراسات النظرية التى لا علاقة لها بالحيــاة العملية . انها موضوعات انشائية سخيفة . وتضيع طهارة الشاب أو تضيع جديته . فالجدية ليس معناها التجهم والزهد فى الحياة وعدم الاستمتاع بها . ولكن معناها احترام القيم الاساسية وتصـــديقها والتصرف على هداها .

هذا الشاب تصبح الدراسة والاجتهــاد بالنسبة له سخرية . والرابطة العائلية سخرية والجنس الآخر لهوا

ومغامرة . ان نظرته كلها تتغير . و « حاول أن تنهب ما تستطيع بصرف النظر عن أى شيء » .. سيكون شعارا له بدلا من أن يكون شعاره : « ابذل المجهود لكى تتقدم. كن أحسن من غيرك لـكى تتفوق ! »

ولذلك فحين نرى بعض الشباب « غير جادين » ، بهذا المعنى السابق للجد .. فانه يجب على الاجيـال السابقة دائما أن تحاسب نفسها ، وأن تسأل ضميرها. ماذا قدمت للشباب لكى ينقذوا جديتهم ؟ ! ..

ولا أحـد ينكر أن مجتمعنا ـ بماضيه وحاضره ـ مثقل بشوائب كثيرة . ولا احد ينكر ان النزعات القبلية ما زالت تسكن المدينة وان المحسوبية والاهمال والكسل وعدم الاهتمام والمنافسة غير المشروعة فى مجالات العمل .. الى آخره .. أشياء ما زالت عميقة ومنتشرة . ومن الطبيعىان الشباب حين يدخلون هذا «الطقس» تصيب بعضهم العدوى .

وفى الوقت الذى يجب ان نحرص فيه أقصى الحرص على « حصر العدوى » .. يجب الا نسرع بلوم الشباب حين يصاب بالعدوى فعلا .. وحين يصبح غير جاد .. وكأنه هو الذى حمل العدوى الينا ، ولسنا نحن الذين حملنا العدوى اليه ! ..

واذا كان بعض الشباب يفقد جديته بفعل النماذج السيئة التى يصادفها ، فبعض الشباب يفقدونجديتهم للسبب العكسى ، وهو المبالغة فى القيود والسدود التى نفرضها عليهم !

فالشباب آخر الأمر لهم عقولهم وقلوبهم التى يفكرون ويحسون بها ، وحين يرون الكبار يحاولون أن يفرضوا عليهم أفكارا اجتماعية بالية ، هى من تركة عصر مضى ، فانهم ينقلبون الى موقف من التحدى وعدم الثقة بأى

شيء يقدمه لهم الكبار ، تماما كالأب الذى يحاول مطالبة ابنته اليوم بألا تذهب الى السينما مثلا ، انها لن تقبل هذا القيد أبدا والعصر من حولها يعاكس رأى ابيهـا تماما ، انها اما ستثور على أبيها وتناقضه تماما ، واما سوف تنصرف الى ممارسة كل ما تريد فى السر ، وفى كلتا الحالتين تنقطع الصلة بينهما تماما ، وترفض هى من ابيها الحسن والسيىء على السواء وتفقد الثقـة بقيمته كلها ، وقد تصبح غير جادة أبدا !

واعود الى القضية العامة ...

ان الشباب يكونون أكثر جدية وحماسة ، كما قلت ، حين يصدمهم شيء ، يشعرون بالرغبة فى مقاومتـه والتغلب عليه ..

والخدمة العامة نفسها تستهوى نفوسهم حين يتوافر لها عنصر الحماسة والاثارة والتحدى ..

فما هى القضية التى يمكن أن تثير فى نفوس الشباب هذه الطاقة من الحيوية والاهتمام ؟ ..

لقد أشرت فى صـدر المقال الى الاشياء التى كانت هدف حماستهم ثم زالت ولكن بقى لنا ولاشك الكثير مما يمكن أن تتجه اليه طاقة الجدية والحماسة والتحدى فى الشباب ..

ولـكنى أقترح قضية بالذات ...

هى قضية : التخلف !

انها قضية « الفقر » الذى قال عنه على بن أبى طالب انه لو كان رجلا لقتله ! .. فهى قضية لا تحلها الاعمال العنيفة ، انما يحلها المجهود العنيف والمثابرة العنيفة !

لو أمكننا ان نجسد « التخلف » فى بلادنا بوصـفه « الدراما » الـكبرى التى تواجهنا .. تماما كما كان الاستعمار مجسدا .. فمن المستطاع أن نثير مخيلة

الشباب بحيث تنفع حماستهم بآلاف الوسائل المختلفة
وانه من الممكن أن نجسد « التخلف » كعدو وطنى ،
وأن نجسد مهمة محاربة التخلف كمهمة لا تقل شرفا
عن مهمة محاربة المعتدين فى بورسعيد ، يوم تطوع لها
كل الشباب !

بشرط أن يكون هذا التجسيد عميقا ..

نجسد التخلف المادى ...

نجسد التقدم الذى تسير فيه البلاد الاخرى والعوالم
الجديدة التى يكتشفها الجهد الانسانى يوما بعد يوم..

ونجسد أسباب التخلف .. حتى الاسباب النفسية
والاجتماعية والاخلاقية ..

ونجسد ما يمكن عمله ...

ونجسد جريمة الذين يخربون أو يعرقلون مهمة
محاربة التخلف ، عن طريق الكسل أو المحسوبية أو
استغلال المركز أو الدوافع الشخصية كأنهم يخربون
قضية وطنية !

نجسد بطولة الذين يعملون ... كأبطال وطنيين
وشعبيين ..

الشباب والحب

هل هناك مكان للحب فى حياتنا الجديدة ؟ ..

اننا ننطلق فى الطريق الى بناء مجتمع اشتراكى ، ونحن نريد أن نشحذ كل همة من أجل زيادة الانتاج ومضاعفة الدخل ، وقد نحتاج الى التقشف فى هذا الفرع من فروع الحياة أو ذاك

فهل هناك مكان للحب فى حياتنا الجديدة ؟ ..

هل مطالبة المجتمع بأن يحول فوضى حياته الى خطة مرسومة ، معناها تحويل الانسان الى مسمار فى آلة ، أو الى كيان ميكانيكى أصم ؟ هل معناها تجريد الفرد من انسانيته التى تجعله يقع فى الحب ، ويبحث عن المتعة ، ويرتكب الحماقات ، ويستلقى على ظهره فى ليلة جميلة ، لا يفعل شيئا سوى أن يتأمل النجوم ؟..

اننا محتاجون الى كل دقيقة من وقت كل مواطن ومواطنة ، لأننا نريد أن نبنى فى سنوات ما بناه غيرنا فى عشرات من السنين ، فهل معنى ذلك أن نلغى الدقائق التى تنفقها الفتاة أمام مرآتها ، أو التى ينفقها الفتى فى ترتيب رحلة أو سهرة مرحة ؟ ..

اننا نريد أن نحمى مجتمعنا من الانحراف والضعف فهل الحب انحراف ؟ وهل الوقوع فى هوى الطبيعة الجميلة ضعف ؟ ..

ليس هذا صحيحا !.. بل ان الذين يقولون هـذا الكلام ، اما أنهم خصـوم للمجتمع الجديد ، يريدون تشويه صورته مقدما ، واما انهم ناس لايهمهم الا أن يكونوا أكثر المتكلمين حماسة وتطرفا ، ولو على حساب المجتمع الجديد نفسه !

ومن الممكن أن نقول ببسـاطة : ان المجتمع الذى يعمل وينتج ، هو المجتمع الذى يعرف كيف يستمتع بحياته ، أن الكثيرين منا يقعون تحت وهم الصـور الناقصة التى تنقل اليهم عن الخارج .. ! فالنـاس يقرأون ويشاهدون الافلام عن لندن وباريس ونيويورك وغيرها ، فيظنون أن لندن ليست سوى حدائق هايدبارك حيث يباح الهوى ، ونيويورك ليست سوى شـارع برودواى حيث أكبر مسارح اللهو ، وباريس ليست سوى مونمارتر حيث يسهر الفنانون بلا عمـل حتى الصباح..! ولكن هذه ليست انجلترا وفرنسا وامريكا ان أهم ما فى هذه البلاد هو الجهد العنيف ، هو المناطق الصنـاعية الهائلة ، هو قاعات العلم ومعامل البحث وأفران الحديد المصهور .. ! والذين تراهم الشوارع والحدائق والمسارح يلهون ويمرحون ، هم أنفسهم الذين تراهم المعامل والمصـانع والمدرجات يبحثون ويعملون ويتصـببون عرقا .. ! ان ازدهار اللهو جاء نتيجة لازدهار العمل وليس العكس .. !

وبالعكس .. يقرأ الناس عن موسكو مثلا فيحسبون انها مجرد معسكرات هائلة للعمل الشاق العنيف ، وان الناس هناك لايبتسمون ، وهذا أيضا غير صحيح. ففى هذه البلاد التى قفز فيها الانتـاج .. قفز أيضا عدد المسارح الهائلة ، وانتشرت الحدائق المضيئة طول الليل والغاصة بأنواع التسلية والالعاب ، وبدأت الشـوارع

والحدائق تزدحم بالشباب الذين ينفقون ، لأنهم يؤدون عملهم ويكسبون .

ولـكن .. تعالوا نفكر فى الموضوع من زاوية أخرى

ان الحب يتأثر الى حد بعيد بنظام المجتمع ، وبدرجة نموه الاجتماعى والاقتصادى

ولو حاولنا أن نتتبع تطور الحياة فى أسرة واحدة ، خلال عدة أجيال ، لوجدنا الدليل على ذلك .

فى البدء ، كان المجتمع ــ بوجه عام ــ اقطاعيــا ، وسيادة النظام الاقطاعى معنـاها ان تقاليـد المجتمع واخلاقه وعاداته كلها تنتسب الى هذا النظام . فى ظل هذا النظام نجد الأب يتمتع بسلطة مطلقة على زوجته وعلى أولاده وأحفاده ، سلطة أشبه بحق الملكية الخاصة ، بل انها بالفعل ملكية خاصة ، فالزوجة مملوكة لزوجها ، اشتراها من أبيها بمهر ضخم ، اشتراها دون اختيارها وهى تعلم جيدا ان مهمتها هى أن تخدمه وتطيعــه وتخلص له ولا تناقش رغباته .. فى حين أنه هو ليس مطالبا بالوفاء أو الاخلاص لها .. وكذلك الابن أو البنت بالنسبة له .. الابن اذا عمل فهو يعطى ايراده لأبيه ، واذا تزوج فأبوه هو الذى يختار له زوجته ، وهو على الاغلب .. يقيم بأسرته الجديدة مع أبيه . أما البنت فوضعها معروف ، مثل وضع أمها تماما .. !

وفى صفقات الزواج تلعب قيمة المهر وثمن الشبكة وكمية العقــارات التى يملكها الزوج الدور الأكبر فى الاختيار . فالمال فى حد ذاته له قيمة خاصة مستقلة عن قيمة الرجل ..

ولـكن هذا الوضع تغير الى حد بعيد .. وما زال يتغير باستمرار .. اكتسبت المرأة حق التعليم والعمل، وبهذا كسبت حق الاختيار وحق المسـاواة ، وليس

ضروريا أن تعمل كل النساء ليتمتعن بهذا الحق ، ولكن ظهور هذا الحق يترك أثره بالنسبة لجميع النساء ، وكذلك بالنسبة للأبناء والبنات . لقد زاد حقهم فى الاختيار والاستقلال والانفصال ، أصبح الشاب أو الشابة يختار مستقبله ويختار شريك حياته ويستقل بمعيشته ، وفى الزواج تراجعت أهمية الشبكة والمهر ، وتراجعت دلالتهما على نوع « العريس ! » فقد بدأ الاحساس ينمو بأن القيمة الاساسية هى قيمة العمل . والعمل صفة لاصقة بالشخص لا تنفصل عنه ، وهى المعيارالذى يقاس به ، ولذلك أصبح «العريس» الناجح أو المتعلم أو الذى « له مستقبل » أهم من عريس خامل استطاع أبوه أن يدفع له مبلغا ضخما فى المهر والشبكة ، أو من عريس خامل يملك بضعة فدادين .

فى نموذج هذه الأسرة .. نجد ان التطور الاجتماعى ، الذى يستند الى تطور مادى واقتصادى ، قد غير معالم الحب القديم تماما . لم يعد الحب هو الخضوع ، ولكنه أصبح المساواة والاحترام ، لم يعد الحب يطالب المرأة — دون الرجل — بالوفاء ، بل أصبح يطالب الاثنين على السواء بهذا الوفاء .. لم يعد الحب قرارا يصدره الأب لابنته بأن تعيش لهذا الرجل أو ذاك .. ولكنه قرار تصدره الفتاة بنفسها ، لأنها هى التى سترتبط به

وليس هذا سوى مثل بسيط جدا ، يصور لنا مدى الاندماج التام بين نوع العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ، وبين الحب .

ولنقارن مثلا بين فتاة لم تتعلم ولم تعمل وأبوها يعولها بصعوبة .. وبين نفس الفتاة لو انها تعلمت ، واصبحت تعمل ..! انها فى الحالة الثانية تستطيع أن تخرج .. أن تذهب الى السينما .. أن تبحث عن ثوب

تشتريه وعن ذوق يناسبها .. أن تختار شريك حياتها أو توافق على اختياره لها .. ان تكون لها صديقات..! والفرق هو التغير المادى والاجتماعى الذى حدث لها نتيجة ثقافتها وعملها .. !

كذلك البيئة الاجتماعية كلها ..

ان الكاتب « كريستوفر كودويل » الذى حارب الفاشية فى أسبانيا حتى سقط قتيلا وهو فى ريعان الشباب ـ هذا الكاتب كانت له كلمة جميلة تقول : « ان المجتمع عبارة عن انتاج اقتصادى ممزوج بالحب! وكما ان الحب هو الذى يجعل الحياة تمضى ، فان الطريقة التى تمضى بها الحياة تؤثر فى صورة الحب ! »

والحب ليس حب الرجل والمراة فقط . انه حب الآباء والأبناء .. حب الازواج والزوجات.. حب الطلبة والاساتذة .. حب الرؤساء والمرؤوسين .. حب الزملاء والرفاق .. وهو يتمثل فى صور أخرى كثيرة .. كحب الانسان لوطنه، أو حب الناس جميعا ومشاركتهم لأى انسان يمر بمحنة .. كل هذه ألوان من هذا الحب الذى يحرك الحياة .. وكلها ألوان من الحب تؤثر فى قرارات كل فرد وفى مواقفه ومشاعره .. وكلها ألوان مرتبطة ببعضها البعض.. فالشاب الذى يعجز عن حب زوجته يعجز أغلب الأمر فى النهاية عن أن يحب أى شىء آخر فى المجتمع ، كذلك فان الرجل الحاقد الكاره للحياة والناس والمجتمع ، يستحيل عليه فى الواقع أن يحب فتاة واحدة حبا حقيقيا سليما صادقا .. !

واغلب انواع الانحراف ترجع فى الواقع الى نقص فى الحب .. وأى شاب ينحرف يرجع انحرافه دائما الى نقص فى حب أهله أو أساتذته أو زملائه .. أو الى شعوره بأن « المجتمع » بوجه عام ، ككيان واحد ،

لايحبه ..! وكلما انتشر الانحراف ، كان هذا دليلا على اختفاء الحب من الحياة .

والتخلف الاقتصادى من أكبر العوامل التى تطرد الحب من المجتمع .. !

ان التخلف الاقتصادى، وعدم مجاراة المجتمع لمطالب الناس المتزايدة ولوعيهم الذى ينمو ، والفروق الهائلة بين الطبقات .. كل هذا يؤدى فى النهاية الى ضيق الارزاق ، وضيق الصدور ، وارتفاع موج العداوة على موج المحبة .. فى هذا الجو ستجد الابن ساخطا على أبيه ، لأنه لا يفهمه ولا يعطيه ما يريد . وستجد الاستاذ ساخطا مهملا لتلاميذه لأن المجتمع لايكافئه على جهده ولا يوفر له حياة معقولة مقابل هذا الجهد .. وستجد الشاب الناشىء ممزقا بين أحلام حياة رغدة وبين واقع حياة ضيقة مغبونة . انه على الاقل ييأس من أن يتزوج ويؤسس لنفسه بيتا .. فييأس بالتالى من العلاقات المشروعة ، ويلجأ الى الانحراف .. وهكذا ..

وعندما يتقهقر الحب .. يحل محله شعور مزدوج من الحرمان والاشتهاء .. كل واحد يحس بالحرمان والاشتهاء معا .. اشتهاء الجنس أو اشتهاء المال ، أو اشتهاء المركز والنفوذ .. والاشتهاء غير الحب . ان الاشتهاء هو اقتناص لذة عابرة ، أما الحب فهو احساس بناء ، تمتزج فيه العاطفة بالمسئولية . ان المجتمع فى هذه الحالة لا يتقدم ولا يتطور بنظام .. انما تتقرر فيه أشياء كثيرة بناء على الحظ والفرصة .. وكل واحد عليه أن يمسك بفرصته الخاصة ولو على حساب الآخرين ، والا اقتنصها الآخرون على حسابه ..! الحل العام لمشكلة المجتمع غير موجود فلا مفر من الحلول الخاصة بكل فرد ! وهى عادة حلول وقتية فردية

ضيقة .. هى التربة الخصبة للانحراف.. وهى التربة الخصبة لكل ما يغذى الانحراف مثـــل أدب الانحلال وأفلام الانحلال وفكر الانحلال .. وكل ما يهيىء للفرد فى الخيال حياة لن يحققها فى الواقع .. وكل ما يبرر للفرد انحرافه الخاص اذ يقول له : ان الجميع هكذا ! والدنيا كلها هكذا .. !

وأعود مرة أخرى الى كلمة جميلة قالها «كودويل» : « ان تحويل الحب الى شذوذ وانحراف .. هو خيانة لقدرة الانسان على الحب .. ! »

وبعد .. فهل هناك علاقة مباشرة بين هذه الرحلة الطويلة ، وبين مجتمعنا الجديد .. ؟

نعم ..

ان نقطـة الارتكاز فى أى كلام عن مجتمع اشتراكى هى : أغلبية الشعب وليست فئة محدودة منه .. ! فحين نتكلم عن حق الانسان فى كذا وكيت ، نقصد بهذا « الانسان » مجموع الشعب ، وليس فئة قليلة طافية على السطح .. !

وبنفس المنطق .. حين نتحدث عن الحب ، ومكانه فى المجتمع الجديد ، لا نتحدث عنه داخـل الطبقـــة الاجتماعية الغنية اللامعة وحدها .. انما نتحدث عن مكانه ومستقبله بالنسبة لمجموع الشعب ..

ومشكلة الشعب ــ بمجموعه ــ هى زيادة الانتاج ! هى تكريس كل شىء لرفع مستوى المعيشة .. لتطوير المجتمع ماديا واقتصاديا واجتماعيا بما يسمح للحب أن يزدهر .. ويصبح عاطفة من عواطف الصحة لا المرض ، ومن أسباب السلامة ، لا الشذوذ .. !

اننا لا نستطيع أن نقول ان الناس فى بلادنا عندهم سيارات كاديلاك ، لمجرد أن هناك بضع مئات عنـــدهم

سيارات كاديلاك ..! كذلك لا نســتطيع ان نقول ان الناس فى بلادنا يتمتعون بعاطفة الحب .. لمجرد ان هناك عددا محدودا نسبيــا يتمتع بهذه العاطفــة ! لا نستطيع أن نقول ان كل شــاب وشابة فى الثلاثين مليونا الذين يسكنون بلادنا ، تسمح لهم ظروفهم المادية والاجتماعية والثقافية بالاستقلال والاختيار ، وتذوق العواطف الجميلة والاشياء الجميلة !

كما ان الثراء فى بلادنا كان احتكارا للقليلين.. كذلك كان الحب ، وكان تذوق الجمال ..! هنــاك ملايين تنهكهم الحاجة .. الحاجة الى الغذاء والى الصحة والى الكساء والى الراحة .. وهــذه الحاجة تحرمهم من ممارسة شتى الوان الحب والاستمتاع بجمال الناس والفن والطبيعة .. بينما توجد قلة تحتــرف الحب احترافا ، كما يحترف آخرون فلاحة الارض مثلا..! وعندما تحول الحب عند هذه القلة الى حرفة لم يعد الحب بالنسبة لها حقيقة تعيشها بل أصــبح أدوارا تمثيلية تؤديها وتبدلها .. وتعطى بها للناس صــورة مشوهة عن الحب .. !

اننا نريد فى مجتمعنا الجديد أن تتسع قاعدة الحب. الحب الذى ينبت كالزهرة فى تربة من الشعور بالعدل وعدم الغبن ، والاطمئنان الى التقدم ، والقدرة المادية والمعنوية على ممارسة الاختيار والانتقاء . ان الوردة اذا غرستها فى تربة فقيرة واغلقت عليها هواء فاسدا سرعان ما تذبل وتتعفن وتجف .. وكذلك كل عواطف الحب فى المجتمع .. حب الرجــل للمرأة ، والآباء للأبناء ، والاساتذة للطلبة .. وكل حب آخر يحرك الحياة .. !

الأمريكي الهادئ

قد يعجب قارىء اليوم اذا تذكر ان دولة كبرى ، هى الولايات المتحدة الامريكية ، تلعب مثل هذا الدور الحاسم فى حياة العالم ، اذ لم يكن لها دور يذكر على مسرح الحياة الدولية منذ عشرين أو خمسة وعشرين سنة . وهو زمن يمر كغمضة العين فى حساب التاريخ.

لقد زحفت انجلترا أو فرنسا ـ مثلا ـ الى مركز التأثير فى حياة العالم اجمع خلال مئات من السنين ، تكونت لكل منهما فيها خبرات وتجارب وتقاليد . أما امريكا فقد وجدت نفسها ـ فجأة ـ فى مركز الصدارة ، تحمل مسئوليات كبرى فى القارات السبع ، بلا خبرة ولا تجربة ولا تقاليد . بل انها تمتعت ـ لفترة خاطفة من الزمن ـ بميزة ربما لم تتمتع بها دولة من قبل ، هى : احتكارها لسلاح خطير حاسم لاتملكه أي دولة أخرى سواها ، هو القنبلة الذرية .. قبل أن تتمكن روسيا ، ثم انجلترا ، من صنعها ..

والواقع انه الى وقت نشوب الحرب العالمية الثانية ، كانت القوتان الكبريان اللتين تؤثران فى مصير العالم اليوم ـ روسيا وأمريكا ـ غير موجودتين على مسرح السياسة الدولية . كانت كل منهما عاكفة داخل حدودها ، تنمى كيانها الهائل ، منصرفة الى حد بعيد عن التطفل

على مشاكل العالم المعقدة فى القارات السبع : الاتحاد السوفييتى يركز جهوده على انجاز تجربته الاجتماعية الخطيرة الهائلة ، ويخوض بحار المشاكل الداخلية من اجل تحويل المجتمع البدائي المتخلف الاقطاعى الى مجتمع شيوعى وصناعى . وامريكا ، مكتفية بنفسها ، أو بالاحرى مكتفية بنصف الكرة الغربى ، اي ببلادها وبدول أمريكا الجنوبية التى كانت تعاملها دائماً على أنها « حديقة خلفية » لبيتها الكبير .

ومع ذلك ، فان الفرق شاسع حتى بين روسيا السوفييتية وامريكا فى هذا المجال ، مجال الاهتمام بالسياسة الدولية والمشاركة فيها .

فالاتحاد السوفييتى ، قبل الحرب العالمية الثانية ، كان عضوا فى عصبة الامم بينما كانت أمريكا غير مشتركة فيها . وكانت روسيا على صلة بتقلب الاحداث والنظم والتيارات فى القارة الاوربية مركز العالم العصبى فى ذلك الوقت ، بينما كانت أمريكا تنظر عبر المحيط الى أولئك الاوربيين المتنازعين ، نظرة استخفاف ، نظرة فيها مزيج من عدم الفهم وعدم الاهتمام .

يضاف الى ذلك ــ وهو الأهم ــ ان عقيدة النظام السياسىفىالاتحاد السوفييتى أقدم فىالايمان «بالعالمية» من النظام الامريكى .

فالثورة الشيوعية التى انتصرت فى روسيا سنة ١٩١٧ لم تر نفسها ــ منذ البداية ــ على انها ثورة روسية أبدا . ولا على انها ثورة أوربية فحسب . انما هى قد أعلنت نفسها منذ البداية «ثورة عالمية» ، سيرا على العقيدة التى أعلنها كارل ماركس وفردريك انجلز صاحبى « البيان الشيوعى » فى النصف الثانى منالقرن التاسع عشر . وعلى هذا فمع مولد الدولة الشيوعية

الاولى ولد أيضا « الكومنترن الشيوعى » الذى يضم الاحزاب الشيوعية فى البلاد الاخرى ، والذى يحلم بأن يكون له فى كل قطر من أقطار القارات السبع حزب شيوعى ، تمهيدا لقيام نظام شيوعى عالمى . بل لقد عاشت الثورة الشيوعية بعد انتصارها فى روسيا سنوات طويلة وهى تنصت للعالم الخارجى ، متوقعة أن تسمع يوما نبأ انفجار الثورة فى أماكن أخرى ، مؤمنة بأنها لايمكن أن تعيش وحيدة فى وطن واحد . فهى لم تعمد الى العزلة الا اضطرارا ، ولم تقبل فكرة بناء الشيوعية فى وطن واحد الا على مضض ، والى حين

فالاتجاه العالمى جزء لا يتجزأ من العقيدة الشيوعية ، وبالتالى من السياسة السوفييتية ، والاتحاد السوفييتى اذا كان قد ظل منكمشا حتى أحداث الحرب العالمية الثانية فعن اضطرار ، لا عن رغبة واختيار . كما أن انكماشه كان نسبيا ، اذ بقيت صلته بالاحزاب الشيوعية الخارجية قائمة على أى حال ..

أما بالنسبة لأمريكا فالصورة مختلفة . فقبل « روزفلت » لم تعرف أمريكا هذا الاحساس بأنها جزء من العالم وانها مسئولة فيه . حتى ويلسون ، الذى قاد خطواتها فى الحرب العالمية الاولى ، ذهب الى العالم القديم وعاد ، كما يذهب الجار الذى يحاول أن يفض مشاكل جيرانه ، دون أن يتورط معهم بحيث يصبح طرفا دائما فى مشاكلهم . والى ما بعد روزفلت بكثير ، ظلت دعوة « العزلة » فى أمريكا دعوة قوية لها انصار كثيرون . بل انه يمكن القول ان أمريكا لم تعتنق — اخيرا — فكرة العالمية اعتناقا نهائيا الا كرد فعل لخروج التحدى الشيوعى الى المرحلة العالمية .

ولاشك انه من الصحيح القول ان نمو النظام

الراسمالي في أمريكا ، كان من شأنه أن يخرج بها عن عزلتها ، دون حاجة الى وجود التحدى الشيوعى ، لأن النظام الراسمالى من طبيعته بعد أن يتشبع به السوق المحلى ، أن يبحث لنفسه عن أسواق خارجية جديدة .
وقد بدأت الراسمالية الامريكية بالفعل تتجه الى العالم الخارجي بشهية هائلة ، تمثلت بعدمضغ أمريكا الجنوبية وهضمها ، فى التهام او مشاركة كثير من معاقل ثراء الراسمالية الاوربية..فوجدناها تضع يدها على بترول المملكة السعودية ، وتشارك انجلترا فى بترول ايران والعراق ، وتشارك بلجيكا فى مناجم الكونغو ، الى آخره

كل هذا صحيح ولاشك . ولكن المؤكد ان التحدى الشيوعى هو الذى جعل أمريكا تندفع الى شتى أركان الارض بهذه اللهفة الهائلة التى لا مثيل لها ، كأنها تريد أن تصبح مسئولة عن أقدار كل شعب على الارض من كوريا الى لاوس الى الكونغو .. الى جزر هاواى ..

وقد اندفعت أمريكا بالفعل ، اندفعت من أرضها الحافلة بالثراء ، المزدحمة بناطحات السحاب ، التى لم تنفجر فيها قنبلة منذ انتصار ابراهام لنكولن فى الحرب الاهلية الامريكية .. اندفعت الى العالم القديم ، المرغ فى التراب.. أوروبا «الحاكمة» محطمة مخربة منهوكة القوى ، وسائر البلاد « المحكومة » فى آسيا وافريقيا رازحة تحت ما هو أبشع من التخريب والتحطيم .. رازحة تحت الاستعمار ، تحت ظلام أرهق جسدها وكاد يزهق روحها بعد مئات طويلة من السنين ..

اندفعت أمريكا الى جميع أركان الارض .. بمزيج من الثراء الفاحش ، والسذاجة ، وضيق الافق ، والشهية ، وعدم الدراية . فجأة أصبح ملوك الصابون

ساسة سفراء وخبراء . فجأة أصبح رجل الاعمال الامريكى الذى نجح فى ادارة مصانعه وتسويق منتجاته ، هو النبى الجديد الذى يستطيع أن يدير شئون أى بلد فى العالم ، وأن يصف له الدواء الصحيح .

ولم يكن هناك الا دواء واحد : بضعة ملايين من الدولارات ، وأسلحة يحاربون بها الشيوعيين ، وطبقة تعرف طعم الحياة الامريكية بشتى منتجاتها من أفلام هوليوود الى السيارات الكاديلاك !

وفجأة وجدت أمريكا نفسها غائصة الى عنقها فى مشاكل غريبة .. وجدت أقدامها قد انغرزت فى طين من تعقيدات لا علم لها بها .. فى افريقيا .. فى جنوب شرق آسيا .. وفى الشرق الاوسط .. وربما فى كل مكان !

واسوأ ما فى الأمر أن أمريكا لم تكن لها « سياسة قومية » فى جميع الظروف بالمعنى المفهوم من كلمة سياسة. فحتى السياسة الخارجية دخلت بشكل غريب فى منطق « الاقتصاد الحر » هناك . وأصبحت بعض القضايا الخارجية لها «توكيلات» ولها «قوى ضاغطة» ، تلك التى يسمونها Pressure Groups . فشركات البترول فى الشرق الاوسط مثلا تدافع عن الملوك العرب ، ومؤسسات أخرى تتبنى قضية الصين الوطنية ، التى تقلصت وأصبحت فورموزا ، ومؤسسات يهودية تتبنى قضية اسرائيل ، وهكذا ..

وعندما أطلق تشارلز ويلسون وزير حربية ايزنهاور والمدير السابق لشركة «جنرال موتورز» كلمته الشهيرة « ان مايفيد جنرال موتورز يفيد أمريكا » لم يكن يقرر الا حقيقة واقعة . فشركات كذا تحدد سياسة أمريكا فى أمريكا الجنوبية ، وشركات كيت مصلحتها فى الشرق الاوسط تأييد هذا النظام أو ذاك .. الى آخره .

ومرت سياسة أمريكا الخارجية بفترة عصيبة. حتى البلاد التى تغرقها أمريكا بملايين الدولارات أصبح العداء فيها لأمريكا شيئا عاديا. وحيث يختفى العداء السياسى يوجد نوع آخر أعجب من العداء العاطفى .

وتصاعد النقد حتى من داخل أمريكا نفسها . وكان من مظاهر هذا النقد ظهور عدد من الاعمال الادبية التى أحدثت ضجة كبيرة ، ربما كان أبرزها الروايات الثلاث « النصيحة والموافقة » و « الامريكى الكريه » و « الامريكى الهادىء » ..

والروايتان الاوليان هما فى رأيى أقرب الى الاعمال الصحفية والسياسية لا الى الاعمال الفنية . ولكن الرواية التى تتوافر لها شروط العمل الفنى الرفيع ، هى الرواية الثالثة « الامريكى الهادىء » وهى من تأليف كاتب غير أمريكى ، هو الكاتب الانجليزى الشهير جراهام جرين .. وهى الرواية التى سأحاول أن أقدمها هنا فى اسهاب ، بعد أن أشير اشارة خاطفة الى روايتى « النصيحة والموافقة » ثم « الامريكى الكريه » .

الرواية الاولى هى رواية « النصيحة والموافقة » ومؤلفها صحفى أمريكى اسمه «آلن درورى» وقد نالت جائزة بوليتزر .

وهذه الرواية الفائزة بالجائزة وموضوعها : الحياة السياسية الامريكية من الداخل . حوادثها تدور فى واشنطون فى سنة ١٩٦٢ ، أبطالها هم رئيس جمهورية الولايات المتحدة ووزير خارجيتها ، وزعيم الاغلبية فى الكونجرس الامريكى ، وأقطاب الحزب المعارض .. وسفراء الاتحاد السوفييتى وبريطانيا والهند وفرنسا فى امريكا .. وبعض نساء المجتمع الامريكى .

اننا نقرأ كل يوم فى الصحف عن مناقشات الكونجرس

الامريكى .. وخلافات الكونجرس مع رئيس الجمهورية. ولجان التحقيق التى يشكلها الكونجرس للبحث فى نشاط الحكومة .. وفى هذا الجو كله تدور هذه الرواية التى تقع فى ٦٠٠ صفحة من الحجم الكبير .. والتى ينتحر فيها أحد أعضاء الـكونجرس البارزين !

ان المشكلة التى تثير أحداث القصة هى : ان رئيس جمهورية الولايات المتحدة قد أصـــدر قرارا بترشيح مستر «لفنجويل» ليكون وزيرا للخارجية ، والدستور الامريكى يقضى بأن رئيس الجمهورية يرشح الوزراء ، وان الكونجرس يجب أن يوافق على التعيين .. ولذلك فقـــد أرســـل رئيس الجمهـــورية اسم المرشح الى الـكونجرس لاقراره ...

ولكن اختيار « لفنجويل » لمنصب وزير الخارجية يثير ضجة هائلة ! انه شخصية من تلك الشخصيات التى تثير الجدل العنيف ، والتى يختلف الناس فى شأنها .. فبعض الناس يرونه كفؤا وماكرا يستطيع أن يواجه السوفييت فى المباحثات الدولية القادمة وفى مؤتمرات الاقطاب المتوقعة.. وبعض الناس يعتقدون انه انتهازى عريق .. لا رأى له ولا ولاء لأى شىء ولا لأى مبدأ.. ومن هنا تثور العواصف .. ويدور الصراع العنيف ، فى أفق واشنطون السياسى .. فالمعارضة فى الكونجرس عنيفة ضـــد اختيار « لفنجويل » .. ولـــكن رئيس الجمهورية ، وقد أعلن اختياره ، أصبح من كرامته أن يحصل على موافقة الكونجرس بأى شكل ... ومهما كان السلاح !

وحوادث القصة تروى على لسان أربعة أشخاص من أبطالها ...

الاول : هو « مونسون » زعيم الاغلبية فى الكونجرس

فهو زعيم الحزب الموالى لرئيس الجمهورية والذى يتمتع بالاغلبية فى المجلس ، ومعنى ذلك ان مهمته هى العمل على اقرار هذا الترشيح من الكونجرس بأى ثمن .. ان «مونسون» رجل جذاب ، له تجربة طويلة فى الكونجرس، وهو فى نفس الوقت صديق حميم للسيدة «دوللى» .. تلك الأرملة المليونيرة .. التى وجدت نفسها بعد وفاة زوجها ، بملايينها الكثيرة ، تحيا حياة راكدة فى احدى الولايات .. فقررت أن تنتقل الى واشنطون حيث تستطيع أن تمارس حياة اجتماعية حافلة.. وقد نجحت «دوللى» فى ذلك الى حد بعيد .. فأصبحت حفلاتها تضم أبرز الشخصيات واهمها .. ولما كانت «دوللى» تحب «مونسون» زعيم الاغلبية ، وتريد أن تتزوجه ، فهى تساعده فى حياته السياسية ، بأن تقيم فى بيتها الحفلات التى تضم أكبر الشخصيات ، حيث يتاح « لمونسون » أن يلتقى بهم وينشىء علاقات صداقة معهم ومع سفراء الدول الاجنبية ، وكبار الشخصيات التى تزور العاصمة ..

البطل الثانى : هو «سيب كولى» وهو واحد من اقوى أعضاء الكونجرس وأشدهم مراسا واكثرهم عنادا ، وهو فى نفس الوقت يكره « لفنجويل » المرشح لوزارة الخارجية ، كراهية شديدة .. لأن « لفنجويل » قال له مرة ، فى وجهه ، انه كذاب ... وقد جاءت الفرصة لكى ينتقم فيها «سيب» من « لفنجويل » .. ولذلك فهو يتزعم الحملة لرفض هذا الترشيح ..

البطل الثالث : هو « اندرسون » رجل مثالى حقا ! شريف ونزيه الى أقصى حد .. وهو متزوج من سيدة جذابة اسمها «مابل» .. تحبه كثيرا .. ولكنها تشعر دائما ان هناك شيئا خفيا يفصل بينهما .. وكثيرا ما

توهمت أنه لا يحبها !

والبطل الرابع : هو « نوكس » ، وقد كان مرشحا لرئاسة الجمهورية ضد رئيس الجمهورية ، ولكنه سقط فى الانتخابات ... انه رجل كفء وذكى ومثقف ولكنه ينطوى على مرارة نحو رئيس الجمهورية منذ تلك المعركة الانتخابية ..

وقد تفاقم الخلاف فى الكونجرس حول هذا الترشيح .. فتقرر تكوين لجنة تحقيق لبحث الموضوع ، تقوم باختبار المرشح ، وتقدم تقريرها بناء على هذا الاساس.

ولما كان موضوع دراسة اللجنة دقيقا ، فقد اختاروا لرئاستها « اندرسون » ، الرجل الشريف المثالى ، لأن سمعته ونزاهته وتجرده فوق مستوى الشبهات ... وهو الوحيد الذى لن يتهم بالتحيز .. أما أعضاء اللجنة فكلهم من الاعضاء البارزين فى الكونجرس.. ومناقشات اللجنة وجلساتها سرية ..

ولكن اللجنة تفاجأ بظهور شاهد يقول أمامها : ان « لفنجويل » كان فى شبابه شيوعيا .. وانه عندما كان أستاذا فى الجامعة أسس مع اثنين آخرين خلية شيوعية

المرشح لمنصب وزير خارجيـة أمريكا .. كانت له ميول شيوعية ؟ ان المسألة خطيرة جدا.. ولذلك يجب التريث والتدقيق فيها .. ومن هنا قالت اللجنة أنها لا تستطيع ادانة المرشح بناء على شهادة شاهد واحد فقط ..

ولكن المتحمس لاثبات هذا الاتهام هو «سيبكولى» ، خصم « لفنجويل » القديم .. وهو لذلك مصمم على احضار الاثنين اللذين قيل انهما اشتركا معه فى تأسيس هذه الخلية .. ان أحد الاثنين قد مات ، ولكن الثانى موجود . يعثر عليه « سيب » ، ويجعله يتصل برئيس

اللجنة ، « أندرسون » ، ويروى له كل شىء .

ويجد « اندرسون » ان الموقف قد أصبح خطيرا . ان أحسن تصرف هو الا يذيع هذه الانباء .. على أن يذهب الى رئيس الجمهورية ليروى له كل شىء وينصح له أن يسحب مرشحه فى هدوء .

وكان رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت فى أشد حالات الغضب والثورة . أن تأخير الموافقة على مرشحه كل هذا الوقت فيه اهانة له ! خصوصا أمام الدول الاجنبية ، التى عبر له سفراؤها عن اغتباطهم بترشيح « لفنجويل » .

و « لفنجويل » أيضا له أصدقاء كثيرون ، ولذلك بدأت الصحف تهاجم اللجنة وتهاجم رئيسها اندرسون هاجمته « واشنطون بوست » و « هيرالد تريبيون » و«تايم» و « نيوزويك » ، ومحطتان من محطات الاذاعة

وذهب اندرسون ليقابل رئيس الجمهورية ، وروى له كل شىء ! ..

وفى البداية ، حاول رئيس الجمهورية أن يشترى اندرسون رئيس اللجنة ! لمح له بالمناصب ، ولمح له برشوة غير مباشرة ، فى صورة اعتمادات يستطيع الرئيس أن ينفقها فى الولاية التى ينوب عنها اندرسون فترتفع أسهمه فيها . ولكن اندرسون لم يتزحزح عن موقفه فى مواجهة الحقيقة ، وقال أصدقاء رئيس الجمهورية له : ان اندرسون لايمكن شراؤه .. فرد رئيس الجمهورية قائلا : اذن لابد من تحطيمه !

وتظاهر رئيس الجمهورية بأنه يوافق على سحب ترشيح لفنجويل .. ولكنه طلب من اندرسون بأن لا يذيع أى شىء عن الموضوع .. ويوافق اندرسون وهو سعيد لأن الرئيس سيجنب الكونجرس أزمة كبيرة

والواقع ان رئيس الجمهورية لم يتراجع ، ولكنه تظاهر بذلك فقط حتى يكسب وقتا يجد خلاله طريقة لتحطيم اندرسون، وتقع سلسلة من المصادفات السيئة ، تنتهي بتزويد رئيس الجمهورية بالسلاح الذى كان يبحث عنه لتحطيم اندرسون .. وكان سلاحا رهيبا..

لقد عثروا على صورة لأندرسون فى شبابه .. عندما كان مجندا خلال الحرب العالمية الاخيرة..كانت الصورة له فى هونولولو مع شاب آخر وخلف الصورة اهداء عاطفى غريب من إندرسون الى زميله فى الصورة .. اهداء يثير الشبهة فى ان الاثنين كانت بينهما علاقة شاذة .. ويسرع أنصار رئيس الجمهورية الى البحث حتى يكملوا القصة ويتأكد لهم ان هذه العلاقة القديمة حقيقية ..

ان السلاح الذى وقع فى أيديهم رهيب ، وقد بدأوا يهددون به اندرسون .. فماذا يفعل الرجل ؟

انه رجل شريف ونزيه ، وهذه العلاقة القصيرة وقعت له فعلا فى ذلك التاريخ البعيد ، تحت تأثير ظروف الحرب وغيرها . وقد انتهت بسرعة كفلطة لم تتكرر . ومن وقتها واندرسون نموذج للسياسى النزيه الشريف المتجرد عن الهوى .. فماذا يصنع ؟

هل يخضع للتهديد ؟.. ولكنه بذلك سيكذب على الأمة .. وسيوافق على ترشيح وزير خارجية يضر بمصالح أمريكا .. فى رأيه ! ..

هل يتركهم يذيعون القصة ؟.. ان فى هذا تدميرا كاملا له ... ولزوجته .. ولأولاده ..

وفى تلك اللحظة الحرجة .. دس خصومه من اتصل بزوجته وروى لها القصة تليفونيا .. وانهارت الزوجة وفهمت خطأ أن زوجها ما زال يمارس الشذوذ ..

ووجدت فى هذا تفسيرا لهذا الحاجز الغامض بينهما.. وعبثا حاول اندرسون أن يشرح لها ان هذا شيء قديم جدا .. ولكنها تركت البيت ..

كان هذا التخلي من زوجته هو نقطة التحول الحاسمة فى نفسه . فقد قرر أن ينتحر لـكى يتخلص من هذا المأزق . وجلس يكتب رسالة لصديقه وزميله «نوكس» يشرح له كل شيء بصراحة تامة .. ثم انتحر ..

وقد تأثر «نوكس» تأثرا عميقا بهذا الحادث ووجد ان الخصوم السياسيين قد استخدموا سلاحا خسيسا وقرر أن يكرس نشـــاطه لرفض ترشيح لفنجويل .. وكانت العواطف قد اتجهت ضده بشدة .. حتى نجح فى ذلك ، وقرر الكونجرس رفض ترشيح لفنجويل ..

وفى أثناء هذا كله كان الاتحاد السوفييتى قد نجح فى ارسال أول رجال الى القمر وكان الرأى العام العالمى يضغط من أجل عقد مؤتمر عاجل للأقطاب .. ولـكن رئيس الجمهورية المريض ، كان يقاسى من أثر رفض الكونجرس لمرشحه .. فمات فجأة ، ذات ليلة ..

وتولى نائب رئيس الجمهورية المكان الذى خلا. وكان نائب رئيس الجمهورية رجلا ضعيفا محدود المواهب ، فآثر أن يختار «نوكس» وزيرا للخارجية حتى يستطيع أن يقف الى جواره ، فى مؤتمر الاقطاب القادم ..

والرواية الثانية هى رواية « الامريكى الكريه » ..

وقد اخترع فيها المؤلفان « وليم ليدرر » و « يوجين بورديك » دولة اسيوية خيالية اسمها «ساركان» تدور فيها حوادث الرواية . ولكنها دولة ذات ملامح حقيقية. فهى بورما أو لاوس أو كمبوديا أو أي دولة من دول هذه المنطقة التى يدور فيها الصراع بين ثلاثة عوامل :

الشيوعية الشرقية ، والراسمالية الغربية ، والتخلف المحلى !

والفكرة الاساسية التى تريد الرواية أن تثبتها هى : ان المعسكر الشيوعى أو الاتحاد السوفييتى بالذات يبعث الى هذه البلاد دبلوماسيين مدربين، خبراء بشئون المنطقة ، ينفذون سياسة محسوبة مرسومة فى دقة هائلة .. فى حين ان أمريكا تبعث ناسا تافهين لايعرفون عن هذه البلاد شيئا . وأن هذا هو سر فشل السياسة الامريكية فى تلك البلاد .

ومن أمثلة ذلك ، شخصية السفير السوفييتى وشخصية السفير الامريكى ، كما يرسمها المؤلفان ..

السفير السوفييتى «كروبتزين» كما يرسمه المؤلفان، بدأ حياته الدبلوماسية سنة ١٩٣٥ كسائق سيارة الملحق السوفييتى التجارى فى نيويورك .. فكل رجال السلك السياسى السوفييتى كانوا يبدأون العمل كسائقين وخدم فى السفارات والقنصليات السوفييتية ، يقضون نصف وقتهم فى الخدمة والنصف الثانى فى تلقى دراسات دبلوماسية معينة !.. وبذلك يتجنب السوفييت استخدام أغراب فى سفاراتهم من جهة ، ويمكنون شباب السلك السياسى من التدريب الدقيق من جهة أخرى ! ثم نقل كروبتزين الى براغ كسائق أيضا .. ثم الى بكين فى وظيفة كاتب صغير بالسفارة . ثم أعيد الى موسكو ليدرس بضع لغات أجنبية ثم ذهب الى الصين مرة أخرى كمراقب ليتعلم الاختلاط بالآسيويين . ثم عاد الى موسكو ليتخصص فى دراسة منطقة جنوب شرق آسيا بالذات ، وسافر الى هناك فى عدة رحلات . ثم تقرر اختياره سفيرا لروسيا فى ساركان !.. وبدأ هو وزوجته يدرسان لغة ساركان قراءة وكتابة مدة عامين

قبل أن يذهب الى هناك وعلم ان الناس فى ساركان قصار ونحاف ، فقام بعمل رجيم قاس حتى تخلص من بدانته لكى لا يبدو غريبا عليهم مختلفا عنهم ، ودرس الديانة البوذية السائدة هناك والموسيقى الساركانية وكل العادات المحلية بما فيها الجلوس متربعا على الارض بسهولة.. وبعد هـذا ، ذهب ليتسلم منصبـه كسفير للاتحاد السوفييتى فى ساركان ! »

أما السفير الامريكى «سيزر» ، فقد رسم له المؤلفان صورة أخرى .. فهو عضـو فى الحزب الديمقراطى الامريكى ، رشح نفسه فى الانتخابات لعضوية الكونجرس، ولكنه سقط .. ولابد أن يعوض الحزب أنصـاره ، فعرضوا عليه منصب سفير ..

وقال سيزر لهم : ان منصب سفير يحتاج الى رجل غنى ينفق على الوظيفة وأنا ضيعت أموالى على الحزب

وفهموا اشارته .. وقالوا له : هناك منصب سفير فى ساركان .. أن مرتب الوظيفـة ١٧ ألف دولار فى السنة ، و ١٥ ألف دولار بدل تمثيل.. فضلا عن انك ستسكن فى بيت فاخرمجانا ، وستشترى الخمور بدون ضريبة ..

ويسألهم : أين الملعونة ساركان هذه ؟

ـــ هناك .. عند بورما وتايلاند ..

ـــ ولـكننى لا أعرف التعامل مع السود ..

ـــ ان شعوب هذه المنطقة ليست سوداء !

ويقبل المنصب ! !

وعندما تعلن الخارجية الامريكية عن حاجتها الى ناس يعملون فى الخارج .. ويجتمع الراغبون فى العمل .. يتحدث اليهم مندوب الوزارة عن مزايا العمل فى الخارج .. فالسفر بالدرجة الاولى والمرتبات كبيرة .. والخمر

والسجاير بالسعر الدبلوماسى الزهيـد .. والخدم متوفرون بكثرة فى بلاد آسـيا .. والاطعمة الامريكية موجودة فى مقصف السفارة .. وهناك أمريكيون كثيرون فلن يضطر الموظف الى أن يعيش مع أهل البلاد ! !

ويصف المؤلفـان حياة الدبلوماسى الامريكى .. انه لايعرف الا البيض من مواطنيه أو من الاوربيين ، وهو يهتم بأن تنشر أخبار نشاطه فى صحف أمريكا لا فى البلد الذى يعمل فيه ، وهو يعتقد انه ناجح اذا كان على علاقة حسنة بالاقلية الفنية فى البلد .. ويقضى أغلب وقته فى الاندية الخاصة ، على الطراز الذى اعتاده فى بلاده ..

ويتحدث المؤلفان عن الجو الذى يعمل فيه الدبلوماسيون الامريكيون فى مثل تلك البلد . فالمترجمون وسـائقو سيارات السفارة وعمال التليفونات وغيرهم .. كلهم من أبناء البلد الاصليين مما يجعل التجسس على أعمـال السفارة سهلا ! بعكس السوفييت الذين لايستعينون بواحد غريب ، بل يتعلمون لغة البلد قبل الذهاب اليها

ثم ان الدبلوماسيين الامريكان ما زالوا يركزون نشاطهم فى حفلات الـكوكتيل . فى حين انهم يجب أن يختلطوا بالكتاب وممثلى العمال والطلبة وكل من يصنعون الرأى العام ويؤثرون فيه ..

هذه هى المعانى العامة التى تدور حولها هذه الرواية. والمؤلفان أكثر دراية ــ بالطبع ــ بالسلك السـياسى الامريكى .. ولكن نقطة الضعف الخطيرة فى منطق المؤلفين هى : انهما ركزا على الاشياء الصـغيرة التى تصنع السياسة ، لا على الاشياء الـكبيرة ..

لقد اعتبر المؤلفان كل مشاكل السياسة الامريكية فى آسيا ترجع الى أسباب صغيرة مثل عدم معرفة اللغة المحلية وما الى ذلك . ولاشك ان كفاءة الدبلوماسى أمر

هام جدا . ولكن الأهم من ذلك : السياسة العليا التى ينفذها الدبلوماسى ..

فاذا كانت سياســـة أمريكا تؤيد بريطانيا وفرنسا وغيرها من الدول ذات التاريخ الاســـتعمارى فى تلك البلاد.. واذا كانت تحاول أن تساند الطبقات الاقطاعية القديمة ضد الفئات المطالبة بحقها فى الحياة والمساواة .. فماذا يمكن أن يصنع دبلوماسى كفء أو غير كفء ؟

ان الرواية ليست نقدا للسياسة الامريكية . انها نقد « للروتين » فى السلك السياسى الامريكى.. لا أكثر ولا أقل !

***

أما الرواية التى تعد فى الواقع أعظم عمل أدبى سجل هذه الظاهرة ، فهى كما قلت منذ قليل ، رواية جراهام جرين : الامريكى الهادىء .. التى سأحاول أن ألخصها هنا :

جلست بعد العشاء انتظر «بيل» فى غرفتى التى تطل على شارع «كاتينات» . كان قد قال لى انه لن يتأخر عن الساعة العاشرة ، فلما أصبحت الساعة الثانيةعشرة لم أطق الانتظار ، ونزلت الى الشارع . كان فى الطريق بعض النساء العجائز يتمشين ؛ ورجل يجر عربة ركوب فى بطء ، وعلى البعد تبدو أنوار مصابيح تدل على المكان الذى هبطت فيه الطائرات الامريكية الجديدة ..

وبعد أن تمشيت قليلا لمحت فتـــاة تقف عند أحد الابواب . لم أميز وجهها ، ولكننى عرفتها من فستانها الحريرى الابيض .. فكم من مرة وقفت هكذا تنتظر عودتى ، ليلة بعد ليلة ..

وناديتها :

— فونج ؟...

والتفتت الى . كنت أعرف انها أيضا تنتظر بيل .
وقلت لها : انه لم يأت بعد ، خير لك أن تنتظريه معى فى حجرتى .. وسوف يأتى بعد قليل ..

وعندما أصبحنا فى غرفتى قالت لى : انت قلق ؟..

ــ قليلا .. انه رجل دقيق جدا فى مواعيده ، ومن الغريب أن يتأخر هكذا .. !

وخلعت حذائى وكرافتتى ، وبدأت فونج تغلى المـاء للشاى . هكذا كانت تصنع بالضبط قبل ستة شهور.. قلت لنفسى وأنا أغمض عينى ، كأنما أريد أن أعود الى تلك الايام ، هكذا كانت بالنسبة لى فى ذلك الوقت كل مساء : وشوشة البخار ، وطقطقة براد الشاى ، ووعد بالراحة فى هذه الساعة من الليل ..

وتساءلت : ترى فى أى شىء يتكلم شخصان مثل بيل وفونج اذا اختليا ؟ هو بمحاضراته عن الشرق الاقصى ، وآرائه عن الديموقراطية .. وشرحه المستمر لما تقدمه الولايات المتحدة الى العالم ، وهى بجهلها المطبق ، فلو ذكرت أمامها اسم هتلر لسألتك من يكون ! وان كانت تعرف عن الأميرة مرجريت وأخبارها أكثر مما اعرف انا

وكانت قد انتهت من اعداد الشاى ، وانحنت على المائدة تضع الفناجين ، فبدا لونها فى ضوء المصباح مثل لون العنبر الداكن ، وسألتنى : هل أحشو لك البيبة ؟

وسألتها بدورى ، وهى تعد الافيون : هل ما زال بيل لايدخن ؟

ــ نعم ..

ــ ولكن ، يجب أن تقنعيه بأن « يدخن » والا فقد يذهب عنك مرة ولا يعود ..

كانت نساء المنطقة يعتقدن فى خرافة تقول : ان من يدخن لدى الواحدة منهن مرة ، فلا بد أن يعود اليها

حتى ولو كان فى آخر الدنيا . وبدات رائحة الافيون تتصاعد ، لا شىء فى الدنيا يعدل هذه الرائحة !

وبدات اشرب الشاى ، وأشرب الافيون ، وأداعب كتف « فونج » ..

وسألت نفسى : هل ترضي أن تنام معى الليلة اذا لم يعد بيل ؟ .. ثم قلت لها : عندما هجرتنى ، كان من حسن حظى أن هناك افيون أغرق فيه .. ولكن كيف تعيشين مع رجل لا يدخن يا فونج ؟ ..

ـ انه سوف يتزوجنى ..

ـ آه .. هذا شىء آخر ..

وعدت افكر : هل تنام معى اذا لم يعد بيل ؟ سوف يكون لذيذا حقا أن أشـــعر بوجودها الى جوارى فى الفراش . انها تنام دائما على ظهرها وفى الصباح أصحو فأجدها قد أعدت لى الافيون مرة أخرى ..

ولكنى ، بعد رابع غليون ، لم أعد فى حاجة اليها ..

وارتفع طرق عنيف على الباب ..

وقفزت الى الباب ، وفتحته ، وسمعت صوتا يصيح : مسيو فولر ؟

وأجبت : أنا فولر ..

كان الرجل من رجال الشرطة ، فبدأ يشرح بمزيج من الفرنسية والفيتناميـــة اننى مطلوب للذهاب الى مكتب الامن ..

ـ لماذا ؟ ..

انه لايعرف ، فقد تلقى الأوامر ونفذها فحسب .. « وانت مطلوبة ايضا يا آنسة » ..

وحاولت أن أؤجل ذهابنا للبوليس الى الصباح ، ولـكنه رفض ..

ان الكلمة الاخيرة هنا للبوليس . انه يسـتطيع ان

يسحب منى اذن التجول ، ويستطيع منعى من حضور المؤتمرات الصحفية ، بل ويستطيع أن يلغى اقامتى فى البلادكلها. هذا عن الاجراءات القانونية ، اما الاجراءات غير القانونية فهى أدهى ! ..

أعرف صديقا فقد الطباخ الذى كان يعمل عنده ، كان البوليس قد استدعاه للاستجواب ثم اختفى بعد ذلك .. ربما كان الآن يحارب مع الشيوعيين ، ربما كان مع واحد من الجيوش الخاصة التى تعمل قريبا من سايجون ، ربما كان نزيل سجن فرنسى ، ربما كان يتاجر بالنساء فى الحى الصينى ، أو لعله قتل ..

وفى قسم البوليس كان الضابط الفرنسى يقرأ مجلة « بانسيه » الثقافية الفرنسية ، كما لو كان مهتما حقا بالمناقشات الحزبية التى تنشرها هذه المجلات ، وانهال الضابط على فونج بالاسئلة عن بيل :

ــ متى عرفتيه ؟ ..

ــ كم يدفع لك ؟ ..

وصحت فى وجهه : ليس من حقك أن تسألها هذا السؤال ، انها ليست للبيع .. وقال لى : ولكنها عاشت معك سنتين تقريبا أليس كذلك ؟

ثم بدأ يسألنى عن معلوماتى عن بيل. وقلت له : اننى لست مخبرا ، ولا أعرف عن بيل أكثر مما تعرف أنت : عمره ٢٢ سنة ، يعمل فى هيئة المعونة الاقتصادية ، وجنسيته امريكية .

كان الافيون يساعدنى على احتمال الموقف ، ربما لأنه يهدىء الاعصاب ، ويميت الانفعالات .

وعاد الضابط يسألنى : كيف عرفت بيل ..؟

والواقع انه هو الذى عرفنى. كنت جالسا فى المقهى ، والموائد كلها مزدحمة ، عندما اقبل بقامته المديدة

ووجهه الطيب البرىء ، وقال لى : هل تأذن لى فى الجلوس ؟ ولما جلس قال لى انه جاء الى هنا مؤخرا ، وطلب زجاجة بيرة ، وعرفت منه انه منذ عشرة أيام فقط كان يسير فى شـــوارع بوسطن بأمريكا ، محملا بالكتب عن الشرق الاقصى . كان عامر الذهن بالكلام عن الديمقراطية ومسئولية الغرب ، وكان مصمما على أن يسدى خدمة جليلة لا لفرد ما ، ولـكن لشعب ، لقارة ، بل للعالم كله ..

وعندما قال لى الضابط ان بيل قد قتل ، نظرت فورا الى فونج . انها لم تفهم بالطبع لأننا كنا نتحدث بالانجليزية . لابد ان النبأ سيكون قاسيا عليها . انها تحبه . لقد تركتنى من أجله ، لقد علقت أملها كله به وبشبابه ، وها هو يخذلها أكثر مما تخذل الشيخوخة أو اليأس . وقلت للضابط اننى كنت فى انتظاره الساعة العاشرة ، لأنه حدثنى فى التليفون ، وقال لى انه لابد أن يرانى لسبب هام ، لم يقل لى عنه شيئا ، وسألت الضابط :

ــ أين وجدتم جثته ؟

ــ فى الماء .. تحت كوبرى « داكو » ..

ان كوبرى « داكو » منطقة محرمة ، واجتيازه أمر بالغ الخطورة فى الليل، لأن الجانب الآخر من النهر يغدو اذا هبط الليل فى قبضة جنود فيتنام الشيوعيين .. انه يقع بجوار مطعم «الطاحونة القديمة» الذى تعشيت فيه هذه الليلة ، لابد اننى كنت أتعشى على بعد ثلاثين مترا فقط من جثته ..

وطلب منى الضابط أن أنزل الى المشرحة لأتعرف على الجثة . لعله أراد أن يواجهنى بجريمتى اذا كنت أنا المجرم ، طبقا لأصول التحقيق ! لعله طاف بباله

انني قتلته بسبب الغيرة !.. واخرجوا جثته من باب الثلاجة متجمدة تماما .. حتى جروحه كانت متجمدة. وبدا لي أكثر من أي وقت آخـــر انه ليس في مكانه الطبيعي ! لقد أطلعني يوما على مجموعة صوره العائلية .. ورأيت صوره جالسا مع عائلته في المزرعة ، وسابحا في لونج ايلاند ومع أصدقائه في الطابق الثالث والعشرين انه ينتمي الى عالم ناطحات السحاب والمصاعد السريعة ، و « الايس كريم » ، واللبن المثلج وساندوتشات الدجاج

وأشار الضابط الى جرح في صدره وقال :

ـ انه لم يمت من هـذا ، لقد أغرقوه في الطين ، وهذا ما قتله . كان صدره مليئا بالطين ..

وعنـــدما خرجت أنا وفونج كانت تدوى في رأسي مشكلتان : كنت أبحث عن طريقة هادئة أنهى بها الخبر الى فونج ، وكنت في نفس الوقت أفكر كصحفي بأسلوب العناوين المثيرة وكيف أرسل الخبر الى جريدتي، وكيف يكون له عنوان كبير مثل « مصرع موظف أمريكي في سايجون » . وطلبت من فونج أن تنتظرني خارج مكتب التلغراف حتى أبعث ببرقية ، لابد أن يصل النبأ الى جريدتي قبل موعد الطبع ، لا لأهميتـه طبعا .. فلا أهمية له لأني لن أنشر التفاصيل كما اني لن أنشر أي شيء عن مهمته ، لن أقول مثلا انه مسئول عن مصرع خمسين شخصا على الاقل. فلو انني نشرت هذا لأسأت الى العـلاقات بين انجلترا وأمريكا ، ولغضب الوزير المفوض جدا . فقد كان الوزير يحترم بيل الى حد كبير اذ كان بيل حاصلا على شهادة في علم من تلك العلوم التي لايأخذ أحد فيها شهادات الا الامريكان في « العلاقات العامة » أو شيء من هذا القبيل ..

وعنـــدما عدت أنا وفونج الى غرفتي ، ادركت أن

حجرتى قد تعرضت لعملية تفتيش ، فقد كان كل شىء فى الحجرة منظما ومرتبا أكثر من المعتاد !

وخلعت حذائى وكرافتتى ، واضاءت فونج المصباح وهى تقول لى :

ـ هل أعد لك الافيون ؟

كان الحادث الذى قاطعنى قد انتهى ، وعاد الليل كما كان : المصباح، ولون بشرتها العنبرى ، وفرنسيتها ذات اللكنة المحلية العذبة .

ـ فونج .. انه مات ..

وانتصبت مرة واحدة ، ونظرت الى كطفل يحاول أن يفهم شيئا عويصا ..

ـ مات .. قتل ..

لا شىء ، لا دموع ، بل مجرد تفكير .. تفكير عميق جدا ، تفكير شخص فوجىء بأن عليه أن يغير مجرى حياته كلها ..

وبدأت تعد لى الافيون ..

***

عندما استيقظنا فى الصباح ، كان كلانا حريصا على ألا يذكر بيل ، ولكنها طلبت منى أن أذهب وأحضر صندوق ملابسها من بيته فى شارع الجنرال دبراتون . ما أكثر غرام الفرنسيين بأسماء جنرالاتهم ! قبل ذلك كان اسم الشارع دى جول ، ثم ليكليرك ، وعن قريب سيصبح دى لاتر ..

كان بيت بيل محاصرا بالبوليس والسيارات والموتوسيكلات ، وفى الداخل وجدت ضابط البوليس الذى استجوبنى بالامس ..

ـ هل ما زلت تبحث عن قاتل بيل ؟

ـ نعم .. ماذا تخمن ؟

قلت له :
ـ ربما قتله جنود فيتنام الشيوعيون لأنه أمريكى.
وربما قتله بوليس فيتنام ، لأنه لايرتاح الى نشاطه ..
وربما قتله « الكوديست » لأنه صديق للجنرال تى ،
وربما قتـــله جنود « الجنرال تى » لأنه كان يعرف
الـكوديست .. وربما قتله الهاوهاو لأنه تسلل الى
حريم قائدهم ! !

وبعد أن جمعت ثياب فونج ، أخذت انظر الى مكتبة
بيل : تقدم الحمر فى الصين ، الخطر الذى يهـــدد
الديمقراطية ، دور الغرب فى آســـيا ، ثم كتاب عن
سيكولوجية الجنس والزواج .. لعل بيل لم يعرف
المسائل الجنسية أيضا الا فى الـكتب !

وبينما أنا خارج من بيت بيل بعد أن أخذت ملابس
فونج ، قابلت الملحق الاقتصادى فى السفارة الامريكية
داخلا ، فاستوقفنى .. وأخذ يحدثنى عن حزنه ، وعن
البرقية التى أرسلها الى أهل بيل ، وسألته ماذا كتب
فيها ؟ فقال انه كتب : « يؤسفنى أن ابلغكم أن ولدكم
بيل قد مات ميتة جندى باسل فى سبيل الديمقراطية».

وسألته : هل يعتبر بعثة المعونة الاقتصادية جيشا
ورجالها جنودا بواسل ؟ فهمس فى اذنى : « بيل كان
يقوم بمهمات خاصة » ..

ـ أعرف ذلك ..
ـ هل قال لك شيئا ؟..
ـ كلا .. اطمئن .. انه لم يكن يتكلم كثيرا . لقد
كان بيل هادئا جدا ..
ـ واذن لماذا تظنه قتل ؟ ..

وفاض بى السخط فجأة على الأمريكان جميعا ..
لقد ضقت ذرعا بهم .. بمخازن الكوكاكولا الخاصة بهم ،

بمستشفياتهم المتنقلة ، بسياراتهم العريضة الملونة ..
وانفجرت فيه : « لقد قتلوه لأنه كان أبرأ من أن يعيش
كان صغيرا وجاهلا وأحمق. وكان يحشر نفسه فى كل
شىء ! لم تكن لديه أية فكرة عن الأمر كله! مثلكم جميعا !
ولكنكم أعطيتموه دولارات وبعض كتب عن الشرق الاقصى
وقلتم له: «اذهب واكسب الشرق لحساب الديمقراطية»!

ما زلت أذكر ذلك اليوم الذى عرفت فيه بيل لأول
مرة فى فندق الكونتننتال. كنت قد شبعت من مصاحبة
الصحفيين الامريكان .. كلهم فى ربيع العمر ، كالاطفال،
جالسين فى الفندق يملأون الدنيـــا ضجة وصخبا ،
ويسخرون باستمرار من الفرنسيين ، الذين كانوا على
أى حال يقومون بالقتال ، ومن حين لآخر ، اذا انتهت
معركة من المعارك، ورفعت الجثث والاسلحة من الميدان،
أخذوهم مع سائر الصحفيين فى طائرة الى هانوى ، حيث
يعقد لهم القائد مؤتمرا صحفيا ، ثم يطيرون بهم فوق
الميدان على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم، ثم يعيدونهم سالمين
صاخبين ، كرحلات التلاميذ ، الى فندق الكونتننتال
فى سايجون ! !

ومن الوهلة الاولى، وجدت بيل هادئا ، بل ومتواضعا،
يبدى من حين لآخر ضيقه بالضجة المنبعثة من الشرفة
العليا التى تطل على الشارع ، حيث يجلس الصحفيون
الامريكان عادة ، فالشرفة العليا أكثر بعدا عن مرمى
القنابل اليدوية من الشرفة السفلى التى كنا نجلس فيها.

وبدأت أشرح له الموقف العســـكرى .. أين يقف
الفرنسيون وكيف يسيطرون على الطرق حتى الساعة
السابعة مساء فقط وبعد ذلك لايسيطرون الا على أبراج
المراقبة . كنت أكرر ذلك فى ملل لكثرة ما كررته لكل
قادم جديد ..

وقد قابلت بيل بعد ذلك مرتين، وكانت معى فونج ، وعرفته بها ، وفى المرة الثانية دعاها الى الرقص ورقصا سويا . وبعد هـذه المرة بقليل ، كان على أن أترك سايجون وأسافر مع الصحفيين الى الجبهة ..

***

من برج الكنيسة ، كان منظر المعركة يبدو كأنه لوحة تاريخية قديمة : جنود الباراشوت يتحركون فى بطء ، ولكنهم لبعد المسافة يبدون وكأنهم لايتحركون، والطائرات تلقى التموين لكتيبة محاصرة منذ الامس ، وصوت المدافع الرشاشة رتيب لاينقطع والدخان منعقد على الدوام كأنه صخرة متجمدة ، والسنة اللهب المشتعلة فى سوق البلدة تبدو باهتة فى ضوء الشمس ، حتى القسيس الجالس جوارى يقرأ الأدعية دون أن يحرك وجهه ليرى شيئا مما حوله . ان الحرب من هذا البعد تبدو نظيفة منظمة ..

كنت قد وصلت الى الجبهة قبل الفجر ، وروى لى ضابط أعرفه كل ما حدث بالضبط ، لقد لحقت بالفرنسيين هزيمة أخرى على أبواب « نام دين » ولكن هذا غير مسموح بنشره .. المسموح بارساله فقط هو أخبار الانتصارات !

وتحتنا مباشرة كان يتكوم كل أهالى « نام دين » الكاثوليك والبوذيين وغيرهم ، كل واحد حمل ما يعتز به من متاع : وابور غاز ، لمبة ، مرآة ، دولاب أو صورة مقدسة .. وجاءوا جميعا الى رحاب الكنيسة ! حتى على السلم الصاعد الى برج الاجراس ، كان النـاس يتكومون ، حاملين أطفالهم وأمتعتهم .. انهم يظنون ، على اختلاف أديانهم ، انهم هنا فى أمان . وعندما دخل جندى فيتنامى ، انتزع منه القسيس مدفعه الرشاش.

وهمس رجل فى أذنى : « اننا هنا فى أرض محايدة لا يجب أن يدخلها سلاح .. اننا فى أرض الله » .

وفكرت : اى شعب عجيب يسكن أرض الله هذه.. خائفا متجمدا من البرد ، يكاد يموت جوعا ؟ ولكننى عدت أقول لنفسي : « ليس هذا غريبا فليس شعب الحاكم القوى دائما أسعد الشعوب » .

كنت اظن اننى سأبقى فى الجبهة اسبوعا واحدا ـ ولكننى بقيت ثلاثة أسابيع . ان الخروج من الجبهة أصعب من دخولها . وعندما وصلت الى «هانوى» كان الصحفيون قد طاروا لكى يرسلوا أنباء الانتصار الاخير!

وذهبت لأشهد المؤتمر الصحفى ، كان الصحفيون الفرنسيون بالذات قد جلسوا جميعا فى جانب القاعة كأنهم جمهور فريق منافس لكرة القدم ، وقال لنا الضابط الفرنسى ان العدو قد هزم هزيمة ساحقة وتحمل خسائر فادحة ! ثم امسك المؤشر وأخذ يشرح لنا على الخريطة . وسأله صحفى أمريكى اسمه جرينجر عن خسائر الفرنسيين.. ان الضابط يعرف جيدا معنى هذا السؤال وهو يتوقعه فى كل مؤتمر ، وأدلى بالرد التقليدى : ان خسائرنا طفيفة ، والرقم الحقيقى لم يعرف بعد ..

وقال جرينجر : هل يقصد الكولونيل انه وجد وقتا يعد فيه قتلى العدو ولم يجد وقتا يعد فيه قتلاه ؟

واحمر وجه الضابط الوسيم ، ثم قال : ان العدو يهرب وراء النهر الاحمر ، فمن الممكن عد قتلاه ، ولكن كيف نعد قتلى جيشنا وهو يتقدم الى الامام ؟ ..

ورد جرينجر : هل من المعقول ان قواد الكتائب لايبلغون عن عدد قتلاهم .. وبدا واضحا ان الضابط الوسيم قد فقد أعصابه ، فقال فجأة :

ـ اذا وصلت الامدادات التى وعد بها الامريكيون ، فسوف نستطيع أن نفعل أكثر من ذلك ..

ـ هل معنى ذلك ان الامدادات التى كان يجب أن تصل اليكم فى سبتمبر لم تصل بعد ؟

ـ نعم ..

وأسرع جرينجر يكتب هذا فرحا بالنبأ الصحفى ، وقال الضابط :

ـ هذا ليس للنشر ، هذا لمعلوماتك فقط ..

ـ لماذا ؟ .. هذه أخبار ربما يساعدكم نشرها ..

ـ لا أظن .. ان الصحف الامريكية سوف تعلق قائلة : «الفرنسيون لايكفون عن الشكوى والتسول» ! ! وفى باريس سيصيح الشيوعيون قائلين : « ان الفرنسيين يريقون دماءهم فى سبيل أمريكا » وفى آخر الأمر لن يصل الينا شىء ..

وعدت الى حجرتى العارية التى سأبيت فيها ليلتى فى هانوى . كنت أشعر بوحدة قاتلة ، تمنيت أن أبكى ، ولكن دموعى كانت متحجرة . اننى أريد فقط أن أعود الى حجرتى فى سايجون فى شارع كاتينات ..

على ان مفاجأتى الكبيرة كانت عندما دخل على بيل. قال : انه جاء من سايجون الى الجبهة ليقول لى خبرا هاما .. هو انه يحب فونج ! أحبها منذ عرفته بها أول مرة ، ثم راقصها فى مرة تالية ! وسألته : هل قال لها هذا بعد أن تركت سايجون الى الجبهة ؟ فقال لى : لا .. وقال : انه يريد أن يتزوجها ..

ورفضت أن أناقش الموضوع معه ، واتفقنا على أن نبحث الأمر عندما نعود الى سايجون !

وعندما عدت الى حجرتى فى شارع كاتينات جلست أكتب الى رئيس تحرير الجريدة التى أعمل فيها ، طالبا

منه الا ينقلنى من هنا فى هذه اللحظة . وكانت فونج معى فى الحجرة . وعندما قلت لها ان بيل آت بعد قليل قررت أن تنصرف ، وسألتها عن السبب فقالت : انه طول مدة سفرى لم يسأل عنها ، ومع ان أختها دعته مرة فانه لم يحضر مما يعد اهانة كبيرة وقالت : لابد انه يريد أن يختلى بك لكى تتحدثا فى العمل ..

ـ أى عمل ؟

ـ لا أعرف.. ولكن كل الناس تعرف انه يقوم بعمل هام ، انه يتلقى حقائب كبيرة جدا .. حقائب لا تفتح قط ، لأنها حقائب دبلوماسية ..

ـ لابد انها أدوية للهيئة الامريكية التى تكافح مرض التراكوما ..

ـ هذا ما يقولون ، ولكن أحد موظفى الجمرك فتح احدى الحقائب التى تأتيه خطأ فخرجت منها أشياء مثل لعب الاطفال ، مصنوعة من البلاستيك .

ـ بلاستيك ؟ .. هذه بضاعة غريبة حقا ..

وانصرفت فونج كى تزور أختها ، وكنت فى آخر صفحة من صفحات خطابى الى رئيس التحرير وأخذت أقول له ان أسبابا خاصة قوية تجعلنى فى حاجة الى البقاء حيث أنا ، وانه لو أصر على نقلى فقد أستقيل لأبقى فى مكانى ، ثم هدأت ومزقت هذه الصفحة الاخيرة ، انها لن تكون سوى موضوع للفكاهة.. هناك فى لندن كلهم يعرفون ان كل مراسل فى الخارج له فتاته التى يقع فى حبها ولا يريد ترك المكان من أجلها ..

ودخل بيل وخلفه كلبه الاسود الكبير.. كان واضحا ان عينيه تبحثان عن فونج ، ولما أثرت الموضوع قال لى :

ـ اسمع .. انه ليس من العدل ان نتناقش حول فونج فى غيابها ..

ـ فى اى شىء نتناقش اذن ؟ .. فى البلاستيك ؟

ودهش بيل ، وقلت له ان فونج هى التى أخبرتنى بقصة البلاستيك وان كل المدينة تعرفها . ولما وجد اننى فى انتظار تفسير قال :

ـ انت تعرف .. نحن نريد انساعد بعض الصناعات المحلية حتى تقف على قدميها ، وعلينا فى نفس الوقت ان نكون حذرين من الفرنسيين فهم يريدون أن تشترى فيتنام كل شىء من فرنسا ..

ـ لا الومهم على ذلك .. ان الحرب تحتاج الى نقود

ولمحت فى عينيه تلك النظرة من الألم وخيبة الأمل التى تكسو عينيه كلما صدمت الحقيقة شيئا من الاشياء التى يؤمن بها ..

وهنا سمعنا وقع اقدام ، كان واضحا لكلينا انها اقدام فونج ..

قالت انها لم تجد أختها ..

وقال بيل :

ـ الآن نستطيع أن نتناقش امامها .. هل تترجم بينى وبينها ؟ ان لغتى الفرنسية ضعيفة جدا ، ولهجتها فى الفرنسية تستعصى على فهمى ..

وبدات أترجم ما يقول :

ـ قل لها اننى أحبها بشدة .. منذ اللحظة الاولى التى رأيتها فيها ورقصت معها ..

وترجمت لها ، أما هى فقد جلست تستمع وتتفرج فى سكون ، كأنها تشهد فيلما سينمائيا ..

واستمر يقول لى وانا اترجم : وقل لها اننى اريد أن اتزوجها ..

وسكت برهة ثم قال : وقل لها اننى لست غنيا الآن ، ولكن عندما يموت أبى سوف يترك لى خمسين

الف دولار ، وأنا شاب .. صحتي جيدة جدا ، ولدى شهادة طبية بذلك .. وأستطيع أن أطلعها على فصيلة دمى ..

ولم أطق هذا الكلام ، وصحت فيه : هل تحبون هكذا فى أمريكا ؟ بأرقام الدولارات وشـهادة طبيـة وفصيلة الدم ؟.. ما شأن فصيلة الدم بهذا ؟..

ــ لـكى تعرف اننا نستطيع انجاب أطفال ..

ــ معنى ذلك انك ستطلب منها أيضا شهادة بصحتها وفصيلة دمها ..

ونظرت الى فونج وصحت : قولى له أن يخرج من هنا هو وكلبه ..

وصاح هو بدوره فى فونج : تعالى.. اخرجى معى.. ماذا سيقدم لك ؟.. انه لن يتزوجك . انه فى الخمسين من عمره .. ماذا سيعطيك ؟ سيترك لك مائتى دولار عندما ينقل الى لندن ..

ورفضت فونج أن تخرج معه قائلة : لا !

وهدأ الموقف دفعة واحدة ، واكتشفنا اى موقف سخيف وقفه كلانا ، لقـــد انتهى الموقف كله بكلمة صغيرة من حرفين : لا ..

وقال بيل :

ــ آسف يافولر.. أظن اننى يجب أن انصرف حالا .. فقط أرجو أن تنسى هذا .. صدقنى انك ما تزال اعز صديق لدى ..

وعنــدما انصرف ، وبدأت فونج تعد لى الافيون ، جلست أكتب خطابا ثانيا ..

كتبت الى زوجتى هيلين ، أطلب منها الطـلاق .. استعرضت الخمس سنوات التى مضت علينا ونحن منفصلين ، واعترفت لها بكل أخطائى ، وبأننى لا أستحق

رحمتها وموافقتها على الطلاق. ولكننى مع ذلك رجوت منها أن تلبى هذه الرغبة ، قلت لها ان ثمة فتاة عشت معها سنتين ، وأصبحت عاجزا عن أن أعيش بدونها ، رغم اننى لست مهما لديها الى هذا الحد ..

وعندما رقدنا فى الفراش قلت لفونج :

ـ انه صغير ..

ـ هذا لا يهم ..

ـ أتعرفين اننى أستطيع أن أتزوجك ؟ ..

ـ ولكن أختى لا تصدق ذلك ..

ـ لقد كتبت الى زوجتى أطلب الطلاق ..

ـ واذا لم توافق ..

ـ فونج .. لقد كذبت عليك ، أنا منقول الى لندن ، لقد عينونى رئيسا للقسم الخارجى فى الجريدة ..

وقالت لى بحماسة انها مستعدة للذهاب معى الى لندن ، سواء أكانت زوجة لى أم لا ..

ومضت تحلم بلندن ، « هل هناك ناطحات سحاب فى لندن ؟ »

« كلا .. هذه فى أمريكا فقط » .. اذن سنسكن فى قلب لندن ؟.. سنركب الاوتوبيس ذا الطابقين وسأرى تمثال الحرية ؟ ..

ـ كلا .. هذا أيضا فى أمريكا ياعزيزتى ..

***

فى هذا الموعد من كل سنة ، كان « الـكوديست » يقيمون أعيادا دينية هائلة ، عنـــد البحر المقدس فى « تانيين » ..

وذهبنا ـ أنا وبيل ـ فى سيارتى نشهد هذه الاعياد ، ونرى تماثيل بوذا فى صمتها ، وحولها طوابير من الفلاحين بأعلامهم يؤدون طقوسهم العجيبة ..

وفى آخر النهار ركبنا السيارة لنعود .. كان لابد أن نعود الى سايجون قبل أن يهبط الليل والا فاننا نصبح فى خطر حقيقى ، فبعد الليل لا سيطرة لأحد على هذه الحقول الشاسعة ، ومن حين لآخر كنا نمر ببرج من أبراج المراقبة الطويلة النحيفة ، كأنه علامة استفهام ضخمة مرتسمة فى الهواء .

كنت أقود السيارة بأقصى سرعة ممكنة ، وقال لى بيل فجأة :

ـ كيف حال فونج ؟ ..

ـ بخير ..

ـ لقد قابلت أختها فى الطريق منذ أيام ..

ـ ودعتك الى زيارتهم ؟ ..

ـ بصراحة .. نعم ..

ـ انها لم تيأس بعد ..

ـ من أى شىء ؟ ..

ـ من أن تتزوج أختها ..

واكتشفت فى تلك اللحظة ان البنزين فى السيارة على وشك أن ينفذ . واسرعت كى أصل الى أقرب برج مراقبة موجود فى الطريق .. فنحن فى هذه الارض التى تسيطر عليها عصابات « الكوديست » و « الهاوهاو » سوف نذبح قطعا لو بقينا بعد الليل فى الطريق ..

وتوقفنا عند أول برج مراقبة. كانت الارض الشاسعة حولنا خالية هادئة تماما .. وبرج المراقبة بلونه الاسود كأنه رسم مطبوع على صفحة السماء الرمادية. . ونزلت من السيارة وأخذت أصيح لعل أحدا من جنود البرج يجيبنى ، ولكن صوتى تبدد ..

وكان الظلام قد سقط علينا فجأة كما يسقط حجر ثقيل . واخذت أتحسس جدران البرج لعلى أجد سلما

أصعد عليه الى الجنود ، هل تراهم رفعوا السلم ايضا حتى لايصعد اليهم أحد ؟ لا أظن .. فالسلم على أي حال هو طريقهم الوحيد الى الهرب ..

كنت خائفا تماما .. والناس فى لحظات الخوف يفكرون فى الله ، أو فى عائلتهم ، أو فى امرأة ما .. أما أنا فلم أكن أفكر فى شيء .. كأنني توقفت فى تلك اللحظات عن الحياة ..

وبدأت أصعد السلم فى بطء وحذر ، حتى وصلت الى سطح البرج .. هذا مصباح غاز مشتعل على الارض ، ورجلان منكمشان فى خوف ، وبينهما مدفع رشاش . انهما جنديان من فيتنام ، يبدو على وجهيهما الرعب والتوجس ..

واطمأن الجنديان عندما بدأت أشرح لهما القصة ثم سألتهما :

ـ هل لديكم بترول أشتريه ؟

ـ كلا ..

ـ اذن هل أقضى الليلة أنا وزميلى معكما هنا فى البرج ؟ ..

ـ هذا ممنوع ..

ـ ولكننى لن أقضى الليلة فى الطريق عرضة لأن يذبحنى أحد فى أي وقت ..

وفى هذه اللحظة كان بيل قد صعد بدوره ، وأصبح معى ، وسألنى بيل :

ـ الا يجب أن يقف أحد هذين الجنديين فى الشرفة ليراقب الطريق ؟ ..

وقلت له :

ـ انهما يفضلان الا يتعرضا لاطلاق الرصاص ..

ـ واذا هاجمهم الشيوعيون .. ماذا يفعلون ؟ ..

ـ يطلقان طلقـــة واحدة ثم يهربان .. الا تقرأ فى الصحف كل يوم ان « العدو احتل أحد أبراج المراقبة احتلالا مؤقتا » ..

وجلســنا أنا وبيل الذى قام وأشـــعل سيجارتين للجنديين حتى يكسب صداقتهما .. وقلت له :

ـ ان لهما العذر فى هذا الخوف والملل .. تصور أن يجلس جنديان غير مدربين هكذا ليلة بعد ليلة لايعرفان متى يزحف الشيوعيون عبر الحقول ..

وقلت له ثانية :

ـ هل تظن انهما يعرفان انهما يحاربان من أجـل الديمقراطية التى تتحدث عنها ؟ ..

ـ لابد أن لديهما دافعا من ايمان ما .. لايوجـد انسان يعيش بغير ايمان .. ألا تؤمن أنت بشىء ؟..

ـ أنا اؤمن بأننى أقف الآن وظهرى الى الحائط .. وان فى الحجرة معنا مدفعا رشاشا ..

ـ ألا تثق فيهما ؟ ..

ـ حتى لو كنت ضابطا فرنسيا لما وثقت فيهما ، أنا لا ألوم الجنود ، انكم تحاولون أن تجعلوهم يحاربون لأسباب لا تعنيهم ..

ـ انهم لايريدون الشيوعية ..

ـ انهم يريدون كفايتهم من الارز .. ولايريدون أن يطلق أحد عليهم الرصاص .. ولايريدون أن يظل هؤلاء البيض حولهم يشرحون لهم ماذا يريدون ..

ـ ولكن اذا ضاعت الهند الصينية ..

ـ أعرف باقى الاسطوانة : سوف تضيع سيام ، والملايو ، واندونيسيا ، ولكن ما معنى « تضيع ؟ » .. اننى أراهنك على انه بعد خمسمائة سنة ربما لايكون هناك شىء اسمه لندن أو نيويورك.. ولكن ستكون هنا

حقول تنبت الارز! سيكون هنا فلاحون يلبسون القبعات المدببة يحملون المحصول فى صفوف طويلة الى السوق، وسيكون هنا أولاد صغار يركبون ظهور البقر ..

— ولكننا سنرغمهم على أن يؤمنوا بما نقوله لهم ، اننا لن نتركهم يفكرون لأنفسهم ..

— ان التفكير ياعزيزى ترف .. هل تظن ان الفلاح عندما يعود آخر الليل الى كوخه المبنى من الطين ، يجلس ويفكر فى الله ، أو فى الديموقراطية ؟

— ولكن هل كل الناس فلاحون ؟.. هناك ايضا المتعلمون ..

— المتعلمون ؟.. لقد صنعناهم فى قوالبنا ! ومن أجل ذلك نستحق الذبح لو بقينا فى الطريق ولهذا نلوذ بالبرج .. اننى أفكر فى مؤلفك الامريكى العظيم يورك هاردنج .. الذى وضع عشرات الكتب عن الشرق الاقصى ماذا كان يصنع لو كان معنا الآن ؟

— ان يورك هاردنج رجل شجاع ، وفى حرب كوريا ..

— أعرف انه ذهب الى هناك ، ولكن كان فى جيبه دائما تذكرة عودة الى بلاده ، هـذا وضع غير وضع المجندين ، المجند لايعرف متى سيبقى هكذا ، لايستطيع أن يلحق بأول طائرة عائدة الى بلاده ..

— بدلا من أن تحمل على يورك .. الا تحمل على الفرنسيين أصحاب هذا الاستعمار ..

— على أى حال ، الفرنسيون هم الذين يموتون هنا كل يوم ، أنتم تدفعون الناس الى العمل ، ثم تتركونهم بعتاد قليل وبأنواع من لعب الاطفال المصنوعة من البلاستيك !

— لعب أطفال ؟

— نعم .. البلاستيك الذى تحضره ..

ـ آه ..
ـ لست أدرى ، لماذا أتحدث فى السياسة ؟ ! ربما لمجرد قضاء هذه الليلة الرهيبة ، من حسن الحظ اننى لست ملتزما باتجاه ..
ـ الايهمك من يكسب ؟
ـ كلا .. سأظل فقط اكتب الاخبار وأرسلها سواء كسب هذا أو ذاك ..
ـ ولكن .. لو كسبوا هم فلن تتمكن من ارسال اخبار صحيحة ..
ـ ان صحفنا لا تهتم عادة بالحقائق !
كان انهماكنا فى الحديث قد طمأن الجنديين.. فعادا الى طعامهما .. وسألنى بيل : اذن .. فأنت تعتقد اننا خسرنا المعركة ؟
ـ لا اقصد ذلك ، ما اقصده هو اننى لا أهتم بأن أراكم تكسبون ، اننى أحب فقط ان أرى هذين التعيسين يتمتعان بالسعادة ، احب الا يجلسا خائفين هكذا فى الظلام ..
ـ ولكن .. يجب أن تحارب فى سبيل الحرية ..
ـ اننى لم أر أمريكيا واحدا يحارب هنا . أما عن الحرية ، فمن يستطيع أن يحدد معناها ؟ اسأل هؤلاء
وصحت مناديا الجنديين بالفرنسية :
ـ الحرية ! ! هل تعرفان ما معنى الحرية ؟
ونظر الجنديان الى فى دهشة ، وواصلا سكوتهما..
وحاولت أنا وبيل أن ننام ، وحاولت ألا أنظر الى الساعة من حين لآخر . وفى الخارج بدأت انفجارات بعيدة تتردد ، ولما سألنى بيل عن معنى هذه الانفجارات كررت له صيغة البلاغ الرسمى « احتلت عصابات الشيوعيين برج مراقبة لبعض الوقت » ومرت دبابة من

أمام البرج.. تقوم بدور الدورية الليلية ، وبعد مرورها بدقائق سمعنا صوت انفجارها الهائل يهز البرج ، لابد انها داست لغما ..

لا فائدة من النوم ..

ـ هل أنت مستيقظ ؟

ـ نعم ..

ـ فيم تفكر ؟

ـ بصراحة فى فيونج ! ترى ماذا تفعل الآن ؟

ـ لابد انها يئست من عودتى الليلة ، فهى مستلقية على السرير ، تتصفح عددا قديما من مجلة « بارى ماتش » ..

ـ أين عرفت فيونج أول مرة ؟

ـ كانت ترقص فى « الجراند موند » ..

ـ ترقص ؟

قالها كأننى قلت شيئا اليما ..

ـ لا تجزع .. انها مهنة محترمة ..

ـ لابد أن لك تجارب كثيرة مع النساء ..

ـ ومع السنين ..

ـ أما أنا فلم أمتلك امرأة قط ، لم أمتلكها تماما ، أى اننى لم أعرف ما يمكن أن يسمى تجربة حقيقية ..

ـ ذلك انكم تضيعون طاقتكم فى مضغ اللبان ..

ـ اننى لم أخبر أحدا بذلك قط ..

ـ ان الانسان يبدأ حياته زير نساء ، ثم ينتهى مثل جده تماما : مخلصا لامرأة واحدة ..

ـ لو سألك أحد : ما هى أعمق تجربة جنسية مرت بك ، ماذا تقول ؟ ..

وقلت :

ـ عندما كنت راقدا فى السرير ، ذات صباح باكر،

اتأمل امرأة فى قميص نوم احمر ، تمشط شعرها !
— قرأت ان أعمق تجربة جنسية أن تكون فى الفراش مع امرأة زنجية وأخرى بيضاء .. فى وقت واحد ..
— هذا ما كنت اعتقده عندما كنت فى العشرين من عمرى !
— هل كانت فيونج هى التى رأيتها فى قميص النوم الاحمر ؟
كنت أتمنى الا يسألنى هذا السؤال ، ولكننىاجبت :
— كلا .. امرأة أخرى عرفتها بعد ان انفصلت عن زوجتى مباشرة ..
— ثم ..
— ثم تركتها أيضا ..
— لمـاذا ؟
— كنت أشفق من فكرة فقدى لها ، ولم أعد أتحمل هذا الشك ، فأسرعت الى النهاية ، كما يجرى جندى جبان الى صفوف الأعداء ، ثم يأخذ نيشانا ..
— هل تخاف على فيونج أيضا ؟
— فى المرة السابقة كنت أخشى أن أفقد الحب.. أما الآن فلا أخشى الا أن أفقد فيونج فقط ..
كنت ضيقا بهذا الحديث ، فحديث الجنس ليس هو المشكلة الأهم لدى من عرف مشكلة السن والموت..
— ان السؤال هو : اذا تركتنى فونج ، هل أجد النشاط الذى أبحث به عن أخرى ؟
— أهذا كل ما تعنيه فونج عندك ..
— نعم ، انتظر حتى تخاف من أن تعيش عشر سنوات وحيدا بدون رفيق ، وسوف تبدأ البحث لا عن ذات قميـــص أحمر .. بل عن امرأة ، أيا كانت ، امرأة تستمر معك حتى تنتهى !

وفجأة طرقت آذاننا أصــوات تتحدث بلغة محلية تحت البرج .. لابد انهم وجدوا سيارتنا ويبحثون الآن عمن كان بها ، هل ينصرفون ؟ هل ننتظر حتى يهجمون على البرج ؟

قال بيل :

ـ هذان الجنديان سيسلماننا لهم ..

ـ لهم الحق ! انها بلادهم على أى حال ! ..

وقررنا الهرب ..

وهبطنا الدرج ، وفى الظلام الداكن ، جريت فى اتجاه حقول الارز ، وبيل يجرى خلفى . وانفجرت قنــــبلة بازوكا أصابت البرج ، وانكفأت على وجهى .. وسمعت صوت بيل الذى كان راقدا الى جانبى : هل أصبت ؟

ـ نعم ..

كان واضحا ان ساقى اليسرى قد أصيبت بكسر ما ، كان الألم الذى تسرب منها حتى وصل الى رأسى هائلا، أشبه بألم الاسنان الحاد . وأنسانى الألم كل شىء . أنسانى أن أتنبه الى صوت قنبلة أخرى انفجرت فى البرج والمهاجمون يريدون فيما يبدو التأكد من ان كل من فيه قد قتلوا ، وأنسانى أن أتنبه الى أنهم ربما يبحثون الآن فى المنطقة التى نختفى فيها .

ـ هل أصابتك رصاصة ؟ ..

ـ كلا ، لقد سقطت على قطعة خشب مدببة .

ـ اسمع ، سأحاول أن أحملك على كتفى ، يجب أن نبتعد من هنا فورا ..

كنا نتحدث همسا ، وكان صدرى قد ضاق، وبدأت أصيح فيه صياحا مذبوحا من بين أسنانى :

ـ اتركنى واذهب أنت ، لا تحاول أن تقوم بدور بطولى !

ولكن بيل أصر على أن يحملنى ، وعندما أصبحت مستندا تماما الى كتفيه ، بدأ يتحرك فى بطء شديد جدا ، حتى لايحدث أقل صوت من احتكاكنا بعيدان الارز ، وكنا نسمع دقات قلوبنا ، ووقع أقدامه ، وكأنها تصيح فى الليل الساكن وكأن كل مخلوق يسمعها فى حقول الارز الشاسعة ..

وبلغنا جدولا صغيرا .. وكان لابد أن يعبر بيل هذا الجدول ، وأن يغوص فى الماء الى ركبتيه وأن يخطو فى بطء حتى لا تبعث الأمواج صوتا ينم عن وجود أى جسم يتحرك ، ومن حين لآخر كنا نسمع سلسلة من طلقات مدفع رشاش تنطلق هنا أو هناك ، ربما للتأكد من خلو المنطقة من اى مخلوق ، ورغم ألمى الشديد ، ورهبة الموقف ، استطعت أن أهمس فى أذن بيل وأنا أتأرجح على كتفيه العريضتين :

ـ لابد أنك رأيت أفلام الحرب ، ومغامرات بحارة الاسطول .. ولكنك ياصديقى لن تأخذ وساما على انقاذى ! ..

وصاح بيل فى فرح :

ـ لقد نجحنا ..

كنا قد عبرنا النهر الصغير ، فأصبحنا فى أمان نسبى ، واستطعنا لأول مرة أن ننظر الى الوراء فى شجاعة . كانت هناك على البعد نار صغيرة مشتعلة فى نشوة ..

ـ انها سيارتى ! ..

وكان الاحساس بالنجاة قد خفف ألمى ، وكان أعصابى قد ظفرت بساعة هدنة ، وكدت أن أصفر وأغنى !..

وعجبت كيف يستطيع صحفى مثلى أن يلخص كل اهوال هذه الليلة فى سطرين اثنين ، يظهران فى ذيل أخذ

اعمدة الجريدة ! ..

انعلينا أن ننتظر هنا حتىالصباح ، وتمر أول دورية فرنسية ، لتعيدنا الى سايجون ..

بعد أن قضيت فى المستشفى اسبوعين ، عدت الى شقتى فى شارع كاتينات . كانت فونج تنتظرنى على السلم ، فاستندت الىجسدها الرقيق، واخذت اصعد السلم فى بطء ..

قالت لي : افتقدتك كثيرا ..

وكنت فى حاجة حقيقية الى أن اسمع منها هذا . انها دائما تقول لى ما اريد سماعه . وسألتها كيف كانت تقضى وقتها فى غيابى ، فقالت لى انها كانت ترى اختها كثيرا ، وان اختها حصلت على وظيفة مع الامريكان..

ـ بمساعدة بيل ؟ ..

ـ كلا .. بمساعدة جو ..

ـ من هو جو ؟ ..

ـ الملحق الاقتصادى .. الا تعرفه ؟ ..

ـ نعم اعرفه ، ولكنى انساه دائما . انه من ذلك النوع من الناس الذى ينساه المرء دائما .. وعندما وصلنا الى الشقة ، وتمددت بمساعدتها على الفراش ، أعطتنى البريد الذى جاءنى أثناء غيابى . كان من بينه خطاب من زوجتى ، خطاب طويل ، حافل بالتأنيب ، اخذت اقفز فوقسطوره كىأصل الى الكلمة الحاسمة : نعم .. أم لا ..

كان الرد : لا .. انها ترفض الموافقة على الطلاق ، لأنها ما زالت تراه عملاً ضد الدين ! ..

كانت فونج قد استنتجت أن الخطاب من زوجتى ، هل أقول لها الحقيقة ؟.. لا اظننى استطيع .

ـ فونج ، ان الخطاب من زوجتى ، انها تفكر فى

الطلاق وتستشير محاميها . ومعنى ذلك ان هناك املا
وردت على فونج قائلة :
ـ هذا لا يهم على أى حال ، اننا نستطيع تنظيم
أمرنا بدون زواج ..
ـ كيف ؟
ـ ببوليصة تأمين على الحياة مثلا ..
هذا صوت أختها وتفكيرها الواقعى ، وقد اعجبنى
على أى حال مواجهتها للواقع العملى البسيط لضمان
مستقبلها ، وعدم لجوئها الى التعبيرات العاطفية العنيفة

ولكننى لم استرح تماما انما جلست أكتب خطابا
الى بيل ، خطابا أشكره فيه على أنه أنقذنى من نهاية
محزنة ، وأبلغه اننى عدت الى البيت ، واننى أسير الآن
متكئا على عصا . وفى الختام كتبت له أن زوجتى تفكر
فى الطلاق ، وان مستقبل فونج معى أصبح واضحا ..

***

عادت حيــــاتى تمضى فى روتينها العادى ، لولا ان
مساعدى الهندى « دومنجز » مرض فجأة .

ان « دومنجز » هندى الأصــــل ، كان يذهب الى
المؤتمرات الصحفية بدلا منى ، ويأخذ منى الرســائل
الصحفية ليعرضها على الرقابة ، ثم الى مكتب التلغراف.
كما كان يساعدنى على معرفة معلومات كثيرة ، يستطيع
هو أن يعرفها بسهولة لأنه آسيوى الاصــل ، ولأننا
تعودنا الا نستغل معلوماتنا استغلالا صحفيا رخيصا ،
والا ننقلها الى المخابرات الفرنسية ، فقد أصبح دومنجز
محل ثقة بعض رجال المقاومة الذين يعملون سرا فى
سايجون ..
وفى احدى زياراتى له أثناء مرضه طلب منى أن أذهب
الى صديق صينى له ، لأن لديه معلومات تهمنى ..

وبعد أن أعطانى عنوان صديقه هذا سألنى :
ـ ماذا تعرف عن بيل ؟
ـ لاشىء أكثر من انه يعمل فى جهاز المعونة الاقتصادية الامريكى . ولكنه خلف هذا الستار يقوم بأعمال أخرى فيما أظن. الظاهر انه ينشىء علاقات مع بعض الصناعات المحلية لحساب أمريكا٠٠اننى لا أحب أسلوب الامريكيين. يدفعون فرنسا الى القتال، بينما يستولون على أسواقها من الخلف ..
ـ لقد سمعته منذ اسابيع يتحدث فى حفلة مع بعض رجال الكونجرس الامريكى الزوار . كان يقول لهم ان انجلترا وفرنسا قوى استعمارية مكروهة فى آسيا ، أما أمريكا فهى ما زالت نظيفة اليد .
ـ ولم يذكر طبعا استعمار أمريكا فى هاواى وبورتوريكو ، ونيومكسيكو ؟ ..
ـ كان يقول ان على أمريكا أن تعثر على زعيم وطنى بعيد عن أى علاقات مع الاستعمار القديم ثم تتفاهم معه .. وتوجد معه قوة ثالثة بين الاستعمار الفرنسى والشيوعيين.. والظاهر انه عثر على هذا الزعيم المنشود
وذهبت الى العنوان أبحث عن « مستر شو » . كان على أن اسير طويلا فى الحى الوطنى بلافتاته الصينية وشوارعه الضيقة .. حتى وصلت الى دكان يزدحم بكل أنواع الخردة والمخلفات ، هذا هو دكان مستر شو، ولكن على أن أدخل من الباب الخلفى ، والظاهر أن الباب الخلفى كان يؤدى الى مسكنه ..
كان مستر شو جالسا بين اسرته يسعل بشدة .. رجل نحيف جدا ، له رئة واحدة ، يشرب الافيون بكثرة هائلة ، ولم أستطع أن أفهم منه شيئا ، حتى جاء مساعده الذى قدم نفسه الى باسم مستر «هنج» وقال

لى : أن ذاكرة مستر شو مفككة ، وانه سوف يروى لى كل شيء ..

وعاد بى مستر هنج الى دكان الخردوات ، وبين ركام الحديد الخردة كشف لى عن قالب يحمل اسم شركة امريكية ، وعلمت منه ان بيل يحضر البلاستيك ، وانه يساعد « الجنرال تى » الذى يقود احدى العصابات المسلحة على صنع المتفجرات بهذا البلاستيك والقائها فى سايجون ، بقصد احداث الفوضى والتشكيك فى الحكومة الموالية للفرنسيين فبذلك يمكن اسقاط هذه الحكومة ، واذا جاء « الجنرال تى » الى الحكم ، فهو يستطيع أن يتفاهم مع الامريكيين !

اذن فهذه هى القوة الثالثة التى يفكر فيها !

***

ليس من السهل أن تقابل لأول مرة الشخص الذى انقذ حياتك . وكثيرا ما فكرت أن أدعو بيل الى كأس من الويسكى أو الى العشاء ولكننى كنت أؤجل ذلك دائما ، حتى استيقظت يوما على صوت بيل يناديني باسمى ويطرق بابى ..

استيقظت على صوته ، وكنت أحلم به ! كنت أحلم بأننى ملقى فى حقول الارز ، ودمى ينزف وأنا أصيح فيه : ابتعد عنى ! لا أريدك أن تنقذنى ..

وسمعت همسا وراء الباب ، فونج وهو ، يتكلمان ، وعندما فتحت الباب فجأة ، كانا يقفان متقابلين وقد وضع يده على كتفها .. كأنهما كانا يبتعدان بعد قبلة طويلة !

وسألت فونج أين قابلته ، فقالت انها سمعت صوته وهو يطرق الباب فصعدت لتفتح له ..

وبعد أن جلس بيل ، قلت له : هل وصلك خطابى؟

ــ نعم .. وكنت أحب الا أتلقاه ، لمـاذا تلجأ الى الـكذب على ؟ لقد كنت اثق فيك ..

ــ ياصاحبى .. عندما يكون فى الموضـوع امرأة .. لا تثق فى أحد ، ولا تستبعد الـكذب ..

ــ ولكن .. ألم يكن فى استطاعتك أن تنتصر بدون كذب ؟

ــ كلا .. هذا موقف أوربا كلها ، وهو موقف ذو وجهين !.. ان علينا أن نعوض فقرنا فى الموارد ! ولكن كيف اكتشفت اننى اكذب ؟ ..

ــ اختها .. انها تعمل الآن مع جو ، وقد قال لها انهم استدعوك الى لندن ، وقد جاءت الى هنا بالامس فوجدت خطاب زوجتك وقرأته ، انها تعرف اللغـة الانجليزية ..

واتجهت الى فونج أسألها بالفرنسية :

ــ هل كنت تعرفين كل شيء منذ الامس ؟

ــ نعم ..

ــ ولكنك لم تثورى .. كنت هادئة كالعادة ..

ــ كنت أفكر فقط ..

وسألنى بيل :

ــ هل تستطيع أن تفسر لماذا فعلت هذا ؟

ــ لأحتفظ بها ..

ــ مهما كان الثمن بالنسبة لها ؟

ــ طبعا ..

ــ ليس هذا حبا على طريقتك ..

ــ أنا أريد أن أحميها ..

ــ انا لا ارى انها تحتـــاج الى حماية .. اننى اريدها أن تبقى معى ، وفى فراشى ..

ــ ولو ضد ارادتها ؟

ـ انها لا تبقى ضد ارادتها ..

كانت فونج قد انصرفت عنا ، واستلقت على السرير ، تتصفح بعض المجلات المصورة ، كأن حديثنا لا يعنيها ، وقال لى بيل :

ـ انها لن تحبك بعد ذلك ..

ـ الحب كلمة غريبة .. نستعملها لأسباب عاطفية ، او لكى نغطى بها اضطهادنا لامرأة واحدة ..

ـ لولا رجلك المكسورة .. لضربتك !

ـ اننى أدعو الله أن تعلم ماذا أنت صانع هنا . نعم ، انا أعرف ان دوافعك دائما طيبة ، ولكننى اتمنى أحيانا أن تعرف بعض الدوافع الشريرة فربما ساعدك هذا على أن تفهم البشر ..

ـ اننى أريد أن أعطيها بيتا محترما ..

ـ وثلاجة وسيارة وتليفزيون من أحدث طراز ..

ـ وأطفالا ..

ـ نعم .. مواطنين أمريكيين صغارا ..

ـ وماذا سوف تعطيها أنت ؟ انك لم تكن راغبا فى أخذها معك الى لندن ..

ـ نعم .. فأنا لست قاسيا الى هذا الحد ، اننى لن آخذها الا اذا ضمنت لها تذكرة عودة ، انها مخلوق انسانى يا بيل .. وتستطيع أن تقرر ..

وصاح بيل : فونج ..

ورفعت رأسها اليه ، بينما استطرد يقول : انه يخدعك !

قالها بالانجليزية التى لا تفهمها ، فردت عليه بالفرنسية :

ـ لست أفهم ..

وصحت فيه : بيل ، انت تعرف الآن كل ما تريد

أن تعرفه ، فاخرج من هنا ! اذهب الى قوتك الثالثة ، الى مؤلفات يورك هاردنج ، اذهب بعيدا عنى والعب بالبلاستيك الذى تحضره ..

ـ لست أفهم ! ..

***

اعتقد اننى قد تلقيت جزائى ، فان بيل ، عندما ترك شقتى ، قد حكم على بالقلق لأسابيع كثيرة ، كل مرة أعود فيها الى البيت ، اتوقع ألا أجدها ، وكل مرة تخرج هى فيها اتوقع ألا تعود ، وعندما تعود أسألها : « محاولا أن أخفى قلقى » اين كانت ؟ فتقول : « فى السوق » وتظهر لى ما اشترته ، أو فى السـينما ، وتطلعنى على التذاكر ، أو عند أختها ـ حيث اعتقد انها تقابل بيل ..

أما هى فلم تتغير ، ظلت تطبخ لى ، وتملأ لى الغليون ، وتمنحنى جسدها فى رقة من أجل متعتى ، ولقد اقبلت فى تلك الايام على جسدها بشراهة ، ولكن متعتى ذهبت! كنت أقبل عليها بشراهة كأننى اكرهها ، ولـكننى فى الواقع كنت اكره المستقبل ، كانت الوحدة تتمدد الى جوارى فى الفراش ، وفى الليل لم أكن أضم بين ذراعى سوى الوحدة ! ..

وبدأت ـ دون أن أشعر ـ أكره كل ما هو أمريكى . أصبحت أحاديثى مع الناس مليئة بالاحكام .. برداءة الادب الامريكى ، وفضائح السياسة الامريكية ، وحيوانية الاطفال الامريكيين ، كأن من يريد أن يأخذ فونج منى دولة .. لا رجل ! ..

وفى احدى المرات ، خرجت فونج ولم تعد . وعندما فتحت دولابها وجدت انها قد أخذت كل ملابسها ..

اننا لا نشعر بالألم عادة فى لحظة الصدمة ، ولكن المى

بدأ عندما شرعت أرسم خطة لحياتى التىعلى أنأعيشها
تركت العمل فى يد مساعدى دومنجز وسافرت الى الشمال. كان لى اصدقاء فى قاعدة الطيران فى «هايبونج» وكنت محتاجا الى هذا السفر لأنسى ..

وهناك كان ممكنا ان أركب الطـــائرات فى غاراتها الجوية . ان الغارات فى هذه الحرب مأمونة جدا ، تماما مثل ركوب اى سيارة عامة ، فالطائرة تطير على ارتفاع لا تبلغه المدافع الارضية .. والعدو لايملك سلاح طيران .. انها رحلة تلقى فيها الطائرة قنابلها وتعود ببساطة ، تقوم فى موعد محدد وتلقى قنابلها فى موعد محدد وتعود فى موعد محدد ..

ولكن صديقى الطيار «تروين» دعانى مرة الى مصاحبته فى غارة من نوع آخر . الغارة هـــذه المرة تحتاج الى الانقضاض بالطائرة على قرية انسحب منها الفرنسيون، واطلاق المدافع الرشاشة على الارض ..

وفى الطائرة الصغيرة جلست خلف الطيار مباشرة ، فى مقعد صغير يكاد يشبه مقعد الدراجة ..

وعبرنا النهر الاحمر . كان فى تلك اللحظة من الغروب أحمر حقا ، من انعكاس الشمس ، فلا شك انه كان هكذا عندما رآه أول من سماه بالنهر الاحمر ، وكان النهر الاسود أسود حقا بالظلال الكثيفة التى تغطيه ، ثم سهول شاسعة من حقول الارز .. فلو هبطت هنا فرقة كاملة لما ظهرت اكثر مما تظهر قطعة من العملة فى حقل من القمح ..

ونظر الى الكابتن تروين وغمز بعينيه ، فقد وصلنا الى القرية ، ورأينا قمة القلعة ، والآن سوف ننقض. وهبطت الطائرة بأنفها هبوطا ساحقا ، وبسرعة هائلة لدرجة اننى لم أعد أرى شيئا ، انما أصبحت احس

فقط كأن امعائى مضطربة لأول تجربة ، وكأن شيئا ثقيلا يضغط على صدرى فى عنف .. فلم أشعر باللحظة التى سقطت فيها القنابل، انما سمعت صوت المدافع الرشاشة تنطلق ، ثم انزاح الشىء الثقيل عن صدرى فجأة ، ونحن نصعد الى السماء الآمنة .

كل هذا تم فى أربعين ثانية.. أربعين ثانية اختفى فيها « بيل » من مخيلتى . وعندما نظرت الى الارض كان الدخان يصعد الى السماء بسرعة كأنه يشير الينا ..

وتكررت العملية مرة أخرى .. وازبع عشرة مرة ..

وفى عودتنا ، قال لى الكابتن : اننا سنرى مناطق جميلة جدا فى طبيعتها ، ساعة الغروب .

وفى تلك الليلة صمم تروين أن يستضيفنى فى «بيت الافيون » رغم انه لايدخن .. بيت فيه الكئوس ، والجنود ، ودخان الافيون ، والمومسات ..

كأن تروين كان يريد أن يقول لى شيئا ، أو يبرر لى ما رأيت ، واخيرا قال لى :

ــ مهمة الليلة لابأس بها . كان الخطر موجودا بالنسبة لنا وبالنسبة للعدو على السواء . أما ما احتقره ، فهو القاء قنابل النابالم الحارقة وانا على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم فى أمان مطلق !.. انك لم تر منظر غابة تحترق بهذه القنابل !.. والله وحده يعلم كيف يكون منظرها على الارض.. ان هؤلاء المساكين الملاعين يحترقون أحياء ، النار تتدفق عليهم كما تتدفق الماء فتغرق كل شىء ..

وتغيرت سحنته اذ كسته مسحة من الكراهية للعالم كله .. وقال لى :

ــ اننى أحسدك على انك تعرف كيف تتخلص من هذا كله . ولا تتورط مثلنا .. ولكنك سوف تتورط

يوما ، لن تستطيع أن تظل هكذا بعيدا دون أن تأخذ أى جانب .. لن تستطيع أن تبقى هكذا زمنا طويلا!..

ثم استطرد قائلا :

ــ عندما ألقيت قنابل النابالم لأول مرة ، ألقيتها على قرية نشأت فيها ، وأخذت أفكر : هذه القرية التى تحترق هى التى ولدت فيها ومسيو ديبوا صديق والدى ما زال يعيش فيها ، الخباز ــ الذى كنت أحبه وأنا طفل ــ يجرى الآن هنا وهناك واللهب يطارده ..

ــ ولكنك ما زلت تقذف القنابل ..

ــ نعم .. هذه مجرد حالات كئيبة تستولى على بعد كل غارة بالنابالم . اننا محترفون ، علينا أن نواصل الحرب بالنابالم حتى يقول لنا الساسة كفى ..

كان وجه تروين قد أصبح غريبا عنه ، كأنه قناع ممسوخ كالذى يلبسه الاطفال ويحدقون من خلال فتحاته ..

***

كانت عودتى الى سايجون ، والى شقتى فى شارع كاتينات ، أليمة للغاية . هذه أول مرة أعود ولا أجدها فى انتظارى ، ولكم وددت أن أقول لسائق التاكسى أن يدور مرة أخرى حتى أؤجل عودتى الى البيت . وما أبطأ ما صعدت السلم !.. وعندما اقتربت من الباب سمعت صوت مقعد فى الداخل.. انه المقعد الكبير الذى كانت تجلس فيه ..

وفتحت الباب ، كان فى انتظارى هذه المرة بيل ..

قال : انه علم اننى ذهبت اليه مرة أخرى فى السفارة فجاء يتحدث معى ..

وسألته مباشرة عن فونج وكيف حالها ؟ كنت استمع اليه وأنا أفتح البريد الذى ينتظرني .. وعلي رأسه

رسالة من جريدتى : انهم بمناسبة تحرج الاحوال فى الهند الصينية وتراجع الفرنسيين يوافقون على أن ابقى هنا سنة أخرى !

وسألت بيل :

ـ هل تزوجت أنت وفونج ؟..

ـ كلا .. سنتزوج عندما آخذ اجازة فى امريكا وسألنى : هل سنبقى أصدقاء ؟..

فقلت له : انه لامانع عندى ، بشرط الا أرى فونج ، فان فى هذه الشقة ما يكفينى من الاشياء التى تذكرنى بها ، الأمر الذى يجعلنى أبحث عن شقة أخرى أنتقل اليها ..

وعندما هم بالانصراف لم أتمالك من أن أقول له :

ـ خذ نصيحة منا نحن الاستعماريين القدماء ، ان هذه القوة الثالثة التى تبحث عنها لعب بالنار !.. ان « الجنرال تى » ليس زعيما وطنيا ، انه زعيم عصابة تتكون من بضعة آلاف فحسب ..

وتظاهر بيل بأنه لايفهم ماذا أعنى. فقلت له بصراحة اكثر :

ـ البلاستيك الذى تحضره ، والقنابل الموضوعة فى الدراجات . « تى » ليس النوع الذى يحول دون الشيوعية فى آسيا !..

ـ ظننت انك لا تأخذ جانبا فى أى معركة ..

ـ نعم .. ولكننى عندما أجد انسانا يحول كل شيء حوله الى فوضى ، فاننى أنصحه . اترك هذه الاعمال للملحق الاقتصادى جو . انها نكتة سخيفة وان كانت قد تسببت فى قطع ساق أحد الناس . أما انت فخذ فونج وعد الى بلادك ، وانس هذه القوة الثالثة ..

ورد علي فى تحفظ :

ـ شكرا على آرائك ..
ثم مضى !..

***

كنت راغبا بالفعل فى ان إنتقل من شقتى . كنت لا أكف عن رؤية الشقق الجديدة . فاذا تعبت ذهبت الى مقهى أوربى قريب أستريح فيه . كنت أفضل هذا المقهى ، فهو مكان لايمكن أن أقابل فيه فونج . اننى أعرف تماما أماكنها المفضلة والمواعيد التى توجد فيها ، وهى انسانة لا تحب أن تغير عاداتها ..

فى ذلك اليوم لم يكن فى المقهى سوى فتاتين كل ما فيهما ينطق بأنهما أمريكيتان : الحقيبة المعلقة على الكتف ، السيقان الطويلة النحيفة ، الاهتمام الذى يأكلان به الآيس كريم . كانتا جميلتين ، وكنت أريد لهما أن تعودا الى وطنهما أيضا ..

وفجأة نظرت احداهما الى ساعتها وقالت : يجب أن ننصرف الآن .. « وارين » قال لنا أن ننصرف قبل الحادية عشرة .

ـ صحيح .. ولو اننى كنت أفضل أن ابقى لأتفرج ، ترى ماذا سيحدث ؟.. مظاهرات ؟

ـ لا أظن .. لقد رأينا مظاهرات كثيرة ..

وانصرفت الفتاتان ، وهما تنظران الى نفسيهما فى المرآة الكبيرة التى تملأ حائط المقهى ، وبعد أن انصرفتا بقليل كانت هذه المرآة تنفجر وتتناثر والمقاعد تطير .. والدخان يتصاعد من الطريق مع الصرخات وصوت الانفجارات ..

وخرجت مسرعا لأرى أكواما من القتلى والجرحى والدماء ، والبوليس قد حاصر المكان ، وعند خروجى الى الشارع وقع بصرى على محل اللبن الواقع فى نهاية

الشارع . ان الدخان يتصاعد منه ايضا ، ان فونج تذهب اليه فى هذه الساعة دائما ..

وقررت أن أقتحم حصار البوليس لأذهب اليها ؛ ولكن عبثا ، البوليس يرفض ، وبطاقتى الصحفية ليست معى ..

وعدت الى المقهى المحطمة ، وفجأة وجدت نفسى وجها لوجه أمام بيل ، وصحت فيه :

ـ هل معك بطاقة نمر بها ؟.. ان فونج فى محل اللبن ، يجب أن نبحث عنها ..

ـ كلا .. ليست هناك ..

ـ بل انها هناك .. انا أعرف مواعيدها ..

وهز بيل كتفيه : كلا .. لقد نبهت عليها أن تترك المكان وتعود الى البيت قبل الحادية عشرة ..

ـ نبهت عليها ؟..

اخترقت هذه الكلمة راسى ، كأنها طلقة رصاص ..

والفتاتان الامريكيتان قالتا ان من يدعى « وارين » اخبرهما بأن يتركا المكان قبل الحادية عشرة !.. فلا يجب أن تقع ضحايا أمريكية ! ولكن هؤلاء القتلى والجرحى .. هؤلاء النساء والاطفال لم ينبههم احد !.. ليسوا من الاهمية بحيث ينبه عليهم أحد ..

وقبضت على كتف بيل فى عنف وغيظ وصحت فيه :

ـ هل رأيت ماذا يصنع البلاستيك فى الايدى الخطأ ؟.. الا تعرفون أن هذه الساعة هى ساعة الشراء وازدحام المكان بالنساء والاطفال ؟.. هل كنت تظن ان « الجنرال تى » سيختار ساعة غير هذه لكى يحدث أكبر ضجة ممكنة ؟.. ها انت قد جعلت الجنرال تى شهيرا ! هذه هى القوة الثالثة الوطنية التى تصنعها !..

وابيض وجه بيل تماما .. وبدا كأنه على وشك أن

يغمى عليه ..
وتركت كتفه .. كنت افكر : ما الفائدة ؟ انه دائما ساذج برىء !.. انك لا تستطيع أن تلوم البرىء على ذنب يقترفه !.. ان البراءة هنا نوع من الجنون !..

***

مر أسبوعان على مقتل « بيل » قبل أن التقى مرة اخرى بضابط البوليس الفرنسى فيجوت .. كنت مارا بالنادى الواقع فى شارع شارنيه عندما رأيته جالسا ، فدعانى الى كأس من الشراب ..
وبعد أن تحدثنا قليلا ، قال لى :
ـ لقد عثرنا على كلب بيل ..
ـ حقا ؟
ـ نعم .. كان مقتولا أيضا على بعد خمسين ياردة تقريبا من المكان الذى وجدنا فيه جثة بيل ..
ـ أما زلت مهتما بالموضوع ؟..
ـ الوزير الامريكى المفوض لايكف عن السؤال والالحاح .. من حسن الحظ اننا لا نتعب هذا التعب عندما يقتل رجل فرنسى !..
وقال لى فيجوت انه يحب أن يزورنى فى البيت لنتحدث بصراحة ، واتفقنا على أن انتظره فى العاشرة مساء ..
وسألته وأنا انهض :
ـ أما زلت تشك فى اننى مشترك فى مصرعه ؟
ـ أنا أريد أن أتحدث معك .. هذا كل شىء ..
من يدرى ؟ ربما كان فيجوت يظن اننى قتلته بسبب الغيرة !.. انه يسألنى عما اذا كانت فونج قد عادت الى مرة أخرى بعد مصرع بيل ؟
وفى الليل ، أعطيت فونج نقودا لتذهب مع اختها الى

السينما حتى لا تكون موجودة ، وفى العاشرة تماما جاء فيجوت .

كان أول سؤال ألقاه على هو :

ـ لقد قلت لى انك لم تر بيل يوم مقتله.. ولكننى اكتشفت انك قابلته !..

واخذ يسرد لى الأدلة على ذلك ، من المواعيد التى ذكرتها له ، الى تحليل أظافر الكلب ، وكان بها أسمنت مبلل ، وفىمدخل بيتى أعمال بناء تملأ الارض بالاسمنت المبلل ، الى اعتقاده بأننى رغم عدم اهتمامى بشىء ، فاننى فى لحظة عاطفية ، يمكن أن أتخذ جانبا ..

ولكننى أخذت اسخر من أدلته ، وكان هو نفسه يشعر بأنها اقل من ان تدين احدا ، فانصرف راجيا منى أن اعتبر المسألة منتهية ، مؤكدا انه لن يزعجنى بهذا الشأن مرة أخرى ..

ولما أصبحت وحيدا فى غرفتى ، وقد تأكدت ان ملف حادث القتل قد أغلق الى الأبد ، وجدت فىنفسى الشجاعة أن أعترف لنفسى بأننى كذبت على الضابط ، واننى قد رأيت بيل ليلة مصرعه ! ..

فبعد أن شاهدت حادث الانفجار الرهيب ، ودماء القتلى والجرحى .. بعد أن رأيت هـذه الدماء تلوث حذاء بيل ، ورأيته يقول فى بساطة : يجب أن أمسح حذائى قبل أن أذهب لمقابلة وزيرنا المفوض ..

بعد هذه اللحظات التى رأيت فيها ماذا يصنع بيل.. ذهبت فورا الى الحى الوطنى ، ثم الى دكان «الخردة» بالذات ، أبحث عن مستر هنج .

كان قد علم بحادث الانفجار الرهيب ، ورويت له ماذا رأيت بالضبط . وقلت له : انه «بيل» المسئول عن هذا الحادث أيضا .. وانه لايجب ترك ولد من بوسطن

يلعب بالمتفجرات على هذا النحو ..

وسألنى هنج : لماذا لا تبلغ معلوماتك الى البوليس ؟

فقلت له : ان البوليس لن يتعرض للجنـــرال تى وعصابته .. ولن يتعرض بالطبع لمواطن أمريكى ..

وأطرق مستر هنج طويلا ، ثم رفع رأسه وقال لى فى خطورة : هل تستطيع أن تدعو مستر بيل ليتعشى معك الليلة ، فى مطعم الطاحونة القديمة ، بين التاسعة والعاشرة ؟..

ــ وما الفائدة ؟..

ــ سوف نقابله فى طريقه الى المطعم ، ونتكلم معه..

ــ ولماذا مطعم الطاحونة القديمة بالذات ؟

ــ انه بجوار كوبرى داكو .. وفى هـــذه المنطقة نستطيع ان نلتقى به ليلا دون أن يزعجنا احد ..

وسكتنا فترة . وسمعت أصواتا تتهامس خلف أحد الأبواب .. فلا شك ان مستر هنج كان يعقد اجتماعا مع رفاقه ..

وقطع مستر هنج السكوت قائلا :

ــ هل تصنع هذا من أجلنا .. يامستر فولر ؟..

وواصلت سكوتى ، كنت أفكر فيما أنا مقدم عليه . وذكرت كلمة الطيار تروين لى : « ان الانسان لابد فى النهاية أن ينضم الى جانب ، اذا اراد أن يكون مخلصا لآدميته » .

وانصرفت من عند هنج ..

ومررت بالسفارة الامريكية حيث تركت ورقة لبيل أطلب منه أن يمر على فى البيت ..

وجاءنى بيل فى البيت فرحا . كان مبعث سروره ان دعوتى له معناها اننى لست غاضبا عليه بعد الكلام العنيف الذى وجهته اليه بعد الانفجار ..

قال لى انه قابل الجنرال تى ..
ـ وهل قطعت صلتك به ؟..
ـ كلا .. اكتفيت بتأنيبه لأنه لم يحسن اختيار موعد الانفجار .. انني لا أستطيع أن اقطع علاقتي به ، فلو انه وصل الى الحكم لأمكننا الاعتماد عليه ..
ـ وكم من النـاس يجب أن يقتلوا هكذا .. حتى يصل جنرالك هذا الى الحكم ؟..
ولم تكن هناك فائدة من المناقشة ، فقلت له :
ـ انني مشغول الان .. فهل تأتي لتتعشى معي الليلة فيمطعم الطاحونة القديمة ، بينالتاسعة والعاشرة مساء ؟
ووافق بيل على الموعد ، وفجأة بدات اتردد . لقد قال لى هنج انهم سيقابلونه عند الكوبرى ويتفاهمون معه . انه لم يقل لى شيئا عن طريقة التفاهم . ولكن التفاهم فى الحرب ليس له الا طريقة واحدة : كل واحد يستعمل السلاح الذى فى يده . الفرنسى يستعمل قنبلة « نابالم » ومستر هنج يستعمل مسدسا أو سكينا ..
وفكرت أن أعود فأحذر بيل ، ووجدت نفسى أسأله :
ـ هل تحمل سلاحا ؟..
ـ كلا ..
ـ ولا فى الليل ؟..
ـ انه لن ينفعنى .. فلو شـاء أحد قتلى فسوف يستطيع ذلك بأى شكل ..
واقترحت عليه أن نلغى موعد العشاء ، ولكنه تمسك به. قال انه يريد أن تعود صداقتنا التيفسدت منذ..
واكملت له : منذ أنقذت حياتي !..
ـ كلا.. لا أقصد هذا . ولكننيآخذ عليك اسرافك فى الحياد . لقد كسرت رجلك ومع ذلك تريد أن تظل غير منحاز الى اى جانب ..

قلت له هامسا : من يدرى ؟.. ربما انحاز فى لحظة انفعال !..

وتهيأ بيل للانصراف ، وقال انه يرجو الا يعطله السفير عن الحضور ، وكأننى أردت أن أمنحه فرصة للنجاة ، فقلت له :

ـ لايهم .. اذا تعطلت فلا تأت الى المطعم ، على أن تزورنى بعد ذلك فى البيت .

وبمجرد انصرافه ، أسرعت الى أقرب دار سينما ، كنت محتاجا الى اى شىء يشغلنى عن نفسى ويمنعنى من التفكير ، وكان الفيلم حول شاب قتل عدوا وأنقذ فتاة وعاش فى التبات والنبات ..

وخرجت من السينما وقد جاء الليل ، فذهبت الى مطعم الطاحونة القديمة ، واخذت مائدة بعيدة بجوار النافذة ..

وبغير قصد منى كانت أذنى تتسمع الى الخارج فى اضطراب متوقعا فى اى لحظة أن أسمع صرخة ، أو طلقة ، أو صوت سيارة بوليس ..

ولأول مرة فى ذلك اليوم فكرت فى فونج .. لماذا .. فهى لن تذهب الى أمريكا ولن ترى ناطحات السحاب !

وعندما أصبحت الساعة العاشرة ولم يأت بيل .. أدركت ان كل شىء قد انتهى ، وعدت الى البيت ، لأجد فونج رائحة غادية فى الطريق فى انتظاره فصحبتها الى شقتى ..

***

عادت فونج من السينما فى ساعة متأخرة ، بعد أن انصرف فيجوت بزمن ..

وتمددت فى فراشى ، بينما جلست هى على مقعد واخذت تروى قصة الفيلم كالعادة بانفعال ..

وقالت لى فونج فجأة : انك لم تفتح بريدك الليلة ؟

قلت لها : نعم .. أنا لا أستطيع ان أفكر فى عملى هذه الليلة .. استمرى فى حكاية الفيلم ..

واستمرت تروى .. ومللت الحكاية ، فقمت الى البريد أفتحه ، ما دام النوم ما زال هاربا منى ..

كان فيه خطاب من زوجتى تقول انها غيرت رأيها ، وانها توافق على الطلاق ..

وصاحت فونج تطلب منى أن أستمع اليها وهى تروى لى نهاية الفيلم السـعيدة .. فجذبتها من ذراعها ، وقلت لها : هذا الخطاب ، فيه نهاية سعيدة لقصتك !

فن الكذب السياسى

العلاقات بين الدول : حرب أو سلام ... فى ساحة الحرب يقاتل الجنود ، وفى ساحة السلم يقاتل الدبلوماسيون .

ونحن نعرف عن الدبلوماسية الآن انها سفارات وموائد مستديرة ومؤتمرات .

وعن الدبلوماسيين انهم قوم مدللون يمتازون بشتى أنواع الحصانات .. ويقترنون فى أذهاننا عادة باللباقة والرشاقة وثياب السهرة وحفلات الكوكتيل والياقات المنشاة !

ولكن الدبلوماسية لم تكن كذلك على الدوام .

كان الدبلوماسى فى الزمان القديم فدائيا ، اذا ذهب فى مهمة فقد يعود وقد لايعود !.. كان السفير الاجنبى يعامل على انه جاسوس .. وقد يتعرض فى أية لحظة لطعنة خنجر أو لكمين فى الطريق !

كانت التقاليد فى روما القديمة تقضى بأن يبقى السفير الاجنبى عند أبواب المدينة حتى يقرر مجلس الشيوخ قبوله كسفير .. أو معاملته كجاسوس !..

وكانت جمهورية البندقية تحتم على من تبعث به سفيرا ألا يأخذ معه زوجته ، حتى لا تثرثر فى البلاد الاجنبية بالأسرار ، وأن يأخذ معه طباخا خاصا حتى

لايدس له أحد السم فى الطعام !..

وفى انجلترا ، على عهد كرومويل سنة ١٦٢٣ ، كان عضو البرلمان اذا «ضبط» وهو يتحدث مع اى سفير اجنبى ، فقد مقعده فى الحال !..

وفى موسكو ، سنة ١٦٢٣ ، كان القياصرة يخصصون قلعة ينزل فيها السفراء الاجانب .. كأسرى حرب !..

وفى اليونان القديمةكانت توجدجريمة اسمها «جريمة السفارة الفاشلة» تشبه الخيانة العظمى.. السفير الذى يفشل فى المهمة التى أرسل من أجلها يحاكم ويحكم عليه بأحكام مختلفة تصل الى الاعدام !..

ولاشك ان ذلك كله كان مرجعه الى الروح القبلية المتعصبة التى كانت سائدة بين الدول .. كل دولة تنظر الى الاخرى نظرة احتقار وكراهية وعداء . وفى هـذا الجو الرهيب كان على الدبلوماسيين أن يعملوا .. حتى تتغير الظروف ، وتتبدل النظرة ، ويصبح الاصل فى العلاقات بين الشعوب الأخاء والمساواة ..

وكتاب « تطور الاسلوب الدبلوماسى » يعرض علينا قصة هذا التطور فى سلسلة خلابة من النوادر والحكايات والتعليقات .

أما مؤلفه ، هارولد نيكولسون ، فهو كاتب صحفى انجليزى ودبلوماسى قديم ..

ويقول نيكولسون : ان الدبلوماسية ترجع الى فجر التاريخ .. وان أول مهمة دبلوماسية كانت ولاشك عندما بدأ سكان الغابات البدائيون يتفاهمون على أن تكون لكل جماعة منهم منطقة معينة يصطاد فيها ويبحث عن الطعام .

ولكن المؤلف لايشير ولو بكلمة واحـدة الى تاريخ الدبلوماسية فى الحضارات الاولى .. المصرية والصينية

وغيرهما .. بل يذهب مباشرة الى اليونان ، سنة ٨٠٠ فقط قبل الميلاد .. فينقل عن «هوميروس» قصة خطف هيلانة من زوجها الملك وأسرها فى طروادة ، وكيف ان «منلاوس» و « أوديسيوس » ذهبا فى «سفارة» سلمية الى طروادة يطلبان اعادة هيلانة الى زوجها.. ودخل السفيران فى القاعة التى يجتمع فيها المجلس النيابى.. والقى كل منهما خطبة طويلة.. ولكن العضو «انتيماخوس» كان قد جمع حوله اغلبية من الاعضاء رفضت تسليم هيلانة ، فقامت الحروب الدامية المعروفة ..

ويستنتج المؤلف من ذلك : ان البعثات الدبلوماسية كانت فى ذلك الوقت تقابل المجالس النيابية لا الحكام . وان أسلوب المباحثات كان علنيا يتم بواسطة القاء خطب عامة .

وفى مكان آخر من ملحمـــة هوميروس ، نقرأ أن « ايلوس» طلب من أوديسيوس سما ليغمس فيه سهامه قبل المعركة ، فثار أوديسيوس عليه .. الأمر الذى يجعلنا نعتقد ان اتفاقيات جنيف الحديثة التى تحرم استعمال أسلحة معينة كالرصـــاص السام والغازات السامة ، كان لها نظير فى ذلك الوقت ، وان الدعوة الى تحريم استخدام الاسلحة الذرية تنبع من ضمير انسانى عمره ٢٧٠٠ سنة على الاقل !..

كانت اليونان فى ذلك الوقت تتكون من أكثر من دولة .. ولم يكن التمثيل الدبلوماسى الدائم معروفا بين تلك الدول بل كانت الدولة لا ترسل بعثة الى دولة أخرى الا فى مهمة معينة فحسب ..

أما « اثينا » فقد كانت جمهورية ديمقراطية ، يحكمها مجلس نيابى تتركز فيه جميع السلطات ، وتمثل فيه مختلف التيارات والاحزاب ، فاذا جاء اليها سفير اجنبى

كان عليه أن يتقدم الى المجلس ، وان يخطب امامه .. ومعنى ذلك ان اية مباحثات مع دولة أجنبية كانت تجرى علنا ، على مرأى ومسمع من الشعب الآثينى كله . وان الاتفاق الذى يبرم كانت توافق عليه الاحزاب كلها ، أو اغلبيتها على الاقل .. فاذا أرسلت اثينا بعثة دبلوماسية الى بلد آخر ، كان لابد أن تتكون البعثة من أكثر من عضو بحيث تمثل مختلف الاحزاب ، وربما ضمت البعثة الواحدة أعضاء متنابذين متنافرين .. ففى البعثة التى ارسلتها اثينا الى فيليب ملك مقدونيا كان «ديموستين» لايأكل مع زملائه فى السفارة ولا يصافحهم ولا يبيت معهم فى مكان واحد ..

وفى الناحية الاخرى كانت توجد دولة مقدونيا ، يحكمها الملك فيليب حكما فرديا .. فهو الذى يختار السفراء ، وهو الذى يعقد المعاهدات ، ولذلك كان أغلب معاهداته سرية ..

وقد وقع الصدام بين الدولتين ، وبينما كان نواب اثينا يتتابعون على المنبر ولا ينتهون من الجدال ، كانت جيوش فيليب تزحف عليهم ، وتدمر بلادهم ، وتطلب راس اكثر خطبائهم فصاحة وهو : ديموستين !..

ويقف نيكولسون مقارنا بين الدبلوماسيتين: الدبلوماسية فى بلد دكتاتورى والتى تتميز بالسرعة والكتمان والحسم، والدبلوماسية فى بلد ديمقراطى وتتميز بالبطء والعلانية والجدل .

على ان انتصار مقدونيا على اثينا لا يجب أن يكون دليلا على صلاحية الدبلوماسية الاولى ..

فانتصار مقدونيا كان انتصارا عسكريا لا سياسيا ، وليست القوة دائما فى جانب الفضيلة أو الحق ..

ثم ان لدينا تجربة أخرى حديثة أصلح للقياس ،

أشار اليها نيكولسون ايضا اشارة عابرة : يوم وقفت المانيا النازية فى وجه دول غرب أوربا الديمقراطية وعلى راسها انجلترا ..

كانت أمور المانيا كلها فى يد رجل واحد هو هتلر ، هو الذى يختار الحرب أو السلم ، يعقد المعاهدات أو يمزقها ، ينفق الميزانية على التعمير أو على التسليح . وكان من حقه أن يبقى المعاهدات سرية أو أن يفاجىء العالم بعقدها ، لأن طبيعة النظام كانت تعفيه من رقابة الناس عليه .. وعلى هـــذا كان هتلر يفاجىء العالم بمعاهدات معقودة فعلا ، أو بالغاء معاهدات أخرى ، وكان يفاجىء الدول باعلان الحرب وبالغزو الفعلى ، فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل مثلا كما فعل فى بولندا

وعلى العكس من ذلك كانت بلد كانجلترا ..

لا تستطيع الحكومة أن تزيد ميزانية التسليح الا بعد أن تعرض الأمر على البرلمان، وتنشر الأرقام فى الصحف، ويتحدث المؤيدون والمعارضون ..

ومعنى ذلك ان كل شىء لابد أن يتم علنا وفى تؤدة ، بحيث يعرفه العالم كله ــ بما فيهم الأعداء ــ قبل أن يتم

تماما كما نرى الآن فى مسألة مثل تسليح المانيا : عرض الأمر على كل حزب من الاحزاب ، واحتدم الخلاف فى داخل كل حزب ، قبل أن تقرر انجلترا نهائيـــا قبول مبدأ تسليح المانيا ..

ولكن هذا الاسلوب لم يمنع انجلترا من أن تكون فى مستوى الموقف ازاء هتلر ، ولم يمنعها من احتـــمال بعض الهزائم قبل أن تحرز النصر الاخير .

لم تتكرر فى لنـــدن مأســاة اثينا الديمقراطية ، ولم ينتصر هتلر كما انتصر فيليب ، لأن الديمقراطيـــة قد نضجت خلال عشرات القرون حتى وصلت الى تحقيق

مبدأ هام لم يكن موجودا فى اثينا هو : الفصــل بين السلطات ..

كانت السلطات كلها فى اثينا مركزة فى المجلس النيابى، وهو الذى يستقبل السفراء !..

اما الآن فالديمقراطية تقوم أساسا على ثلاث سلطات مستقلة : السلطة التشريعية فقط يملكها المجلس النيابى، والسلطة التنفيذية تملكها الحكومة ، والسلطة القضائية يملكها القضاء .

هذا الفصل بين السلطات يخلق نوعا من التوازن بين ضرورة الاستناد الى رأى الناس فى ابرام كل أمر خطير وبين ضرورة الحسم والبت والسرية خــلال مرحــلة التنفيذ ..

وكما كانت اثينا ترسل بعثاتها السياسية من أكثر من حزب .. ذهب تشرشل الى مؤتمر بوتسدام بعد الحرب ومعه اتلى ، زعيم الحزب المعارض لأن انجلترا كانت على وشك معركة انتخابية قد تأتى بهذا الحزب المعارض الى الحكم .

وقد كانت اليونان تعرف الــكثير من اصـــطلاحات و « مراكز » القانون الدولى المعروفة الآن ..

كانت تعرف الحياد ، والتحكيم بين الدول ، وكانوا يختارون للتحكيم بين الدولتين المتنازعتين رجلا مشهورا فى دولة ثالثة ، كأستاذ فى الفلسفة أو بطـــل فائز فى الالعاب الاولمبية مثلا !..

ثم جاء الشرق ! !..

والى الشرق يعزو المؤلف كل ما تعرفه الدبلوماسية الآن من مظاهر وشكليات ونفـــاق ومجاملات .. لأنه يعتقد ان هذه الصفات كلها شرقية أصيلة !..

ويعزز كلامه هذا بأن اباطرة القسطنطينية هم الذين

اقاموا لاول مرة قصورا فاخرة لاستضافة السفراء .. ووضعوا تقاليد تقضى باقامة الحفلات الباذخة لاستقبال السفراء بقصد التأثير فيهم واقناعهم بعظمة الدولة التى جاءوا اليها !.. وانهم أنشأوا ما يمكن أن يوصف بأنه أول ادارة مستقلة للبروتوكول.. بل ان الامبراطور كان يصل فى مبالغته فى التأثير على السفراء الى حد انه كان يضع أسودا حية على درجات عرشه ، تزأر من حين الى آخر حتى تبث الرعب فى قلب السفير .. وهو جالس مطمئن لأنه يعرف انها مربوطة بسلاسل خفية من حديد!

ولاشك ان هذا كلام فارغ !..

ولا اقول انه كلام فارغ دفاعا عن الشرق أو تبرئة له من المداهنة والنفاق ! ولكن الواقع ان هذه الشكليات ترعرعت خلال تاريخ طويل فى غرب أوربا بالذات ، وكتب التاريخ ملأى بقصص المبـــارزات التى كانت تقع بين سفيرين لاختلافهما حول أيهما يتقدم الآخر فى الطريق..

فقد كان كل مؤتمر دولى يسبقه خلاف عنيف حول اى المندوبين يدخل باب قاعة الاجتماع قبل الآخر .. حتى تقرر مرة أن يعقد الاجتماع فى قاعة لها ثلاثة أبواب ليدخل كل مندوب من باب فى وقت واحد !..

وخلاف آخر حول من يجلس على راس المائدة ومن يجلس على الجانبين .. فلم ينته الخلاف الا بأن اصبحت كل موائد المؤتمرات مســـتديرة ، ليس لها راس ولا جوانب !..

بل لقد حدث سنة ١٧٦٨ ، فى مؤتمر عقد فى لندن ، ان غضب السفير الفرنسى عندما وجد سفيرى النمسا وروسيا يجلسان متجاورين فقـــام ، وتســـلق ظهر مقعديهما ، وحشر نفسه بينهما ، حتى يصبح متقدما فى الترتيب على سفير النمسا .. واشتبك الاثنان فى معركة

انتهت باصابتهما بجروح بالغة !..

والدبلوماسيةخلال القرون الوسطى كلها كانت تجرى على هذا المنوال .. ولكننا نلمح خلالها عقلا جبارا هو : مكيافيللى ، الذى كانت له فى فن السياسة فلسفة ..

وفلسفة مكيافيللى تتلخص فى جملة واحدة هى ان « لا اخلاق فى السياسة ! » وان السياسى يجب الا يرعى فى سبيل تحقيق غايته أى اعتبار آخر .. وان مصلحة الدولة العليا تعفى من كل قيد أو التزام ..

أى ان العلاقات بين الدول لا يجب أن يحكمها قانون أيا كان ..

وقد آمن بهذه الفلسفة فى الزمان القديم : سيزار بورجيا وشارل الخامس وفيليب الثانى وغيرهم ..

وفى الزمان الحديث ظهر فى أوربا فلاسفة يدينون بها مثل تريتشكه، وساسة يطبقونها، مثل هتلر وموسولينى.

وهى فى الواقع فلسفة كل عدوان .

وبعد مكيافيللى نجد عقلا آخر من نوع فريد ، تحمل صاحبه آلاما لا تطاق لأنه وجد ــ لسوء الحظ ــ قبل العصر الملائم له بثلاثة قرون ..

هذا العقل هو : جروتيوس ..

وهو رجل هولندى ، عاش سنة ١٦٢٥ ، وكان يعمل قاضيا .. تأمل العلاقات الدولية التى كانت سائدة فى ذلك العصر ثم وضع مؤلفا خطيرا قال فيه : « انه لن يكون فى هذه الارض أمن أو سلام ما دامت هناك قوى متصارعة لا تهتم الا بكبريائها الوطنى ، وان هناك قانونا طبيعيا ينبع من الضمير البشرى يجب أن يخضع له الجميع ، ولن يخضع الجميع لهذا القانون الطبيعى ما لم تشكل هيئة دولية تتكون من محكمين دوليين لا مصلحة لهم وتختص بالفصل فى المنازعات الدولية .

اى انه اقترح انشاء منظمة كعصبة الأمم او هيئة الأمم المتحدة .

وكان طبيعيا أن تعتبر الحكومات مثل هذا الرجل خطرا على الأمن ، مضللا للعقول ، فعوقب على هذه الأفكار بالسجن فى قلعة رهيبة .. وبالرغم من انه كان شيخا فى الواحد والستين من عمره ، فقد اضطر الى الفرار من القلعة ولاذ بسفينة مهاجرة ، حطمتها عواصف بحر البلطيق فمات غرقا !

وقد مرت بعد جروتيوس ثلاثمائة سنة.. قتل فيها الملايين وهلكت المدن وتشربت الارض بالدماء قبل أن تنفذ فكرته وتقام لأول مرة بعد الحرب العالمية الاولى عصبة الأمم ومحكمة العدل الدولية !

ظلت الدبلوماسية حتى انفجار الحرب العالمية الاولى تسير على « الاسلوب الفرنسى » .

وكان الاسلوب الفرنسى يتميز بالرشاقة والنعومة والتزام قواعد الاتيكيت المعقدة . وكانت العلاقات الدولية تقوم على أربعة أسس رئيسية :

أولا — ان أوربا هى أهم قارة فى العالم كله ، وهى مصدر السلطات فى ميادين السياسة والحرب والاقتصاد. أما آسيا وافريقيا فهما خاملتان مظلمتان ، وأمريكا مشغولة بنفسها ، يفصلها عن العالم القديم بحر عريض.

ثانيا — ان الدول الكبرى فى أوربا هى التى تتحكم فى مصير الدول الصغرى وهذه الدول الصغرى قد تكون لها قيمة استراتيجية أو مالية ولكنها لا تمثل أى وزن سياسى .

ثالثا — ان العلاقات بين الدول الكبرى تسير على أساس من «التوازن الدولى» المحكم الدقيق ، فلا تنفرد دولة واحدة بقوة غير عادية ، وعندما كان يظهر رجال

مغامرون ، يعمدون الى الاخلال بهذا التوازن وحصر السيادة فى بلادهم .. كما فعل فردريك الاكبر فى المانيا ونابليون فى فرنسا .. كانت سائر القوى تتكتل ضده ، حتى تقضى عليه ، وتعيد « التوازن الدولى » الى نصابه

رابعا ـ ان المباحثات بين الدول كانت تجرى كلها فى جو من السرية والكتمان ، لاينشر عنها شىء ولا يطلع عليها الا رؤساء الدول ورؤساء الوزارات والسفراء ، ولا يتعرض المفاوضون فيها لأى ضغط من الرأى العام

حتى فى سنة ١٩١٤ ، قبيل الحرب كان مجلس النواب الفرنسى لايعرف شيئا عن النصوص السرية بين فرنسا وروسيا . وكان السير ادوارد جراى وزير خارجية انجلترا يخفى عن أعضاء مجلس الوزراء الاتفاق المعقود بين هيئتى أركان الحرب الفرنسية والانجليزية !..

فلما انتهت الحرب العالمية الاولى ، تغير كل شىء ، وتعرضت الاساليب الدبلوماسية لثورة يمكن أن يطلق عليها اسم : ثورة ١٩١٩ ..

أما أوربا فقد ضاعت هيبتها القديمة ، وتوزعت القوة بين أمريكا وبين القوى الجديدة الهائلة التى تنبهت فى آسيا .

أما التوازن الدولى التقليدى فقد اختل اختلالا شديدا .. ولم تعد المباحثات تجرى فى أروقة سرية ، بل انتشر أسلوب المؤتمرات العلنية ، التى يشهدها الجميع .. حتى أصبحت جلسات مجلس الأمن هذه الايام تذاع فى التليفزيون !.. واختفى الدبلوماسيون المحترفون ، وأصبح يتحكم فى الدبلوماسية الساسة والزعماء والنواب والقادة .

ويقول نيكولسون ان هذه الثورة فى الاساليب الدبلوماسية ترجع الى عدة عوامل :

أولها : التوســع الاســتعماري الذي زود معركة المنافسة بوقود جديد . اذ فتحت الغنائم الجديدة شهية الدول الكبرى الى الامعان فى المنافسة والصراع ، حتى شمل العالم كله .. وكادت الدبلوماسية أن تنقلب الى عمل تجارى بحت .

وثانيهما : تقدم المواصلات ووسائل الاتصال السريع تقدما كبيرا . فقديما كانت الرسالة تستغرق شــهورا قبل ان تصل من عاصمة الدولة الى سفيرها فى عاصمة اخرى .. الأمر الذى أدى الى جعل كل سفير مسئولا عن توجيه سياسة بلده مسئولية مستقلة الى حد كبير. وكثير من السفراء احتملوا مسئولية تصرفات كبيرة لم يستأذنوا فيها حكوماتهم ، كالسير ستراوفورد راتكليف الذى احتمل مسئولية اشعال معركة نافارين التى أغرق فيها الأسطول المصرى أيام محمد على دون أن يرجع الى حكومته .

اما الآن .. فان وزير خارجية اى بلد يستطيع ان يتحدث وهو فى مكتبه ، عن طريق التليفون ، مع جميع سفرائه فى مختلف انحاء العالم . كما يستطيعون هم أن يرجعوا اليه فى كل صغيرة وكبيرة ، أولا بأول .. أى أن تقدم المواصلات قضى على استقلال السفراء القديم ، وجعل المسئولية كلها مركزة بصورة مباشرة فى يد وزير الخارجية ..

على أن نيكولسون يعتقد ان أكبر ما تعرض له الاسلوب الدبلوماسى من تغير ، كان سببه : انتشار الديمقراطية

فبانتشار الديمقراطية أصبحت كل حكومة مسئولة أمام شعبها عن كل تصرف من تصرفاتها ، واختفت ـ أو بدأت تختفى ـ الطريقة القديمة لحل المشاكل الدولية ، وهى المباحثات التى تجرى فى الأروقة المغلقة بين ساسة

محترفين ، وحل محلها أسلوب العلنية المفتوحة.. مثل جلسات مجلس الأمن والأمم المتحدة ومؤتمر جنيف وغيره.

ففى مؤتمر جنيف مثلا .. كان منديس فرانس لايذهب الى المؤتمر الا فى حدود شروط معينة وافق عليها البرلمان ، وكان لايبرم أمرا الا بعلم البرلمان . وبعد استشارة الكتل المختلفة .

***

ويقول نيكولسون فى حزن : ان هذا التطور قضى على « الدبلوماسية » بالمعنى المعروف .. وان المفاوضات العلنية معناها الا مفاوضات ! !

وهو فى هذا التعليق يخطىء خطأ فاحشا ، فان هذا التطور لم يقض على الاسلوب السلمى كوسيلة لحل المنازعات .. بل زاد فرصته المتاحة له .

فالاتفاق العلنى له من القوة الادبية أضعاف ما للاتفاقات الشخصية أو السرية .

ورقابة الرأى العام انما تؤدى الى وضع مصالح الشعوب فى الدرجة الاولى من الاهتمام ، وتعلى من قيمة المبادىء الاخلاقية والانسانية فى ساحة المنازعات وتضع نهاية للفن الدبلوماسى بالمعنى القديم : فن الكذب السياسى !!

السلام والعلم والحرية

من فينا لا يجلس أحيانا ، و « يسرح » بأفكاره .. يتأمل هذا الكون الغريب المضطرب ، ويضع الخطط لتنظيمه ؟..

هكذا يفعل « الدوس هكسلى » كثيرا وهو كاتب انجليزى الجنسية ، عالمى التفكير ، يعيش منذ أمد بعيد فى أمريكا ، وفى كاليفورنيا بالذات ، محدقا فى أمواج المحيط الهادى ، متأملا مصائب البشر ، قلقا من أجلهم

وهذا الكتاب هو احدى «سرحاته» لكى يضع للعالم نظاما يعفيه من الاستبداد ، والفقر ، والحرب ، وكل ما تأرق له الجفون وتهلع القلوب !

والدوس هكسلى كاتب متشائم ، فهو ثاقب العقل ولكنه ضعيف الروح ، يتأمل الكون فيرى سحب التشاؤم القاتمة ، وينسى أن وراء هذه السحب سماء التفاؤل الزرقاء الصافية .. ومع ذلك، فان تشاؤمه من النوع اللماح ، المفيد ، الذى يضع أيدينا على حقائق خطيرة ..

وقد دفع «هكسلى» الى تأليف هذا الكتاب الذى أقدمه له .. كلمة خطيرة قالها تولستوى منذ أكثر من نصف قرن هى : « اذا كان النظام الاجتماعى ظالما ، والقوة فى يد عدد قليل من الناس يستغلون الآخرين ويستبدون بهم .. فان كل تقدم علمى لن تكون له نتيجة

الا تعزيز هذا الاستغلال والاستبداد ! »

فالقسم الاول من هذا الكتاب ، يحاول فيه «هكسلى» أن يثبت صحة هذه الكلمة .. أن يثبت ان كل تقدم يحرزه العالم هو ضد الحرية والرخاء والسلام !

والحجج التى يسوقها « هكسلى » ـ وان كنت سأخالفها بعد قليل ـ وجيهة جدا .. بل وأخاذة أيضا

فقد زود العلم ـ فى الاجيال الثلاثة الماضية ـ الحكام السياسيين بأدوات هائلة للضغط لم تتيسر لأى حاكم من قبل.. يكفى أن نذكر منها القنابل الذرية والدبابات وقاذفات القنابل وقاذفات اللهب .. لنعلم ان أية ثورة شعبية ضد الطغيان أو الاستعمار تكاد تكون شيئا مستحيلا ! ويضرب «هكسلى» مثلا بالثورات الشعبية التى اكتسحت أوربا سنة ١٨٤٨ : لقد كان يكفى المواطنين أن يتحصنوا وراء العربات المقلوبة ويتسلحوا بالخيل والبنادق القديمة لكى يقاوموا ويثبتوا ، اذ لم تكن الجيوش تملك أكثر من ذلك سلاحا .. اما الآن ، فأى شعب يصمد بالخيل والبنادق أمام الدبابات والمدفعية الثقيلة والطائرات ؟ !..

وأضيف الى ذلك مثلا معاصرا : فان «ماو ماو» مثلا كانت تستطيع بغير شك أن تطرد الانجليز من كينيا لو كان العالم لايعرف غير البنادق سلاحا .. ولكن انجلترا تملك فوق البنادق الدبابات وقاذفات القنابل .. فماذا تفعل ماو ماو ؟..

ويستنتج «هكسلى» من ذلك ، ان تقدم العلم كان اذن ضد الحرية !.. فالحرية السياسية والشخصية قديما كانت تستند الى حد بعيد الى ضعف وسائل السلطة الحاكمة .. فالكثرة ولو كانت عزلاء كانت تستطيع أن تهزم القلة ذات السلاح البسيط .. كما

قهر أهل باريس خرس لويس السادس عشر.. أما الآن وبعد أن كرس حضرات العلماء والمهندسين والرياضيين علمهم لاختراع الاسلحة ، فاذا حرمت الكثرة فى أى مكان من وسائل التعبير الديمقراطية ، كالخطابة والكتابة والاجتماع ، أصبح مستحيلا عليها أن تملى ارادتها ، أو تتخلص من الطغيان أيا كان !..

ثم يسأل هكسلى نفسه : أتيأس الشعوب اذن ؟.. اتنصرف تماما عن محاولاتها المتصلة الدامية للتخلص من الاستبداد والاستعمار ؟..

كلا !.. فقد توصل رجل عظيم الى اختراع هائل يستطيع أن يجابه هذه الاختراعات الحربية .. ذلك الرجل هو : غاندى .. وذلك الاختراع هو : المقاومة السلبية والعصيان المدنى !..

نعم .. كانت المقاومة السلبية اختراعا عظيما ، مر بكل المراحل التى تمر بها الاختراعات العلمية الكبرى . بدأ غاندى بتجربة اختراعه فى جنوب افريقيا ، حين كان يعصى القوانين بمفرده .. ثم يحرض المئات ثم الآلاف .. فلما اكتملت تجاربه ، ذهب الى الهند ليعلم مئات الملايين هذا الاختراع العجيب .. وليقوده بنجاح هائل ، وبعد زمن قصير ، لم يكن يتوقعه أحد ..

فالعصيان المدنى ــ الساتياجراها كما يسميه الهنود ــ لم يكن شيئا ارتجاليا بل انه عملٌ علمى دقيق جداً ، كما أن غاندى الذى اخترعه لم يكن رجلا مثاليا فقط بل وسياسيا واقعيا أيضا. وقد ألفت فيه الكتب ونشرت الابحاث والتعليقات ، تماما كأى اكتشاف علمى هام .. وان ظلت أعظم ميزاته انه برهان عظيم على انتصار الروح على المادة .. فهو يحتاج الى صفات عظيمة من الصبر وضبط النفس وقوة الاحتمال ..

ونجاح هذا الاختراع فى الهند امر معروف للجميع : ولكن الذى لايعرفه الـكثيرون ان الشعب فى المانيا قد استعمله سنة ١٩٢٣ ضد الاحتـــلال الفرنسى لمنطقة الروهر !.. واذا كان لم ينجح حينئذ لعدم تعود الشعب عليه ، فان هكسلى يؤكد ان الشعب الالمـانى لو قرر اليوم أن يطرد الاحتلال الاجنبى فلن يجد طريقة أنجع من العصيان المدنى !.. ويقول هكسلى : حينئذ سيبدو غريبا أن يكون البلد الذى أخرج أشهر الشخصيـات العدوانية مثل كلازفتز ، وهتلر ، هو اول بلد أوربى يأخذ بالمقاومة السلبية !.. وان هذا الشعب الذى يعبد قوة المادة ، يجد خلاصه فى قوة الروح !!..

ثم يعود هكسلى الى قضيته الاولى ، فيسوق حجة وجيهة أخرى على أن التقدم العلمى كان ضـــد حرية الانسان : لقد كان المفكرون القدامى يحسبون أن مجرد انتشار التعليم بين الناس كفيل بالقضاء على الطغيان. ولكن التقدم أثبت عكس ذلك تماما ! فالسلطة السياسية الآن ـ سواء كانت ممثلة فى حكومة مستبدة ، أو دولة استعمارية أو طبقة صغيرة تملك الثروة القومية ـ هذه السلطة السياسية أصبحت لا تملك وســـائل القهر وحدها ، بل ووسائل الاقناع ايضا !!..

فقديما ، لم تكن هناك صحافة ولا اذاعة .. أما الآن فقد أصبح للصحافة والاذاعة تأثيرهما الهائل على عقول الناس .. لما فيهما من جاذبية واستمرار يرغم الفرد العـــادى على ادمانهما كما يدمن الســجاير مثلا !.. و«الصحف والاذاعة فى البلاد الحرة خاضعة للمعلنين وفى البلاد غير الحرة خاضعة للحكومة» فهما فى الحالة الاولى تعبران عن مصالح أصحاب القوة الاقتصـادية ، وهم الأقلية دائما ، وفى الحالة الثانية تعبران عن رأى الحاكم.

و«من يدفع أجر العازف يختار اللحن الذى يعزف!»..

ويضرب مثلا طريفا «..كان صوت مارك انطونى فى روما القديمة لايتجاوز آلاف المحتشدين فى الميدان، أما الآن فصوت أى داعية يصل مذاعا ومطبوعا الى شتى أنحاء الارض ! » .

فالفرد مهما فعل لايمكن أن يتخلص من الدعاية التى ترددها اعلانات أصحاب الشركات دائما فى الصحافة والاذاعة والتى تخدم مصالحهم فى البلاد الحرة ، ولايمكن أن يتخلص من تأثير الافكار التى ينشرها الدكتاتور فى الصحف والاذاعة فى البلاد غير الحرة .. ولو كانت ضد معتقدات هذا المواطن ... ذلك ان الامتناع عن قراءة الصحف أو الاستماع الى الاذاعة أمر صعب جدا يعرف صعوبته كل من حاول الامتناع عن التدخين مثلا !..

وقد أجرى فى أمريكا استفتاء بين قراء الصحف ثبت منه ان الاغلبية الساحقة تعتقد ان جريدة معينة هى أكذب الجرائد ، وانها على ذلك أوسع الجرائد انتشارا .. فقد أصبح فى « جاذبية » الصحيفة أحيانا ما يغنى عن مبدئها !!

وهكذا أدى تقدم العلم ، الى فقدان الفرد لاستقلاله العقلى !..

وكما فقد الفرد حريته السياسية نتيجة للتقدم العلمى فى صنع الاسلحة وفقد استقلاله العقلى نتيجة للتقدم العلمى فى وسائل الدعاية .. كذلك أدى التقدم العلمى الى تركز الصناعة ، مما أدى الى فقدان الفرد حريته الاخيرة : حريته الاقتصادية !..

لقد أدى التقدم العلمى الى ظهور الآلات الكبيرة والصناعات الثقيلة ، ولم يكن ممكنا أن يظل الانتاج فى الدكاكين الصغيرة بعد هذا التطور ، بل أصبح انتاجا

مركزا تمتلكه ايد قليلة .. وقضى هذا الانتاج المركز على طبقة الصناع اليدويين والتجار الصغار .. حتى فى ابسط الاشياء .. ففى أمريكا مثلا لا تجد دكاكين البقالة التى نعرفها فى مصر مملوكة لصغار التجار .. بل هى فروع تابعة لشركات ضخمة ؛ والذين يعملون فيها مجرد اجراء ..

فالاغلبية الساحقة من البشر الآن يعملون فى مصانع يمتلكها غيرهم . فهم غير مستقلين ، بل هم يعتمدون فى رزقهم على أصحاب المصانع ، مهددون بالاستغناء عنهم فى اى وقت .. فالحرية الاقتصادية بالنسبة لهم الآن مجرد ذكرى قديمة ، أو شىء لايعرفونه قط !

كذلك فان هذا التركز الانتاجى ، والنظام الراسمالى الذى جعل القوة الاقتصادية فى أيدى قلة من الافراد.. ادى الى تفاقم ذلك الداء القديم .. الحرب !..

ويفسر « هكسلى » ذلك بقوله : « ان الرأسماليين القابضين على ناصية الانتاج يقصدون بانتاجهم الربح وليس اشباع حاجات المستهلكين. والربح يدفعهم الى البحث عن مزيد من الاسواق خارج بلادهم ، والتنافس على أسواق التوزيع بين الدول يجر الى الحرب ..

ومن اجل الحصول على هذه الارباح ، نشر النظام الراسمالى نوعا من الثقافة والدعاية صورت للناس ان الوطنية تقتضى الاعتداء على أوطان الآخرين !.. حتى تجد حجة تسوغ بها للناس دفعهم الى أتون الحرب .

وهذه هى الوطنية العدوانية التى بثها هتلر فى المانيا .. والتى تؤمن بها كل دول الاستعمار الاخرى ، وتصور لأبنائها ان الوطنية هى استغلال سائر الاوطان.. وهذا النوع من الوطنية العدوانية يسوق بدوره الى الحرب.. واغراء السلاح لأصحاب هذه الوطنية كاغراء الخمر

والنساء للمراهقين قوي ، مدمر !..

ويبدى هكسلى أسفه البالغ ، لأن العلماء أيضا تأثروا بهذه العقلية واعتنقوا هـذا النوع من « الوطنيـة » فأصبحوا يتسابقون فى اختراع الاسلحة القـادرة على تدمير الجيران وسائر الشعوب .. خصوصا وان هـذا النوع من الوطنية يدر عليهم أرباحا هائلة .. فالاسلحة هى السلعة الوحيدة التى لا تكسد أبدا ، مهما ارتفعت أسعارها !..

ولمـا كان مستحيلا على الاقليـات صـاحبة القوة الاقتصادية أو القوة السياسية ، أن تبقى العالم فى حالة حرب دائمة من أجل رواج سوقها ودوام سطوتها ، فقد خلقت فى فترات السلم حالة أخرى هى : الاستعداد للحرب !..

وحالة « الاستعداد للحرب » أو «خطر الحرب» لها فوائد كثيرة من وجهة نظر أصحاب القوة الاقتصادية أو السياسية ، محلية أو استعمارية .. « فحين يسوء الموقف فى الداخل ، ويصبح السخط العام شيئا لايمكن تجاهله أو اهماله ، فانه من الممكن دائما ـ فى عالم يعتبر الاستعداد للحرب واجبا مقدسا ـ أن تحول أنظـار الناس عن مشاكلهم الداخلية الىمسألة عسكريةخارجية .. فتطلق الحكومة حملة من دعايتها الاستعمارية عن طريق أجهزة الاقناع التىتملكها ، تطالببانتهاج «سياسة حازمة » ضـــد عدو خارجي ما.. وندعو الى « ضم الصفوف » ـ أى الطاعة المطلقة للأقلية المسيطرة ـ وهنا يصبح خائنا كل صوت يرتفع بأى شكوى أو نقد ، من فساد أو اضطهاد ، مهما كانت الشكوى عادلة !! » .

وأقرب مثل لذلك ماحدث فى العالم سنة ١٩٣٠ ، لقد أصابت العالم فى تلك السنة أزمة اقتصادية توقفت

لها المصانع ، وهبط الانتاج ، وتعطل الملايين من العمال (وتلك كما يقول هكسلى الحلقة التى تلاحق عالما يتقدم دون أن يخرج من سيطرة القليلين) .. واتخذت انجلترا وأمريكا وغيرهما من الدول اجراءات مختلفة قللت عدد العمال المتعطلين ، وخففت من حدة الأزمة دون أن تقضى عليها نهائيا .. وفجأة ظهر هتلر ليشفى العالم من وباء هذه الأزمة !.. لقد اتجه الى التسلح ، وأعلن عن نواياه العدوانية .. وشعر العالم بالخطر على نفسه فاقتدى به فى التسلح .. وبقدرة قادر اختفت البطالة نهائيا ، وعادت المصانع تعمل أكثر من ذى قبل !.. واستمر العالم يتعاطى دواء هتلر العجيب حتى وصل الى النتيجة الحتمية له وهى الحرب ، ودفع العالم ثمنا رهيبــا لشفائه الوقتى ، وخرجت الدول من الحرب أسوأ حالا مما كانت ، قبل أن تتعاطى هذا الدواء !! » .

فخطر الحرب حل أزمة الانتاج فى ظل النظام الراسمالى قبل الحرب العالمية الثانية !.. وأضيف الى ما قاله هكسلى ان القلة التى تتحكم فى الانتاج فطنت الى هذه الحقيقة ، فلم يكد يمضى على انتهاء هذه الحرب زمن قليل حتى خلقت ــ وبسرعة ــ حالة جديدة من خطر الحرب.. لتواجه الأزمة قبل أن تقع.. بل لقد احتفظوا بعدة حروب صغيرة متفرقة.. فى كوريا والهند الصينية وغيرهما ، يستعينون بها على احتمال مصائب السلام التى تنزل بانتاجهم ، وبأرباحهم !..

وعلى ضوء هذه الحقائق نستطيع نحن المصريين ــ بل نحن الشرقيين ــ أن ندرك لماذا يهددنا الغرب دائما بخطر الحرب .. انه فى ظل خطر الحرب تجد انجلترا حجة لبقائها فى مصر، وتجد أمريكا حجة لشرائها القواعد فى المغرب ، وتجد الدولتان التبرير لكل ما ترتكبانه فى

البلاد المستضعفة من استغلال واستبداد !..

الى هنا .. تنتهى الأدلة التى ساقها هكسلى ليثبت بها ان التقدم العلمى ضد حرية الانسان ، واستقلاله الفكرى والاقتصادى ، وامنه الاجتماعى .. هو ضد حريته .. لأنه زود الحكومة فى البلاد الدكتاتورية ـ كما زود الأقلية صاحبة القوة الاقتصادية فى البلاد الديمقراطية ـ بالسلاح الذى يخمد اى ثورة شعبية ، واجهزة الدعاية التى تملى اية دعوة مرسومة ، والانتاج المركز الذى يجعل الأغلبية أجيرة ..

على ان هكسلى قد أشار ـ وبدقة ـ الى بعض جوانب الموقف وجهل جوانب هامة أخرى ! فجاءت الصورة التى رسمها لعالم اليوم ناقصة الى حد كبير ..

فالحقيقة الساطعة التى يؤكدها التاريخ ان هذه الظروف كلها لم تقض على الحرية ، ولم توقف تقدمها.

ان الحكومات الديمقراطية الآن ـ برغم كل هذا التقدم العلمى ـ أكثر منها فى أى وقت مضى ..

وان الشعوب الحرة والثورات الناجحة الآن ـ برغم اختراع القنبلة الذرية ـ تزداد يوما بعد يوم ، بشكل لا محل لانكاره ..

والأمثلة لا تعد ولا تحصى ، فان مركز انجلترا الآن فى كينيا مثلا رغم ما بيدها من سلاح حديث أضعف مائة مرة من مركزها هناك منذ خمسين سنة ، وقبضتها على مصر الآن وهى تملك الطائرات والدبابات أضعف من قبضتها عليها منذ خمسين سنة وهى لا تملك الا الخيالة ومدافع البارود !..

وليس هذا كلاما حماسيا ولكنه حقيقة راسخة ، وكل ذى عينين يستطيع أن يلاحظ أن القيود تتكسر الآن فى كل يوم وفى كل مكان ، كلما انتشر الوعى

والتهب .. والوعى هنا هو الثقافة التى تكسب الشعوب الاحساس بالكرامة ، وهو التجربة التى تعلمها مكايد الاستعمار القديمة ، وهو العدوى التى تنقل جراثيم الحرية من قطر الى قطر ، ومن رأس الى رأس.. كما تنقل الريح بذور اللقاح ..

على ان تشاؤم هكسلى لم يصل به الى حد اليأس.. أو لم يقعد به عن التماس الحل .. وقد جرى منطقه على هذا النحو :

ان الداء الأكبر هو فى تركز الانتاج فى أيدى قلة من الناس ، مما أدى الى العواقب التى أسلفناها. فالعلاج بناء على ذلك هو الاتجاه نحو الاشتراكية الاقتصادية.. أى بجعل وسائل الانتاج ملكا للجميع ..

ولكنه يرى فى اجتماع السلطة السياسية والسلطة الاقتصادية فى يد واحدة هى يد الحكومة المركزية ، خطرا كبيراً ، يغرى الحكومات بالطغيان مؤكدا ان التاريخ لايعرف سلطة مطلقة واحدة لم تفسد صاحبها ، فلا مفر بناء على ذلك من العودة الى الديمقراطية بمعناها القديم ، بمعنى حكم الشعب نفسه بنفسه ، بمعنى اللامركزية السياسية ..

ولكنه يشترط لتحقيق اللامركزية السياسية شرطا رئيسيا : هو زوال خطر الحرب ، بل والعدول عنها كوسيلة لفض المنازعات .. ذلك ان الحرب تحتاج دائما الى تركيز السلطة فى جهاز واحد ، والنصر فيها لابد له من السلطة المطلقة فى العمل والانتاج والتوجيه .. فبقاء خطر الحرب معناه بقاء الحكومات المركزية . أما اذا زال الخطر ، فلن يجد الناس بأسا من الأخذ بنظام اللامركزية السياسية ..

أما طريقة القضاء على الحرب .. فانه يلقى أكبر

العبء فيها على عاتق العلماء .. فيدعوهم الى الامتناع عن أى عمل أو ابتكار أو انتاج فيه اعتداء على حياة البشر بأية صورة من الصور . ويقول : ان الديانة البوذية تقرر انه لايعد بوذيا من يكسب رزقه من صنع السموم أو السلاح !.. وما أحرانا أن نأخذ بهذا المبدأ البوذى.. فلا نعتبره انسانا شريفا، العالم الذى يساهم فى صنع سلاح فتاك يقوى الطغيان ، ويتعدى على حق الحياة ، ويسلب الآخرين حرياتهم .

وعلى العلماء بدلا من ذلك أن يتجهوا الى انتاج الطعام : «.. فان مشكلة العالم الاولى هى الطعام ، وهو ليس مشكلة بالنسبة للأقليات التى تحكم العالم فى كل مكان .. فهذه الأقليات تحصل على الطعام بغير جهد فلا تحس بأنه مشكلة قط . لذلك تراها تبحث عن شيء آخر كالقوة أو النفوذ أو السيطرة .. على عكس الملايين الذين تنحصر مشكلتهم الكبرى دائما .. فى الوجبة القادمة ! » ..

ثم هو لاينسى أثر التجارة فى اشعال الحروب ، ويضرب مثلا بالشرق الاوسط : كل دولة من الدول الكبيرة تطمع فى بتروله وخيراته ، وتتطاحن من أجلها فهى تحتل الشرق الاوسط ، وربما اشتبكت فى الحرب من أجله. ويقترح بدلا من ذلك أن تكون كل البلاد حرة ، قوية ، مالكة لثروات أرضها.. فيبيع الشرق الاوسط - بعد تحريره - هذا البترول لجميع المشترين ، من الشرق والغرب على السواء .. فى تجارة حرة متبادلة ، على قدم المساواة !..

واظننى أستطيع أن أقول لهكسلى بالنسبة لهذه الفقرة بالذات ، ونيابة عن جميع سكان الشرق الاوسط : موافقون ! !

رباعية الإسكندرية

العالم يتحدث عن هـــذه الرواية التى أصــبحت مشهورة باسم « رباعية الاسكندرية » .. لأنها تتكون من أربعة أجزاء كبيرة .. ولأن حوادثها كلها تدور فى مدينة الاسكندرية .. وهى رواية تقدم صورة غريبة عن بلادنا !

والاجزاء الاربعة لهذه الرواية يقع كل منها فى حوالى ٣٠٠ صفحة .. أى ان عدد صفحات الرواية يصل الى حوالى ١٢٠٠ صفحة ! وكل جزء من الاجزاء الاربعة يحمل اسما مستقلا هو اسم أحد أبطـال الرواية .. وأسماء هذه الاجزاء بالترتيب هى : « جوســتين » و « بلتازار » و « مونتوليف » و«كليا » .

أسماء غريبة على الأذن !

وسيقول القارىء : انها ليست أسماء شـــائعة فى مدينة الاسكندرية ! ولهذا تفسير سوف يرد بعد قليل .. فقبل ذلك لابد أن أقول كلمة سريعة عن المؤلف نفسه

ان الصحف والمجلات الأدبية فى العالم تقول عنه الآن انه أعظم كاتب قصة ظهر فى السنوات الاخيرة ، وتقول عن هذه الرواية الضخمة انها عمل شامخ خطير .

ومع ذلك فالمؤلف كان قبل ظهور هذا العمل مجهول الاسم تماما ..

انه انجليزى يعيش فى ريف فرنسا منـــذ سنوات واسمه « لورنس دوريل » ، وهو عندما أخرج هـذه الرواية لم يكن شابا . أما شبابه فقد قضاه فى السلك السياسى البريطانى وفى المخابرات البريطانية .. وبحكم وظيفته فى السلك السياسى جاء الى مصر قبل الحرب الماضية وفى خلالها. اشتغل فترة فى السفارة البريطانية هنا ، بين القاهرة والاسكندرية ، ولذلك فان من بين أبطـال هـذه الرواية الحسية ، الجنسية : السفير البريطانى فى القاهرة ، وعدد كبير من موظفى السفارة ! وكثير من حوادثها يجرى فى مبنى السفارة البريطانية فى جاردن سيتى ، ومبنـاها الصـيفى على كورنيش الاسكندرية !

***

ولـكن المؤلف لم يلبث أن اعتزل السلك السيـاسى والمخابرات الانجليزية بعد الحرب ببضع سنوات ... وعكف على تأليف الكتب ، وأصدر بالفعل عدة كتب لم تنجح فى أن تصنع له أى اسم مذكور.. حتى أخرج هذه الرواية الطويلة الغريبة ، واذا به يجد نفسه فجأة فوق قمة تلاحقه بالصور والاحاديث ، وسيكوراس ملك السينما يشترى منه القصـــة ليحولها الى فيلم على الشاشة !..

ولا أذكر اننى وجدت صعوبة فى تقديم احد الكتب أو الروايات كالصعوبة التى أجدها فى تقديم هذه الرواية.

وليس السبب فقط هو طولها البالغ ..١٢٠ صفحة ! وبالتالى كثرة الحوادث وتشابكها الشديد .. ولـكن الاسباب التى تجعل تقديمها صعبا تكمن فى موضـــوع القصة نفسها .. وفى أسلوب كتابتها .

أسلوب الكاتب ـ اولاـ محيرجدا ! فأحيانا تصادفك

صفحات ركيكة ضعيفة .. عشرات من الصفحات المملة الجرداء تتوالى كالصحراء التى ليس فيها الا كثبان من الرمل تجعل خطواتك ثقيلة مرهقة ، وصفحات أخرى جذابة باهرة .. فيها كل مقومات الكاتب الماهر فى صنعته .. من حبكة واثارة وتشويق وتأمل عميق .. الى صور خلابة يرسمها للاسكندرية حتى لتشعر انك تتنفس فى المدينة حقا .. وان الكاتب قد أدخلك فعلا فى الجو والرائحة واللون والحالة النفسية التى يعيش فيها أبطال القصة .

وطريقة الكاتب فى السرد صعبة جدا .. فهو لايروى لك خيطا واحدا من الاحداث.. أو لايروى لك الاحداث فى سلسلة متتابعة الحلقات .. ولكنه فى كل جزء يروى القصة كلها تقريبا ، من جانب معين.. وفى الجزء التالى يروى لك نفس الاحداث ولكن من جانب آخر .. وفى كل مرة تتكشف لك حقائق جديدة .. ويبدو لك نفس الأفراد فى ضوء جديد يختلف عن الضوء الذى رايتهم فيه أول مرة .. ولا أذكر الآن أين قرأت لأحد النقاد قوله : انها كالورقة المطبقة حين تفتحها . انك ترى دائما نفس الورقة ، ولكنها كلما انفتحت أمامك ، رأيت مساحات جديدة منها !

***

فالمؤلف لايقف فى أول أحداث القصة ثم يسير بها الى نهايتها .. كلا .. ولكنه واقف فى وسطها ، أحيانا يسير الى الامام ، وأحيانا يعود الى الوراء ليروى ماحدث من سنوات .. وأحيانا يخطو الى اليمين .. أو يخطو الى اليسار ، ليتطلع الى زوايا وجوانب أخرى لايراها من مكانه الاول ..

شخصية « بيرسواردن » مثلا ، موظف السفارة

البريطانية بالقاهرة ، الفنان ، الحساس .. وأخته العمياء التى يراسلها فى لندن .. ثم اختلافه مع قسم المخابرات السرية فى السفارة ، فقسم المخابرات يقول ان الشاب المصرى « نسيم » مشترك مع عصابة يهودية تعمل على تهريب الاسلحة من أوربا الى فلسطين (وكان هذا قبل الحرب العالمية أيام كانت عصابات اليهود تقود حركة سرية ضد البريطانيين) ومعنى هذا انه ايضا يخون قضية العرب فى فلسطين .. أما بيرسواردن ، فهو يعارض هذا الراى .. انه يعرف نسيم وهو صديقه الحميم ومستحيل أن يصنع هذا . ولكنه بعد أن ينتصر على المخابرات البريطانية يكتشف بالصدفة ان هذه الواقعة صحيحة ، وينتحر بيرسواردن ، وينزعج السفير البريطانى الذى كان معجبا به ، وتأتى أخته العمياء الباهرة الجمال الى القاهرة والاسكندرية لتصفى أوراقه

ولكننا فى جزء آخر نرى واقعة انتحاره خلال ضوء جديد .. لقد كانت بين بيرسواردن وأخته العمياء علاقة شاذة ، وقد أنجب منها طفلة ميتة . وبرغم نقله الى مصر فقد ظل بينهما حب غريب عميق لا علاج له . وفجأة ظهر فى حياة هذه الأخت « ليزا » رجل آخر .. وكانت هذه هى النهاية بالنسبة لبيرسواردن .. فانتحر

وفى مكان ثالث .. نعرف ان هذا الرجل الآخر الذى ظهر فى حياة « ليزا » فى لندن هو « مونتوليف » السفير البريطانى فى مصر ، وذلك حين تعرف عليها فى لندن قبل نقله الى القاهرة وقد عرف بيرسواردن ذلك بعد قدوم «مونتوليف» بمدة .. فانتحر .. أما حضور « ليزا » بعد موت أخيها الى القاهرة فلم يكن لتصفية أوراق أخيها كما فهمنا من قبل .. ولكن لكى تعيش مع عشيقها السفير !..

ـ نموذج آخر ...

في الاجزاء الاولى نرى شخصية « نسيم الشاب » المصرى الواسع الثراء ، وزوجته «جوستين» اليهودية الغامضة الحسناء ، ذات المغامرات التى تتهامس بها المدينة ، والشهوات التى تلهث حولها ، ونستمع الى قصة « دارلى » ، وهو الراوى الذى يروى جزءاً كبيرا من الرواية ، ودوره فى الرواية دور رجل انجليزى يقوم بتدريس اللغة الانجليزية فى احدى مدارس الاسكندرية وهو الذى يبدو أن المؤلف يتقمصه كثيرا فى الرواية ، خصوصا اذا لاحظنا ان اسم البطل «دارلى» ، واسم المؤلف « دوريل » .. أقول نستمع الى قصة غرام دارلى هذا بجوستين زوجة نسيم ، وهواه العميـــق لها ، وهجره صاحبته الراقصة اليونانية « ميليسا » من أجلها .

ولـكننا حين نصـــل الى الجزء الثالث نكتشف عن نسيم وعن زوجته جوستين أشياء غريبة . فنسيم ، كما ذكرت من قبل ، كان مشتركا فى عمليات تهريب سرية لصالح العصابات الصهيونية فى فلسطين ، وقد حار كيف يظفر بقلب اليهودية الغامضة جوستين .. فلم يجد بداً آخر الأمر من أن يعترف لها بحياته السرية ونشاطه الخطير ، وتعجب به جوســـتين وتتزوجه ، زواجا فيه من وحدة الهدف اكثر مما فيه من الغرام . وقد كان فى المدينة يهودى آخر عجوز اسمه كوهين ، كان مشتركا مع نسيم فى عمليات التهريب ، ثم مات . وكان كوهين هذا عشيقا لميليسا ، الراقصة التى هى عشيقة دارلى الآن . وقد خاف نسيم أن يعرف دارلى شيئا عنه من ميليسا فاتفق مع زوجته جوستين أن تقنع دارلى بأنها تحبه ولو اعطته كل شيء .. لـكى

تعرف منه هل عرف شيئا من « ميليسا » أم لا .. أى ان الهوى كان حقيقيا من ناحية دارلى ومصطنعا من ناحية جوستين .

ولكن ميليسا كانت قد فقدت حبها لدارلى من زمن وأصبحت صديقة بيرسواردن ، وتحدث زلة اللسان المنتظـــرة أمام بيرســواردن لا أمام دارلى ، فيعرف بيرسواردن أن نسيم جاسوس ومهرب .

وعندما ينتحر بيرسواردن ــ ســواء بسبب حادث الجاسوسية أو بسبب حادث أخته ــ ويكتب الى السفير مونتوليف خطابا يحيطه فيه بأن اتهام نسيم ـــ صديقه وصديق السفير ــ بالتجسس صحيح ، يقع السفير مونتوليف فى مأزق حرج ، لأن السفير أيضا له قصة قديمة غريبة . .

لقد جاء «مونتوليف» الى مصر مرة كشاب مبتدىء فى السلك السياسى البريطانى ، قبل أن يجيئها كسفير. وفى المرة الاولى كان موظفا تحت التمرين وكان قد تعلم اللغة العربية جيدا . فأرسلته السفارة الى بيت أسرة مصرية ليتقن اللغة العــامية ، وكانت الأسرة قبطيــة وهى أسرة نسيم : أب مقعد مريض ، وأم شابة جميلة اسمها ليلى .. متعلمة سافرت الى أوربا كثيرا وتثقفت ثقافة واسعة ولكنهم زوجوها لهذا الرجل الذى اختارته الأسرة طبقا للطريقة القديمة ، وولداها وهما : نسيم ونيروز .

وفى تلك الايام وقعت الأم الشابة ليلى فى غرام الشاب الانجليزى مونتوليف .. جذبها اليه شبابه ، وجذبها اليه أكثر « العالم الذى ينتمى اليه » . انها منذ عادت من أوربا حبيسة هذا البيت الريفى فى « أبو جرج » حيث توجد عزبة زوجها ، نافذتها الوحيدة على العالم

الذى تحبه هو الصحف والمجلات الاوربية التى تشترك فيها بكثرة ، والاوراق التى تكتب فيها خواطرها من حين لآخر ، والزوج المقعد العاجز يحس بهذا وان كان لايظهر علمه الا على شكل انفجارات سياســـية أمام مونتوليف يقول فيها ان الانجليز يسيئون الى الاقباط فى مصر ، فقد كان الاقباط دائما يعيشون فى ســلام ويتولون أبرز المناصب ولكن الانجليز هم الذين يحاولون اظهار الغيرة على الاقباط لا لشىء الا لمجرد التفريق بين الطوائف .

وينقل مونتوليف من مصر فلا يعود اليها الا سفيرا . ولكنه طوال هذه السنين كان يربطه بالأسرة شيئان : الاول ، هو صداقة نمت بينه وبين نسيم ، الذى كان يلقاه خلال رحلاته الى أوربا . والثانى ، هو الخطابات التىكان يتبادلها مع ليلى بلا انقطاع طوالهذه السنوات فقد أصبح هو روحها المتجولة خارج حدود «أبىجرج» يرى لها المتاحف ويشاهد لها المسرحيات ويكتب لها عن كل شىء .. ويرسل لها الكتب التى تحب أن تطلععليها وها هو يعود الى مصر سفيرا وقد توثقت صــداقته بنسيم .. ليجد انه يقوم بعملية تهريب أسلحة ضــد سياسة بريطانيا فى ذلك الوقت !

ويواجه مونتوليف الأمر الواقع ويبلغ الأمر الى وزارة الداخلية المصرية ، وعندما تقوم الحرب تصادر الحكومة أموال نسيم ، وتحدد أقامة زوجته جوستين فى «أبو جرج» بعد أن مات أبوه وأرغم أمه على أن تهاجر الى الخارج خشية أن يصيبها شىء بعد أن انكشف تآمره ..

هـــذه الاحداث ــ وغيرها ــ ليست هى القصة ، والقصة على أى حال فيها أكثر من ألف صفحة من مثل هذه الاحداث ، ومع ذلك فالشخصيات الهامة فى القصة

تعتبر قليلة نسبيا ، اذا قيست بطول الرواية وكثرة زواياها. فالمؤلف قد اختار طريقة خاصة هى : انتخاب عدد قليل من الشخصيات ، ثم « تقليب » هذه الشخصيات على مختلف الجوانب ، ووضعها فى شتى المواقف والاوضاع ، وكل وضع أو موقف يعطيها جانبا آخر أو ينزع عنها فكرة سابقة .. وكأن المؤلف يمسك بكل شخصية ويقول لك : هذه الشخصية يمكن أن تكون هكذا .. ويمكن أن تكون هكذا .. يمكن أن تكون عادية .. ويمكن أن تكون شاذة .. يمكن أن تكون طيبة ويمكن ان تكون خسيسة .. وهكذا ! فهى لعبة من قطع قليلة يمكن أن تبتكر منها آلاف الاشكال كلما غيرت فى طريقة ترتيبها وتكوينها !

ولكن ...

أين « الاسكندرية » فى هذه القصة ؟ وأين « مصر » التى تقع فيها هذه الاسكندرية ؟

هذا السؤال قد لايخطر على بال قارىء يقرأ القصة فى أى مكان من العالم .. أما اذا كان من «مصر» فالسؤال يبدو ملحا وقويا ، وأساسيا .

ولقد اختار المؤلف شخصياته كلها من جو الأقليات المهاجرة الى الاسكندرية . اليهود واليونان والانجليز والارمن والايطاليين والفرنسيين وغيرهم . ومع ذلك ، فهو لم يختر ذلك الفريق من المهاجرين الذين يندمجون فى البلد الذى يعيشون فيه ، أو الذين يعرقون ويتعبون سواء ظلوا بعد ذلك فقراء أو أصبحوا أغنياء .. ولكنه اختار فئة مغلقة على نفسها تماما ، تعيش فى الاسكندرية «كمكان» دون أن تتفاعل معها كشعب أو كمدينة. وهذا صحيح فى بعض الحالات وليس فى كلها ، فلا شك ان بعض الاجانب المهاجرين تكون مأساتهم فى انهم يظلون

اجانب مهاجرين الى الأبد ، منعزلين دائما عن العالم الذى جاءوا اليه ، يدورون حول أنفسهم .

وقد ملأ المؤلف هذه البيئة التى اختارها بأنواع من الشذوذ لا أول لها ولا آخر ، ولا أدرى بأية نفسية جعل المؤلف هذه الحالة من الشـــذوذ الجنسى تغمر الجميع .. ولكننى أجد انها تعبير عن السوس الذى ينخر فى كيان هذه الفئة ، وعن الانهيار الداخلى فيها. وعجزها التام عن أن تخرج من حلقة ضيقة صنعتها لنفسها ، حتى لتشعر احيانا انهم ليسوا غرباء فقط عن المدينة التى يعيشون فيها ، بل وغرباء حتى عن مدنهم الأصلية التى قذفتهم الى الاسـكندرية . فهم بدون جذور ، فى أى مكان من الارض و « المصريون » الذين يحتكون بأبطال القصة لايظهرون الا فى صورة خادم أو سائق أو بواب . تماما كما يذهب السائح الى بلد فينزل فى فندق لايبرحه ، فلا يرى من أهل البلد الا خدم الفندق وموظفيه !

الشخصيتان المصريتان الوحيدتان اللتان لهما بعض الدلالة هما : ليلى ونسيم ..

أما ليلى ، فقد رسم بها صورة للمصرية التى تعلمت فى وقت لم ينتشر فيه التعليم ، وشقاء من تعيش بثقافتها العصرية فى جو غير مثقف .

على أن « نسيم » هو الشخصية المصرية الهامة فى الرواية ، وعندما نتأمل الاسباب التى نسجها المؤلف لكى تؤدى الى انحراف نسيم ودخوله فى حركة سرية لحساب العصابات الصهيونية .. نجد انه كان موفقا فى بعضها ، وكان غير موفق فى بعضها الآخر ..

فقد اختار المؤلف أن يكون نسيم من الاقباط ، فى محاولة لادراج الاقباط بين سائر الفئات الاخرى المهاجرة

.. وهذه فكرة خبيثة وغير صحيحة ، فالوطنيون الذين سقطوا برصاص الاستعمار كانوا من جميع الطوائف ، والذين قبض عليهم فى قضايا خيانة أو جاسوسية كانوا أيضا من جميع الطوائف . وانه لمن الطريف أن نلاحظ جملة سجلها المؤلف على انهـا من الخطط التقليـدية للسياسة البريطانية فىأى بلد وهى «التركيزعلى الاقليات التى تكون مستعدة لأن تناضل» . فمحاولة استثارة الاقليات أسلوب سياسى بريطانى فى كل بلد . ومع ان المؤلف يسجلها متهكما ، فهو كموظف سابق فى السلك السياسى البريطانى لم يستطع الا أن يتأثر بهذا الاسلوب

على اننا يجب أن نسجل ان محاولته هذه ليست كاملة . فان نيروز شقيق نسيم فى القصة كان خطرا على نسيم . وقد اغتيل نيروز فى ظروف توحى بأن شقيقه نسيم وزوجته جوستين هما اللذان حرضا على قتله خشية أن يفتضح أمرهما . وهـذا يجعل الخيـانة محصورة فى نسيم كفرد .

فاذا نظرنا الى نسيم كفرد ، نجد ان المؤلف كان ناجحا فى وضع الملامح التى تجعله فى النهاية قابلا للخيانة . البيئة النازحة التى عاش فيها ، هجرته من عالم بلاده الى عالم « المهاجرين » الى بلاده ، ضعف شخصيته وخستها فى الاصل وهو ما نلحظه فى كونه كان يعلم من البداية بعلاقة أمه بمونتوليف ، وتسهيله لهذه العلاقة بعكس أخيه نيروز الذىكان يقف الىجانب أبيه المخدوع .. هذه البذور الضعيفة فى تكوينه هى التى جعلته كما قال المؤلف منتميا الى هؤلاء الغرباء ، فأصبح معاديا لبيئته من باطنه . وهذا هو السبب الحقيقى لخيانته ، وليس السبب هو التبريرات النظرية السخيفة التى قالها لجوستين وهو يعترف لها بدوره فى المؤامرة :

وخارج هـذه الشخصيات الرئيسية التى تتخبط داخل هذه الدائرة المغلقة ؛ كانت الاسكندرية تبدو أحيانا ـ على دقة الوصف التفصيلى ـ وكأنها ليست الاسكندرية بالذات .. انما هى مكان «مجرد» يمكن أن يكون اى ميناء آخر فى العالم .. يمكن أن يكون هونج كونج أو نابولى أو طنجه : وفى كثير من الاحيان كنت اشعر ان المؤلف يتحدث عن اسكندرية عصر كليوباترا . اسكندرية البطالسة .. أو الاسكندرية التى نجدها فى رواية « تاييس » لأناتول فرانس مثلا .

ومن اجل ذلك كان المؤلف يحاول ان يفصل الاسكندرية عن مصر .. انها اسكندرية يونانية رومانية تنتمى للبحر الابيض لا للقطر المصرى فحين انكشف نسيم يقول المؤلف مثلا : « حين ضيق المصريون عليه الخناق خف أهل الاسكندرية لنجدته ... فاشترى أصحابه ممتلكاته لكيلا تصادر ، على أن يعيدوها له فيما بعد» . فالمصريون عنده شيء ، واهل الاسكندرية شيء آخر ، واهل الاسكندرية الذين يقصدهم طبعا هم تلك الدائرة الاجنبية التى « هاجر » اليها نسيم .

أما مصر ، وعالم « المصريين » ، فكان يبدو كأنه عالم سحيق متخلف ، ومختلف تماما ! اية خطوة يخطوها احد أبطال القصة الى بيئة محلية أو شخصيات محلية ، كانت تبدو كأنها رحلة الى عالم غامض غريب . وقد كان المؤلف يرسم هذا العالم دائما رسما بشعا كريها ..

صحيح انه اختار فترة ضعف وانهيار فى تاريخ مصر .. وهى فترة قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها حين ملأت جنود الحلفاء البلاد .. ولكن صوره البشعة كانت ابعد من ذلك أيضا .

اذا ذهب الى الريف : فهناك يروى أشياء غريبة ..

كمشهد الاعراب يأكلون جملا .. اذ يقول انهم يجعلون الجمل «يبرك» وهو حى ، ثم يهجمون عليه بالسواطير والسكاكين ، كل واحد يقطع جزءا منه ، والجمل رافع رقبته الطويلة والدم يتدفق من فتحات جسده كالنوافير ، وكل الم الدنيا فى عينيه !

أو يصف كيف ان نيروز نادى مرتين على خادم من أبناء الفلاحين فى عربته فلم يحضر .. فأمسكه وقطع له أذنه بسكين عقابا له .. وأمسك الطفل بالأذن المقطوعة فى يده وجرى الى أبيه باكيا والدم يسيل منه !

أشياء وحشية لا ظل لها من حقيقة .. كأنها تحدث فى أعماق الغابات !

واذا ذهب الى الاحياء البلدية فى الاسكندرية .. فهو يصف بيوت دعارة للطفلات الصغيرات .. ويرسم لها صورة بشعة تثير الغثيان .. ويكرر الرحلة الى هذه البيوت كثيرا ، كأنها من الملامح الاساسية .. فالسفير ذهب .. وجوستين ذهب .. ودارلى ذهب !

واذا ذهب الى « الجهاز الحكومى » المحلى .. فهو يصف لنا صورة الدولة المتعفنة التى كانت موجودة فى مصر قبيل الحرب . الوزراء الذين يرتعدون من الملك أو من السفير البريطانى .. والوزراء المرتشون .. والركود ، والخمود ، والفوضى ، والخوف ، والاهمال . رمز هذا رجل اسمه « مملوك باشا » جعله المؤلف وزيرا للداخلية ..

فحين أحس نسيم أن السفارة البريطانية ستبلغ وزارة الداخلية عنه ، بدأ يبحث كيف يتلافى القبض عليه .. فأرشدوه الى « المفتاح » الى قلب «مملوك باشا» وهو الرشوة !

ثم يصف لنا طريقة الرشوة :

كان مملوك باشا يجلس فى غرفة الصالون يستقبل الزوار ، فيقول له الراغب فى رشوته انه قد عثر على مصحف نادر راى انه جدير بأن ينضم الى مجموعة المصاحف النادرة التى اشتهر مملوك باشا باقتنائها . ويقول مملوك باشا انه سيصعد بالمصحف الى الطابق الثانى ليرى هل لديه مثله أم لا . وهناك يفتح المصحف ويعد النقود ، فاذا كانت الرشـــوة كافية ، احتفظ بالمصحف وعاد يقول : « انه فعلا نادر » واذا كانت غير كافية أعاد المصحف الى صاحبه قائلا : « انه وجد أن لديه مثله ! »

وبهذه الطريقة استطاع نسيم ان ينجو !

وفى نهاية الجزء الرابع من الرواية ، وقـــد انتهت الحرب ، نجد أن جوستين قد أطلق سراحها ، ونجدها تسير فى شارع سعد زغلول هى ومملوك باشا ونسيم . لقد رفع الحجر عن نسيم أيضـــا ، وسيســـافر هو وجوستين الى سويسرا حيث يقومان بنشاط أوسع فى التآمر .. أما كيف استولت جوستين على مملوك باشا ؟ انه جوعان للاختـــلاط بالمجتمع الراقى ، جوعان الى التعرف بنساء بيض .. وهذا ما تحققه له جوستين !!

وقد أحسست عندما انتهيت من قراءة الرواية ان المؤلف يشبه الرجل الذى افتتح محلا وأراد أن يجلب له أكبر عدد من الزبائن ، فقرر أن يعرض فيه كل أنواع السلع الممكن بيعها للناس !

كذلك فان لورنس دوريل جمع فى قصته كل أنواع المفارقات وكل أنواع القصص وكل أنواع المدارس الفنية والقصصية المعروفة ..

ماذا تريد مثلا ؟

مغامرات ؟ هناك مغامرات جاسوسية وتهريب أسلحة

واغتيال فى الظلام ومسدسات .

غرام عذرى ؟ هناك قصص حب بالمراسلات التى تستمر عشر سنوات لا يلتقى فيها العاشقان .

شذوذ وجنس ؟ انه موجود فى أكثر من نصف صفحات الرواية !

هناك أيضا حفلات تنكرية تحدث فيها مفارقات غريبة كالقصص الخيالية القديمة ..

هناك أيضا فتاة يقع فى غرامها رجل وتختفى سنة ثم يجدها الرجل فيجد انها بدون أنف ، فينفق عمره فى البحث عن أنف لها .. والبحث عن أطباء يركبونه لها

هناك أيضا جو الموالد والمجاذيب والسحرة والمشعوذين

هناك كذلك قصة ضابط بوليس انجليزى شاذ ، مات .. وتحول قبره بمجموعة مصادفات الى أسطورة تقول انه من الاولياء .. له مولد وله مقام يزار !

كل حيل كتاب القصة وكل مفاجآتهم التى عرفت فى آلاف القصص .. جمعها لورنس دوريل فى روايته بدون استثناء تقريبا !

وبعد ..

ان المؤلف لورنس دوريل يرسم للاسكندرية صورة بنفسجية بديعة ، بكل ما فيها من تفصيلات وضواح وأسماء . محطة الرمل وشوارع سعد زغلول والنبى دانيال والسبع بنات وفندق سيسيل ومطاعم المكس المطلة على البحر ورمال العجمى البيضاء . ولكنه يرسم للمجتمع صورة جارحة هابطة تنزف بالصديد ، ويرسم « للمهاجرين » صورة تنزف بالصديد ، لايكاد المرء يعثر فى روايته على شخصية فيها ولو قليل من مقومات القوة ، أو حتى على شخصية فيها صراع بين القوة والضعف . كل البشر عنده تقريبا مشوهون من الداخل ،

مستسلمون تماما للضعف والنقائص بدون اية مقاومة او صراع . واستكمالا لهذا الاحساس حشد فى قصته عددا لا مثيل له من ذوى العاهات .. ليزا الجميلة الفاتنة عمياء ، سميرة عذراء الاسكندرية بدون أنف ، نيروز شقيق نسيم مشقوق الشفتين ، نسيم نفسه يفقد احدى عينيه خلال الغارات ، وتنتهى القصة ، وهو بعين واحدة ، و « كليا » الرسامة ، تنتهى القصة ويدها التى ترسم بها مصابة !

وبعد ...

هل هو كاتب « عظيم » ؟

أعتقد ان التاريخ الادبى لن يضعه فى مصاف الادباء العظماء ، لأن كاتب القصة العظيم لابد ان تكون فيه صفة هامة جدا ، وهى : احساسك بأنه يتعاطف مع الانسانية الممثلة فى أبطال قصصه كلهم .. او بعضهم .

وهذا ما يفتقده « لورنس دوريل » . انه لا يروى قصة الحياة ولكنه يروى « فضيحتها » . وهو يحاول ان يدس فى نفسك احساسا بالشماتة لا بالعطف .

روسيا والصين

- ١ -

منذ بضعة أيام قال « كارلو باجيتا » عضو الحزب الشيوعي الايطالي ، في المؤتمر المنعقد حاليا في روما : ان حزبنا لديه الشجاعة لكي يقول « الصين » ولا يقول « البانيا » ، ما دام يقصد الصين !

وهكذا أعلن رسميا لأول مرة ومن فوق منبر مؤتمر شيوعي يشهده الروس والصينيون على السواء ، ان كل الحملات الموجهة الى البانيا انما تستهدف الصين.

والواقع ان نبأ الخلاف بين روسيا والصين قد تأكد في العالم الخارجي منذ اللحظة التي عرف فيها ان روسيا سحبت كل خبرائها من الصين ، وكانوا يعدون بالآلاف. فمثل هذه الخطوة الخطيرة ، لايمكن الا أن تخفي وراءها خلافا خطيرا .

واليوم يوشك الطرفان أن يعلنا الخلاف على العالم كله كاملا ، بعد أن جاهدا جهادا عنيفا طوال السنوات الماضية من أجل اخفاء هذا السر الهائل .

وسواء انفجر الخلاف في المستقبل انفجاره النهائي ، أو أمكن التوصل الى حل للقضاء عليه ، فالمهم اليوم أن نفهم أسباب هـذا الخلاف الذي يعد من أكبر وأخطر الاحداث التي وقعت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية..

وقبل محاولة العثور على الاسباب الجدية ، الاساسية ،

(*) كتب هذا المقال عام ١٩٦٢

لهذا الخلاف : يجب ان نضع امامنا ثلاثة اعتبارات :
الاعتبـــار الاول ــ هو ان الخلاف العقـــائدى أو الاستراتيجى الحاد ليس غريبا على الحركة الشيوعية بوجه عام . ففي جميع مراحل الحركة الشيوعية كان يوجد داخلها دائما «يسار» و«يمين» . وفى كل مرحلة كان لابد دائما من «تصفية» الاتجاه الذى يرونه خاطئا ، خصوصا بعد أن تأثرت الحركة الشـــيوعية بالمبـــدأ « اللينينى » الذى يضع وحدة الحركة فوق كل اعتبار.

والحركة الشيوعية فيها ما فى بعض الحركات الدينية من عنصر الايمان الصارم العنيف ، والاعتقاد فى نظرة او قضية يجب ان تغنى صاحبها عن أى نظرة أخرى مهما كان مصدرها ، والتصـــديق فى حقيقة تعلو كل الحقائق الاخرى ، لايمكن أن يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

الاعتبار الثانى ــ هو ان الخلاف بين روسيا والصين بالذات ليس حدثا طارئا .

ولأضرب مثلا قديما ..

ففى سنة ١٩٢٧ ، كانت روسيا تؤيد حزب الكومنتانج الذى يقوده شيانج كاى شيك فى الصين ، لأنه كان القوة الكبرى التى تقاوم الاستعمار فى الصـــين . أما الحزب الشيوعى فلم يكن يمثل يومها الا قلة ضئيلة . وكان رأى ستالين فيما يبدو أن تأييد حركة تحريرية مضمونة النتيجة خير من تأييد حركة شيوعية ليس مستقبلها مؤكدا . وكان الحزب الشيوعى الصينى يرى غير هذا الرأى ولكن الحزب الشيوعى الصينى نفذ رأى ستالين وانضم الى صفوف شيانج كاى شيك . وبدأ شيانج كاى شيك زحفه للاستيلاء على بقية الصـــين ، حتى وصل الى شنغهاى التى كان الاستيلاء عليها قمة النصر .

ولكن كاى شيك لم يكد يستولى على شنغهاى بمساعدة الشيوعيين ، حتى انقض عليهم ، ونفذ فيهم مذبحة رهيبة قضت على الحزب لسنوات طويلة ..

ويومها ، كان ماوتسى تونج بالذات ، هو الذى استطاع أن ينقذ ما تبقى من فلول الحزب ، ويلجأ بها الى الجبال ، ليبدأ من هناك حركته التى انتهت باستيلائه على الصين ..

من ذلك اليوم ، ولد لدى الشيوعيين الصينيين احساس عميق بأن موسكو بعيدة عن فهم « واقع الصين » . وان الحركات الشيوعية الاوروبية لها منابت غير الشيوعية الآسيوية . من ذلك اليوم ولد فى الصين الاحساس بالاستقلال الفكرى عن روسيا فى تفسير النظرية الشيوعية ، وان كان هذا لايؤدى الى الانفصال ، أو عدم التعاون مع روسيا ..

ويقول المؤلف الامريكى «جورج كينان» ، وهو أحد خبراء الغرب فى القضايا الشيوعية ، وقد كان سفيرا فى موسكو وهو الآن سفير فى بلغراد ، يقول فى كتاب هام له اسمه « روسيا والغرب فى عهد لينين وستالين » .. يقول ان موقفا من هذا القبيل تكرر بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، ويوم كانت الصين تكاد تكون مقسمة بنسبة متعادلة بين شيانج كاى شيك وماوتسى تونج ..

يومها — مرة أخرى — لم يكن من رأى روسيا أن يحاول ماوتسى تونج انهاء حكم شيانج كاى شيك بحرب شاملة . أولا ، لأنها لم تكن واثقة من النتيجة . وثانيا لأن أمريكا فى ذاك الوقت كانت تتوسط بين كاى شيك وماو . وكان احتمال تدخلها المسلح فى هذه الحالة كبيرا . ولكن ماو لم يأخذ بهذا الرأى وقال : « ان العدو ليس نمرا حقيقيا ولكنه نمر من الورق » واستطاع

بالفعل أن يلقى كاى شيك وقواته الى البحر ، دون ان تحرك امريكا ساكنا ...

منـــذ ما يقرب من أربعين سنة اذن ، والشيوعية الصينية « حليفة » الشيوعية الروسية ولكنها ليست تابعة لها . وقد كان لها دائما هذا الوزن الخاص داخل المعسكر الشرقى ..

والآن ...

بعد تسجيل هذين الاعتبارين ، فيم الخلاف الآن ، بين روسيا والصين ؟ ..

ان بعض المعلقين يميلون الى تبسيط الأمور تبسيطا يبعد بنا عن الحقيقة ..

يقولون ـ مثلا ـ ان ماو وخروشوف يتنافسان على زعامة المعسكر الشيوعى . وان ماو يعتبر خروشوف وجها جديدا بالنسبة اليه. ويعتبر نفسه الوحيد الباقى من أصحاب « الاضافات » الهامة الى الماركسية .

أو يقولون ان ماوتسى تونج « ستالينى » فى حين أن خروشوف يهاجم ستالين ، أو يقولون ان خروشوف يؤمن بالتعايش السلمى فى حين ان ماو يؤمن بحتمية الحرب .

وهذه كلها تبسيطات تضيع معها معالم الحقيقة ..

ان أبرز أسباب هذا الخلاف هى :

* الحملة على ستالين .
* الكوميونات الصينية .
* الاستراتيجية الدولية .
* الدول المتحررة غير المنحازة .

والصورة الواضحة لهذا الخلاف ، هى اننا بينما نجد الصين ما زالت ترفع صورة ستالين جنبا الى جنب مع صور ماركس وانجلز ولينين ، فى حفلاتها الشعبية

واعيادها السياسية .. نجد ان خروشوف فى الطرف الآخر ما زال يواصل الحملة على ستالين والستالينية ، وما زالت الاحزاب الشيوعية فى شرق أوروبا تطهر صفوفها من الزعماء والحكام الذين تسميهم ستالينيين، بل ان الاتحاد السوفييتي لم يرضه أن يبقى ستالين فى قبره الى جوار لينين ، فأخرجوه بليل ، ودفنوه فى سور الكرملين مع سواه من الراحلين ..

وقد قيل ان الصين اعترضت ـ منذ البداية ـ على أن يثير خروشوف هـذه الحملة المفاجئة ذات الآثار البعيدة على المعسكر كله ، دون أن يستشير مقدما الاحزاب الشيوعية الاخرى . وقيل ان الصين رأت أن الحملة كانت أوسع مما ينبغى ، بحيث انها أصبحت فى رأيهم تهدد وحدة المعسكر الشيوعى . وان الطريقة التى تناول بها خروشوف الحملة جعلت بعض الاحزاب الشيوعية تتجه الى المطالبة لا بمراجعة أخطاء ستالين وحدها ، ولكن بمراجعة النظم الشيوعية ذاتها .. خصوصا الحزب الشيوعى الايطالى الذى يبشر الآن مثلا بنظرية « تعدد المراكز » فى الحركة الشيوعية ، بدلا من الوضع القائم الآن على « المركز الأوحد » وهو موسكو.

واذا كان الرجوع الى بعض النصوص المنشورة « أضمن » من هذه التخمينات ، فاننا نجد أن الحزب الشيوعى الصينى نشر عقب الحملة على ستالين بحثا شرح فيه رأيه فى الموضوع كان أهم ما فيه :

« أولا » : الاعتراف بأن ستالين ارتكب أخطاء خصوصا فى سنواته الاخيرة . ولكن مع تسجيل انه كان مناضلا ماركسيا لينينيا عظيما، حارب خصوم الشيوعية بلا هوادة ، ومع تسجيل انه لايمكن الغاء دور الأفراد فى تحريك عجلة التاريخ الغاء تاما ..

«ثانيا» : الاشادة بالدور البارز الذى قام به ستالين فى الاسراع بعملية التصنيع وعملية تحويل الزراعة الفردية الى زراعة جماعية . ذلك ان هذه المرحلة التى تحملها ستالين هى المرحلة التى تمر بها الصين الآن ، وهى مرحلة تحتاج الى الضغط والتضييق الى حد كبير .. وقد خشيت الصين أن يمتد نقد ستالين الى نقد كل ما يتعلق به ، خصوصا هذه المرحلة بالذات .

« ثالثا » : تسجيل ان ماوتسى تونج غير ستالين . وتسجيل فكرة ان المركزية الشديدة فى القيادة يجب ان تقترن بديموقراطية واسعة تتغلغل فى القاعدة الشعبية ، وان التركيز على مركزية القيادة دون الديموقراطيـــة يؤدى الى ارتكاب الأخطاء التى ارتكبها ستالين ..

« رابعا » : أوضحت الصين نظرية ماوتسى تونج فى المتناقضات . وهى القائلة بأن المتناقضات ستوجد حتى فى المجتمع الشيوعى ، وحتى فى داخل المعسكر الشيوعى . سواء بين الفرد والمجتمع أو بين الدول الشيوعية وبعضها البعض . ولكنها تناقضات غير عدائية كالتناقضات بين الشيوعية والرأسمالية مثلا أو بين العمل ورأس المال فى المجتمع الرأسمالى .

وبهذه النظرية أرادت الصـــين أن ترد على الذين دهشوا من المتناقضات التى كشف عنها الهجوم على الستالينية . أى انه بينما بدت الحملة الروســية على ستالين حملة على شخص ، برزت الصين بمحاولة تقديم تفسير نظرى ماركسى لها ..

الخلاف الأهم من ذلك كان على : الكوميونات !

يعرف العالم ــ وتعرف الكتب والنظريات ــ أنواعا كثيرة من الاشتراكية ولكن العالم ، والكتب والنظريات ، لا تعرف حتى الآن الا شيوعية واحدة ..

وذلك أن الاشتراكية لها الآن تطبيقات كثيرة ، فى حين ان الشيوعية لم تطبق قط ، فى أى مكان من العالم ..
هناك اشتراكية تؤمن بوجود ملكية خاصة ، بكميات مختلفة ، الى جانب الملكية العامة ، وبوجود الحافز الفردى الى جانب الحافز الاجتماعى ..
وهناك اشتراكية لا تؤمن بوجود الملكية الخاصة بتاتا. ولكنها مع ذلك تؤمن بوجود الحافز الفردى الطبيعى . ولذلك فان أقصى ما تطلبه هو أن ينال كل فرد من خيرات المجتمع حسب مجهوده وكفاءته وامتيازه .

أما الشيوعية فهى تختلف عن هذا كله اختلافا فى «النوع» لا فى « الدرجة » فهى تؤمن ان الانسان نفسه بعد مرحلة تطور معينة سوف يتغير بحيث يصبح الحافز الفردى إمرا لا قيمة له وبالتالى يصبح ممكنا تطبيق شعار « من كل فرد حسب قدرته ، ولكل فرد حسب حاجته » .
أى أن ينال الناس نفس القدر من خيرات المجتمع ، مهما اختلفت جهودهم وقدراتهم .
والاشتراكى يؤمن بهذه الصورة أو تلك من صور الاشتراكية بوصفها شكلا مثاليا للحياة . أما الشيوعى فهو يعتبرها مجرد مرحلة . أما هدفه الأمثل فهو : المجتمع الشيوعى ، بالصورة التى سبق تلخيصها ..

ومن الطبيعى ـ بناء على ذلك ـ أن تكون عملية الانتقال الى تطبيق الشيوعية حدثا بالغ الخطورة بالنسبة للشيوعى .. حدثا يتعرض للمناقشة والجدل والخلاف الحار ، بوصفه اخطر نقطة تحول تاريخية فى نظره ، والغاية التى كافحت وناضلت الشيوعية الدولية من اجلها اكثر من مائة سنة ..
وروسيا ، بعد أربعين سنة من ثورتها ، ظلت تقول

انها ما زالت فى مرحلة الاشتراكية وان مرحلة الشيوعية ما زالت بعيدة ..

ولكن الصين فاجأت المعسكر الشيوعى منذ سنوات بأنها قد اكتشفت « الخلية الاولى » فى بناء الشيوعية. وانها بدأت بالفعل فى بناء هذه الخلية الشيوعية الاولى .. وهى : الكوميون ..

فقد قال القرار الذى أعلن بدء انشاء الكوميونات فى ٢٩ أغسطس سنة ١٩٥٨ : « ان الهدف الاول من اقامة الكوميونات الشعبية هو الاسراع فى عملية البناء الاشتراكى والتمهيد النشيط للانتقال الى الشيوعية . ان اقامة الشيوعية فى الصين لا تبدو الآن هدفا بعيد المنال ، وعلينا أن نستخدم عملية اقامة الكوميونات لاكتشاف الطريق العملى الى الشيوعية » .

وليس هذا هو مجال الحديث المفصل عن نظام «الكوميون» وهى الوحدة الشيوعية للمجتمع . ولكن يكفى القول هنا ان الكوميون يختلف عن المزرعة الجماعية فى عدة نواح أساسية . أولها ، انه أكبر حجما من المزرعة الجماعية بكثير . وثانيها ـ بالتالى ـ انه يجمع أنواعا مختلفة من النشاط من الزراعة الى تربية المواشى الى مصانع صهر الحديد الصغيرة البدائية . وثالث هذه الفروق ان الملكية الفردية فيه معدومة تماما . على ان أخطر الفروق هو ان جانبا من « الأجر » الذى يأخذه الفلاح فى الكوميون يأخذه « عينا » لا نقدا . فالكوميون يصرف له حاجته من الطعام الذى يقدم فى قاعات كبيرة للجميع على السواء كما يصرف له حاجته من الثياب.. الى آخره ..

وهنا الفارق الخطير . فالصين فى الكوميونات خطت مرحلة نحو نظام : « لكل فرد حسب حاجته » بصرف

النظر عن عمله . لم تخط اليه مائة فى المائة ولكن طبقته بمقدار خمسين فى المـــائة تقريبا اذ جمعت بين الأجر النقدى الذى قد يختلف والأجر العينى المتســـاوى . وكانت هذه الخطوة بالذات محل فخر «نظرى» كبير فى الصين ، نسبته الكتابات هناك الى ماوتسى تونج شخصيا

فهل يمكن ــ حقـــا ــ أن تقفز الصين الى مرحـــلة الشيوعية ، هكذا بعد أقل من عشر سنوات من وصول الشيوعيين الى الحكم ، والشيوعيون فى روسيا ، بعد أربعين سنة من وصولهم الى الحكم ، وبعـــد التطور الاقتصادى الــكبير ما زالوا يرون أنهم لم يصلوا الى المرحلة التى تسمح لهم بهذا الانتقال ؟

ان الجذور الفكرية لهذه المحاولة الصينيـــة البالغة العنف والجراة .. مصـــدرها رأى الشيوعيين فى ان الثورة يجب ألا تتوقف عند مرحلة من المراحل ، تلتقط أنفاسها وتدعم نفسها وتؤجل أهدافها النهـــائية ، لأن هذا قد يؤدى الى اضعاف الطاقة الثورية للجماهير ، والى استرخاء القيادات واكتفائهـــا بالانتصـــارات التى حققتها ..

ومن الجذور الفكرية لهذه المحاولة أيضا ، ان الصين تعتقد أنها اكتشفت الاسلوب الأمثل لتطبيق الماركسية فى ظروف البلاد الآسيوية بالذات . فهى فى الواقع قد رفضت التقيد بالنموذج الروسى فى التخطيط والتنمية الاقتصادية . وانتهجت أسلوبا خاصته استغلال كثافة السكان وتحويل وفرة الأيدى العاملة الى سلاح أساسى فى البناء . فكانت اقامة السدود مثلا لا تنتظر الآلات الحديثة الغالية ولكنها تقام بملايين العمال ، بالمعـــاول والأيدى والمقاطف البدائية ، أى تعويض الآلات بوفرة الأيدى العاملة . كذلك عمدت الى استخدام الوســـائل

البدائية جنبا الي جنب مع الوسائل الحديثة واطلقت على هذه السياسة سياسة المشى على قدمين « القـــديم والجديد معا » ومن مجموع هـذه الجهود الهائلة ، اعتقدت الصين أنها تستطيع أن تختصر مسافات كبيرة من الزمن اللازم لعملية التقدم ، وانها تستطيع أن تطبق سياسة الثورة التى لا تتوقف ، لأنها اذا توقفت عنـد مرحلة ، فهذه المرحلة ستوجد بنفسها اجهزتها الملائمة لها والتى قد تصبح فى حد ذاتها عقبة فى طريق السير الى مرحلة أخرى تالية ..

ووراء هذه الملامح التى أرويها هنا فى سرعة خاطفة توجد تفسيرات وتفصيلات وتبريرات نظريةومذهبيةطويلة

ومن البديهى ، بعد هذا ، أن تتوقع الصين أن تكون تجربتها هى النموذج الذى يجذب الاحزاب الشيـوعية الآسيوية والافريقية على الأقل .

ولـكن الحزب الشيوعى الروسى ، بوصـفه القائد الوحيد المعترف به فى الحركة الشـيوعية ، كان له فى تجربة الـكوميونات رأى آخر ..

لم تعلن روسيا رأيها بصراحة فى هذا الموضوع ولم تتخذ منه موقف الهجوم العلنى .

ولـكن كثيرا من التصريحات التى قالها خروشوف وغيره من الزعماء الروس كانت تشير من طرف خفى الى هذه النقطة ..

والذى يمكن تصـويره من راى الاتحاد السوفييتى هو انه يرى فى تجربة الـكوميونات الصينيـة انحرافا يساريا خطيرا . وان سياسة « احراق المراحل » أى عدم الاعتراف بأنه لابد من المرور بمراحل معينة من التطور نحو الشيوعية ، هى سياسة خطرة قد ترتد على النظام بأكمله ..

ويركز الاتحاد السوفييتي نقده على ما تحاوله الصين من تجاهل « الحافز الفردى » ودوره فى الانتاج ، فى هذه المرحلة المبكرة من تطورها . ويستشهد على ذلك بقول لينين : « أنه من العبث أن نظن ان مجرد اسقاط الرأسمالية معناه ان كل فرد سيعمل كما يجب أن يعمل من أجل المجتمع فقط حتى ولو لم تكن له مصلحة شخصية فى العمل. وانه من غير الحافز الفردى لايمكن تحريك الملايين الى مزيد من العمل » .

وقد سبق للاتحاد السوفييتي أن مر بمرحلة من الصراع حول فكرة « المساواة التامة » فى الأجور . واستمر هذا الصراع من سنة ١٩٢٥ تقريبا الى حوالى سنة ١٩٣٤ ، وكان «تروتسكى» والاقلية التى يتزعمها يميلون الى هذه المساواة .. فى حين كانت الاغلبية التى يمثلها ستالين ترى ان هذه « المساواة المبتذلة » فكرة غريبة على الاشتراكية ، وانه فى مرحلة البناء والتصنيع بالذات لايمكن أن تنجح بغير تشجيع الخبراء والفنيين والعمال المهرة والمديرين الأكفاء ، وأن هذا التشجيع لابد أن يكون ماديا ، فى صورة أجور أعلى وأحسن ، وفى خطاب ستالين الذى ألقاه فى مؤتمر الحزب الشيوعى الروسى سنة ١٩٣٤ قال : « ان اللعب بكلمة المساواة على هذا النحو الساذج ليس الا لعبا بالنار » ووصف هذه التسوية المطلقة بين الأجور بأنها «رجعية ، وسخافة من سخافات البورجوازية الصغيرة لاتليق بالماركسيين»

ويومها ، كان هذا الاتجاه قد انهزم فى روسيا بالفعل، وكان تروتسكى قد نفى الى الخارج ، وأصبحت « التروتسكية » أقسى تهمة توجه الى شيوعى روسى .

وأول أمس فقط ، فى اجتماع مجلس السوفييت الأعلى فى موسكو، وقف «فاسيلى تولستيكوف» السكرتير

الاول للحزب الشيوعي في لينتجراد وهاجم قادة البانيا « ومن يؤيدونهم » أى الصينيين ، واتهمهم بأنهم « تروتسكيون ومنحرفون يساريون ، ومتجمدون مذهبيون ، يخفون أنفسهم وراء تعبيرات ثورية متطرفة »

وعندما نراجع الآن الكثير من القرارات التى اتخذها خروشوف بالنسبة للريف ، نجد انها تتجه الي تشجيع الحافز الذي يدعو الفلاح الى العمل . وفى مقدمة ذلك رفع أسعار المواد الغذائية التى ينتجها الريف ، والغاء المحطات الحكومية التى كانت تؤجر الجرارات والآلات الزراعية للمزارع بحيث تصبح مملوكة لها .

وفى احدى خطب خروشوف روى انه كان يزور عمته فى الريف فوجد لديها أشجار تفاح بديعة فى حديقتها الخاصة ، ولكن عمته قالت انها ستقطعها لأنها لا تدر عليها اي ربح واستخلص خروشوف من ذلك أن أشجار التفاح البديعة يمكن أن تقطع وتفقدها البلاد لأنها لا تدر على الفلاحين أي فائدة .

ويومها وصف خروشوف الذين يعارضونه فى هذه الاجراءات بأنهم «حرفيون ، لايشمون رائحة الحياة» .

وفى المؤتمر الواحد والعشرين ، نجد أن خروشوف قد شن هجوما مضادا ضد هذا الاتجاه الصينى .

فمن جهة شرح رأيه نظريا فى مسألة الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية فقال :

أولا ــ انه لابد من التدرج فى الانتقال الى الشيوعية .. اي لابد من السير خطوة خطوة ..

ثانيا ــ انه ليس معنى ذلك انه يوجد حائط عال بين المرحلتين .. ذلك ان المرحلة الثانية تنمو من الاولى « وليس معنى الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ان نغلق بابا ونفتح بابا آخر فنكون قد انتقلنا » .

ثالثا ـ انه يجب عدم اجهـــاض التطور واحراق المراحل : فلها سرعة ولها بطء ..

ثم ركز خروشوف حديثه فى التقرير على نقطة اخرى هى : ان كل نظام وكل تقدم لابد أن يتوافر له الاساس المادى اللازم من وفرة الانتاج · فلكى تصبح المساواة فى التوزيع ممكنة لابد أن يصل الانتاج الى درجة عالية تكفى الجميع. وهذا هدف لن تبلغه روسيا ـ كما قال التقرير ـ الا بالتصنيع الكامل للبلاد ، مدنها ، وريفها ، وبرفع الطاقة الانتاجية للعامل الى أقصى حـــد ، باستخدام الطاقة الذرية فى الاغراض السلمية ، وبتحقيق درجة عالية جدا من التنظيم الادارى والعـــلمى ، وبتوزيع الصناعات توزيعا عادلا على جميع أنحاء البلاد .

وقد أطلق خروشوف على هذا المؤتمر : مؤتمر بناة الشيوعية . ولكن التقرير أعلن ان هـــذه المهمات التى لابد أن تسبق الشيوعية ستستغرق عشرين سنة كاملة ! وبشرط أن يزيد الدخل القومى ٤٠٠ ٪ فى هذه السنوات العشرين !..

وقال خروشوف عن « المتسرعين » : اذا أصـــبح الزعماء مغرورين ، وارتكبوا الأخطاء ، وشوهوا التعاليم الماركسية اللينينية فيما يتعلق ببناء الاشتراكية والشيوعية فسوف يستغل أعداء الشيوعية هذه الاخطاء كما استغلوها سنة ١٩٥٦ . وكان يشير بذلك الى ثورة المجر .

وبعد هذين السببين الـكبيرين المتعلقين بالسياسة « الداخلية » تصل الى الاسباب الخطيرة ، التى لعبت الدور الاكبر فى الخلاف بين روسيا والصين والتى تطفو على سطح الاحداث بشدة هذه الايام ..

وهى الخلاف بين الدولتين على السياسة التى يجب أن تتبع نحو الدول المحايدة ..

والسياسة التى يجب أن تتبع نحو المعسكر الغربى .

روسيا والصين

- ٢ -

قال ماوتسي تونج لأول مرة كلمته المشهورة : « ان العدو ليس الا نمرا من الورق » .. وذلك فى سنة ١٩٤٦ ، حين شن هجومه الاخير على قوات شيانج كاي شيك التى كانت تفوق قواته عددا وعدة ، وكيف انه ظهر ان قوات شيانج كاي شيك كانت بالفعل «نمرا من الورق » ، اذ لم تلبث أن انهارت انهيارا سريعا.

وفى هذا الاسبوع قال خروشوف : « أن هذا النمر الذي يقولون انه نمر من الورق ، له هذه المرة أسنان ذرية » .

وردت صحيفة صينية بقولها : « ان هذه الاسنان الذرية لا تدخل الرعب فى قلوبنا » ...

وفى هـذا الاسبوع ايضا ، اتخذ الحزب الشيوعى الفرنسى أول قرار علنى يتخذه حزب شيوعى كبير، ضد الصين بصراحة . وقد قال القرار : « ان الرفاق الصينيين ما زالوا يصرون على التشكيك علنا فى سياسة التعايش السلمى ، وضرورة البحث عن حلول للمشاكل الدولية عن طريق المفاوضات كما يشككون فى امكانية الانتقال الى الاشتراكية بالوسائل السلمية ، وفى ضرورة القضاء على سياسة عبادة الفرد المتخلفة عن الستالينية»

كما ان جريده « برافدا » انتقلت من التلميح الى

التصريح ، ومن استخدام اسم البانيا الى توجيه النقد المباشر للصين ...

وبرغم تعدد أسباب الخلاف ، وتشعب جذوره ، الا ان الخلاف حول السياسة الدولية بالذات ، هو الذى وصل بالأزمة الى هذا الحد العنيف ...

فيم الخلاف ؟..

ان روسيا والصين كلتيهما دولتان شيوعيتان ، ومعنى ذلك أن كلا منهما تؤمن بأن العالم كله سوف يتحول يوما ما الى الشيوعية ، وان كلا منهما ـ وكل حزب شيوعى على وجه الارض ـ يجب أن يناضل من أجل تقريب هذا اليوم .

ولكن الشيوعى يؤمن بنظرية يعتقد انها علمية تماما. هى الماركسية اللينينية ، بمعنى انه اذا أحكم أى حزب شيوعى فهم هذه النظرية وتمكن من تطبيقها التطبيق السليم ، فهى حتما وبالتأكيد تؤدى الى النتيجة التى يرجوها .

ولهذا ، ففى كل مرحلة يجب أن يتوقف الشيوعيون لتقدير عدة أشياء والاتفاق عليها : ما هى طبيعة المرحلة التاريخية التى يواجهونها ـ ما هى القوى الموجودة التى تؤثر فى هذه المرحلة .. وبالتالى ينتقلون الى تحديد موقفهم : هل يتجهون الى اهدافهم رأسا .. أو يؤجلونها؟ هل يحاولون الوصول اليها بالعنف .. أو بالسلم ؟

وفى سنة ١٩٥٧ ، طرح الشيوعيون على أنفسهم هذه الاسئلة .. فاختلفت اجابة الشيوعيين الصينيين عن الشيوعيين الروس .. ومن يومها والخلاف يتفاقم ..

ولكن لماذا طرح الشيوعيون هذه الاسئلة من جديد ، واختلفوا عليها سنة ١٩٥٧ ؟

ان العلم الحديث يغير الحياة وفى تلك السنة ، حقق

العلم معجزة أخرى ..
هذه المعجزة هى الصواريخ عابرة القارات ...
لقد أصبح معروفا ان كلا من روسيا وأمريكا تملك صواريخ يمكن اطلاقها فتصيب قلب العدو ، بعد دقائق قليلة ، دون أن يكون هناك أى دفاع يستطيع أن يصدها

معنى ذلك ان القنابل الذرية – لو قامت الحرب – لن تحملها طائرات ، يجب أن تطير الى أهدافها ، وبالتالى يمكن اسقاطها فى الطريق .. بل ان هذه القنابل الذرية سوف تحملها صواريخ ، تعد بالمئـات ، تستطيع أن تدمر فى غمضة عين كل المدن الكبرى ، والمراكز الصناعية ، والقواعد العسكرية ، والمرافق العامة. وقد يكون حساب القتلى فى يوم واحد بمئات الملايين ..
هكذا اكتمل التطور المخيف المنتظر فى فن الحروب . ذلك التطور الذى بدأ بتفجير أول قنبلة ذرية وانتهى باكتشاف الوسيلة التى تنقل القنابل الذرية الى أقصى أنحاء الارض ، فى دقائق ودون وجود أى دفاع نافع ضدها ...
وبهذا التطور العلمى ، اكتمل التطور الفكرى الجديد داخل الحزب الشيوعى الروسى فى الاتحاد السوفييتى بوجه عام ، ذلك التطور الذى تبناه وتزعمه خروشوف، خصوصا منذ خطابه الشهير ضد ستالين سنة ١٩٥٦..

لقد أعلن المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى الروسى ، مع نقده لستالين ، انه يؤمن بثلاثة مبادىء جديدة هى :
أولا – ان الحرب لم تعد حتمية الوقوع ...
ثانيا – انه لابد من انتهاج سياسة التعايش السلمى بين الدول ذات النظم الاجتماعية المختلفة .
ثالثا – ان الاشتراكية وبالتالى الشيوعية لايلزم أن تتحقق بالثورة اللينينية ولكن يمكن أن تتحقق بوسائل

شتى ، بما فيها الوسائل السلمية ، والوسائل البرلمانية

ما هو الجديد فى هذه المبادىء بالنسبـة للأحزاب الشيوعية ؟

الجديد هو انالفكرالشيوعىكان يعتقد بصفة قاطعة :

أولا ـ انه طالمـا كان هناك استعمار وهناك دول راسمالية ، فان الحروب سوف تقع وتتوالى بالتأكيد. فالحرب اذن حتمية الوقوع. انالاستعمار والرأسمالية لايمكن أن يقبلا الهزيمة بشكل سـلمى . ولن تختفى الحروبنهائيا الا باختفاء الراسمالية واختفاء الاستعمار

ثانيا ـ ان الرأسـمالية لايمكن ان تسلم فى المجال الداخلى بسهولة . ولذلك لابد من سلسلة اصطدامات عنيفة ، وربما حرب اهلية ، قبل ان تنهزم الرأسمالية وينفتح الطريق الى الشيوعية ..

ولكن الروس وجدوا ان ثمة عوامل كثيرة طرات على الموقف ... اكبرها عاملان :

العامل الاول ، هو هـذا التطور الحربى المخيف ، الذى يهدد البشرية فى حالة الحرب بالفناء . فلا يمكن ان يقال ببساطة والحالة هذه ان الحرب هى القطار الذى يحمل الشيوعية الى اهدافها ، بما تحمله الحرب من دمار للراسمالية وكشف لمتناقضاتها . الحرب هـذه المرة مختلفة تماما . انها قـد تدمر الرأسـمالية والشيوعية معا .

العامل الثانى ، هو التقـدم الاقتصـادى للاتحاد السوفييتى ، وفى رأي الروس ان التقدم الاقتصادى فى بلادهم سوف يعطى للمعسكر الشرقى جاذبية أكبر ، وسوف يضاعف نفوذه ويضاعف قدرته على التأثير فى مجريات الأمور فى العالم . وبالتالى تصـبح الشيوعية قادرة على اجتذاب ملايين جديدة من الناس .

وفى المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعى فى موسكو ، أكد خروشوف هذه النقطة بل وربطها بفكرة ان الحرب لن تصبح حتمية حتى فى وجود النظام الرأسمالى ، فقال : « وحين يصبح المعسكر الشرقى منتجا لأكثر من نصف الانتاج الصناعى فى العالم كله ، سوف توجد بالفعل الفرصة لاستبعاد احتمال الحرب نهائيا ، حتى لدى أشد الرأسماليين تطرفا . وهكذا تنتهى الحروب نهائيا ، رغم استمرار وجود الرأسمالية فى بعض البلاد » .

هكذا وصلت روسيا الى فكرتها فى التعايش السلمى. وفى التركيز على النضال ذى الطابع السلمى والاقتصادى. وفى العمل على منع الحروب . وقد لخص «كوزلوف» نائب خروشوف هذا الموقف حين قال منذ أسبوعين فى روما : « ان الذين يثقون فى مستقبلهم ، ليسوا فى حاجة الى اللعب بالقنابل الذرية » .

ولكن الصين لها رأى آخر تماما . انها ترى فى هذه التجديدات والتطورات انحرافا عن النظرية الماركسية اللينينية . انها ترى أن العالم لم يتغير تغيرا «نوعيا» عما كان عليه منذ أربعين سنة . فالاستعمار ما زال قائما ، والرأسمالية ما زالت قائمة. وبالتالى فالحروب ما زالت حتمية الوقوع ، ولا يجب الخوف منها . واذا كان هناك تغير طرأ فهو أن المعسكر الشيوعى قد أصبح قويا ، الأمر الذى يجب أن يجعل الشيوعيين أكثر شجاعة واقداما على تحدى الغرب ، وليس العكس ..

فى سنة ١٩٥٧ ، طار ماوتسى تونج الى موسكو ، ليبشر بهذه الآراء ، أمام الاحزاب الشيوعية المجتمعة هناك ، بمناسبة مرور ٤٠ سنة على ذكرى الثورة الشيوعية ..

قال ماوتسى تونج فى ذلك الوقت : انالمعسكرالشرقى أصبح بالفعل أقوى من المعسكر الغربى .. « ان أبرز سمة فى الموقف العالمى اليوم هى ان هناك نوعين من الرياح يسودان العالم : رياح شرقية ، ورياح غربية . واننى أعتقد ان الرياح الشرقية تعلو اليوم على الرياح الغربية . بمعنى ان القوى الشيوعية أعظم بكثير من القوى الاستعمارية » .

واسترجع ماو أمام مستمعيه قصة سنة ١٩٤٦ ، والتعبير الذى أطلقه حينذاك عن « النمر الورق » ..

ثم قال ماو : « لقد خرجنا من تجارب صراعنا ضد العدو بصياغة نظرية لنا تتلخص فى الآتى : يجب أن نستهين بالعدو ككل ، وفى المدى الطويل . ولكن يجب أن نحسب حسابه كاملا ولا نستهين به أبدا فى المدى القصير ، وبصدد كل حالة قائمة بذاتها . تماما كتناول وجبة من الطعام . فى البدء يقرر المرء انه يستطيع أن يأكل كل الوجبة الموضوعة أمامه . ولكنه لايأكلها فى « قطعة » واحدة ، بل يأكلها قطعة .. قطعة ! وهـذا ما يسمى فى الادب العسكرى بتحطيم الأعداء واحدا بعد واحد » .

واذا تركنا هذا الخطاب جانبا ، فانه يمكن تصوير موقف الصين من قضية الحرب والسلام كالآتى :

أولا ــ ان الحرب ما زالت حتمية . ذلك انه طالمـا هناك استعمار فسوف تنشب ولاشك حروب تحريرية ووطنية . سوف تضطر الحركات الوطنيـة حتما الي استخدام السلاح . ومعنى ذلك قيام حرب محلية . وهنا سوف يضطر الغرب بالتأكيد الى أن يخوض هذه الحرب المحلية . وفى هذه اللحظة لابد أن يتقدم المعسكر الشرقى ليخوض هذه الحرب المحلية فى مواجهة الغرب.

والحروب المحلية تنتهى فى هذه الحالة بهزيمة الغرب ..

ويستطرد منطق الصين قائلا : ان الخوف من أن يؤدى هذا الى قيام حرب عالمية ذرية ، خوف لا مبرر له . ذلك ان الغرب لن يخاطر بتحويل الحرب المحلية الى حرب ذرية عالمية ؛ ازاء التطور الجديد الذى طرا على قوة الاتحاد السوفييتى . والغرب يمكن أن يقبل الهزيمة فى حرب محلية ويجد هذا خيرا من نشوب حرب عالمية ذرية ، كما حدث حين تراجع الغرب فى حرب السويس .

فما يقوله الروس من ان العالم ليس أمامه الا احد طريقين : اما حرب عالمية ، واما تعايش سلمى ، ليس صحيحا فى رأى الصين ، فالصينيون يرون أن ثمة طريقا ثالثا ، هو طريق الصراع العنيف ، والضغط المستمر على كل مواقع الغرب ، ودفع الازمات المحلية الى أقصى حد ، والمخاطرة بدخول حروب محلية هنا وهناك ..

وترى الصين أيضا ان المبالغة فى الخوف من حرب ذرية ، ورفع شعارات التعايش السلمى بأى ثمن ، والبحث عن حلول وسط مع الغرب ، انما يؤدى الى اطفاء حدة الصراع ، واخماد جذوة الحركات الشيوعية، والقضاء فى المدى الطويل على أمل قيام شيوعية تسود العالم ..

وقد وصلت روسيا فى بيان المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعى الى حد القول بأن « سياسة التعايش السلمى يؤيدها أيضا جناح هام من البورجوازية فى البلاد الرأسمالية ، وهى البورجوازية التى تنظر نظرة متزنة الى توازن القوى الراهن والى اخطار اى حرب عالمية حديثة » وهذا ما ترفضه الصين بتاتا ، فالبورجوازية هى البورجوازية ، لايوجد فيها فريق

متطرف وفريق متزن .

وقد ردت روسيا على هـذا المنطق الصينى فيما يتعلق بالحروب المحلية ، بمنطق آخر .. فقالت : انه يجب التفرقة بين« الحروب المحليـة » و « الحروب التحريرية » .

فالحرب المحلية هى التى تقوم بين دولتين ، والتى يمكن أن تتدخل فيها دول المعسكرين تدخلا مسلحا . وهذا النوع من الحروب يجب منعه والحيلولة دون وقوعه ، لأنه يحمل فى طياته خطر قيام حرب عالمية ..

أما الحرب التحـريرية ، فهى التى يجب أن يهرع المعسكر الشرقى الى مساعدتها . مع العمل دائما على حصرها بحيث لا تتحول الى حرب من نوع آخر ..

وفى مجال هذا الجدل ، كان لابد أن يضرب كل فريق بعض الأمثلة.. فحرب السويس مثلا.. تتخذها الصين دليلا على ان الغرب يمكن أن يقبـل الهزيمة فى حرب محلية تورطت بالعدوان فيها دول كبرى مثل انجلترا وفرنسا مع دولة صغيرة هى اسرائيل ، فى حين تتخذها روسيا دليـلا على امكان انتصار الحركات التحريرية ضد الاستعمار دون الحاجة الى تدخل عسكرى مادى من المعسكر الشرقى ..

وثورة العراق.. تقول الصين ان عدم اسراع روسيا الى التدخل أو اعلان عزمها على التدخل ، جعل أمريكا وانجلترا ترسلان قواتهما الى لبنان والاردن دون خشية

ولكن روسيا تستخرج من احداث العراق عبرة أخرى. فقد اندفع الشيوعيون العراقيون تحت تأثير الصين الى المطالبة بالاشتراك فى وزارة عبد الكريم قاسم استعدادا للاستيلاء على الحكم بأكمله ، فكانت النتيجة رد فعل هائل ضدهم فى داخل العراق نفسها وفى البلاد العربية

بوجه عام . ادى الى تأخير موقفهم هناك سنوات طويلة

واليوم يصف الصينيون موقف روسيا خلال أزمة كوبا بأنه موقف انهزامى . بينما يرى الروس انه موقف مسئول أدى الى انقاذ العـــالم من شـــبح الحرب ، ويسائلون الصين : لماذا اذن تترددون فى طرد الانجليز مثلا من هونج كونج ؟

والملاحظ ان تحليلات الصين كلها لا ترى فى الموقف الا الشرق والغرب . الشيوعية والاستعمار. فهى تهمل تماما وجود القوى الوطنية الثورية الاخرى فى البـلاد المتحررة ، وهذا يقودنا الى نقطة أخرى فى خلاف روسيا والصين : الخلاف حول البلاد المتحررة ، غير المنضمة الى الشرق أو الغرب .

هنا أيضا ، نجد الخلاف حول قضية علاقات الشرق بالغرب ، ينعكس على قضية علاقات الشرق بالبـلاد المتحررة .

فالاتحاد السوفييتى ، وقد قبل مبدأ الوصول الى حلول وسط مع المعسكر المعادى له وهو المعسكرالغربى، وقال ان هناك « بورجوازيين متزنين» فى المعسكر الغربى ذاته ، كان من الطبيعى أن تكون لهم نفس النظرة الهادئة الى قوى أخرى ليست فى المعسكر الغربى ، بل متمردة على المعسكر الغربى ، هى البلاد المتحررة ، الخارجة من نير الاستعمار ، والتى ترفض الانحياز الى هــذا المعسكر أو ذاك ..

لقــد اعترف الاتحاد السوفييتى بهذه البـلاد على مستويات كثيرة ...

اعترف بها فى المجال الواقعى ، سواء بتأييد حركاتها التحررية دون اشتراط أن تكون شيوعية .. أو بتقديم المساعدات الاقتصادية غير المشروطة لها ..

ثم اعترف بها على مستوى السياسة الدولية كقوة ذات كيان وذات أثر مادى ومعنوى .. وظهر الاعتراف هذا حين اقترح الروس ــ مثلا ــ أن يكون للأمم المتحدة ثلاثة سكرتيرين بدلا من سكرتير واحد : سكرتير شرقى وسكرتير غربى وسكرتير من الدول غير المنحازة ، وحين اقترحوا ــ فى مؤتمر نزع السلاح ــ تمثيل الدول غير المنحازة لأول مرة جنبا الى جنب مع دول الشرق والغرب

وفى النهاية ، اعترف الروس بهذه الدول اعترافا « عقــائديا » نظريا ، وذلك فى برنامج المؤتمر الثانى والعشرين للحزب .

ففى هـــذا البيــان ، ترك الروس جانبــا تعبــير « البورجوازية الوطنيــة » التى يعتبرها الشيوعيون « قصيرة العمر نسبيا فى الكفاح السياسى والوطنى » وابتكروا تعبيرا آخر هو « الديمقراطية الوطنيــة » . ووصفوا البلاد ذات النظم « الديمقراطية الوطنية» بأنها تلك التى « تدافع بشدة عن استقلالها الوطنى السياسى والاقتصادى ، وتكافح ضد التكتلات العسكرية وضد اقامة أى قواعد عسكرية فى أراضيها ، وتكافح تسلل الاستعمار الجديد ، وترفض الاســاليب الرجعية فى الحكم ، وتبيح لمواطنيها فرصة العمل من أجل الاصلاح الزراعى والتغيير الاجتماعى » .

هذه النظم التى ليست اشتراكية ولا شــيوعية ولا رأسمالية ، فى رأى روسيا ، لابأس أن يساعدها الاتحاد السوفييتى الى أقصى حد مستطاع ، لأنها فى رأيه تجتث نفوذ المعسكر الرأسمالى ، وتتجه الى عدم الانحياز . ثم ان الاحزاب الشيوعية فيها ضعيفة جدا ، الأمر الذى يجعل أى وثبة شيوعية فيها الى الحكم مستحيلة وفى رأى الاتحاد السوفييتى ان هــذه البلاد سوف تزداد

تأثرا بالاتحاد السوفيتي ، كلما زادت قوة الاتحاد السوفيتي الاقتصادية ، تطبيقا لنفس الفكرة التي سبق سردها بالنسبة للمعسكر الغربي ذاته .

أما الصين ، فهي لاتوافق على هذا الرأي ، فهي تعتقد أن النظم غير الشيوعية غير قادرة على احداث أي تغيير اجتماعي في بلادها ، وان مساعدات الاتحاد السوفيتي لهذه النظم ، كمساعدات الغرب تماما ، سوف تؤدي الى تقوية نظم غير شيوعية ، بل وقد تؤدي نهائيا الى تفويت فرصة قيام حكم شيوعي ، ولذلك فالاسلوب السليم في رأيها هو رفع درجة الضغط على هذه البلاد لوضعها في الموضع الذي تضطر فئاتها الاجتماعية الى الاختيار فيه بين الشيوعية وبين الرأسمالية .. بين الانحياز للشرق أو الانحياز للغرب.

ونفس الخلاف نجده ــ للمرة الثالثة ــ بصدد موقف الاحزاب الشيوعية الكبيرة في أوربا ...

فالصين تنتقد هذه الاحزاب وتتهمها بأنها تناضل من أجل أهداف « ديموقراطية » لا من أجل أهداف شيوعية. هذا في الوقت الذي نجد فيه الحزب الشيوعي الفرنسي ــ مثلا ــ يذهب في محاولة التفاهم مع الحزب الاشتراكي الفرنسي الى حد انه اعلن هذا الاسبوع انه يعتبر أن تمسك الحزب الاشتراكي بحلف الاطلنطي وبالسوق الاوروبية المشتركة لا يقف عقبة دون تفاهمه مع الحزب الشيوعي ...

هكذا ، نرى أن الصين بوجه عام ترى أن الوقت مناسب للهجوم الشيوعي الشامل في شتى الجبهات ، في حين أن روسيا ترى أن الوقت ليس مناسبا لمثل هذا الهجوم ...

ومرجع ذلك أن الصين ترى أن العالم لم يتغير كثيرا ،

فى حين آن روسيا ترى أن العالم قد تغير كثيرا .

ولهذا تتهم روسيا الصين « بالحرفية » أى التمسك بحرفية المبادىء ، فى حين أن الصين تتهم روسيا « بالتحريفية » .. أى تحريف المبادىء الاساسية بما يناسب أهدافها السياسية ..

روسيا متفائلة ، ترى ان التعايش السلمى ممكن ، وانها تستطيع أن تصل الى اتفاقات مع الغرب تمنع الحرب ؛ وتترك النظم الاجتماعية لامتحان التنافس السلمى .

والصين متشائمة ، ترى ان الوصول الى اتفاقات مع الغرب أمر مستحيل وان الشيوعيين سيعودون يوما الى موقفها وهو : مواصلة القتال فى سبيل نشر الشيوعية ...

الصين تتهم روسيا بانتهاج سياسة « استسلامية » كما قالت جريدة الشعب الصينية منذ أيام .. فى حين أن روسيا تتهم الصين باللعب بالنار .. نار الحرب الذرية !

بين الصين والهند

هل ينهار الحياد بعد هذه الحرب الصغيرة بين الهند والصين ؟

هل تتحول هذه الحرب المحدودة ، الى حرب غير محدودة بين شعبين تعدادهما ألف مليون ، كل منهما فى حاجة الى كل ساعة سلام !

هل تصل الأمور الى أن يصبح شمال الهند « كوريا جديدة» ، مجرد أرض تتحارب فيها العدوتان النهائيتان : أمريكا والصين ؟

او هل تكون هذه الأزمة هى « القشة » التى تقصم ظهر البعير ، فتجعل روسيا والصين تقفان ــ علنا ــ فى معسكرين متصارعين ؟

أو ان الأمر لن يكون أكثر من « دمل » جديد من الدمامل الصغيرة فى تلك المنطقة التى تثور آلامها حينا وتهدأ حينا ، مثل لاوس ، وفيتنام ، وكشمير ؟ !

ان هذه المساحات الشاسعة من الاراضى الجبلية ، الثلجية ، والتى يبدو كأنه ليس لها من مغزى سوى أن تكون فاصلا هائلا بين شعبين هائلين : شعب الهند وشعب الصين.. هذه المساحات المتنازع عليها اصبحت تشبه حاجز الموج الذى يفصل بين محيطين ، ويوشك أن ينكسر ، ولو انكسر فليس بعده سوى الطوفان ..

ولعل أول سؤال يجب أن نعثر على اجابة له ، قبل أن نحاول تلمس طريقنا الى القضايا الاخرى الاساسية ، هو :

هل هذا الصراع ـ بالفعل ـ صراع على الحدود .. لايستهدف أكثر من هذه المناطق الجبلية وحدها ؟ أو انه صراع يستهدف غايات اخرى ، سياسية قبل أن تكون جغرافية ؟..

وهنا لابد أن نفرق بين « العمل » السياسى وبين « الفكر » السياسى ..

ففي ميدان « العمل » السياسى ، لابد لنا ـ كدولة تؤمن بالحياد الايجابي ـ أن « نفترض » وأن «نصدق» انها مشكلة حدود فحسب ، وأن نعمل بالتالى على حصرها فى هذا النطاق تمهيدا للوصول الى حل حاسم لها ..

أما فى ميدان «الفكر» السياسى ـ الذى يخدم بدوره العمل السياسى فى مداه الطويل ـ فلا بد أن نطوف بفكرنا ودراستنا كل أرض ، ونحسب حساب كل عنصر من العناصر المؤثرة فى الموقف أو التى سوف تتأثر به ..

هناك اذن احتمالان :

الاحتمال الاول : أن تكون المسألة مسألة نزاع على الحدود لا غير .

والاحتمال الثانى : أن تكون صراعا يستهدف غايات أخرى سياسية قبل أن تكون جغرافية ، وعالمية قبل أن تكون محلية .

الاحتمال الاول ، وهو أن تكون المسألة مسألة حدود فقط ، لا أحب أن نستبعده من حسابنا ببساطة .

فليس من الشاذ ولا من النادر فى تاريخ الدول أن نجد مساحات صغيرة نسبيا من الارض تكون محل صراع

دموى جيلا بعد جيل . وهناك مثلا مقاطعة الالزاس واللورين التى ظلت المانيا وفرنسا تتحاربان عليهما وتتبادلان ضمها جيلا بعد جيل ، حتى كاد عدد الذين سقطوا قتلى من جرائها يصل الى عدد سكانها ..

وقد كانت المشاكل التى أشعلت كل الحروب فى أوروبا تقريبا مشاكل حدود ، أو كانت تتخذ مشاكل الحدود حجة وذريعة لاشعال الحروب ..

كذلك فان هناك وهما شائعا هو أن مشكلة الحدود بين الهند والصين مشكلة جديدة طارئة . والواقع انها مشكلة بدأت منذ أكثر من عشر سنوات ، أى منذ اكتمل استقلال كل من الهند والصين . ففى وثائق الحكومة الهندية نفسها نجد أنها أعربت لحكومة الصين عن قلقها بسبب الحالة على الحدود لأول مرة فى اغسطس سنة ١٩٥٠، ومن يومها تقريبا والمشكلة قائمة ، تسخن حينا وتبرد حينا آخر ، ولكنها قائمة باستمرار ..

وقد ارتكبت ــ وأنا أستعد لكتابة هذا المقال ــ غلطة كبيرة ، حين حاولت أن أغوص فى وثائق الطرفين ، ونصوص المذكرات المتبادلة بين نهرو وشواين لاي محاولا أن أصل الى تبسيط حقيقة النزاع حول هذه الحدود.. اذ كان جهدى هذا كله عبثا لا طائل وراءه .

فالطرفان يرجعان الى مجموعة كبيرة من الوثائق تتراوح بين معاهدات جدية عقدتها سلطة الحكم الانجليزية فى الهند وسلطة الحكم الامبراطورية البائدة فى الصين ، وبين اتفاقات بين حكام أصغر من حكام ولايات الحدود ، الى خرائط مختلفة طبعتها دور النشر الاوروبية فى عصور شتى ، الى تفاصيل وردت فى دائرة المعارف البريطانية عن هذه المناطق.. الى كتب ومذكرات الرحالة القدماء واحيانا كنت أصادف ابحاثا عن أصل

أسماء بعض المدن والقرى هناك .. وهل لها أصل فى اللغة الصينية أو فى اللغة الهندية .. الى آخره ؟..

ولو شئنا تلخيص موقف كل من الطرفين ـ وهو تلخيص لايستبعد كل استثناء ـ لقلنا ان الهند بوجه عام ترى ابقاء الحال على ما هو عليه ، على أساس أن الحدود القديمة رسمتها الطبيعة والتقاليد والعرف والمعاهدات سواء كانت رسمية أو شبه رسمية .. والصين ترى ان هذه الحدود لم تخطط رسميا قط بين الهند والصين كدولتين مستقلتين .. وان الحدود الحالية مجموعة تلفيقات انجليزية تجمدت فى ظل ظروف شتى يجب ألا تستفيد الهند منها الآن ..

وبينما تقول الهند : انها هى التى تحمست لقبول الصين الشيوعية المستقلة فى المجتمع الدولى .وتحمست لتنفى صفة العدوان عنها ، يقول الصينيون : ان الهند استغلت مقاطعة أغلب العالم للصين ، ورغبة الصين فى كسر الثلج حولها ، لكى تحصل من الصين على اعتراف بهذه الحدود .. الأمر الذى لا تقره الصين ..

أقول : كانت عبثا هذه المحاولة للخوض فى الوثائق والمساجلات ، لأنه لو كان الأمر أمر وثائق وبيانات فلا بد ان المسألة ستنتهى الى مائدة مفاوضات تستمر سنة أو سنوات ، تنتهى الى قبول تخطيط للحدود بشكل أو بآخر ..

ولكن قضايا الحدود فى عالم اليوم كثيرة جدا ، وهى اما مجمدة فى انتظار الوقت المناسب للتسوية ، واما أن تتم تسويتها بالوسائل السلمية ، وفى بعض الاحيان تقع حوادث مسلحة ولكنها محدودة وفردية ..

أما فى حالة الخلاف بين الهند والصين فالأمر قد تعدى هذا النطاق . الأمر هنا وصل الى حد تحرك

عسكرى ضخم من جانب دولة كبيرة هى الصين ، الحق هزيمة عسكرية واضحة بدولة أخرى كبيرة هى الهند..

والآثار العميقة لمثل هذا الحدث لايمكن أن تغيب عن بال قادة دهاة ، توافرت لهم خبرة سياسية طويلة وعميقة كقادة الصين ..

فهل ياترى كانت حكاية الحدود هذه من الاهمية عندهم بحيث لم يحفلوا بما يترتب عليها من آثار ؟..

او انهم قصدوا بحكاية الحدود هذه أن يحققوا هذه الآثار بالذات ، التى لم تكن حكاية الحدود الا وسيلة اليها ..

لنفحص أولا هذه الآثار التى ترتبت على العمل الصينى العسكرى ..

لقد لعبت الصين اللعبة التى تريد أن تحققها ببراعة هائلة ..

استفادت ـ أولا وقبل كل شىء ـ من ان الصين بوجه عام مجتمع مستعد للحرب ، والهند مجتمع غير مستعد للحرب .. فقامت بعملية عسكرية بدت أول الأمر خطيرة وهائلة الى درجة هزت أعصاب الهند والعالم ، ثم أوقفتها فجأة ـ بالتأكيد طبقا لخطة مرسومة من قبل ـ وأعلنت وقف اطلاق النار بحيث تظل يدها موضوعة على الجزء الذى أرادت أن تضع يدها عليه ..

وتركت بذلك عبء بدء الهجوم وتجديد القتال على عاتق الهند .. وهى عالمة تماما أن الهند لن تستطيع بالتأكيد أن تبدأ هجوما فى الأجل القريب . أما فى الأجل البعيد ، فلو تحركت الهند للقتال فستبدو كأنها هى البادئة بالقتال ..

وحساب الصين ـ على الاغلب ـ مرسوم على أساس أن الهند لن تتقدم الى القتال حتى فى الأجل البعيد ..

واذا بدات مفاوضات جادة ، فهي اي الصين ستفاوض من مركز قوة ..

وحتى اذا نجحت المفاوضات السلمية فالآثار البعيدة للعمل العسكرى تحققت على أي حال ..

تحقق أن الصين اثبتت لدول آسيا انها القوة العسكرية الاولى فى المنطقة ، وانها هى التى يجب أن تكون مرهوبة الجانب على الدوام ..

وتحقق أنها نفذت ارادتها فيما يتعلق بالحدود الى وقت غير محدود ..

وتحقق أنهـا « أهانت » دولة كبرى هى الهنـد ، وجرحت كبرياءها على مرأى ومسمع من العالم أجمع.

وسوف تترك هذه الاهانة أثرا عميقا فى الهند ، بل سوف تغير حياة الهند من الداخل أكثر مما يستطيع أن يغيرها أي انقلاب ..

لقد عاشت الهند حتى الآن حياة دولة لا تؤرق حياتها مشاكل خارجية حادة . الأمر الذى جعلها قادرة على أن تسلك نوعا من الحياد الهادىء نسبيا . مشكلتها الخارجية الحادة الوحيدة كانت مع باكستان . وهى ــ اى الهنـــد ــ على أي حال أكثر عددا وأكبر قوة من باكستان مما يعتبر نوعا من الوقاية الطبيعيـــة لها . وفيما عدا هذا لم يكن هناك أي تحد خارجى حقيقى يسد طريقها . الأمر الذى يعد استثناء فى عالم اليوم . وقد ترك هذا أثره على الحياة الداخلية للهند . فهى لم تضطر الى احداث أي تغيير اجتماعى عنيف. ولم تضطر الى صرف الأموال على اقامة جيش وطنى قوي .. ولم تضطر الى الكثير مما تضطر اليه الدولة الناشئة فى هذا العصر من احساس بالرغبة فى الاسراع الى تصفـــية المشاكل القديمة بما يصاحب هذا من ضغوط سياسية

واجتماعية عنيفة ..

ولكن صدمة الصين لها جعلت هذا كله يتغير .. الآن شعرت القيادة الهندية بحاجتها القصوى الى تصفية كثير من المشاكل الداخلية المعلقة ، والى الوصول الى درجة من الوحدة الوطنية المعقولة . الآن لابد للهند من اقامة مصانع السلاح ومن شراء السلاح ومن بناء كل الاجهزة التى تضطر دول هذا العصر المضطرب الى بنائها . والآن لابد أن تتأثر برامج التنمية الهندية بهذا كله .

وهذا سوف يجعل حاجة الهند الى الاختيار بين اليمين واليسار ماسة ..

ولكن الغريب فى الأمر ــ وهذا هو الأثر الآخر الخطير ــ هو أن العمل العسكرى الصينى يعطى اليمين فى الهند فرصة لم يكن يحلم بها . فالمعسكر الغربى هو الذى خف الى نجدة الهند ودعاة الاحلاف القدامى يرددون باستمرار أن الصين لم تهاجم اي أرض داخلة فى المعسكر الغربى أوحاصلة على نوع من الضمان الصريح منه مثل هونج كونج أو فورموزا أو باكستان أو حتى ماتسو وكيموى ، ولكنها هاجمت الهند غير المنحازة ..

فاليمين يلوح اليوم للهند بما يبدو انه الحل السهل . ولكنه فى الواقع الحل القصير الأمد ، والقصير النظر .. لأن الرجوع الى اليمين لابد أن ينعكس مع الزمن على كل شىء فى الداخل ومعنى ذلك أن تتجمد الاشكال الاجتماعية القديمة فى الهند وتقوى ، بدلاً من أن يزيلها الجديد شيئا فشيئا . وهذا معناه سلب مجتمع الهند من سلاح التقدم السريع ، الأمر الذى يجعله أكثر ضعفا فى مواجهة التحدى الاجتماعى الخطير الكامن فى دولة الصين ..

لقد اختارت الهند أن تتجه الى الاشتراكية ، واختارت اشتراكية متدرجة تدرجا هادئا بحكم التركيب المعقد للمجتمع الهندى . الأمر الذى جعل اليمين الهندى ما زال قويا عاتيا الى الآن ، ينتهز كل فرصة لرفع شعار تصفية الاشتراكية والعودة الى الرأسمالية الاقطاعية القديمة . ولهذا فالهند اليوم — فى الداخل — تواجه أصعب اختيار صادفها منذ عهد الاستقلال الى الآن ..

اما أن يستولى اليمين على موجة الوطنية الهندية التى حركتها صدمة الصين ، ويستخدمها فى تدعيم مركزه . واما أن يتمكن الاشتراكيون من استخدام هذه الموجة الوطنية استخداما تقدميا فى حل جانب من المتناقضات الداخلية حلا اشتراكيا ، فى نفس الوقت الذى يقف فيه — فيما يتعلق بكيان الهند — موقفا سليما

ولن يتم هذا الا اذا احتفظت الهند بموقف الحياد الايجابى الذى يضمن نقاء التجربة الاجتماعية الداخلية من المؤثرات التى تدفعها الى الانحراف. وكما استطاعت مصر أن تشترى سلاحها من روسيا وتبقى محايدة ، ففى استطاعة الهند أن تشترى سلاحها من الغرب وتبقى محايدة ..

بل انه فى تاريخ مصر ، انها مرت بأزمة عنيفة مع المعسكر الشرقى أيام أحداث العراق ، ومرت بأزمات أوسع نطاقا وأشد عنفا مع المعسكر الغربى ، ولكنها استطاعت أن تواصل اتجاهها الاشتراكى المستقل فى الداخل ، وموقفها الحيادى الايجابى فى الخارج .

هذه هى المهمة الصعبة التى تواجه نهرو اليوم . وهى بالتأكيد أخطر مهمات حياته السياسية كلها ..

على انه من المستبعد أن تكون الصين قد وضعت فى اعتبارها الاول ، وهى تقدم على عملها العسكرى ، ما

سيحدث من آثار فى سياسة الهند الداخلية ..
أغلب الظن انها فكرت ــ أولا ــ فى وضع الهند الدولى ، وفى آثار هذا العمل العسكرى من الناحية الدولية .
وهنا يرد ذكر خروشوف ..
فلو اننا سألنا أنفسنا : من هى الدولة التى وضعها تصرف الصين فى أكثر المواقف حرجا .. لكانت الاجابة حتما : الاتحاد السوفييتى !..

فالاتحاد السوفييتى ــ من جهة ــ هو قائد المعسكر الشيوعى ، الذى ما زال يضم الصين . ومبدأ وحدة الحركة الشيوعية ووحدة الاحزاب الشيوعية مبدأ أساسى من مبادئه منذ قيامه . والاتحاد السوفييتى يعرف أيضا ان اتساع المعسكر الشيوعى وشموله لروسيا وللصين هو سلاح قوى جدا فى مجال الحرب الباردة والصراع الدولى ، ولو حدث أن انقسم المعسكر ــ مرة أخرى ــ بخروج الصين هذه المرة ، فسوف يؤدى هذا الى اضعاف الحركة الشيوعية الدولية الى حد خطير.

ولكن الاتحاد السوفييتى ــ من جهة أخرى ــ جعل من أسس سياسته : الاعتراف بوجود كتلة كبيرة من دول الحياد ، والدول ذات القوميات التقدمية النامية. وسجل الحزب الشيوعى الروسى هذا الواقع فى التقرير النهائى للمؤتمر الثانى والعشرين للحزب . فضلا عن انه يمارس هذه السياسة ممارسة عملية فى صورة تعاون ومساعدات غير مشروطة يقدمها لهذه البلاد التى لا تدخل فى المعسكر الشرقى .
والهند تأتى فى مقدمة البلاد التى لها بالاتحاد السوفييتى هذه العلاقات العميقة ...
ولكن العمل العسكرى الصينى جاء ليضع الاتحاد السوفييتى فى مأزق الاختيار بين وحدة المعسكر الشيوعى

وبين سياسته تجاه الدول المحايدة والمستقلة عن المعسكرات .

ولعل حساب الصين كان يقول : انه اذا اختار خروشوف جانب الصين ، تكون الصين قد نجحت فى ارغام خروشوف على تعديل سياسته وادارة ظهره للعالم غير الشيوعى ، واذا اختار جانب الهند ، فمعنى ذلك انه سيخسر كثيرا داخل الحركة الشيوعية، خصوصا الحركة الشيوعية فى آسيا وافريقيا ، وبذلك تكون الصين أقدر على تسلم قيادة هذه الحركات .

لاشك ان هذا كان من الآثار المحسوبة المتوقعة لدى قادة الصين ، حين قاموا بهذا العمل العسكرى ...

بل ان المؤكد — بالمنطق الشيوعى — ان الصين قد حسبت حساب الأثر المباشر لعملها هذا داخل المعسكر الشيوعى ، وداخل الحركة الشيوعية ، قبل أن تحسب حساب الأثر الذى قد يتركه عملها فى الهند ذاتها ، أو فى الموقف الدولى بصفة عامة ..

خصوصا اذا عرفنا ان أزمة الخلاف داخل المعسكر الشيوعى قد وصلت فى الشهور الاخيرة الى ذروة لم تصل اليها قط من قبل ..

ففى خلال الاسبوعين الاخيرين ، انعقدت ثلاثة مؤتمرات للأحزاب الشيوعية .

مؤتمر للحزب الشيوعى المجرى .

ومؤتمر للحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى ، ومؤتمر للحزب الشيوعى الايطالى ...

وقد اهتمت روسيا بهذه المؤتمرات الثلاثة اهتماما كبيرا ، فأرسلت بريزنيف الى المؤتمر الاول ، وكوزينين الى المؤتمر الثانى ، وكوزلوف الى المؤتمر الثالث وكلهم من الذين يقفون فى الصف الثانى بعد خروشوف مباشرة

فى الاتحاد السوفييتى ..

وفى المؤتمرات الثلاثة تكررت نفس القصة :

مندوب الصين يشن حملة هائلة على تيتو وعلى يوغوسلافيا ، وصل فيها الى اتهام تيتو فى مؤتمر الحزب الشيوعى الايطالى بالخيانة فى الوقت الذى يزور فيه تيتو روسيا ويتباحث مع خروشوف ..

ثم يقف مندوب الاتحاد السوفييتى ومندوبو سائر الاحزاب الشيوعية — خصوصا الاوروبية — يهاجمون البانيا هجوما قاسيا .

والهجوم على يوغوسلافيا — كما هو معروف — معناه الهجوم على خروشوف . والهجوم على البانيا معناه الهجوم على الصين ..

بل ان المسألة وصلت فى مؤتمر الحزب الشيوعى الايطالى الى درجة أصرح حيث هاجم تولياتى الصين صراحة وتوالى بعده الهجوم من ممثلى سائر الاحزاب الشيوعية ..

وقد انصب هجومهم على ما سموه « موقف بعض الشيوعيين من سياسة الاتحاد السوفييتى ازاء مشكلة كوبا » و « استخفاف بعض الشيوعيين بخطر الحرب الذرية والهيدروجينية » ..

بل ان التهديد بفصل الصين من المعسكر الشيوعى وقطع العلاقات معها ظهر واضحا لأول مرة ، حين تحدث المندوبون قائلين : « ان الحركة الشيوعية حركة « لينينية » ، لا تقبل وجود المنشقين بين جدرانها .. »

هكذا يمكن القول بأن الخلاف الكبير داخل المعسكر الشيوعى أصبح قضية من اكبر قضايا هذه المرحلة من حياة العالم . وعلى هذا الخلاف وطريقة حسمه يتوقف الكثير جدا من قضايا العالم .. عالمنا المعاصر .

مذكرات مدرسة
فى خدمة ستالين

فى سنة ١٩٣٠ ، تزوجت كاترين ليهمان ، طالبة الآداب الباريسية ، من المهندس السويسرى بيير فيجور. وبعد سنوات قليلة سافرت مع زوجها الى روسيا ، حيث تعاقد مع الحكومة السوفييتية للعمل فى أحد مصانعها فى لينينجراد لمدة عشر سنوات ..

وقد استطاعت ، بجمالها ودماثة خلقها ، أن تجمع حولها دائرة كبيرة من الاصدقاء ، حتى قتل زوجها سنة ١٩٣٧ فى حادث بالمصنع واسرع أصدقاؤها لمساعدتها ، فحصلوا لها على وظيفة مدرسة فى مدرسة خاصة لأطفال كبار الموظفين وزعماء الحزب ..

ونجحت فى عملها الجديد نجاحا باهرا . وكانوا يسمونها الفرنسية الحسناء . حتى كان ذات يوم اذ استدعيت للذهاب الى موسكو، دون أن تعلم السبب.. وهى تقص بعد ذلك ، قصتها الشائقة :

من خلف النوافذ المزدوجة للسيارة المصفحة ، بدأت اتبين مدينة كأنها فى عالم آخر . ولم أكن قد عرفت من روسيا غير لينينجراد وضواحيها . ولم يسمح عقد استخدام زوجى فى خلال الثلاث سنوات التى قضيناها بأكثر من شهرين اجازة ، أمضيناها فى باريس . وكثيرا ماكنا نحلم ، قبل وفاته ، برحلات طويلة. وكم قال لى :

ـ سأجعلك تزورين موسكو ، وسواحل القرم ، وجبال القوقاز !

ولكن الاقدار جرت بغير ما نحب . وقد عادت الى خاطرى تلك الهواجس المؤلمة ، حين قال لى السائق ، اننا نغادر موسكو .

وبدأت السيارة تسير فى طريق مستقيم متسع .. وعلى جانبيه تتتابع «فيللات» منخفضة ، لونها أخضر وابيض ، واحيانا أحمر ، وابتسمت لهذه « الاكواخ » كأنها أصدقاء قدامى اذ شعرت بالتحرر من تلك العمارات الضخمة ، بمنظرها الصارم ، فى لينينجراد ، التى ظلت تحدد أفقى اربع سنوات متتاليات . وكانت الشرفات المصنوعة من الخشب المزخرف ، الغارقة فى زهور «البانسية» ، و«الجرانيوم» وأسوار البيوت المصنوعة من فروع الشجر . كانت كلها تبعث فى شعورا بالحياة. وحين اندفعت السيارة بعد ذلك فى طريقها الى «مواجايسك» حيث كنت سأسكن بدأت اغنى من حيث لا أشعر « كلمنى عن الحب ! » .

وبعد دقائق عدت الى واقعى حين وقفت السيارة . وأمام الباب ، كان الرفيق بوسكروبيشف ، السكرتير الخاص لستالين، الذى صحبنى فيما قبل الى موسكو.

وقال لى : هذه هى فيللا « جورينكا » . اذن فهذا السقف الخشبى ، وهذا الاسم هو اسم القرية التى ولد فيها ستالين كما تعلمين . أرجو لك طيب الاقامة . وآمل أن تكونى سعيدة ..

وفى نهاية الحديقة ، وقعت عيناى على فيللا من ثلاثة ادوار ، خضراء اللون ، تتسلق الزهور جدرانها من هنا وهناك . وشعرت بأن هذا البيت سيكون له دور فى حياتى . فقد أفهمونى اننى لن أستطيع مبارحته

كثيرا . اذن فهذا السقف الخشبى ، وهذه الحديقة المهملة تقريبـــا ، سيكونان عالمى لمدة طويلة . ولحظ بوسكروبيشف — وكان يسير بجوارى — خيبة الامل التى ارتسمت على وجهى ، فقال لى بابتسامة :

— ان الحياة فى جورينكا ستعجبك جدا . كانت هذه الحديقة فيما مضى أكبر من ذلك بكثير ، ومنظمة على الطريقة الفرنسية . ولكن ستالين اقتطع منها جزءا كبيرا وقدمه هدايا الى بعض أصدقائه. وبيتى أنا موجود فى هذا الاتجاه فى خلف الاشجار. وبجوارى بيت رئيس بوليس موسكو السابق وأولاده السبعة عشر !..

و « بوسكروبيشف » يبتسم دائما ، وهو يرد الى الخلف خصلة شعره الشقراء المتهدلة على جبينه. ولم أسمعه أكثر من ذلك ، فقد وصلنا الى باب الفيللا . وبدأت أتفحص ما حولى ، وأنا أتوقع أن أرى فى اي لحظة الطفلين اللذين سأقوم على تعليمهما . وفتحت لنا الباب سيدة عجوز جدا ، تلبس ثوبا طويلا ؛ وتضع على كتفيها شالا من القطن الاسود ..

وقال لى بوسكروبيشف :

— أقدم اليك رافايلوفنا .. مديرة جورينكا . اننا نسميها كاجوشى .

ثم أضاف بالفرنسية، وبلكنةجورجية ، وهو يبتسم :

— انها أقوى شخصية فى روســيا كلها ، فستالين نفسه يخضع لأوامرها !..

وقالت رافايلوفنــا انها ســتقودنى الى حجرتى ، وصعدت خلفها السلم. كانت الساعة التاسعة صباحا ، وكان فى نفسى شعور بأن الجميع ما زالوا نائمين . فقد كانت الابواب كلها مغلقة . وفى الطابق الثانى ، فتحت رافايلوفنا بابا ، وقالت لى :

ـ حجرتك .. سأبعث اليك بحقائبك . أيمكنك أن تكونى مستعدة فى الظهر ؟

وكان سؤالها كأنه الأمر. ولم تنتظر اجابتى وانصرفت، وهى تسير بلا أي صوت على البساط الكثيف الذى يغطى الممر. وأغلقت على حجرتى وكانت الشمس تتسرب من خلال النافذة . كانت الارض مغطاة بأبسطة سميكة جدا . وكذلك الحائط ، والسرير أيضا . وألقيت نفسى على السرير مؤجلة اختبار الغرفة الى ما بعد . وكانت تزدحم فى ذهنى حوادث ثلاثة أيام متتالية . ولكننى نمت .

وكانت هذه المغامرة قد بدأت ، بزيارة مفاجئة قام بها ضابط كبير يرتدى معطفا رماديا . جاءنى فى شقتى التى كنت أسكنها فى لينينجراد بعد وفاة زوجى ، فى الطابق الثامن من عمارة سكرتيرية الحزب. وقد ساورنى الرعب حين رأيته . فقبل ذلك منذ ثلاثة شهور طرد مهندس فرنسى من البلاد فى خلال ثلاث ساعات ، مع زوجته وولديه ، ولم يحملوا معهم غير حقيبتين فقط . ولم يعرف أحد قط السبب فى طرد هذه العائلة . وكنت فى ذلك الوقت اسكن مع زوجى فيللا جميلة فى الضواحى، ثم أمرنا بتركها . ليحل محلنا مهندس بلجيكى جاء مع أسرة مكونة من احد عشر شخصا !..

توقعت اذن أن يكون هذا الضابط قد جاءنى لشىء من ذلك . سألنى أولا : هل أتكلم الروسية ؟ ثم استأذننى فى القاء بعض الاسئلة ، وأخرج من جيبه قائمة غريبة .. لماذا حضرت الى روسيا ؟ هل خطك حسن؟ ما وزنك ؟ هل انت صبورة على العمل ؟ هل قرأت « رأس المال ؟ » ..

وبدا لى الأمر مضحكا ولكن عجبى تضاعف حين طلب

منى الضابط أن اغنى أغنية « فى ضوء القمر »
au clair de la lune فبدأت اغنيها وأنا أضحك .

ودامت المقابلة ساعة . ولم أسأل الضابط عن سبب الاسئلة الغريبة . واستأذن فى الانصراف وهو يقول لى :
ـ ان الرقة التى أجبت بها علىأسئلتىجديرة بالثقة

وبقيت أفكر فى الأمر حتى الفجر . وفى اليوم التالى لم أحدث أحدا قط بنبـــأ تلك الزيارة . وكنت أعطى تلاميذ فصلى فى ذلك اليوم قصة لموباسان عن الحرب السبعينية ، تدور حول طفلين باريسيين، فىأثناء حصار باريس ، يحاولان عبثا اختراق خطوط الالمان . وكانت الصحف فى ذلك الوقت طافحة بأنباء الخلاف مع المانيا. فلما انتهيت من الحصة ، فوجئت بالاطفـال ينشدون « المارسلييز » بدلا من نشـــيد « الانترناسيونال » ، مجاملة لى . واقتربت منى صديقتى ماريا ابرانوفتشى، مدرسة التاريخ بالمدرسة ، وقالت لى :
ـ ياعزيزتى كاتى ، انك ستخلقين لنفسك المتاعب !

وكانت ماريا فىالخامسة والثلاثين منعمرها ، أجمل امرأة لقيتها فى حياتى ، وكانت تدرس التاريخ وتشرف على التوجيه السياسى والفكرى فى المدرسة عامة بناء على تعليمات الحزب . كذلك كانت تقوم أيضا بمهمة الرقيبة . فكل الـكتب التى كانت تصلنى من الخارج لابد أن تمر بها وتفتحها . وقد عرفت فيما بعد أن بعض أصدقائى أرسلوا لى كتبا لأندريه جيد ، ومؤلفات فى التاريخ المعاصر لبانفيل ، ولكنها لم تصلنى قط ! وكذلك كانت تراقب بريد كل المدرسين رجالا ونساء . ولما كان كل أطفالنا من أبناء كبار رجال الدولة فقد كانت الرقابة علينا تباشر بعناية أكثر .

وفى اليوم التالى استدعيت الى مكتب المدير الذى

قال لى ان هناك أمرا بسفرى الى موسكو وقال لى ان ماريا ستصحبنى .

وركبنا فى الصباح اكسبريس موسكو ، الذى قطع المسافة فى ثمان وعشرين ســاعة . وفى خلال الرحلة تعرضت لتجربة مؤثرة . سألت ماريا :

ـ ماريا.. أنت تعلمين سبب استدعائى الى موسكو؟

ـ نعم ..

ـ الا تقولين لى ؟.. اننى أعز صديقاتك .. الا تثقين فى ؟..

ـ كلا !..

وطيلة الرحلة رفضت ان تعطينى اية معلومات . وفى ذلك الوقت لم تكن هناك عربات نوم فى ذلك القطار ، فنمت طوال الليل مستندة الى كتفها . وفى الصباح ، على رصيف محطة موسكو ، قابلنا فتى أشقر طويل ، انه سكرتير ستالين ، وقدمتنى اليه ماريا قائلة :

ـ هذه كاتى .. المدرسة الجديدة !

وقال لى بوسكروبيشف :

ـ لقد طلب منى الرفيق ستالين أن ابحث عن احسن مدرســة فرنسية فى روسيا . وبمساعدة قومسيارية التعليم ، عثرت عليك ..

وركبنا عربته الطويلة السوداء . وجلست بينه وبين ماريا ..

كان الوقت ليلا ، ولكن الجو ما زال جميلا. وعبرت العربة الميدان الاحمر وقال لى بوسكروبيشف :

ـ ان لستالين ابنا اسمه فاسيلى فى السادسة عشرة، وبنتا اسمها سفيتلانا فى الثانية عشرة . هما تلميذان مجتهدان . وأنت معينة لتعليمهما بأجر قدره ٤٠٠... روبل شهريا . وستقيمين فى موجايسك ، حيث تسكن

الأسرة . وهناك معلمة اخرى روسية . ولكن لا شأن لك بها . وفى استطاعتك الاعتذار عن هذه الوظيفة. وفى هذه الحالة عليك مغادرة روسيا مباشرة دون المرور على لينينجراد . والعقد لمدة سنة تتجدد بالاتفاق ..

ثم اضاف باسما ، فى فرنسية ركيكة :

ـ ولكن يا«مدموازيل» اننىأسكنأيضا فىموجايسك. وسأكون فى خدمتك .

وبعد ساعة ، وقعت العقد فى مكتب القوميسارية . وعانقت ماريا ، ثم ركبت السيارة المصفحة التى كانت فى انتظارى . ووضع أحد الجنود حقائبى فى السيارة . وبعد ساعة ، كنت أنام ، تحت سقف سيد روسيا !

وفى الساعة الحادية عشرة والنصف سمعت طرقا على باب حجرتى . ونهضت فغسلت وجهى وفتحت النافذة المطلة على الحديقة . ولبست « بلوزة » بيضاء من باريس ، بلا نقوش ، وجونلة زرقاء . ووضعت خاتما . وترددت فى وضع « الروج » على شفتى . وسمعت طرقا على بابى مرة ثانيـة . ودقت الساعة الثانية عشرة . وفتحت الباب ، واستأذننى رجل فى ان أتبعه .

كان البيت مازال هادئا ساكنا كما كان فى الصباح . ولاحظت ان الاثاث قليل . وفى الصالون رأيت أمرأة سمراء برونزية اللون . وجذبتنى عينـاها .. كانتا سوداوين ، تظللهما أهداب لامعة طويلة ، ذكرتنى بعينى ماريا . وكان شعرها يتهدل على كتفيها . وقد قدرت لها ٣٥ عاما ، ولكنها كانت فى الواقع فىالرابعة والاربعين وابتسمت لى وقالت بالفرنسية :

ـ اجلسى ياسيدتى . اننى سعيدة بمعرفتك ، وآمل ان يحبك فاسيلى وسفتلانا . اننى لست أمهما ، ولكننى

احبهما كما لو كنت .

وقدمت لى سيجارة . واستطردت تقول :

ـ ان الاولاد فى « ثرشى » وهى مزرعة نموذجية على بعد ١٢٠ كيلومترا من موسكو . سيكونان هنا بعد غد. فهناك وقت لكى تتعودى على المكان .

وفى المساء ، ارسلت الى حجرتى باقة كبيرة من الزهور. وهكذا لقيت لأول مرة «روزا كاجانوفتش» ولم تحدثنى قط عن ستالين ، زوجها ، ولا عن لازار كاجانوفتش ، نائب رئيس قوميسارية الشعب سابقا ، أخيها . وقد رآها ستالين أول مرة سنة ١٩٣١ ، وكان متزوجا من ناديا اليليفنا . وبعد سنة ماتت زوجته . فتزوج روزا

وقضيت اليوم التالى بين الحديقة والمكتبة الصغيرة ، وقد اكتشفت فيها نسخة من قصة «الحرب والسلام» ، لتولستوى وعلى هوامشها ملاحظات بخط ستالين .. خط كبير ولكنه منظم واضح . وكانت الملاحظات تحمل معنى التحامل على تمجيد الابطال. ولاحظت تكرار جملة « خطأ اشتراكيا » وقد عرفت فيما بعد أن ستالين يملك فى الكرملين مكتبة هائلة وانه اذا حضر الى جورنكا لبضعة أيام أحضر معه كتابين أو ثلاثة .

وفى صباح اليوم التالى ، حوالى الساعة الثامنة ، قمت وخلعت قميصى واذا بى أفاجأ بالباب يفتح وأنا على هذه الحال . ورايت ــ وأنا ذاهلة من المفاجأة ــ فتى أسمر الشعر ، أزرق العينين ، يتأملنى ضاحكا ! كان يلبس قميصا أخضر، وبنطلونا من الفانلة الرمادية. وأسرعت أستر نفسى بالروب . والفتى يتأملنى ضاحكا كأنه لا يجد غرابة فى ذلك . وخلف كتفه ، لمحت فتاة صغيرة تتطلع الى ، مهوشة الشعر .

وقلت فى لهجة حاولت أن تكون مؤدبة : ماذا تريدان؟

فقال الفتى وهو يشد قامته : أنا فاسيلى ستالين . معذرة أيتها الرفيقة على ازعاجك .

وسمعت الفتاة تقول فى صوت نحيف :

ـ وأنا سفتلانا ستالين ، أيتها الرفيقة المعذرة ..

وفى ضحك برىء ، دخل الطفلان حجرتى وبدءا يعبثان فى حقائبى ، وثيابى ، وهما يطرحان على شتى الاسئلة : ما عمرى ؟ هل أعرف مدموازيل ديجيلات ؟ ومسيو ديجيلات ؟ ومدموازيل لابرانش ؟..

كانا يسألاننى عن كل الفرنسيين الذين رأوهما .. وبدأت بدورى ألقى الاسئلة. كانا يحملان أطيب الذكرى لكل مدرسيهم السابقين . ثم صحبتهما الى حجرتهما. وهما يشغلان حجرة عظيمة الاتساع ، يقسمها حاجز خشبى كبير الى قسمين . وعلى الحائط صورتان كبيرتان : صورة لستالين، وصورة لسيدة رائعة الجمال

ـ انها أمى !

قالتها لى سفتلانا وهى تنظر الى بعينيها الصغيرتين البندقيتين .

وقد لمست أن سفتلانا على جانب نادر من الذكاء . فبينما كان أخوها يتلعثم فى كلمات فرنسية ، كانت هى تنطق جملا كاملة بديعة التركيب ، قالت لى انها تعلمتها من العم تشيتشرين . وهو دبلوماسى روسى كان يزور الفيللا كثيرا .

وبدأنا الدرس الاول فى نفس اليوم. وكان على فاسيلى أن ينسحب ليحضر درسا عسكريا، فنزلت أنا وسفتلانا الحديقة . واخذت تعرض على كلابها الصغيرة . وفى المساء عرفتنى بأهل الفيللا جميعا . وبالرغم من أنها تتكون من ١٣ حجرة ، فان التى تقوم عليها سيدة عجيبة . رأيت طباخة من جورجيا عمرها ٧٠ سنة .

ورأيت أيضا خادمين من جورجيا . والطابق الثانى من الفيللا يغلق طوال الشتاء . فاذا جاء ستالين الى الفيللا ، حضرت خادمتان اخريان من الكرملين . وفى خلال الصيف الذى قضيته فى جورينكا ، كان ستالين يقيم استقبالا لضيوفه مرة كل أسبوع . ففى صباح يوم الجمعة قالت لى سفتلانا :

ــ ان بابا آت غدا !

ولم استطع ان أسأل الفتاة الصغيرة عن ستالين ، الرئيس الاعلى لاتحاد الجمهوريات السوفييتية الروسية . كنت أشعر شعورا غريبا نحو « بابا » هذه التى تنطقها سفتلانا ببساطة وهى تضحك . وفى الحقيقة اننى لم اعد اخشى من مقابلة والد هذين الطفلين . وقالت لى :

ــ انه سيحضر معه بيتر ..

وهو الكلب الذى يقتنيه ستالين فى الكرملين ..

وقد جاءوا فى اليوم التالى بعد الظهر . وجرى الاطفال لاستقبال القادمين . وكنت فى حجرتى ، ولأول مرة سمعت الموسيقى تصدح فى الطابق الاسفل . ثم صعد فاسيلى وقال لى :

ــ لقد جاء الضيوف . ان روزا تسألك أن تنزلى .

وعند باب الصالون ، قابلتنى روزا وأخذتنى من ذراعى . وتحت الثريا المضيئة ، كان رجال ونساء يرقصون ، والى يمين القاعة ، كان جراموفون كبير يطلق أنغام الفالس . وصف من زجاجات الخمر ــ كلها من تفليس ــ كانت مصفوفة على مائدة . وكان فاسيلى فى ثياب عسكرية ، يراقص فتاة صغيرة شقراء . ولما رآنى اشار الى بيده . ولكن الضجة ودخان السجاير جعلانى أكاد أشعر بصداع . ثم انتهت الفالس . وصاحت الفتيات الصغيرات يطلبن عزفها ثانية . فتقدم رجل

من الجرامو فون، وادار اسطوانة وقال : هذه «ماريسكيا»
كان هذا الرجل .. ستالين ! وقد اذهلتني المفاجأة.
وسقطت عني كل الصور التي كنت أرسمها في مخيلتي لستالين . كان ستالين يبدو اصغر مني سنا . وهو يلبس بذلة عسكرية لجندي ، بلا وشي ولا زخرفة . وكانت راسه غير عادية ، كبيرة ، كأنها وضعت خطأ على جسم صغير . وذكرتني عيناه بعيني سفتلانا . وكان شاربه ضخما كثيفا جدا . ووضع الاسطوانات بحرص على القرص وأدار المفتاح . والقى اذنه فترة يستمع ، كأنه موسيقي مدرب ، ثم أمسك كأسا من الخمر وشربها في جرعة واحدة .

انني ما زلت اذكر هذا اليوم بدقائقه . وقد رآني ستالين واقفة عند الباب ، فبدت عليه دهشة . واضطربت قليلا وانا لا أدري ماذا أصنع او أقول . وقالت له روزا من انا ، فكف عن التحديق في ، ولكنه في نهاية السهرة قال لي وهو يمر بجانبي :

ــ مدموازيل ..

وقد قالت لي زوجته بعد ذلك ان هذه هي الكلمة الفرنسية الوحيدة التي يعرفها . وهو يعرف أيضا بضع كلمات ألمانية .. ولا يتقن بعد ذلك غير الروسية ..

وقد تحدثت معه بعد ذلك ، بالروسية ، مرات كثيرة. وكان حديثي الاول معه عن ابنه فاسيلي ، وكان يسبب له متاعب كثيرة . ناداني يوما لمقابلته في الصالون المهجور وقال لي :

ــ ان زوجتي ، ياكاترينا ، وضعت ابني الاول في سنة ۱۹۰۳ ، وانا في وسط روسيا ، اسمه ياشا ، وهو ولد شرير ..

وقد استعمل في وصفه تعبيرا قاسيا جدا . وفي خلال

السنة التى قضيتها فى الفيللا ، لم يأت هذا الابن غير مرة واحدة . وقد أتم دراسته فى مدرسة الفنون والصنائع . وقد رحل بعد ذلك الى القوقاز ليمارس رياضة الجبال وهذه هى القصة الرسمية عنه ، ولكن اشاعات كثيرة تدور حوله .. !

وقال لى ستالين انه لا يحب الدراسة النظرية المجردة كثيرا :

ــ ان ابنى فاسيلى يحب المزرعة « النموذجية » وهذا حسن .

وقدم لى سيجارة من ماركة خاصة لها فم من الكرتون، منقوش عليه نجمة حمراء . وهو يدخن أربعين سيجارة يوميا . وقد قال لى طبيبه الخاص ، انه ، وهو مريض ينتحر بهذه الكمية الضخمة التى يدخنها . « وقبل أن أغادر الفيللا كان قد قللها الى عشرين سيجارة فقط » .

قال لى يوما :

ــ منذ أن كنت فى الخامسة عشرة اى منذ ان تركت الدير ، لم أتلق درسا واحدا على أي استاذ . انما قرأت الكتب فقط . فما أطلبه منك هو تخفيف منهج الدراسة. لا أريد الاسراف فى الكلاسيكيات . لا كورنيل ولا شكسبير . انك تقولين ان سفتلانا خارقة الذكاء .. حسنا علميها كيف تطهى الطعام !

وكان يضحك مسرورا وهو يتكلم وينظر الى فى ود ، ويؤكد لى انه مسرور منى كثيرا ، وحين هم بالانصراف ، تأخر وجعلنى أتقدمه فى الخروج من الباب . كانت هذه المرة الاولى التى رأيته فيها يتأخر خلف امراة . وقد بقيت أعتقد انه يرى ان دور المراة الرئيسى هو قيامها على البيت . وأعلم ان زوجته الاولى ، ناديا ، أم الطفلين رفضت ذلك . وقد كانت تعمل فى أحد المراكز

الزراعية ، ولكن ستالين لم يكن راضيا ابدا ، فى اعماقه عن هذا الاستقلال . وكان هذا سبب عدم توافقهما .

وكانت سفتلانا ، على صغر سنها لها آمال واسعة. كانت تريد أن تكون عالمة فى الكيمياء . واستطاعت ان تجعل روزا تنشىء لها معملا صغيرا حيث كانت تقوم بتجارب عجيبة .

وذات يوم ، سمعنا صوت انفجار هائل فى البيت ، فقد انفجر المعمل ، وخرجت الفتاة مصفرة الوجه . ومن يومها لم نسمعها تتحدث عن الكيمياء أبدا .

ومن طموحها ، انها قدمت ذات يوم طلبـــا لمقابلة ستالين فى مكتبه فى الكرملين بصفتها رئيسة للفتيـات الشيوعيات فى موجايسك وأخذ الطلب طريقه الرسمى. وبعد سبعة شهور ، حدد موعد للمقابلة ، وصحبتها حتى باب مكتب ستالين ، الذى رايته واقفا خلف مكتب طويل . وعند نهايته من طرفيه ، مدفأة من الخزف الابيض ، والبســـاط المفروش رمادى والاثاث فاتح اللون ، ورأيت على الحائط صورتين للينين .

وكان الزمن المحدد لمقابلة سفتلانا عشر دقائق « بدلا من خمسة » . ووقفت تقرا على ابيها تقريرا أنصت ستالين اليه ، ساكنا لايتحرك ، وعيناه مثبتتان عليها فى انتباه عظيم . ثم سألها فى بعض النقط والتفاصيل، وأكد لها ان كل شيء سيجاب . وقال لى الحارس الذى كان يقف بجانبى ان هذه كانت المقابلة التاسعة عشرة فى ذلك اليوم .

وفى الفيللا ، لم تتحدث ســـفتلانا أبدا عن هـــذه المقابلة الرسمية . وحين تكلم فاسيلى فى الموضوع على المائدة تلقى تحذيرا قاسيا ، وبعد ثلاثة اشهر ، أنبـــه والده على ذلك مرة ثانية .

ولاشك ان سفتلانا ورثت عن ابيها ذاكرة قوية . فقد ذكرت لى يوما تاريخ قدومى الى الفيللا بالضبط ، وكنت انا قد نسيته . كذلك ورثت عنه مقاومة عصبية قوية . فلم أر ستالين فى الفيللا ينام قبل الساعة الثانية صباحا ويستيقظ حوالى العاشرة صباحا ، ثم يحلق ذقنه فى بطء .

وقد سألنى يوما أن أترجم له من جريدة « الطان » الفرنسية بينما كان يحلق ذقنه ، ولاحظت يومها ان له ذراعا اقصر من الثانية قليلا .

وقد أصبح طبيبه الخاص أعز أصدقائى فى الفيللا. فقد تلقى دراسته فى باريس ، وكان يطيب له أن يشرب معى قهوة فرنسية كالتى كان يشربها فى الحى اللاتينى. وشكا لى يوما من عدم استماع ستالين الى نصائحه :

ـ انه مريض ، ولن يتعدى الستين اذا ظل يشرب ويدخن هكذا .

وكان فاسيلى يسميه العفريت ، ويضحك ستالين كثيرا حين يسمع هذه التسمية . وذات يوم سقط الطبيب مغشيا عليه من نوبة قلبية ، ولم يفق الا بعد جهد . وقد تأثر ستالين جدا . وكان هذا تحذيرا له . ففى اليوم التالى قلل من الشراب والسجاير .

ولما بارحت الفيللا بعد ذلك بشهرين مسافرة الى فرنسا لرؤية أمى التى مرضت ، اصطحبنى فاسيلى وسفتلانا حتى موسكو . وعند الحدود تلقيت برقية من روزا ، ولما وصلت الى باريس كانت أمى بدأت تخطو الى الشفاء .

فجأة فى الصيف الماضى

هذه الرواية .. رأيتها .. وقرأتها .. ثم حاولت ان أنساها ، أن أتخلص منها ، ولكننى لم أستطع !

انها رواية « فجأة ، فى الصيف الماضى » للكاتب الامريكى المسرحى تنيس ويليامز .. الذى رأيتم له ولا شك « عربة اللذة » و « قطة فوق سقف من صفيح ساخن » وغيرهما .

رأيتها رواية على شاشة السينما فى باريس منذ شهور.. وكان أبطالها اليزابيث تايلور وكاترين هيبورن ومونتجمرى كليفت .. كانت الصحف تتحدث عنها ، وكانت تعرض فى ثلاث دور للسينما فى نفس الوقت .. كان الجميع يدخلونها ولكنهم يخرجون منها بآراء متباينة

.. بعض الناس تركوها بعد دقائق .. وبعض الناس ظلوا يحدقون فيها وقد أمسكوا بمقاعدهم .. كأنهم قد تجمدوا من الرعب ! وبعض الناس تقلصت أمعاؤهم.. أما أنا .. فقد افسدت على بقية أيامى فى باريس .. اذ ظلت طيورها السوداء تطاردنى.. وتنقض على.. حتى وأنا أسير فى زحام الشانزليزيه .. أو سان ميشيل

وعندما عدت الى القاهرة ، بحثت عن النص الاصلى للمسرحية حتى وجدته .. وأخذت أقرأه ..

ومرة أخرى عاد الحاحها على .. ومطاردتها لى ..

وعنـدما قررت أن اتخلص من الحاحها هـــذا .. بتقديمها الى القراء .. ترددت امامها طويلا ..

هل أراد المؤلف حقا ما فهمته منها ، ان المؤلف شديد التعقيد .. بالغ الغرابة .. وكل شخصياته غريبة !

ثم ما هو المهم فى الواقع : مايريده المؤلف فعلا.. ام ما يفهمه القارىء ؟.. لاشك ان ما يفهمه القارىء هو الأهم !

ولكن القراء كثيرون .. وكل واحد يفهم شيئا لأننا عادة نرى فى الاشياء ما نحب أن نراه أو ما يجعلنـــا بتفكيرنا الخاص نراه ، دون سواه !..

وأنا شخصيا أرى فى كل شىء مغزى اجتماعيا ..

ولكن .. لعله من الاحسن الا افسد عليكم المسرحية .. وأن أؤجل التعليق الى أن ينزل الستار !

ان الذى نراه على المسرح هو غرفة صالون ، لها شرفة تطل على حديقة غريبة .. فيها نباتات وطيور مستحضرة من مختلف أنحاء الارض ..

واول من يدخل المسرح « مسز فينابل » سيدة فى الستين من عمرها تقريبا .. تدخـــل من الشرفة الى الحديقة .. ومعها شاب وسيم جدا .. أنيق جدا .. هو الدكتور كوكروفيتز ..

مسز فينابل : هذه هى حديقة « سباستيان » ان كل زهرة قد كتب عليها اسمها باللاتينى .. بعضـــها زهور نادرة .. من مناطق بعيدة ، تحتاج الى عناية فائقة .. آه لا استطيع أن اثابر على هذا المجهود فى العناية بها.. والآن، مارأيك فىحديقة ابنى سباستيان؟

الدكتور : انها أشبه بغابة مرسومة بعناية .

مسز فينابل : تماما .. هـذا هو ماقصده ابنى بالضبط .. انه لم يكن يترك شيئا للصدفة أبدا.. كل

شيء كان مرسوما بعناية .. فى حياته أو فى عمله ..

الدكتور : وبالمناسبة .. ماذا كان ابنك يعمل فضلا عن هذه الحديقة طبعا ؟..

مسز فينابل : ما أكثر ما أسمع هذا السؤال ! هل تصدق انه مازال يضايقنى كلما سمعته ؟.. أليس مزعجا أن يظل الشاعر سباستيان مجهولا حتى الآن .. الا من أمه وعدد قليل من أصدقائه ؟..

الدكتور : أوه !

مسز فينابل : كانت مهمته الاساسية هى حياته ! لقدكان سباستيان شاعرا.. ومن رايى انحياة الشاعر هى عمله كما ان عمل الشاعر هو حياته .. لاينفصلان ابدا . ان عمل التاجر مثلا ، أو المحامى أو الطبيب يمكن أن يكون منفصلا عن حياته .. أما الشاعر ، فان حياته وعمله لاينفصلان .. وتلهث السيدة .. ويبدو كأنها مصابة بالدوار .. فيمد الطبيب يده اليها لتستند اليه ويسألها : مسز فينابل ، هل وافقك طبيبك الخاص على هذا الذى تنوين عمله ؟

مسز فينابل : لقد انتظرت هذا اللقاء منذ شهور ، لم أكن قادرة على أن أذهب وأقابلها فى مصحة سانت مارى .. فبذلت مجهودا كبيرا كى أجعلهم يحضرون الى هنا ! اننى لن أنهار .. هى التى ستنهار .. ستنهار أكاذيبها .. أمام حقائقى !

وتسير السيدة ، مستندة الىذراع الطبيب ، صاعدة الى الشرفة المطلة على الحديقة ، ثم تتهاوى على أحد المقاعد .. وتستمر قائلة :

ــ لقد كرست ما تبقى من حياتى للدفاع عن سمعة ابنى الذى مات ! ان سباستيان ليس مشهورا كشاعر، انه لم يكن يريد الشهرة .. كان يرفضها ، كان يفزع

من القيم الزائفة التى تجلبها الشهرة واستغلال الاسماء الشهيرة ..

كان يقول لى دائما : « أمى فيوليت.. انك ستعيشين بعدى ! »

الدكتور : ولكن ... ما الذى جعله يظن ذلك ؟

مسز فينابل : الشعراء عادة «مكشوف عنهم الحجاب» وقد كان ابنى مريضا بالقلب منذ صغره.. كان لايستطيع أن يركب الخيل أو يسبح مثلا .. كان يقول لى : «بعد أن أموت .. سيكون عملى كله بين يديك .. فاصنعى به ماتشائين» كان يريد أن تجيئه الشهرة بعد وفاته حين لايزعجه مجيئها .. هل فهمت منى ؟ والآن .. اليك أشعار ابنى ..

وتقدم له دفترا صغيرا مجلدا تجليدا فاخرا .. عليه عنوان « قصيدة الصيف » .. وتقدم له الدفتر وهى تنظر اليه .. كأنها تحمل كتابا مقدسا ..

الدكتور : قصيدة الصيف ؟

الأم : نعم .. وعليها تاريخ هـذا الصيف .. ان عندى ٢٥ قصيدة من هذا النوع .. كان يكتب قصيدة واحدة كل سنة .. ثم يطبع منها نسخة واحدة .. على مطبعة يد قديمة من القرن الثامن عشر ..

الدكتور : قصيدة واحدة فى السنة ؟ !

الأم : نعم .. فى الصيف .. حين نسافر سويا .. أما التسعة شهور الباقية من السنة فهى مجرد تحضير للقصيدة .. تسعة شهور مدة الحمل .

الدكتور : اكانت كتابتها صعبة الى هذا الحد ؟..

الأم : نعم .. رغم انه كان معى .. أما بدونى فكان مستحيلا عليه أن يكتب .. كما حدث له فى العام الماضى

الدكتور : الصيف الماضى ... الذى مات فيه ؟

الأم : نعم ... بدونى مات فى الصيف الماضى .

ومرة اخرى تبدو كأنها تعاني من دوار عنيف .. فان الذكريات تمزقها .. ثم تستطرد :

الأم : فى ذات صيف بعيد .. طلب ابنى سباستيان أن نذهب الى جزر « انكاتاداس » .. التى قرأ عنها فى بعض الكتب.. واستأجرنا يختا صغيرا وذهبنا الى هذه الجزر .. جزر بركانية قاحلة ولكننا رأينا هناك شيئا لم نقرأ عنه .. رأينا سلاحف البحر الترسة تخرج من الماء .. وتزحف على الشاطىء البركانى كى تضع بيضها عليه.. ففى كل سنة تخرج أنثى الترسة من مياه البحر الاستوائى وتحت الشمس الملتهبة تحفر بأقدامها حفرا صغيرة فى الرمل ، تضع فيها بيضها .. ان عملية وضع البيض عملية طويلة مرعبة.. وعندما تنتهى منها تزحف اناث الترسة المرهقات عائدات الى البحر.. شبه ميتة .. انها لاترى بيضها يفقس قط.. أما نحن فقد رأيناه

سأل ابنى سباستيان عن موعد الفقس .. وعدنا لنشهده ..

الدكتور : عدتم الى الجزر ؟

الأم : نعم ، لنشـــهد فقس الترسة الصغيرة ، وفرارها الرهيب الى البحر ، كان الشاطىء البركانى فى لون الكافيار ، يموج بالحركة .. وكانت السماء أيضا تموج بالحركة .

الدكتور : السماء ؟

الأم : نعم..كانت غاصة بالطيور السوداء الجارحة تعوى وتصرخ فى الفضاء صرخات مزعجة وبينما تخرج الترسة الصغيرة من بيضها .. وتشب من حفر الرمل، وتبدأ سباقها الى الماء تنقض عليها الطيور الجارحة .. بمناقيرها الحادة ، تحاول أن تقلبهـــا على ظهرها ،

لينكشف بطنها الطرى .. وتنهشـها الطيـور ، كان سباستيان يؤكد ان واحدا فى المائة لا أكثر ينجح فى الوصول الى الماء .

الدكتور : اى شىء فى هذا المشهد كان يجذب ابنك ؟

الأم : بعد ايام سقط مريضا بالحمى .. وتعذب عذابا هائلا .. وعدت مسرعة باليخت الى مناطق أقل حرارة.. الى الهند.. وهناك انطلقنا الى جبال هيمالايا !

الدكتور : هيمالايا ؟

الأم : نعم ... وهناك كاد ابنى سباستيان يترهب فى دير للبوذيين .. حلق شعر رأسـه مثل الرهبان البوذيين وبدأ يأكل الارز فقط فى أطباق من الخشب.. ووعد الرهبان بأن يتبرع لهم بكل ما يملك .. فأرسلت برقية على الفور لوالده أطلب منه تجميد كل حسابات سباستيان فى البنوك فورا .. ولكنى تلقيت برقية من محامى زوجى يقول فيها ان زوجى مريض جدا وانه يريدنى .. ويطلب منى الرجوع فورا ...

الدكتور : وهل عدت الى زوجك ؟

الأم : لقد اتخذت أقسى قرار فى حياتى .. قررت البقاء مع ابنى .. بقيت معه لكى أجتاز به هذه الازمة وفى أقل من شهر هجر سباستيان أكواخ الرهبان وألقى أطباق الارز الخشبية وذهبنا الى فنـدق شـبرد فى القاهرة .. ثم الى فندق ريتز فى باريس !..

وتدخل الخادمة ، وتعطى السيدة حبـوبا وأدوية تتعاطاها فى مواعيد محددة ثم تقول للدكتور :

— لو عرفت ابنى سباستيـان لأعجبك كثيرا .. ولأعجبته أيضا .. ان ابنى لم يكن متحذلقا فيما يتعلق بثرائه أو بأسرته ، ولكنه كان يتشدد فى اختيار الذين يحيطون به .. كان يصر على أن يكونوا جـذابين فى

شخصيتهم وفى شكلهم أيضا .. فى كل مكان يذهب اليه .. هنا فى أمريكا أو فى الريفيرا أو باريس أو فينيسيا.. كانت تحيط به دائما «حاشية» من الناس ذوى الشباب والموهبة والجمال .

الدكتور : هل كان ابنك شابا ؟

الأم : كلانا كان شابا وبقينا شبابا .. انظر، سوف أريك صورتين له .. ان بين هاتين الصورتين عشرين سنة من الزمن .. فهل تستطيع أن تميز أيهما أكبر ، وأيهما أصغر ؟ ان الاحتفاظ بالشباب ليس امرا سهلا .. انه يحتاج الى مجهود ونظام عنيفين.. كاس واحدة فقط قبل العشاء .. وطعام مسلوق .. وسلاطة خضراء .. حتى لو كان يأكل فى أفخر المطاعم ذات الاغراء .

ثم يوجه لها الدكتور كوكرفيتز سؤالا دقيقا :

ـ كيف كانت الحياة الخاصة «الشخصية» لابنك ؟

وترد الأم فى اضطراب :

ـ كان طاهرا تماما .. وقد كان صعبا أن نحتفظ له بطهارته.. بسبب جماله وجاذبيته . كان من الصعب ابعاد الذين يطاردونه ...

الدكتور : وقد ظل طاهرا حتى الصيف الماضى ؟ كم كان عمره فى الصيف الماضى ؟

الأم : حوالى اربعين سنة ..

وتستمر الأم مؤكدة :

ـ صدقنى .. لقد كان طاهرا تماما .. كنت أنا الوحيدة فى حياته التى أحقق له ما يريده من الناس .. وكثيرا ما قطع صداقته بالناس لأنهم لم يكونوا طاهرين ، مثله .. لقد عشنا معا حياة باهرة لم يكن الناس يقولون سباستيان وامه .. أو مسز فينابل وابنها .. ولكنهم كانوا يقولون : « سباستيان وفيوليت » هكذا كانوا

يذكروننا فى مدريد .. فى باريس فى كل مكان ..
لقد عشنا حياة عظيمة .. عظيمة لم يعرفها العالم منذ قام اصحاب الدكاكين الناجحين بطرد امراء عصر النهضة من قصورهم .. كانت هذه حياتنا .. الى ان جاء الصيف الماضى ...

وتسكت لحظة تلتقط فيها أنفاسها ثم تقول بحرارة :
ــ اننى لن أغفر له ما فعله فى الصيف الماضى .. رغم انه دفع حياته ثمنا له .. لن أغفر له انه سمح لها ...

الدكتور : تقصدين الفتاة ..؟

الام : نعم .. الفتاة التى ستراها هنا اليوم .. انها منذ ذلك الوقت تريد أن تدمر سمعته فى المصحة التى حجزناها فيها فى باريس.. فى الطائرة التى نقلناها عليها الى هنا .. حتى فى المطار قبل أن تركب سيارة المصحة .. حاولت أن تتكلم.. حاولت أن تطلق لسانها.. انها دائما تطلق لسانها .. تريد أن تدمر سمعة ابنى سباستيان ..

وقبل أن نمضى فى تلخيص الحوار .. نتساءل : من هو الدكتور كوكرفيتز ؟.. وما الذى جاء به الى بيت هذه السيدة ؟..

اننا نفهم من الحوار بعد ذلك ان الدكتور طبيب متخصص فى نوع جديد من العمليات الجراحية الخطيرة ..غيرمضمونة النتائج بعد.. هى جراحة المخ.. وذلك بالنسبة لذوى الامراض العصبية العقلية.. وهى عملية تجلب لهم الراحة وتجعلهم ينسون أنواع الهوس التى تسيطر عليهم .

ولكن المعهد الذى يعمل فيه الطبيب فى حاجة الى اعتمادات وتبرعات ضخمة للانفاق على هذه التجارب.. ومسز

فينابل قد أحضرت الطبيب لتساومه : انها مستعدة لدفع تبرع ضخم توقفه على المعهد وعلى هذه التجارب ، بشرط أن يجرى هذه العملية الدقيقة للفتاة التى تتكلم عنها كاترين « حتى تكف عن هذه القصص التى ترويها عن ابنى لتدمر سمعته » .

ويقول لها الدكتور :

ـ انه يجب أن يفحص الفتاة أولا .. فقد يكتفى بأن يعالجها بصدمات كهربائية مثلا .

فتقول له :

ـ انهم جربوا فيها كل هذا فى المصحة التى وضعوها فيها ..

ويقول لها الدكتور :

ـ هذه رشوة تدفعينها لى كى أجرى العملية للفتاة

فتقول له العجوز : سمها ما تشاء .. فأنا لن أدفع الا بهذا الشرط ...

ولكن من هى كاترين بالضبط ؟ ما هى علاقتها بهذه السيدة وابنها ؟ وما الذى جعل هذه السيدة تعتقلها فى مصحة سانت مارى ؟

هذا ما سنعرفه الآن .. فقد عادت الخادمة تقول : ان الآنسة كاترين ومعها راهبة ممرضة من مصحة سانت مارى قد وصلت الى البيت .

وترتجف « مسز فينابل » وتقول انها ستصعد الى غرفتها لتشرب مقويا قبل أن تراها . انها لا تستطيع أن تراها هكذا مباشرة ..

وتنصرف مسز فينابل فى اضطراب شديد .. ويبقى الطبيب فى الشرفة المطلة على الحديقة بينما تدخل كاترين ومعها الراهبة التى تحرسها الى الغرفة المؤدية الى الشرفة .. وتدور مشاكسات بينها وبين الراهبة نعرف

منها ان كاترين تعيش تحت رقابة وحجر شديدين ..
ثم تصل أم كاترين وأخوها جورج ونفهم من الحديث انها زوجة خال كاترين وان سباستيان بناء على ذلك هو ابن خالها .. ان جورج .. — أخا كاترين — يلبس بذلة فاخرة — تعرف كاترين انها بذلة سباستيان .. فتقول لها أمها ان أم سباستيان أعطت جورج كل الملابس التى تركها ابنها .

ثم نعرف ان سباستيان قد ترك وصية اوصى فيها بـ ٥٠ الف دولار لكل من كاترين وأخيها جورج وأمها ، انهم اقارب فقراء لسباستيان وأمه اللذين يتمتعان بثراء واسع ، ولكن كل أموال سباستيان ما زالت تحت الحجر ، وأمه لن تنفذ الوصية مادامت كاترين تروى هذه القصة عن ابنها .

ان أم كاترين واخاها جاءا لاقناعها بأن تعدل عن رواية هذه القصة .. ليتمكنا من أخذ الفلوس ..

وتقول كاترين : معنى ذلك ألا أروى ما حدث لنا فى «كابهزا دى لوبو» لقد كان فى امكانى انقاذه .. لو انه تركنى أمسك يده — لأمكننى انقاذه — ولكنه ترك يدى .. تركنى .. وجرى فى الاتجاه الخطأ ...

ويتشاجر معها أخوها وأمها : انها ما زالت مصرة على ان تروى هذه القصة غير المعقولة التى نبتت فى خيالها ..

ان الجميع اذن يطلبون من كاترين أن تعترف بكذب حكاية تقولها عن سباستيان ، مسز فينابل تريد ذلك لأنها بهذه القصة تدمر سمعة ابنها . وهى من أجل منعها من روايتها تضعها فى مصحة الامراض العصبية .. وتريد اجراء عملية جراحية لها فى مخها .. وأم كاترين وأخوها يريدان منها ذلك حتى يحصلا على المبالغ التى أوصى بها سباستيان لهما .

ولكن كاترين تصيح : اننى عاجزة عن نسيان ذلك المشهد الرهيب .. وانا أجرى معه على سفح كابيزا دي لوبو ـ اننى اعرف انها قصة بشعة .. ولكنها قصة حقيقية .. حدثت فى هذا العالم المتحضر الذى نعيش فيه ..

ويقطع الشجار .. نزول مسز فينابل .. ودخولها الى الغرفة ..

ان كاترين منزعجة من وجود دكتور كوكروفيتز .. لقد عرفت انه قادم من المعهد الذى يقوم بجراحات فى المخ .. « تريدون أن تفتحوا فجوة فى جمجمتى وتحركوا سكاكينكم فى مخى » وتقول انه لابد من استئذان أمها قبل اجراء اي عملية لها .. لأن مسز فينابل ليست وصية عليها .. ولكن الأم تسكت .. أما مسز فينابل فتقول انها هى التى تصرف على كاترين وعلى أم كاترين، وانهم جميعا عالة عليها .. وترد كاترين قائلة : انك تحقدين على .. تظنين اننى انا التى جعلت ابنك سباستيان يتركك ويسافر معى فى الصيف الماضى .. فى حين انك كنت مريضة بأزمة قلبية وعاجزة عن السفر ..

وتنفجر مسز فينابل :

ـ لم أكن مصابة بأزمة قلبية .. كنت مريضة مرضا بسيطا فقط .. ولكن هذه البنت السليطة اللسان ضحكت على عقل ابنى .. ان هؤلاء الناس لايجمعنى بهم دم القربى .. انهم اقارب زوجى الميت فقط .. لقد كنت دائما أحتقرهم .. أخت زوجي وابنها وابنتها .. لقد صرفت على هذه البنت دون نتيجة .. كان لها دائما لسان سليط .. يحسبه بعض الناس ذكاء .. وكانت دائما وقحة فى معاملة الناس المهذبين ، ولكن بينما كنت انا اتقزز منها ، كان ابنى سباستيان يجد فيها شيئا

مسليا .. فأخذها معه فى الصيف الماضى.. بدلا منى..
وتصرخ كاترين : كفى ، لا أريد البقاء .. أعيدونى الى المصحة .. هذه المرأة تظن اننى مسئولة عن موت ابنها ، انها تريدنى أن اكذب ، وأنا لا أستطيع أن اكذب .. لا استطيع أن أغير الحقيقة .. لا استطيع أن اغير قصة ما حدث لابنها فى « كابيزا دى لوبو » ...

ويتـــدخل الدكتور لتهدئة الموقف .. ويطلب منهم جميعا أن يخرجوا ويتركوه هو وكاترين بمفردها .. وعندما يخلو بها يعطيها حقنة مهدئة .. ويتحدث معها حتى تطمئن اليه بالتدريج ...
ويسألها الدكتور :
ـ ماذا كانت علاقتك بابن خالك سباستيان ؟
ـ كنت أعجبه .. ولذلك أحببته .
ـ اى نوع من الحب ؟
ـ النوع الوحيد الذى كان يمكن أن يقبله .. نوع من حب الأمومة ـ لقد حاولت كثيرا أن أنقذه ..
ـ من ماذا ؟
ـ من صورة رهيبة ، كان يرسمها لنفسه كضحية.. لقدر قاس ...
ـ كاترين أريد منك شيئا ..
ـ اطلبه .. أعطه لك على الفور .
ـ اعطنى مقاومتك ..
ـ مقاومتى لأى شىء ...
ـ مقاومتك للحقيقة.. للحقيقة التى سوف تروينها امام الجميع ...
ـ ان الحقيقة هى الشىء الوحيد الذى لم أقاومه ابدا ..
ـ الناس احيانا يظنون أنهم لا يقاومون الحقيقة ،

بينما هم يقاومونها ..
ثم أردف قائلا :
ــ يقولون ان الحقيقة توجد عادة فى قاع بئر .. لا قاع لها ...
ويفاجأ الدكتور بكاترين تهجم عليه ، وتحتويه بين ذراعيها ، وتضمه الى صدرها بشدة . ويحاول هو أن يتخلص منها، ولكنها تتشبث به متوترة ، وهى تقول له :
ــ أرجوك ، امسكنى .. اننى وحيدة جدا.. وحيدة حتى الموت ..
وتعود كاترين الى الهـدوء .. ويعود الجميع الى الغرفة بناء على استدعاء الطبيب.. تعود مسز فينابل والمرضة الراهبة وأم كاترين وشقيقها .
الدكتور : والآن ستروى لنا كاترين القصة كلها ..
كاترين : ان القصة بدأت منذ أن ولد سباستيان .. فى هذا البيت ..
الدكتور : لا داعى لهذا .. لنبدأ من الصيف الماضى فقط ...
كاترين : فى الايام الستة التى قضيناها فى البحر.. فى طريقنا الى أوروبا.. كان رقيقا معى للغاية.. لدرجة ان بعض الناس كانوا يحسبون اننا عروسان فى شـهر العسل الى أن اكتشفوا اننا نسكن غرفتين منفصلتين تماما .. وفى باريس غمرنى بمشـتـرياته .. بأفخر الفساتين واغلى العطور.. وبعد ذلك ، ارتكبت غلطة كبيرة ، لقد بدأت اتجاوب مع رقته وحنانه أكثر مما يجب .. امسك بيده مثلا .. أو أستند الى كتفه . أو أتعلق بذراعه .. لقد فسرت حنانه معى أكثر مما أراد هو .. وفجأة أصبح قلقا مضطربا .. كأن شيئا فيه كان يتحطم .. وعجز عن أن يكتب سـطرا واحدا فى

قصيدته .. وفجأة قرر ان نترك المكان الذى كنا فيه.. المكان الذى عجز فيه عن كتابة قصيدته .. وان نذهب الى «كابيزا دى لوبو».. لأن هذا الخيط اللؤلؤى الذى تربط به الأم ابنها قد انقطع .

مسز فينابل : انها تعترف بأننى كنت أحميه من الدمار .. .

كاترين : كل ما أعرفه .. انه فجأة بدا وكأنه لم يعد صغيرا بعد .. وعندما وصلنا الى كابيزا دى لوبو انتقل فجأة من سهرات الليل الى الخروج عصرا . انتقل من ارتياد الاماكن الفاخرة الارستقراطية الى تفضيل الشواطىء العامة المفتوحة للجمهور ...

مسز فينابل : انظر كيف تكذب .. هل معقول أن يذهب سباستيان الى شاطىء شعبى عام ، قذر، مفتوح للجمهور .. وهو الذى كان يسير بقاربه اميالا فى الماء ليجد ماء نظيفا يستحم فيه ..

الدكتور : مسز فينابل .. ارجوك الا تقاطعيها .. مهما كان رأيك فيما تقول .

مسز فينابل : حاضر .. لن أتكلم ..

الدكتور : ثم ماذا ؟ تقولين انكما كنتما تذهبان عصر كل يوم الى الشاطىء العمومى ...

كاترين : هناك شاطىء عمومى يدخله الناس مجانا ، وبجواره شاطىء عمومى أيضا يدخله الناس لقاء دفع رسم زهيد ، كان هذا الشاطىء الاخير هو الذى نذهب اليه .. كانت مشكلة سباستيان هى كيف يلفت نظر الناس اليه ، كان عاجزا عن أن يتصل بالناس مباشرة .. وهذا ما كانت تصنعه له أمه .. ولكن هذا كان سهلا فى الاماكن الراقية التى كانا يذهبان اليها اما فى شاطىء عمومى فقد كانت المشكلة أصعب .. كان

سباستيان وحيدا ، كان الفراغ فى الكراسة الزرقاء التى تنتظر قصيدته يتضخم ويتضخم حتى اصبح كالسماء الفارغة ..

الدكتور : ثم ماذا ؟

كاترين : ولكنه بعد قليل لم يعد محتاجا لى فى هذا الغرض .. لقد ارتفعت حرارة الطقس وامتلأ البلاج العمومى الملاصق للبلاج الذى كنا نتردد عليه بالناس.. جماعات من الشبان الفقراء .. الجائعين.. كنت أتركه أحيانا .. ثم أعود اليه .. ساعة خروجنا من الشاطىء فأراه قادما ، وهم يتبعونه ...

الدكتور : يتبعونه ؟ من ؟

كاترين : الاولاد والشبان .. الجائعون .. الذين لا مأوى لهم .. كانوا يتزاحمون أمامه على الاسلاك التى تفصل بين شاطئنا وشاطئهم .. يوزع عليهم النقود .. البقشيش .. كأنهم جميعا قد مسحوا له حذاءه .. وكل يوم كان عددهم يزيد وبدأ سباستيان يخاف .. ثم قرر أن نمتنع عن الذهاب الى هذا الشاطىء ...

الدكتور : ثم ماذا ؟

كاترين : وذات يوم قرر سباستيان اننا ضقنا بكابيزا دى لوبو ويجب أن نتركها .. وقرر ان نذهب للغداء ساعة العصر آخر يوم لنا فى أحد مطاعم السمك. على الشاطىء تماما فى منطقة مهجورة .. بين المدينة والميناء .. كانت الشمس لافحة ولونها أبيض .. وكان سباستيان يومها فى بياض النهار .. كان يلبس بذلة حريرية بيضاء ناصعة ليس عليها ذرة تراب واحدة .. وحذاء ابيض .. وكرافتة بيضاء .. وكان يلمس فمه ورقبته من حين لآخر بمنديل حريرى ابيض .. ويبتلع اقراصا بيضاء .. اذ كان يحس ببوادر نوبته القلبية .

وعلى مقربة من المطعم .. خارج سور من الاسلاك الشائكة .. كان هناك عدد كبير من الاولاد السمر العراة يسبحون فى البحر .. كانوا شحاذين ومتشردين .. واقتربوا منا بأجسامهم النحيفة السمراء كأنهم طيور سوداء كثيفة .. وملأوا السور ، يمدون أيديهم الينا ويصيحون : « بان .. بان »

الدكتور : ما معنى .. « بان » ..؟

كاترين : اى.. خبز.. كانوا يصرخون طالبين الخبز بأصوات كريهة بشعة مقززة .. وبدأ سباستيان يدوخ .. فوق انه كان كما قلت لك يحس ببوادر النوبة القلبية.. وقال لى : « لاتنظرى اليهم.. ان المتسولين مرض اجتماعى فى هذا البلد .. انك اذا نظرت اليهم فسد كل شىء فى نظرك .. »

وقد تعودت أن أطيع سباستيان .. فلم اعد أنظر الى هؤلاء الاولاد المتسولين حتىعندما جاء الجرسونات واخذوا يطردونهم بالعصى بعيداً عن السور .. ثم ..

الدكتور : ثم ماذا ؟

كاترين : بدأت فرقة المتسولين تغنى وتنشد علينا ، اختلست النظر اليهم عندما كان سباستيان لاينظر الى فوجدتهم يدقون على علب صفيح فارغة .. وفى أيديهم عصى صغيرة وقطع حديد .. وأى شىء يحدث صوتاً.. كانوا يدقون ويعزفون ويصيحون علينا .. من بعيد .. طوال تناولنا الغداء

الدكتور : ألم يعترض لدى المدير ؟

كاترين : اى مدير ؟ الله ؟.. طبعا لا .. مدير المطعم ؟ لا ايضا .. انك لا تعرف ابن خالى سباستيان.. لقد كان يقبل الاشياء .. كما هى .. ويظن انه ليس من حق أحد أن يعترض .. او يتدخل .. بأى صورة من

التدخل .. كان لايؤمن بأن من حق أحد أن يصنع الا الشيء الذى يجد نفسه يصنعه .

الدكتور : وماذا وجد نفسه يصنع ؟

كاترين : قفز فجأة من مقعده.. وصاح فى الجرسون : يجب أن توقفهم.. لايمكن أن يستمر هذا.. اننى رجل مريض.. كانت هذه أول مرة يحاول فيها سباستيان أن يصحح موقفا انسانيا .. ولعل هـذه كانت غلطته القاتلة .. وفى هـذه المرة خرج ما يقرب من ثمانية جرسونات وانهالوا على الاولاد ضربا بالعصى .. بينما القى سباستيان حفنة من النقود على المائدة وقام لينصرف وقمت خلفه .. وعند باب المطعم وقف سباستيان.. مرتبكا .. كان أمام المطعم طريق طويل صاعد شـديد الارتفاع .. وقلت لسباستيان انه ليس من الصواب أن نمضى فيه فالاحسن أن ندخل المطعم ثانيـة حتى يحضروا لنا تاكسيا نركبه .. ولكنه نهرنى وانطلق يسير فى الطريق الصاعد .. بسرعة .. ويده على قلبه .. وقد بدأ عليه الخوف .. والألم .. والفزع .. ولكنه كان كلما أسرع .. زادوا اقترابا منه ..

الدكتور : من هم ؟

كاترين : الاولاد.. المتسولون.. وآلاتهم الموسيقية المرعبة فى أيديهم.. ثم بدأ سباستيان يجرى.. وما كاد الاولاد يرونه يجرى حتى صرخوا صراخا مرعبا وجروا وراءه .. وأدركوه بسرعة .. وأحاطوا به .. وسمعت سباستيان يصرخ .. صرخة واحدة قبل ان يطبق عليه الاولاد كالطيور السوداء الجارحة ..

الدكتور : وانت ماذا فعلت ؟

كاترين : أخذت أجرى فى الاتجـــاه المضاد واصرخ واطلب النجدة .. حتى خرج الجرسونات .. وبعض

الناس .. وعندما وصلنا الى حيث أطبقت الطيـــور السوداء الجارحة على سباستيان ، وجدناه .. راقدا .. عاريا .. وقد ـ انك لن تصدق ولا أحد يصدق.. ولكننا وجدناه عاريا وقد نهشوا لحمه .

وتصرخ مسز فينابل .

وتمضى كاترين قائلة : نهشوا لحمه .. مزقوا أجزاء منه بأيديهم أو أسلحتهم أو الحديد والصفيح الذى كان معهم .. لم يكن هناك شيء سوى جثة سباستيان .. كأنه باقة ورد قـــد تمزقت .. وألقيت .. وديست بالاقدام ..

وتهتز وتقفز مسز فينابل صارخة :

ـ خلاص.. خلاص.. ارسلوها الى المعهد .. لابد من اجراء العملية اقطعوا هذا الجزء من مخها.. اقطعوا هذه القصة من مخها ..

وتبكى أم كاترين .. وييأس أخوها من كل شيء .. وتلتفت الأم الى الطبيب قائلة : الا تقول شيئا ؟

ويقول الدكتور : اظن ان رواية كاترين.. معقولة..

***

هذه هى خلاصة المسرحية .. المزعجة ..

ان مسز فينـــابل .. كما انها أم تحتكر ابنها .. وتسيطر عليه .. حتى لقد حرمته من أن تكون له علاقة طبيعية بالحياة .. هى الطبقة الارستقراطية باعتزالها الحياة .. وترفعها .. وعقمها .. وظنها ان الآخرين يعيشون عالة عليها ..

ان ابنها سباستيان .. هو هذه الطبقة حين تشعر بمأساتها .. ولكنها تعجز عن صنع أى شيء بناء على هذا الشعور .. انه يشعر بموتها .. بنهاية رسالتها انه يحاول أن يتصل بالحياة ولكنه يعجز .. لأنه عاش

فى نطاقها القديم الآسر.. لقد تحطم اول مرة حين حاولت كاترين أن تحبه حبا حقيقيا .. وتحطم مرة ثانية حين حاول أن يتصل بالناس فى «كابيزا دى لوبو» فلم يجد وسيلة الا أن يتصدق ..

***

ان المؤلف يرسم صورة قاسية للحياة .. ولصراع البقاء فيها .. كذلك المشهد المرعب .. مشهد الطيور السوداء التى تنهش ترسة البحر .. ترسة البحر التى ارهقت الأمهات فى وضعها .. ثم يترجم هـذا المشهد ترجمة أخرى حين يصور لنا الاولاد الجائعين.. الفقراء .. يستفزهم منظر الشاب الغنى الابيض الناصع ، البراق ، الذى ينثر المال .. ويهرب ..

التفسير السياسى للموسيقى

لماذا تستمع الى الموسيقى والغناء ؟..

ستقول للمتعة ، ولا بأس بذلك ، فان الموسيقى اذا لم تقدم لنا المتعة لا تكون موسيقى ..

ولكن .. ان المتعة فى الموسيقى ليست ضد «المعنى» وفهم الموسيقى لا يسلبها المتعة ، بل يضاعفها . وفى الفن بوجه عام يوجد نوعان من المتعة : الاولى متعة الدقيقة العابرة ، والاسترخاء والراحة من مشاكل اليوم. والثانية متعة انعاش الذهن والحواس، وتنبيهها الى آفاق جديدة من الحياة والمشاعر والافكار.. والفرق بين المتعتين هو الفرق بين الفن التافه والفن الرفيع ..

ثم ..

ماذا تصنع بنا الموسيقى ؟..

تصور انك تستمع الى خطبة مثلا .. ان جوهرها ولاشك هو الافكار التى يقولها الخطيب .. ولكنك لن « تنفعل » بهذه الخطبة اذا كان الخطيب يدحرج كلماتها بلا وقفات ، ولا تغيير فى طبقات الصوت ، ولا أى نغم على الاطلاق .. فموسيقى الالقاء تزيد انسانية الخطبة وتضاعف درجة الانفعال بها ..

والانفعال الذى ينتاب الواحد منا عندما يستمع الى الموسيقى هو علامة الاحساس بالجمال المركز فى اللحن ،

وهو الفرحة التى تصاحب كل قفزة نقفزها الى معرفة جديدة

والموسيقى ليست أصواتا جوفاء .. ولكنها تصوير بالصوت والايقاع لعديد من الصور والعلاقات الانسانية

وما دامت الموسيقى تصويرا للحياة الانسانية ، فاننا لايمكن أن نفهمها الا اذا وضعناها فى سياق العصر الذى أنتجها .. بكل ظروفه السياسية والاجتماعية .

اذن.. فكما نقرأ تاريخ المجتمع الانسانى فى السياسة والادب والاقتصاد فاننا نستطيع أن نقرأه أيضا فى الموسيقى.. وهذا هو مايقدمه لنا «سيدنى فينكلستين» فى هذا الكتاب ..

والكتاب ـ بناء على هذه الخطة ـ يعتبر جديدا على القارىء المصرى.. الذى خلقت له الصحف وهما كبيرا ، ظن معه ان الفنان انسان لايلهمه الا وجه جميل ، أو خصر نحيل .. وان الموسيقيين بالذات لم تكن لديهم مشكلة .. الا المشكلة الجنسية !! وانهم مشغولون بمطاردة النساء عن ملاحظة الواقع ، ودراسة المجتمع والكفاح من أجله ..

فى العصور الوسطى كان النظام السائد فى المجتمع هو الاقطاع .. كان الاباطرة والنبلاء يملكون الارض ، وكان الفلاحون أرقاء تابعين لهذه الارض ، ومن التجار والصناع اليدويين ـ كالنجارين والحدادين والاسكافيين ـ نشأت المدن. واستطاعت مع الزمن أن تختار حكامها ، وأن تصبح أقرب الى الجمهوريات ، مثل البندقية وفلورنسا فى ايطاليا ..

أما الموسيقى ، فكانت توجد منها أيضا ثلاثة أنواع.. كانت هناك موسيقى الكنيسة التى تعزف فى المناسبات الدينية وموسيقى البلاط التى تعزف فى سهرات القصر،

وموسيقى الشعب وهي أغاني الحصاد والزفاف والاعياد

كانت موسيقى الكنيسة تصور الحياة الاخرى ..
وكانت موسيقى البلاط تهدف الى تزجية الفراغ فحسب

أما موسيقى الشعب فقد تقدمت موكب التطور ..
امتزجت بالشعر ، واتخذت شكلا كفاحيا ، وانطلقت تتغنى بقصص وأناشيد يرددها الفلاحون الارقاء وتدور عادة حول شخصية «الخارج على القانون» الذى يسخر من الملك والنبلاء ويحقق العدالة ويساعد الفقراء ، مثل قصة « روبين هود » فى انجلترا ..

وقد حدث فى سنة ١٤٠٢ ، أن أصدر مجلس العموم البريطانى قانونا يمنع دخول المنشدين مقاطعة ويلز لأنهم تسببوا فى احداث شغب هناك ! !

أما وراء أسوار المدن القليلة ، فقد حدث شيء هام : هو طبع الالحان الموسيقية مما أتاح فرصة انتشارها ودراستها ، وقد ظهرت أول موسيقى مطبوعة فى البندقية سنة ١٥٠٠ .

واستمر الوضع على هذا النحو دون تغير يذكر حتى القرن السابع عشر والثامن عشر .. ظل الرق ، والاقطاع وسلطة الكنيسة ... وكان كل نبيل «يقتنى» فى قصره : طباخا لمطبخه وسائسا لجياده ومعلما لأولاده وموسيقارا لحفلاته !.. وربما كان هذا الموسيقار فنانا عبقريا من الذين وضعوا ألحانا خالدة ، ولكن مركزه الاجتماعى فى القصر كان لا يختلف عن مركز الطباخ والسائس .. ولم يكن عمله هاما .. مجرد أن يعطى الصغار دروسا فى الموسيقى . وفى الحفلات التى يقيمها النبيل ، يقف فى ركن القاعة يعزف الموسيقى ، بينما المدعوون يأكلون ويثرثرون ويضحكون .

وكان معنى ذلك ان القطع الموسيقية يجب أن تكون

مما يستطيع أن يعزفه فرد أو فرقة قليلة العدد تلائم الخاصة ، وأن تكون رشيقة رقيقة خافتة حتى لايضيق بها جو الصالون ، وأن تكون خالية من تعقيد الافكار لأن الحاضرين لا يتفرغون لسماعها ، انما هى تطرق آذانهم فحسب بينما هم مشغولون بالحديث أو الطعام .. أو الغزل !

ثم ظهرت ـ فى فلورنسا والبندقية أيضا ـ الاوبرا .. وكان من أثر ظهور الاوبرا ان ظهرت الفرقة الموسيقية الكبيرة والآلات المعقدة ، التى تطورت الى الفرقة السيمفونية ..

وبعد الاوبرا ظهر « الكونشرتو » ، وهو لون من الموسيقى التى يعزفها عدد كبير من الآلات ..

وكان ظهور الاوبرا والكونشرتو فى الواقع ثورة على الكنيسة والاقطاع . لقد تحول الموسيقار من عازف « يخدم » فى بيت النبيل الى فنان يعزف فى مكان عام يؤمه عدد كبير من الناس ..

ولم يكن هذا التحول سهلا .. أخذ « هاندل » فى انجلترا يعزف فى الاماكن العامة و «فيفالدى» فى ايطاليا يلحن الاوبرات وأعظمهم «باخ» فى المانيا يعزف فى الكنيسة فاتحا أبوابها للجميع .. فوضعوا بذلك أول حجر فى بناء صالة العزف ..

فالموسيقى الجديدة التى يضعها هؤلاء العباقرة لم تعد تلائم تماما صالونات النبلاء .. الاوبرات مثل «أوبرا الشحاذين » التى اكتسحت فى انجلترا ـ وهى تتحدث عن ثورة عامة الناس على مظالم النبلاء ـ وموسيقى «باخ» فى المانيا يهاجمها النقاد «لأنها معقدة» فيرد عليهم صديق له قائلا : « انه لا يضع الحانا لحفلات الشراب وما اليها من المناسبات الأنيقة .. فان عليه ـ كفنان

حقيقى ـ أن يحاكى الطبيعة ، وأن يساعدها اذا أمكن!»
ولم يكن هذا التحرر تاما بالطبع .. فالموسيقار بعد ذلك يجب أن يعيش.. والرزق فى يد الكنيسة والنبلاء. و«باخ» نفسه كان «يخدم» كموسيقار عند دوق فيمار ثم عمل مدرسا للموسيقى فى الكنيسة.. وكان نظام الاقطاع يقضى عليه بأن لاينتقل من وظيفة الى وظيفة أو من بلده الى بلدة الا باذن من الأمير . ومما يعطينا فكرة عن جو ذلك العصر أن نقرأ فى قرار تعيينه عند الأمير : «عليك أن تكون مخلصا مواليا مطيعا لسعادة الكونت ، وأن تكون مهذبا متعاونا مع الادارة ، والا تزج بنفسك فى غير عملك من الأمور ! »

ثم جاء « موزار » فدفع الثورة على الاقطاع مرحلة أخرى .. والنقاد يطلقون على «موزار» اسم « فولتير الموسيقى» لأنه هاجم الموسيقى الاقطاعية بالعنف الذى هاجم به «فولتير» تفكير الاقطاع .. بل انه اشترك فى عدد من الجمعيات السرية لمناوأة النظام الذىكان سائدا

وكانت استقالة «موزار» منخدمة اسقف سالزبرج، اعلانا تاريخيا لاستقلال الفنان ! وتأكيدا لصفته كانسان مفكر مبدع وليس مجرد خادم للكنيسة والنبلاء..وكان اسقف سالزبرج صاحب نفوذ واسع ، مما جعل موزار يتعرض لحرمان هائل هو الذى أدى الى موته المبكر..

وعاش موزار يقاسى العذاب الذى يقاسى منه كل المجاهدين .. كان عليه لكى يرتزق ويعيش أن يجارى الاشكال الموسيقية التى يرضى عنها النبلاء ، وكان عليه لكى يحقق رسالته أن يضع أفكاره وعواطفه الجياشة فى هذه الاشكال القديمة..ونجحت موسيقاه فى الشوارع اكثر مما نجحت فى الصالونات ! أصبحت الحانه تتردد فى الشوارع والحدائق وحانات البيرة ، حتى ان الشحاذ

عازف الجيتار كان لا يأمل فى جمع نقود الا اذا عزف شيئا لموزار.. أما فى الصالونات ، فكان تعليق النقاد « انه لايعطى المستمعين فرصة للراحة.. فما أن تنتهى فكرة جميلة حتى يلحقها بأخرى تنزع الأولى من الرأس فلا يبقى فى النهاية شىء ! » .. فأهل الصالونات لايريدون الموسيقى التى يحتاج سماعها الى مجهود .

كان موزار يضع الحانه المضطرمة فى القوالب التى ترضى مالكى الرزق وكان هذا الثائر مضطرا الى مجاراة النبلاء ، حتى لقد انتحل أحدهم احدى القطع التى وضعها موزار ، وكان عليه أن يسكت ، ما دام قد قبض الثمن !..

أما فى الاوبرا ، فقد خطا موزار خطوة كبيرة اخرى.. كانت الاوبرات كلها مطبوعة بطابع الاقطاع ، تدور حول شخصيات من النبلاء فى عالم ثابت غير متغير .. فجاء موزار واخرج أوبرات كوميدية ، تدور مثلا حول انقاذ خادمة من حريم أمير تركى .. وتمتلىء بالكلام عن حرية المرأة واستقلالها .. أو أوبرا « زواج فيجارو » التى جعل الكونت فيها يبدو أحمق خبيثا .. ولم يجعل الخادم «فيجارو» كالعادة ، أبله دنيئا بل جعله بطل القصة .. جعله مخلوقا انسانيا عميق الانسانية ، يدافع عن حقه فى الحب والفوز ! وقد تعرضت « زواج فيجارو » بالذات لاضطهاد شديد من رقابة الاقطاع .

ثم جاءت الثورة الفرنسية فهزت العالم وأفسحت الطريق أمام بتهوفن وشوبيرت .

كان بتهوفن فى التاسعة عشرة من عمره عندما انفجرت الثورة الفرنسية . وقد ولد فى مقاطعة الراين ، أقرب المقاطعات الالمانية لفرنسا ، من أب كان يعمل عازفا فى القصر نظير اجر تافه وأم كانت ارملة طباخ ..

وقضى بتهوفن شبابه متطلعا الى الاحداث التى تدور عبر الراين .. حيث أعلنت مبادىء : الحرية والاخاء والمساواة .. وأعلن ميثاق حقوق الانســـان ، وهزم الفلاحون وهم ينشدون المارسيلييز جيــوش الاباطرة والنبلاء .. واستولت الطبقة المتوسطة على الحكم .

وعندما ذهب بتهوفن الى عاصمة الموسيقى ، فيينا ، سنة ١٧٨٢ ، ليعيش فيها وجدها تحلم بالديمقراطية الجديدة .. ورأى أحلامها هذه تتنفس فى صورة شغف هائل بكل فن يومىء الى الحرية الآتية أو الى انهيــار النظام القديم .. وكان صعبا على بتهوفن أن يعلن عن ميوله الجمهورية فى عاصمة الرجعية ، وأن يؤيد جيوش فرنسا .. ومع ذلك فقد وضع لحن البطولة «ايرويكا» وأهداه الى نابليون ! وما كاد ينتهى من اللحن حتى سمع ان نابليون قد الغى الجمهورية وأعلن نفسه امبراطورا فمزق اللحن ، وأسفر بذلك عن ميوله الجمهورية ..

ونستطيع أن نقسم موسيقى بتهوفن وحيـــاته الى ثلاث مراحل :

المرحلة الاولى : عندما كان فقيرا مجهولا يشق طريقه بصعوبة ، ويعيش من اعطاء دروس الموسيقى للأغنياء أو العزف فى حفلات خاصة .. فى هــذه المرحلة وضع بتهوفن قطع « الســـوناتا » الرقيقة الملائمة للعزف فى الصالونات حيث يستمع اليها الهواة والأغنياء ..

والمرحلة الثانية : من سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨١٤ ، وكان قد ذاع صيته ولمع اســـمه فى جميـــع العواصم الاوروبية .. وازدادت قوة الطبقة المتوسطة وظهر منها جمهور يستطيع أن يعيش الفنان عليه . وأصبح بتهوفن يكسب من حفلات مفتوحة للجمهور .. وأصــبح يبيع القطع الموسيقية فى السوق الحرة ، طليقا من احتكار النبلاء .

وفى هذه الفترة أنتج بتهوفن أكثر أعماله .. وضع سيمفونياته الثمانية ، وأوبرا « فيدليو » وافتتاحياته « أجمنت » و « كاريولان » .

وكان انتصار « السيمفونية » على هذا النحو الرائع على يد بتهوفن ثورة حقيقية فىالموسيقى. فالسيمفونية لا تصلح للعزف فى الصالون الخاص ، بل لابد لها من قاعة ضخمة تؤمها الجماهير .. ولابد لمؤلفها من دراية بامكانيات الفرقة الكبيرة والقاعة الواسعة ..

ان الفرق بينهـــا وبين القطع القديمة الرقيقـــة كالفرق بين الخطب العامة فى الجماهير وبين الهمس فى الصالونات !

ودهش الناس من نغمة البطولة السائدة فى سيمفونيات هذا العملاق ودهشوا من اقبال جماهير الطبقة المتوسطة فى المدن عليها اقبالا لم يسبق له مثيل ! ودهشوا قبل كل شيء من قوتها الخارقة حتى وصفوها بأنها «وحشية»!

وانهالت عليه الحملات .. قال عنه النقـــاد : انه لايتوقف عن معارضة كل القوى السياسية الموجودة ! وأن عواطفه جمهورية ! وبدعوى ان موسيقاه « تدل على الجهل والابتذال ، وتنطوى على خطر ثقـــافى » منعوا التلاميـــذ فى المدارس من دراســـة موسيقاه ، فكانوا يحفظونها سرا .

وكان سر نجاحها انها تعبر أقوى تعبـــير عن روح العصر .. لم تكن رقيقة واهنة تلائم حفلات الرقص فى القصور .. ولم تكن حزينة أليمة خائرة ، تعبـــر عن الأسف على انقراض العهد القديم .. بل كانت قوية بطولية جارفة .. مليئة بالمعارضات السريعة العنيفة ، فى جو باهر يؤكد ان التغيير ضرورى ومفيد !

أما الفترة الثالثـــة : فكانت من سنة ١٨١٤ حتى

وفاته .. هنا سكت بتهوفن عن انتاج السيمفونيات ١١ سنة كاملة ، ثم أخرج واحدة أخيرة ، هي السيمفونية التاسعة ..

ما سبب هذا الصمت الطويل ؟ لقد هزم نابليون.. وعادت الملكية الى فرنسا ، وتعرضت أوروبا لموجة رهيبة من الرجعية ، وامتلأت العواصم ــ وعلى رأسها فيينا ــ بالجاسوسية والارهاب .. وانصب الاضطهاد على رؤوس الزعماء المتحررين .. وفي هذا الجو يستحيل القاء تلك الخطب الموسيقية العامة ، فتحول بتهوفن مرة أخرى الى « السوناتا » ومع ذلك ، فاننا لا نجد فيها روح اليأس والتسليم .. بل تملؤنا موسيقاها برغبة المقاومة والعناد الذى هو مفتاح شخصية بتهوفن ، وبالايمان بالحياة وهو نغمته التقليدية .

ان مشاعر الحب فى قطعة « ضوء القمر » ليس فيها أثر للحزن والاستعطاف وهو صورة الحب القديم ، بل هى مزيج من الحنان والفرح ، والنغمة البطيئة التى صور بها مشهد القبر فى « روميو وجولييت » لا يصف فيها قبول الموت ، بل الصراع من أجل الحياة.. لايضع فيها نواحا ، بل استشهادا بطوليا عظيما

ولما لم تعد الروح الديمقراطية الملتهبة تملأ صالات الموسيقى ، وضع هذه السيمفونية التاسعة ، التى ختمها بنشيد جماعى .. عن الأخوة الانسانية والسلام ..

ولما مات ، سارت فيينا كلها فى جنازته ، وكانت الجنازة ذات مغزى سياسى ، الى جانب المغزى الفنى..

وفى الموسيقى التى جاءت بعد بتهوفن نرى طابع الاستبداد والاختناق . نرى أوروبا التى يحكمها « مترنيخ » والمحالفة المقدسة التى عقدها بين الاباطرة ورقابة الاقطاع التى عادت الى المسرح والى كل انتاج

فني.. ونرى فى موسيقى «شوبرت» نفس القلق العميق الذى كاد يسود أهل فيينا.. والانهيار العاطفى اليائس يقتحم أعذب ألحانه كأنه الذهول المفاجىء !

وفقدت «قاعة الموسيقى» صفتها الثورية ، وأصبحت مكانا يظهر فيه الأغنياء الجدد . انهم ليسوا أقل تحضرا من السادة القدامى ! وأصبحت الموسيقى المطلوبة بناء على ذلك سطحية ، فيها من المظهر أكثر مما فيها من الموضوع .. فيها الضخامة وارتفاع الصوت والضجة أما الموضوع فتائه غامض ، وأصبح الفنان أقرب الى البهلوان : يقف «باجانينى» عازف الكمان الشهير على المسرح فيقطع ثلاثة أوتار أمام الناس ليريهم كيف يستطيع العزف على وتر واحد ! أما قصص الاوبرا فقد عادت تدور حول : العاشق المنتحر .. وقاطع الطريق !

كان لابد أن تتأثر الموسيقى أيضا ، بظهور المذاهب الاشتراكية .

أما كيف تأثرت ، فالأمر بسيط :

ان الحديث عن الفن الواقعى قديم · ولكن هذه الواقعيه كانت فى تغير مستمر . والواقعية فى هذا العصر ، تستمد مادتها من حياة الطبقات العاملة من فلاحين وعمال وموظفين وأصحاب الدكاكين الى آخره .

وكما كانت هذه الفئات محرومة من التعليم مثلا ، ومن القراءة ، كذلك فقد كانت محرومة من الاستمتاع بفن الموسيقى ، المتطور الرفيع ..

كانت هذه الفئات تنتج فنها الموسيقى الخاص بها ، فى صورة الاغانى الشعبية ، والموسيقى الشعبية الخاصة بها . وهذه الموسيقى والالحان الشعبية تكون ثروة ضخمة . ولكنها ظلت كالمادة الخام ، ثروة مهملة ، لم تتناولها يد الفن الموسيقى المتطور بتحسيناته وعلومه

والآلة الفنية . فقد كانت كل هذه التحسينات حكرا للطبقات القـــادرة ، تســـتمتع بها بمفردها فى قاعات الموسيقى الفاخرة ذات الأجر المرتفع .

ثم ان فنون الموسيقى الرفيعة ، من أوبرا وسيمفونى وغيرها ، أصبحت فى ظل النظام الرأسمالى صناعة كأية صناعة أخرى ، وأصـــبحت الموسـيقى والموسـيقيون يخضعون لسلطان شباك التذاكر . .اى للفئة التى تستطيع أن تقف أمام شباك التذاكر .. واصـبح عامة الناس يشترون السلع الموسيقية التى تعرض عليهم ، ســواء أكانت تعبر عنهم ، ومستمدة منهم ، أم لا ...

ولكننا الآن أمام تطور عالمى كبير . . الفروق بين الناس تتحطم وتحل محلها المساواة ، والموســيقى تصبح فى بعض الدول الاشتراكية مرفقـــا عاما كسائر المرافق الاخرى التى ترعاها الدول كالتعليم والصحة وغيرهما. ورعاية الدولة للموسيقى كأنها مرفق عام ، معناها ان تقدم الى جميـــع المواطنـــين ، مهما كانت قدراتهم ومستوياتهم .. فهى لا تشجع الموسيقى وتقدمها للربح، ولكن تشجعها ليستمتع بها أكبر عدد ممكن من أفراد الشعب .

وتحرر الموسيقى من سلطان شباك التذاكر ، وتحررها بالتالى من سلطان فئة معينة ، واتجاهها الى النـــاس كلهم .. معناه انها تجد نفسها محتاجة الى أن تستمد مادتها من حياة الناس كلهم ، من كفاحهم ومن احلامهم ومشاعرهم .. كلهم .

وعلى هـــذا الاســـاس ، مضى رواد الموسيقى الذين أدركوا مغزى التطور يضعون آذانهم الحساسة على قلب الشعب ، ويدرسون اغانيـــه والحانه واســـاطيره .. ويعبرون عنها فى أوبراتهم وسيمفونياتهم .. ولأول مرة

بدات خامات الفن الشعبى تعرف طريقها الى الاساليب الفنية الحديثة .. لتخرج منهـا موسيقى تجمع بين سلامة الاستعمال اليومى للانسان العادى ، وبين خصوبة التجربة الانسانية والاجتماعية وعمقها .. موسيقى تحمل رغبة الصراع والتقدم والفرح الصحيح العميق بالحياة !

وقد تحدث شوستاكوفيتش ، صاحب أروع سيمفونيات معاصرة ، فى المؤتمر الثقافى العالمى ، الذى عقد فى أمريكا سنة ١٩٤٩ ، تحدث عن رسالة الموسيقار فى هذا العصر ، فقال :

« ان مهمة الموسيقار المعقدة لمواجهة مطالب الواقعية الحديثة ، تتطلب منه أن يبعد عن الافكار العظيمة والمشاعر العظيمة ، وأن تحمل انغامه احساسا عميقا بالتفاؤل ، وتأكيدا قويا للجمال والكبرياء فى البشر .. ولن يستطيع الفنان أن يصنع ذلك فى عالم مضطرب ممزق محطم الاعصاب.. فالسؤال الذى يجب أن يوجهه كل موسيقار الى نفسه اليوم هو : كيف أخدم بفنى قضايا السلام ، والديمقراطية والتقدم ؟.. »

خطاب إلى قارئة مجهولة

الى القارئة الذكية ، التى طلبت فى ختام رسالتها أن اروى لها قصة امرأة عظيمة ، كانت فى نفس الوقت زوجة عظيمة ..

لقد قرأت رسالتك ــ الطويلة ! ــ يا آنستى الى آخرها ..

وفى آخرها وجدت توقيعا ، أغلب الظن أنه مستعار!

ولم يكن صبرى على قراءة رسالتك لمجرد أنها كتبت بأسلوب أعلى بكثير مما تكتب فتاة لم تزل فى الجامعة بعد . ولكن لأنى ــ أيضا وجدت فيها ذكاء كثيرا ، وصدقا كثيرا ..

ولست أظننى مستطيعا أن أشرك القراء فى كل أسئلتك دفعة واحدة ، فأنت تسألين وتناقشين فى الحب والزواج وفى حرية المرأة فى جسدها ، وفى الاشتراكية ، وفى الموسيقى .. وفى وجود الله !..

الحب والجسد .. يكفى فى شأنهما هنا بضع كلمات.

لقد روى « أفلاطون » فى احدى محاوراته أسطورة تقول : أن الانسان كان فى مبدأ الأمر جنسا واحدا . ولكن الاله الاكبر « زيوس » غضب على البشر ، فشطر كل مخلوق الى شطرين ، وجعلهم ذكرا وأنثى .. فالانسان حين يحب ، انما يستعيد سعادته بالتقائه

بنصـــفه الآخر المكمل له .. أى ان الحب : رغبة فى الاكتمال ! ..

انها اسطورة طبعا .. ولكنى أحبها .. فهى تلخيص بسيط لفكرة الحب .. وهى أساس منطقى بسيط أيضا للاختيار فى الزواج .

اننا نحب ما يكملنا ..

والحب الناجح أو الزواج الناجح هو الذى يتحقق به هذا التكامل ..

أما ما أعجبنى فى رسالتك بنوع خاص فهو : قلقك اللذيذ !

انك على وشك الانتهاء من دراستك فى الجــــامعة ، فأنت فى أكثر فترات العمر اضطراما بالاحلام الباهرة ..

وأنت تريدين أن تكونى امرأة عظيمة . ربما أديبــة عظيمة أو مكتشفة عظيمة ، أو سياسية عظيمــة ... لا أدرى ... فانك لم توضحى لى أى فرع تدرسين ..

ولكنك تريدين فى الوقت نفســه أن تكونى زوجة ناجحة

ومن أسباب قلقك انك تلاحظين ــ فى اشفاق ــ ان النســــاء العظيمات ، قلما كن زوجات عظيمات ، وان المرأة العظيمة اذا وفقت الى الزواج ، فقلما نرى بجوارها زوجا الا أن يكون خاملا مغمورا .. وهو أيضــــا ما لا ترضين به !..

وقبل أن أجيب على هذا السؤال ، أريد بدورى أن أسألك : ما هى العظمة فى رأيك ؟.. وما معيارها ؟..

انها ــ فى رأيى ــ ليست الشهرة ! فالمشهورون خليط من الساسة وأبطال الملاكمة ، واللصـــوص والوارثين والنساء غير الشريفات !

وهى ليست السلطة ، لأن السلطة سلاح ، والسلاح قد يستخدم فى الدفاع عن حق ، وقد يســتخدم فى

اغتصاب حقوق الآخرين !

وهى ليست الذكاء ، لأن النصاب فى العادة اذكى من فريسته !

وهى ليست فى حرارة الايمان .. فهذا يتوقف أيضا على نوع المعبود !

وهى ليست الثروة ، لأن الثراء قد يكون غير شريف . والوصول غير الشريف قد يوصف بأى شىء .. الا بأنه عظيم !

فما هى « العظمة » اذن ؟..

فكرى فى هذا السؤال جيدا . فان اجابتك الخاصة عليه ، سوف تحدد لك نوع المستقبل الذى تطلبين ..

أما الاجابة التى اقترحها ـ أقترحها فقط ـ عليك ، فهى : ان العظمة هى الشعور بالمسئولية ، والنهوض بها

والمسئولية ـ يا آنستى العزيزة ـ لها درجات ..

هناك انسان يعتقد انه مسئول عن نفسه فقط ! وهو ينهض بهذه المسئولية كاملة ! فلا يقصر فى أن يوفر لنفسه الراحة والامن ، واللذة ، والبعد عن مشاكل الآخرين ! لا يعنيه من التقدم الصناعي مثلا الا انه يزوده بآلة يحلق بها ذقنه لتصبح فى نعومة الحرير !..

واظن ان هذا المسئول عن نفسه ليس فى حاجة الى اهتمامنا به !..

وهناك انسان يعتقد أنه مسئول عن أسرته . دنياه لا تعدو ثلاث حجرات تسكنها زوجته وأولاده . الحياة خارج دنياه هذه كأنها تدور فى كواكب أخرى ، قد تحترق وتتساقط فى الفضاء دون أن يصيبه شىء ..

وفى هذا الفريق قد تجد نوعا من العظمة !.. كثيرا ما نرى رجلا ـ أو امرأة ـ يكافح ثلاثين أو اربعين عاما متوالية بغير كلل ، لكى يظل الموقد فى مطبخه مشتعلا ،

والاناء مليئا . وينفق ســـــاعة كاملة يساوم مساومة مضنية لكي يهبط بثمن أقة الخضر مليمين يحفظهما لأسرته، فهذا نوع من العظمة ، وهو نوع منتشر في مجتمعنا ، ولاشك أنك تعرفين من أمثلته الكثير ..

وهناك آخر لا يقف احساسه بالمسئولية عند حدود بيته . بل يتعداه الى الفئة التي ينتمي اليها ، أو الى وطنه بأكمله ، هذا النوع الذي يتكون منه وقود الثورات ، أو سكان السجون ، أو الباحثون عن المعرفة !..

وهناك أخيرا ، الذين يشمل احســـــاسهم بالمسئولية هذا العالم بأسره ، والجنس البشري كله . وهذا النوع عادة من واسعي الثقافة ، الذين يرون بين انحاء هذا العالم الواسع روابط ووشائج لا يراها الآخرون ، فترينهم يحزنون لقنبلة تلقى في آسيا ، أو لمشنقة تقام في كينيا . ويشعرون بأنهم مسئولون ويحاولون القيام بدور يتلاءم مع قدراتهم ومدى احساسهم بهذه المسئولية ..

على هذا الاساس يا آنستي : على أساس الاحساس بالمسئولية ومدى القدرة على النهوض بها ، نستطيع أن نقيس العظمة ، وأن نعرف درجاتها ..

وحذار أن تخلطي بين العظمـــة والنجاح . فانهما لايتلازمان بالضرورة ، بل كثيرا ما يفترقان ..

اذا كنت تسألين عن النجاح .. فانني انصحك بقراءة كتب أمريكية كثيرة تملأ الأسواق ، تشرح للقاريء كيف يرفع مرتبه ، وكيف يكسب ثقة رئيسه ، وكيف يصادق الناس الذين ينفعونه ، وكيف يقتنص الحظ ، ويشم اتجاه الريح أي باختصار : كيف يسير في الزفة.. دون أن يفكر في نوع هذه الزفة ! ..

أما العظماء ، فربما كانوا أقل الناس استمتاعا بثمار عظمتهم . ومن المحقق أن صاحب أي دكان أدوات كهربائية

يكسب — من أجهزة الراديو — أكثر مما كسب ماركونى نفسه !

فكرى اذن جيدا .. وأنت ما زلت واقفة على السفح. جربى قوتك ، وقدرى المشقة ، وتأكدى بالضبط ممـا تريدين ! ..

فاذا ارتضيت — يا آنستى — هـذا التفسير الذى اقترحه عليك .. فسوف توافقيننى بسهولة على ان النساء العظيمـات والزوجات العظيمات على السـواء كثيرات ، وأكثر جدا مما كنت تحسبين ..

انظرى الى الناس من حولك على هـذا الضوء ، وستجدين نماذج كثيرة .

فاذا كان الاحتكاك بالواقع ينقصك ، أو لايسعفك ، فاقرئى عن هذه النماذج فى كتب الادب ..

اقرئى قصة « الأم » التى كتبها جوركى .. واقرئى قصص شتاينبك الامريكى أو مالرو الفرنسى .

تأملى فيلما سينمائيـا مثل فيلم « أمل بمليمين » الذى يدور حول فتى وفتاة لا يملكان مليما ، ولا مستقبلا ، ويريدان الزواج .. وستجدين ان هؤلاء البسطاء من الناس لهم — فى حياتهم — لحظات باهرة ومواقف عظيمة ولـكن ...

كأنى بك لا تقنعين بهذه البطولات المجهولة ، والعظمة المطمورة فى طين المجتمع .. وتلحين فى البحث عن أمثلة شهيرة ..

أمثلة شهيرة لزيجات لا تقوم على أساس من فلسفة أرسطو ، الذى كان يعتقد أن المرأة « رجل لم يتم !! » ، فهى أقل منه فى القدرة والـكفاية ، وكان يقول : ان عبقرية المرأة فى اطاعتها !.. بل زيجات تطبق نظام « جمهورية أفـلاطون » فى المساواة التامة بين الرجل والمرأة ..

وأنت ما زلت تخافين أن يحرمك نبوغك من فرصة الزواج المتكافىء الناجح ..

ان الاسماء الشهيرة كثيرة أيضا .. يا آنستى .. فى ميدان العلم ؟..

ان الزوجين ، بل العاشقين ، كورى وجهادهما المشترك فى اختراع الراديوم يقدمان لنا نموذجا رائعا ..

فى ميدان الادب ؟ .. انك لا شك تعرفين أن جان بول سارتر وزوجته سيمون دى بوفوار ، كلاهما أديب لامع الاسم ، خصب الانتاج ..

والامثلة كثيرة ..

ولكننى أريد أن ألبى طلبك ، وأن اروى لك ـ بالتفصيل ـ قصة مشاركة زوجية فريدة ، يحفظها لنا التاريخ السياسى وترويها كاتبة انجليزية اسمها « مرجريت كولم » ..

أما هى ، فقد كان اسمها « بياتريس » ، وكانت فى شبابها الباكر جميلة حقا ، ولكنها ضعيفة البدن ، ضعيفة البصر ، لا تبشر بشىء على الاطلاق ، حتى كتبت أمها تقول : « ان بياتريس هى الوحيدة بين أولادى التى تقل عن المستوى العادى للذكاء ! » .. وكانت أمها محقة فى ذلك .. فكل بناتها « الذكيات » منصرفات الى شراء الفساتين الانيقة ، والبحث عن ازواج ناجحين .. ما عدا هذه الفتاة الخائبة ، التائهة بين الكتب ، التى تحب الاستماع الى مناقشات الكبار من أصدقاء أبيها .

وليس من المهم فى شىء أن أقول لك ان بياتريس ولدت سنة ١٨٥٨ ، فالأهم من ذلك أن أحدثك عن العصر الذى ولدت فيه . فنحن أبناء الايام التى نولد فيها وأنت مثلا ، لو انك ولدت ـ بنفس ذكائك ـ قبل مولدك بعشرين سنة ، لما دخلت الجامعة ، ولما ثارت فى

نفسك هذه الأسئلة ..

وقد كان من حظ بياتريس أن تولد فى فترة من أخطر الفترات فى تاريخ المجتمع الانسانى !

لقد ولدت بياتريس بعد أن ظهرت الثورة الصناعية وتم وجودها . ووصلت الى دور الصبا وقد انتزع أصحاب الصناعات الجـــديدة القوة من أمراء الاقطاع والملاك والمزارعين ومن بعض الملوك . واقترن هذا الكشف العظيم بتعاسات تناسب عظمته .. فقد هجر الفلاحون أرضهم ، وأغلق أصحاب الصناعات الصغيرة دكاكينهم ، وانخرطوا جميعا ضمن جيش جرار من العمال الصناعيين ، يعملون رجالا ونساء واطفالا طول النهار وأغلب الليل فى ظروف بشـــعة ، ويسكنون كهوفا مميتة ، فقـد أصبحت الآلة تصنع فى ســاعة ما كان يصنعه عشرات الرجال فى شهر . ولم تكن الحكومات قد تعودت من قبل أن تهتم بمشاكل رعاياها « الخاصــة » .. كالسكن والبطالة والطعام والأجر !

وهنا .. لم يجد المفكرون والفلاسفة مفرا من أن يتركوا ما كانوا غارقين فيه من مناقشات حول أصل الكون ، وما وراء المادة .. ويفكروا فى هــذه المشكلة الخطيرة الداهمة ..

ان اكتشاف الصناعة لايمكن أن يكون سيئا .. ولا يمكن أن تكون الآلات الحديثة بذاتها مؤدية الى هـــذا الشقاء ..

اذن فلا بد ان العيب كان فى طريقة استعمالها .. والمجتمع بناء على ذلك يجب أن يعاد تنظيمه .. ولكن كيف ؟..

وازدحمت أوروبا بعدد من الآراء والنظريات والمحاولات يكفى لمئات أخرى من السنين !!..

قال الفوضويون : نريد مجتمعنا بلا حكومة !.. فاذا كانت الحكومات لم تصنع لشعوبها الا العبودية والاضطهاد والاستغلال فلتذهب الى الجحيم !

وأطلق الفرنسي روبرت أوين لأول مرة كلمة «الاشتراكية» .. ثم لم يلبث ان ظهر من هذه الاشتراكية الف صنف وصنف !..

كان هناك كارل ماركس وفريدريك انجلز من ناحية يقولان انه لابد من ان يقوم العمال بسلسلة من الثورات تنتهى بالانفجار الكبير الذى يستولون به على السلطة ويلغون سائر الطبقات الغاء ..

وكانت هناك « الجمعية الفابية » فى لندن ، تدعو الى التدرج والتطور البطىء والى تحقيق الاشتراكية من طريق الحياة البرلمانية العادية ..

واسم الجمعية الفابية مأخوذ من اسم قائد رومانى هو «فابيوس» كان تكتيكه الحربى يتلخص فى أن لايشتبك مع العدو فى معركة حاسمة ابدا ، لأن العدو اقوى منه ويستطيع ان يقهره فى هذه المعركة الحاسمة الواحدة ، فهو يفضل أن يحاربه فى سلسلة من المناوشات الصغيرة المتوالية ، حتى يصل الى النصر ، وهذا الاسم وحده كاف لشرح فلسفة الجمعية ..

ثم كان هناك — بالطبع — ملوك الصناعة الجدد ، الذين يدافعون عن النظام القديم الذى استطاعوا فيه أن يحققوا كل الثراء ولو ذهب الآخرون الى الجحيم !

ولدت بياتريس اذن فى هذا العصر الرهيب..والارض مكتظة بالمفكرين، يملؤها فى وقت واحد ضجيج الفرنسيين برودون وروبرت اوين والالمانيين كارل ماركس وفريدريك انجلز والروسى باكوين والانجليزيين هربرت سبنسر ، وجون ستيوارت ميل !..

وكان هذا كافيا لأن يجعل التفرقة بين الهدى والضلال امرا عسيرا ، وكان مما يزيد البحث عسرا أن تكون كل هذه الآراء فى بدء تكوينها ، النظرى والعملى على السواء ، لم يمض عليها الزمن والتجربة الكافيان لاختبارها بعد ..

وكان البيت الذى ولدت فيه بياتريس ينتمى الى فئة التجار الذين يكسبون وتتضاعف أرباحهم . وعلى صالونه يتردد الزعماء والساسة والفلاسـفة والنساء المثقلات بالمجوهرات ..

ولكن بياتريس لم تمض فى موكب أمها واخواتها وهن يبحثن عن المتعة والتسلية وحفلات الشاى .. ولم تتعلق أحلامها بزوج «ناجح» يوفر لها الفراغ والثياب الفاخرة والعربة التى تجرها الجياد ..

لقد كانت تقرأ وتثقف نفسها ، وتهتم بمشاكل الجانب الآخر من المجتمع .. الجانب الذى يعيش فيه التعساء .. حتى استحقت أن تصفها أمها بالغباء !..

وكانت تنتظر فى حياتها رجلا ، يحمل فى راسه فكرة ، ولو كان خاوى الوفاض !..

ودخل حياتها من هذا النوع ثلاثة رجال !!

كان الاول هو « اوستن تشميرلن » النجم اللامع فى سماء السياسة الانجليزية فى ذلك الوقت ، رجل باهر الشخصية خلاب الحديث ، من الزعماء الراديكاليين ، لا يكف عن الحديث عن آلام الفقراء وضرورة تحسين أحوالهم ، كان من طبقتها ولكنه أكبر منها بعشرين سنة . احبته من جانبها حبا صامتا ، أما هو فقد اهتز فقط لذكائها وثقافتها المبكرة وشخصيتها . وكان ممكنا أن يجعل منها زوجته الثالثة ، لولا أن صعود نجمه السياسى كان سريعا ، فلم يتمكن من الوقوف عندها كثيرا . ولولا انها جزعت منه عندما عرفته معرفة دقيقة فكتبت عنه

فى مذكراتها الخاصة : « .. لا يستريح الا اذا سحق ما يعترض ارادته !!.. يحب أن يشعر بقدمه موضوعة على أعناق الآخرين ، كأنه هو الحق المطلق والآخرون خطأ محض ! » . وكأنها كانت تتنبأ بمستقبله . فقد تحول — مع النجاح ! — من مصلح حر الى استعماري عريق !

أما الرجل الثانى ، فلم يكن عاشقا ، بل كان معلما . ذلك هو الفيلسوف هربرت سبنسر .

كان هربرت يسهر فى صالون خارج البيت ، فلا يجد من يفهم منه غير هذه الفتاة ، فأحبهـا واتخذها تلميذة وصديقة ومساعدة له . وكانت فلسفته تكاد تغطى كل مشكلة من مشاكل التفكير فى ذلك الوقت ، ويعنينا منها هنا جانبها الاجتماعى . وفى هذا الجانب كان سبنسر يعتقد ان أكثر ما يسىء الى الشعوب هو الحكومات ، نظرا لتركز السلطة والقوة كلها فى يدها . وان ظهور الصناعة قد أدى الى توزع القوة بين عدد أكبر من الأفراد ، الأمر الذى اضعف سلطة الحكومة وجعل قدرتها على الطغيان محدودة . وعلى هذا الاساس كان يدعو الى الحرية الاقتصادية المطلقة ، لأن الصناعة فى رأيه لايمكن أن تتقدم الا فى ظلها . أما الاشتراكية ، فهى اذ تجعل الدولة مالكة لوسائل الانتاج ، انما تعيد السلطة القديمة الى الحكومة ، وتتيح لها مرة أخرى فرصة الطغيان ، هذا الى أن الدولة لايمكن أن تتنبأ وتتحكم فى كل العوامل الاقتصادية ، ولو كان وزراؤها من المنجمين! فمن الخير أن تترك كل شىء لقانون العرض والطلب !

وكان سبنسر أيضا يكره اشتراك الجميع فى التفكير السياسى . وكان لا يفتأ يردد أن الانسان لكى يصبح خبيرا فى الطبيعة مثلا أو الهندسة يحتـاج الى سنوات طويلة من التعليم والدراسة ، أما السياسة ، فان أى

صبى بقال يعتبر نفسه خبيرا فيها ، ويعتقد انه يعرف الحل ، ويطالب بسماع رايه !!

ولا شك أن هذه الافكار قد أثرت فى بياتريس فترة من الزمن ، ولكنها لم تستول عليها استيلاء كاملا فى أى وقت .

أما الرجل الثالث ، فقد كان عليها أن تمضى فى طريقها فترة أخرى قبل أن تلتقى به ..

كانت منذ حبها الخائب لأوستن تشمبرلن جريحة القلب ، سيئة الظن ، حتى لقد عقدت العزم على أن تقضى بقية حياتها امرأة وحيدة !

وتركت بياتريس العالم المضىء فى بيتها ، وذهبت تبحث عن أقارب فقراء قيل لها انهم يسكنون فى بعض أزقة لانكشير ، يعملون بالاجر ويقتاتون من الفتات . ذهبت الى هناك لكى تعيش معهم فترة تدرس فيها أحوال العمال ، تمهيدا لوضع كتاب عنهم !

وعاشت بياتريس فى لانكشير زمنا .. تقابل العمال وتطوف بالمصانع وتدخل البيوت ، وتسجل الآراء والبيانات والملاحظات ، وأحبها الفقراء هناك حبا شديدا ، ولم يأخذوا عليها الا انها كانت أحيانا تدخن السجاير .. وهو منظر لم يكن مألوفا من النساء فى ذلك الوقت !

واكتشفت بياتريس لاول مرة أن هناك شيئا اسمه الحركة التعاونية ، وأن هذه الحركة تنتشر بين العمال بسرعة .

وعندما عادت الى لندن ، بدأت تضع أول مؤلفاتها ، دعت فيه الى ديمقراطيات المستهلكين .. أى الى تكوين جمعيات تعاونية تشترى السلع وتوزعها على الاعضاء بغير ربح .. ولكنها هاجمت فيه « ديمقراطية الانتاج »

اى أن تقوم مؤسسات انتاجية عمالها هم أصحابها .
وقالت انها غير نافعة ولا مجدية ، لانها لن تستطيع أن تصمد أمام مؤسسات الانتاج التجارية العادية .

وقد ظلت حتى ساعة صدور هذا الكتاب الاول لها ، على كراهيتها القديمة للاشتراكية ، بل ولقضية المرأة أيضا . فقد اشتركت سنة ١٨٨٩ فى اصدار بيان يهاجم المطالبات بحقوق المرأة السياسية !!

ولكن نقطة التحول فى حياتها كانت تقترب ..

ففى ذلك الوقت بالذات قرأت أول كتاب لجمعية الفابيان ، بعنوان « مقالات فابيانية » ، وكان يضم عدة أبحاث لبعض أعضاء الجمعية ، ولم تكد تفرغ من قراءته حتى كتبت الى صديق لها تقول : « ان أروع ما فيه المقال الذى كتبه سيدنى ويب فان له حاسة تاريخية رائعة » !..

وبعد شهور احتاجت فى بعض أبحاثها الى معلومات من أحوال الطبقة العاملة فى القرن الثامن عشر ، فنصحوا لها بأن تقابل مستر سيدنى ويب هذا ..

وذهبت اليه . وعادت من عنــده مبهورة بكفايته ، تروى كيف أنه تدفق أمامها بالمراجع والبيانات الدقيقة .. ثم بدأت تلقاه على موائد بعض الأصدقاء ..

أما هو .. فقد وقع فى هواها من النظرة الأولى !..

أما هى .. فقد أحبته بالتدريج .. كانت أكبر منه بسنتين . وكان حبهــا الخائب لأوستن تشمبرلن قد علمها الا تنساق بعيدا وراء العواطف . ولكنها وجدت متعة حقيقية فى مناقشة وتبادل الآراء والمعلومات والكتب معه . وعندما دعاها للسفر الى جلاسجو لحضور المؤتمر التعاونى لبت الدعوة .. وهناك ، فى ليلة العطلة ، وبين صيحات السكارى وصخب المحتفلين ، كاشفها للمرة الاولى بحبه ..

ولم تقابل اعترافه هذا باجابة واضحة ؛ ولكنها كتبت فى مذكراتها تلك الليلة جملة واحـدة : « أخيرا .. اصبحت اشتراكية !! »

وكأن بياتريس ظلت تقلب أمر زواجها من سـيدنى زمنا ، متوقعة أن يقابل أهلها هذا الزواج بمعارضـة عنيفة . وبعد سنة تقريبا ، كانا فى عربة يتنزهان عندما أحاطت عنقه بذراعها فجـأة .. فاستبد به الفرح ، اذ عرف انها قد وافقت على الزواج ..

وظلت هى ترسم الخطط لكى تجعل والدها يقبـل زواجها من سيدنى ، ولكن أباها مات بعد شهور دون أن يعلم ..

وهنا فقط أعلنا انهما قررا الزواج . ونشر الخبر فى مجلة جمعية الفابيان ، أما أهلها فقد قاطعوها وقالوا انها تزوجت رجلا من حثالة المجتمع ، بالرغم من شهرته ككاتب ، أما أستاذها القديم هربرت سبنسر فقد ذعر ذعرا شديدا ، وقال لها : من أجل سمعتى التى أحافظ عليها ، لا أتحمل أن يذاع عنى أن تلميذتى أصـبحت سيدة اشتراكية ! مستحيل ! اننى مضطر أن أعلن أن الصلة بيننا كانت شخصية محضة !

ولكنه ، عندما اقترب أجله بعد ١٢ سنة ، لم يجـد من تزوره وترعى شئونه وتسأل عليه غير واحدة فقط هى بياتريس !

ولم يكن « سيدنى ويب » ـ كما قال أهل بياتريس ـ من حثالة المجتمع .. ولكنه كان فقيرا فحسب ! ..

كانت أمه تملك دكانا للخردوات ، وأبوه يتنقل من عمل الى عمل ، بائعا أو حارسا ، أو ما شابه ذلك من الاعمال . وتعلم سيدنى أول حروف القراءة من لافتات المحلات فى لندن ، ثم فى المدارس الليلية ، واضطر للعمل

وهو صغير ، ولكنه عندما صار شابا كان موظفا صغيرا فى الحكومة ، يتقن اللغة الانجليزية والفرنسية والالمانية ، ويقرأ الفلسفة والاقتصاد ويتأمل تطور المجتمع .. وقبل خطبته لبياتريس بقليل ، ترك الحكومة وقرر أن يكسب رزقه من الكتابة فى الصحف ، وأن يكرس بقية وقته لجمعية الفابيان ، حيث كان هو وبرنارد شو محورى الحركة والنشاط .

كان هذا هو الرجل الذى تزوجته بياتريس ، بنت الطبقة الفنية الناجحة ، وفضلته على الازواج اللامعين من نجوم المجتمع !.. وقد ذهبت فى تحديها لأسرتها حتى انها تخلت عن اسم آسرتها وقررت أن تحمل اسمه ، فأصبحت من ذلك الوقت « بياتريس ويب » ..

وانضمت معه الى جمعية الفابيان . وعرفت اعضاء الجمعية واحبتهم واحترمتهم ما عدا برنارد شو الذى قالت انه ساخر أكثر من اللازم ، وانها لا تستطيع ابدا أن تحمله محمل الجد !

أصبحت بياتريس عضوا فى جمعية الفابيان مع سيدنى

وقد قلت لك منذ قليل ان اشتراكية جمعية الفابيان تقوم على التدرج ، بل وعلى « التسلل » .. فلم تكن الجمعية تصطدم مع الحكومات القائمة ، ولم تكن تستند الى أية حركة أو منظمة عمالية ، ولكنها كانت تقوم بمهمة الاقناع .. اقناع الجميع ، حتى الاحزاب المحافظة!..

ولخصت الجمعية رسالتها آنذاك فى كلمتين : الدراسة .. والنشر ! ..

دراسة المجتمع الانجليزى من جميع نواحيه ، واستخلاص كل ما يؤيد الدعوة الى تغيير هذا المجتمع .. ونشر هذه الدراسات على أوسع نطاق ممكن حتى يتكون حولها اقتناع عام قوى ..

وكانت وسائل «النشر» تشمل اصدار الكتب والنشرات والمجلات .. والقاء المحاضرات واقامة حلقات البحث والمناقشة ، والوقوف على أي صندوق فارغ أمام أى جمهور ممكن ، لشرح مبادىء الجمعية ..

ومنذ تزوج سيدني وبياتريس ، قررا أن يكرسا حياتيهما لهذه الرسالة : رسالة الدراسة والنشر .. واستأجرا في قلب لندن بيتا عاشا فيه ثلاثين سنة متوالية ، لم يلبث أن أصبح أقرب الى خلية النحل التى تموج بالحركة والنشاط منه الى العش الهادىء الذى يركن اليه زوجان !

فالآن تبدأ زمالة من تلك الزمالات النادرة فى التاريخ. زمالة دامت ما يقرب من خمسين سنة ، لم يسكت فيها هذا « الثنائى » عن الدراسة والانتاج والاتصال بالناس

كان أول نشاط مشترك لهما كتابا فى « تاريخ الحركة النقابية » ثم كتاب « الديمقراطية الصناعية » ، ومنذ تلك اللحظة لم يتوقف انتاجهما حتى أصبحت مؤلفاتهما المشتركة تعد بالعشرات ..

وحتى سنة ١٩٠٥ ، كان اسم سيدنى هو اللامع ، فى حين ظل اسم بياتريس باهتا بجواره ، خصوصا وان الناس كانوا معتادين على نسبة الفضل فى مثل هذا العمل المشترك الى الرجل ..

وفى سنة ١٩٠٥ ، كان ضغط المطالبة بالعدالة الاجتماعية قد اشتد على الحكومة ، وقررت الحكومة الانجليزية تشكيل لجنة تحقيق لتنظر فى أمر القانون العتيق الذى كان معروفا باسم «قانون الفقراء» والذى كان مصدر كثير من الظلم الواقع على الطبقات الفقيرة ، واختارت الحكومة بياتريس لتكون عضوا فى اللجنة .

قامت اللجنة بدراسة شاملة للحالة الاجتماعية

والاقتصادية فى انجلترا . وكان طبيعيا الا يتفق اعضاؤها على رأى واحد .. وانتهى الأمر بأن يصدر عنها تقريران : تقرير للأغلبية يحمل توقيع كل الاعضاء عدا عضوا واحدا .. وتقرير للأقلية تكتبه وتوقعه بياتريس وحدها !!
وانفجر تقرير « الأقلية » كالقنبلة !..

لقد كان الجو العام فى انجلترا محافظا وكانت نقابات العمال ينظر اليها شذرا على أساس أنهـا وباء يجب القضاء عليه ، وكان أكثر الناس تساهلا يعتبرها نوعا من البثور تظهر على وجه المجتمع فى فترات الازمة ثم لا تلبث أن تزول .. وكان التفكير السائد المستتر فى نفوس الناس أن الفقر جريمة ! .. وأن الفقراء وحدهم هم المسئولون عن فقرهم ، أما لأنهم جهلة أو لأنهم أغبياء !.. وكانت الحكومة تعتبر نفسها غير مسئولة عن رعاياها الذين لا يجدون عملا ، أو لا يجدون سكنا أو طعاما ..

ولكن تقرير بياتريس ــ مستفيدا من كل تعاليم جمعية الفابيان ــ جاء معارضا لهذا كله ..

لقد دعت فيه الى الاعتراف بنقابات العمال . ودعت الى تدخل الحكومة فى الحياة الاقتصادية لتأمين العمال ضد العجز والبطالة والشيخوخة والمرض . وطالبت بوضع نظام للتأمين على العمال ضد هذه الكوارث ، ولتوفير العلاج لهم ، ولاعانة المتعطل فى فترة بطالته .

هذا التقرير هو بعينه تقريبا الذى أصبح بعد أربعين سنة برنامجا رسميا لحزب العمال ، ثم لحكومة العمال . وهو المنبع الاول لتقرير « بيفردج » الشهير الذى ظهر بعد الحرب الاخيرة ! ..

وقد يبدو الحديث عن هذه الاشياء الآن عاديا . وقد ترين أنها استقرت فى الاذهان ــ حتى فى أذهان الكارهين

لها ـ كحقوق طبيعية للمواطنين . ولكنها لم تكن كذلك منذ نصف قرن .. حين صدر تقرير بياتريس ..

ورفضت الحكومة بالطبع ان تأخذ بتقرير «الأقلية». ولكن صدور هذا التقرير كان فرصة فريدة ، اقتنصتها الجمعية للدعاية لمبادئها على نطاق واسع

وتزعم سيدنى وبياتريس حملةهائلة للدعايةلهذا التقرير أعلن سيدنى وبياتريس ان لـكل مطبعة الحق فى أن تطبع التقرير وأن تبيعه كما تشاء.. فتدفقت من المطابع طبعات مختلفة الاشكال والاحجام، وبأسعار زهيدة جدا

وحاولت الحكومة أن تقاوم هـذا النشر فأنذرت بياتريس بأن التقرير ملك للحكومة ، ولكنها لم تذعن لهذا الانذار ، ثم أعلن سيدنى وبياتريس عن تكوين جمعية للدفاع عن هذا التقرير وانطلقا يعملان عملا مضنيا بغير انقطاع لتكوين هذه الجمعية .. فلم تمض شهور حتى أصبح لها مقر ، وبلغ عدد الاعضاء المقيدين فيها ١٦ ألف عضو ، يضمون رجالا ونساء وشبابا من جميع الطبقات والطوائف والهيئات .. حتى الشاب ونستون تشرشل، كان أحد المشتركين فيها !

واذ أصبح للجمعية هذا الدور والانتشـار ، بـدأ سيدنى وبياتريس يحولانها من جمعية للدفاع عن التقرير الى هيئة تطالب بتغيير النظام الاجتماعى بقصد القضاء على الفقر ، بدلا من الانصراف الى علاج آثاره ..

وهنا .. كان لابد أن ينفض عن الجمعية الكثيرون . كان لابد أن يخرج منها كل الذين دخلوها بدافع المروءة ، عندما وجدوا ان رسالتها تتطور الى احداث تغيير أساسى كبير .. يضر بمصـالح الكثيرين منهم . وكان من أول الخارجين .. الشاب ونستون تشرشل !..

وبعد سنوات من الـكفاح الرائع تمزقت الجمعية :

ولكن بقي منها امر هام .. هو اقتناع سيدني وبياتريس بأن الاعتماد على الاحزاب الموجودة وعلى الافراد لايجدي، وانه قد آن الأوان لتكوين حزب اشتراكي قوى يستمد قوته من نقابات العمال .

فبعد أن اشتركا في جمعية الفابيان ، وأسسا مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية ، وبعد أن خاضا معركة قانون الفقراء ، وبعد عشرات من الكتب ومئات من الابحاث والمحاضرات عن النقابات وحركات التعاون والعمال ، وجد الزوجان ، الزميلان ، ان الوقت قد حان لتكوين حزب

واعلن عن تكوين حزب العمال .. وكان المهندسان اللذان وضعا برنامجه ورسما له خطة العمل هما : هندرسون وسيدني ويب .. وعندما يقول التاريخ سيدنى فهو يعنى بياتريس أيضا . كما انه عندما يقول بياتريس انما يعنى سيدنى !..

ودخل الحزب الجديد أول معركة انتخابية سنة ١٩١٨ ، وفاز بستين مقعدا في مجلس العموم . وأصبح بذلك هو المعارضة الرسمية لحكومة صاحب الجلالة !

وكان أكثر نواب الحزب من العمال غير المدربين على العمل ، وجعلت بياتريس رسالتها أن تعلمهم وتدربهم وتعقد لهم حلقات المناقشة والبحث .

وكانت بياتريس تعتقد أن أعضاء الحزب ـ نوابا وغير نواب ـ لن يستطيعوا شيئا كثيرا ، اذا كانت زوجاتهم جاهلات برسالتهم .. فأنشأت جمعية لزوجات أعضاء الحزب ، أطلقت عليها اسم « جمعية نصف الدائرة » ـ فالدائرة لا تتم الا برجل وامرأة ـ جعلتها أداة لرفع الزوجات الى مستوى رسالة الازواج .. حتى يصبحن مثلها شريكات وزميلات .. لا مجرد تابعات !..

وبعد : يا آنستي .. فأظنك سوف توافقين على اعفائي

من سرد بقية القصة.. فقد اردت ان اقدم لك «صورة» فحسب .. لا قصة كاملة ..

هذا الى أن بياتريس وسيدنى قد عاشا طويلا .. عاشا حتى تجاوزا الثمانين.. لاينقطع كفاحهما، ولايتردد سيدنى عن خوض المعركة ، فى دائرته ..

وقد أصبحا عجوزين ، وباتت أعصابهما المرهقة لا تحتمل ضجيج لندن . وذات يوم نشرت الصحف فى اعلاناتها المبوبة اعلانا صغيرا يقول : « مسز ومستر ويب يريدان شراء بيت ريفى ، قريب من لندن ، فى مكان لا تصل اليه أصوات الديكة والكلاب !! » ..

أما هو ، فقد أصبح عضوا فى اللجنة العليا للحزب وصاحب الرأى الاول فيه ، ودخل وزارات العمال أكثر من مرة ، وحمل لقب « لورد باسفيلد » حتى يدخل مجلس اللوردات ويستريح فى هذه السن من الانتخابات ، ولكن بياتريس رفضت أن تحمل لقب « ليدى باسفيلد» واصرت أن تبقى «بياتريس ويب» وشنت عليها الصحف حملة عنيفة لرفضها أن تحمل لقبا انجليزيا عريقا !

ولأول مرة خلال زمالة دامت خمسين سنة ، اضطرا الى الافتراق فترات طويلة .. هى فى بيتها الريفى ، وهو فى أعماله الضرورية فى لندن ..

ولأول مرة ، عندما أصبح يغيب عنها ، ندمت على القرار الذى اتخذته عندما تزوجت منذ نصف قرن : بالا تنجب أطفالا !..

ولكن أقاربها الذين انفضوا عنها يوم تزوجت ذلك الشاب الاشتراكى المجهول الخالى من الأناقة ، أصبحوا يحجون اليها فى بيتها الريفى ، ويقدمون اليها أطفالهم ، فتقضى معهم أوقاتا سعيدة ..

وأصبحت الهيئات الرسمية أيضا تعترف بها ،

فالاذاعة الرسمية تدعوها من حين لآخر الى الكلام .. وأكاديمية لندن تضمها عضوا ، فتصبح السيدة الوحيدة فى الأكاديمية ومدرسة لندن الاقتصادية تضع فى مدخلها لوحتين لها هى وزوجها اللذان قاما بانشاء المدرسة..

ولكنها كانت فى أيامها الأخيرة ساخطة على حزب العمال .. لا تفتأ تردد انه أصبح يشبه حزب المحافظين فى وجوه كثيرة . وكانت تسأل زوارها دائما ، عن الشبان اللامعين فى الحزب او تتعحل ساعة توليهم زمام القيادة لعلهم يكونون أصلب عودا .. وكان هؤلاء الشباب الذين يترددون عليها ويستمعون الى آرائها هم : ستافورد كريبس وكليمنت آتلى وهربرت موريسون ! ..

ولم تتوقف خلال ذلك كله عن التأليف والدراسة لحظة واحدة !..

وماتت بياتريس سنة ١٩٤٣ ، خلال الحرب الأخيرة

وعندما فاز حزب العمال لأول مرة بالأغلبية المطلقة سنة ١٩٤٥ ، وبدأ فى تنفيذ برنامجه ، وقف هارولد لاسكى يقول : « ان كل الناخبين الذين اختاروا حزب العمال ، يتوجهون اليوم الى ذكرى بياتريس وسيدنى ويب ويحيون « زمالتهما » .. »

فما رأى « القارئة المجهولة » ؟..

اننى لم أقدم لك هذه الصورة لكى تصنعى مثلها ، أو لتحاولى تقليدها .. كلا .. فان أروع ما فى التاريخ ان الناس يتعلمون منه ، ولكنهم يضيفون اليه !

وأنت قد ولدت بعد ميلاد بياتريس بثمانين سنة على الاقل .. ثمانون سنة تفصلك عنها لا بأيامها فحسب ، ولكن باكتشافاتها وتجاربها وأحداثها ! ..

وجه جديد فى عائلة نهرو

« نحن ثلاث شبقيقات .. ليكها وريتا وأنا . نشأنا والهند مسرح تدور عليه دراما سياسية عظيمة ، سوف تبقى مشاهدها عالقة بأفئدتنا الى الأبد .. وهذا الكتاب يروى قصة الأثر الذى تركته هذه الدراما فى حياتنا ، لعلهـا تعجب أولئك الذين لم تكن لهم طفـولة كالتى مرت بنا ! »

هكذا تقول الفتـاة الجميلة التى لايزيد عمرها على العشرين الا قليلا .. وهى تقدم كتابها الحافل بصور من الأحداث الكبيرة والمشاعر الرقيقة !

والفتاة مؤلفة هذا الكتاب اسمها « ناينتارا ساجال» او « تارا » كما تناديها أمها . أما أمها فهى السيـدة فيجايا لاكشيمى ، شقيقة نهرو المعروفة التى زارت مصر عدة مرات ، ورأست دورة الأمم المتحدة منذ سنتين والتى تشغل الآن أهم منصب دبلوماسى فى بلادها ، وهو منصب سفيرة الهند فى انجلترا ..

وعندما كانت الهند مستعمرة ، كان الحاكم الانجليزى للمقاطعة يقول عن عائلة نهرو : «هذه العائلة الملعونة» ! وكانت عائلة ملعونة حقا ، فهى التى تثير الاضطرابات ، وتبث الثورة ، وتدخل بأسرها الى السجن .. من الجد العجوز «موتيلال» والد نهرو الى الحفيدة « ليكها » التى

لتبلغ الثانية عشرة من عمرها فحسب !!

وليس فى الأحداث التى ترويها لنا «تارا» جديد .. فالدراما التى مثل أدوارها أربعمائة مليون هنـدى ، والتى تمخضت عن استقلال الهنـد وتحولها الى قوة دولية كبرى ، احداثها معروفة للجميع ..

أما الجديد ، فهو الزاوية التى تنظر منها «تارا» الى الأحداث بنظرة طفلة ثم شابة تنظر الى الحوادث من الباب الخلفى .. فهى ترسم لنا صـور المجاهدين ، والمجاهدات لا فى ميادين المعركة ، ولكن فى بيوتهم ، فى ساعات راحتهم ولهوهم .. فى طعـامهم ونومهم وبين أطفالهم .. ومن هنا جاءت رقة الكتاب وعذوبتـه .. وانسانيته !!

ففى فصل بعنوان «نحن والسياسة» تروى لنا كيف بدأت وهى طفلة صغيرة تفتح عينيها على ما يحيط بها من احداث .. فتقول : « كنت فى الثالثة من عمرى ، وكنـا — أمى وأبى وشقيقاتى — نتنـاول الشـاى ساعة العصر ، وقد صنعت لنا أمى فى ذلك اليـوم كعكة بالشيكولاتة . وكان وجود كعكة الشيكولاتة مع الشاى نوعا من الترف لا يتكرر كثيرا ، فله فى نفوسنا الصغيرة فرحة كبيرة .. وبينما نحن نشرب الشاى ونرمق الكعكة بشغف اذ دق الباب ودخل علينا عدد من جنود البوليس ، وسألت أختى « ليكها » عن سبب قدومهم ، فقالت لها أمى : لقد جاءوا لكى يأخذوا أباك الى السجن . وليس هذا مزعجا ، لأن «بابو» يريد أن يذهب اليه . فقمنا وقبلناه جميعا ، وودعناه ، ورأيناه ينصرف وهو يتبادل الحديث مع رجال البوليس ، ولما أغلق الباب وراءه اكملنا التهام كعكة الشيكولاتة .

ومن تلك اللحظة بدأت تعلم شيئا عن حركة العصيان

المدنى التى يتزعمها غاندى ، واقترن السجن فى عقلها الباطن بكعكة الشيكولاتة ، حتى أطلقت على هذا الكتاب اسم : « السجن وكعكة الشيكولاتة » .

ثم هى تصور لنا انطباعات الفتاة الصغيرة ازاء هذه الأحداث التى لا تفهمها بالضبط فتقول : « وعندما وجدنا أن أبى وأمى وخالى وجدى يذهبون كلهم الى السجن أصبحت أنا وشقيقاتى نريد أن نكبر بسرعة لنذهب اليه مثلهم !! .. وقد جربت أختى الكبرى « ليكها » السجن بعد ذلك عندما بلغت الثامنة عشرة ، وعادت تقول لنا : « أن الحياة هناك ليست سارة كما كنا نظن ! »

وفى جميع صفحات الكتاب نلاحظ ان «تارا» كانت تتأثر بأمها وتعجب بها أكثر مما تتأثر بأبيها وان كانت تكن له نفس التقدير . وقد ذهبت أمها أيضا الى السجن وسمحت السلطات لها يوما وهى فتاة صغيرة بأن تزور أمها فى السجن ، وهى تسجل تلك اللحظات فى سطور بارعة فتقول : « كنا قد تعودنا أن نرى « مامى » فى البيت تحوطها هالة من الجمال والرقة . كنا نراها تخرج فى الصباح الباكر الى الشرفة ، وتركع على ركبتيها ثم تأخذ فى تنظيم الزهور فى آنيتها بعناية وصبر . وكنا نسمع صوت ضحكتها الفضية يترامى الينا من حجرة الصالون فى الليالى التى يزورنا فيها الضيوف . وما أقسى أن نرى أمنا هذه تذهب الى السجن الكئيب ، وأن نراها واقفة وسط عشرات غيرها فى ثياب السجن الخشنة تلوح لنا من وراء القضبان !.. وأن نرى السيارات المسلحة والجند المدججين بالسلاح يأتون ليقبضوا على هذه المرأة الجميلة الرقيقة التى تدعو الى عدم العنف !! »

حتى الخدم فى البيت كان لهم دور فى المعركة. وعندما وقف خادمها الساذج هارى فى المحكمة وسأله القاضى الانجليزى :

ـ ما عمرك ؟..

سكت الخادم طويلا يفكر ، ثم قال : لا أعرف بالضبط ولكنى بدأت أحلق ذقنى عندما تخرج مستر نهرو من الجامعة !!

فلم تتمالك تارا وشقيقتاها أنفسهن من الضحك .. وكن جالسات فى مقاعد المتفرجين !!

وبنفس الطريقة تحكى قصة أول مرة رأت فيها غاندى :

« كنت فى الرابعة من عمرى ، وجاء غاندى الى بيتنا وجلس فى الحديقة يقيم أحلى صلواته بين جمع من الناس

« وأعطتنى أمى باقة من الورد وطلبت منى أن أقدمها اليه ، وعندما نزلت الى الحديقة اتجهت الى أبى ، فجذبنى من ذراعى الى رجل ضئيل يجلس على الارض .. وصحت بصوت عال : ان شكله قبيح .. لن أعطيه الزهور !.»

وضحك الرجل الجالس على الأرض وربت على خدى وقال : « أرجو أن تظلى صريحة على الدوام ! » ..

من هذه الحوادث الصغيرة والانطباعات المتوالية تكون الوعى السياسى عند « تارا » ..

وهى عندما تحاول الرجوع بذاكرتها الى بدء ظهور هذا الوعى فى نفسها لا تستطيع أن تحدد تاريخا معينا « لقد بدأ اهتمامنا بالسياسة ينمو تدريجيا وبغير ارادة منا . لقد نشأنا فى الوقت الذى انضوت فيه الهند تحت زعامة غاندى . وكنت أنا وشقيقتاى من أصغر بنات الهند اللواتى أدركهن جانب من اشعاع غاندى الذى أضاء بلادنا كلها ..

« ولم نكن نرى غاندى كثيرا . ولكن أسرتنا كانت ترى فى خالى جواهر لال نهرو رمز انضواء العائلة كلها تحت لواء غاندى . فقد كان خالى مقربا اليه ، وكان من أوائل الذين انضموا الى حركته » .

ولابد أن يخطر لنا فى هذا المقام سؤال ..

ان « تارا » وشقيقتيها لم يتمتعن بالطفولة الهادئة التى يعرفها أغلب الناس . كانت طفولتهن عاصفة ، أهون ما فيها أن تذهب الأم ويذهب الأب الى السجن كل حين وآخر .. فكيف كان أثر هذه الحياة المضطربة على طفولة البنات الصغيرات ..

ان «تارا» تشرح لنا هذا الأثر ، فى أسلوب من الزهو والفخر !..

« لقد كان نمونا ونضجنا مطردا مع نمو النضج السياسى فى الهند على أساس من التضحية وضبط النفس والسلم . وقد أثر هذا فى حياتنا ، وبعث فيها نوعا فريدا من الروعة !..

« الروعة ؟ .. ربما تبدو هذه الكلمة غريبة فى وصف فترة عاش فيها أبى وأمى بعيدين عنا ، بين السجن والعمل السياسى الشاق . ولكن هذا بعض سحر غاندى لقد علمنا أن نرى فى هذا الكفاح نوعا من الفخار لايدانيه أى فخر !!

« لقدكان أروع ما فى تعاليم غاندى انها أقنعت الناس بأن يهجروا روتين حياتهم الرتيب ويخوضوا معركة الحرية فى بسالة . كانت دعوته الى دخول السجن نوعا من عدم التعاون مع الحكومة بأسلوب سلمى . وكان الذهاب الى السجن يتم فى بساطة ولباقة وكبرياء وقد ادى برنامج عدم التعاون هذا الى الفصل بين الازواج وزوجاتهم ، وبين الآباء والأمهات وأبنائهم .. كان معنى

هذا ارتباك الحياة العادية التى يجب أن تتوفر للأطفال وأن ينعدم شعورهم بالامن ، الأمر الذى يؤدى الى اضطراب نفسياتهم .. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لنا ، بل على العكس ، لقد خلق لنا ذلك عالما جديدا من القيم التى أصبحنا نؤمن بها ونعيش من أجلها .

« نعم ، لقد كانت تمر بنا ساعات موحشة من فراقنا عن أبينا وأمنا ، كنت أفتقد أمى فى بعض الليالى وأبكى فى الخفاء . اذ كان من تقاليد أسرتنا ألا نبكى علنا مهما كان الأمر ، ومع ذلك ففى كل مرة كانت الأزمة تمر ، وكنا نزداد اقتناعا بأن أبانا وأمنا يسلكان الطريق السليم

« لقد أصبح الوقت الذى نقضيه معهما جميلا ، لأنه كان قصيرا ! وأصبحت حياتنا العائلية أكثر سعادة ، لأننا كنا نشعر برابطة عميقة من المثل تربط بين قلوبنا!»

ولا ننسى فى هذه التربية الرائعة ، فضل الأم !..

بل ان تربية الأم فيجايا لاكشيمى لبناتها على هذا النحو ، ليعد أروع ما قامت به من أعمال !..

أليس رائعا حقا ، أن تعرف هذه الأم انها ذاهبة الى المعركة غدا ، فتترك لصغرى بناتها — ريتا — رسالة تشرح لها فيها كل شىء ، وتقول فى ختامها : «سنذهب جميعا الى السجن وستبقين انت وليكها وتارا فى الخارج وليس معنى ذلك انكن غير مشتركات فى العصيان المدنى. ان مجرد احتفاظكن بعلم المؤتمر مرفرفا على البيت لهو دور كبير!.. فكرى فى بلادنا الكبيرة الجميلة ، وفى أمك وأبيك وخالك الذين يساهمون فى جعلها حرة... أليس هذا شيئا تفخرين به ؟ ! »

ومن أجمل صفحات هذا الكتاب ، الصفحات التى تحكى فيها «تارا» كيف دخلت أمها معركة الانتخابات ؛ وكيف فازت فى المعركة ، وكيف أصبحت أول امرأ

تشغل منصب وزيرة فى الهند.. وكيف كان احساسها هى الابنة الصغيرة بهذه الأحداث !..

ففى سنة ١٩٣٦ ، قرر حزب المؤتمر أن يدخل الانتخابات الاقليمية لعضوية المجالس التشريعية . وعادت « تارا » من أجازتها الدراسية لتجد أباها وأمها قد رشحا نفسيهما فى دائرتين مختلفتين ..

وسألت تارا أباها : كيف تدخلون الانتخابات فى بلاد ليست حرة ، وللمجالس يملك الحاكم العام الانجليزى حق حلها ؟..

وقال لها أبوها : لقد قررنا دخول الانتخابات بقصد التحدى . ثم أن الانتخابات سوف تساعد الحزب على الاحتكاك بالناس والاتصال بهم عن كثب . اننا لا نريد الفوز بالاغلبية بقدر ما نريد أن نثبت تعلق الجماهير بدعوتنا ..

ثم تسرد لنا المصاعب والمشاكل التى واجهت أباها وأمها كمرشحين : « كان لابد للفلاحين الناخبين أن يقطعوا أميالا طويلة حتى يصلوا الى صناديق الانتخاب ولم يكن الحزب يملك السيارات التى ينقل بها أنصاره ، كما كان يفعل خصوم الحزب من المرشحين الاغنياء . ولكن المشقة لم تكن شيئا جديدا على الفلاح الهندى . انه قد يرتاب فى الراحة التى تعرض عليه لأنه لم يتعود المعاملة الكريمة . ولكنه لايرتاب فيك أبدا اذا عرضت عليه أى لون من المشقة !!.. ودعا الحزب كل الهنود الى الزحف نحو صناديق الانتخاب بنفس الروح التى يحجون بها سيرا على الأقدام الى نهر الكنج المقدس !! وقال لهم ان التصويت شىء مقدس فى حياة البلد كالحج !!.. وانتشرت صيحة « الاقدام الى صناديق الانتخاب ! » .. والناس يظهرون بطولتهم اذا رأوا مثلا

واحدا من البطولة ماثلا أمام أعينهم وقد ساروا الى الصناديق لأنهم رأوا غاندى يسير أميالا طويلة ، وزاده البسيط على كتفه ، الى شاطىء المحيط ، ليخرق قوانين الملح !.. وخرجت الهند من معركة الانتخاب وقد أبت ان يشتريها المال أو الضغط ، ونجح حزب المؤتمر نجاحا ساحقا فى الانتخاب ! »

فكيف عرفت « تارا » نبأ فوز أمها فى الانتخابات ؟..

« كانت الايام التى سبقت النتيجة حافلة بالقلق ، لم نكن نأكل او ننام ، لا نكاد نسمع صوت التليفون يدق حتى نتسابق اليه . وفى ذات ليلة كنت أتناول العشاء انا وليكها وريتا عندما وصلت الينا برقيـــة ، فتحتها ليكها وصاحت : «مامى نجحت !».. وتبادلنا النظرات أول الأمر فى ذهول ، ثم أسرعنا الى حجرة جدتى حيث كانت تجلس على الارض وأخبرناها بالنبأ السار ..

« وقد تكرر نفس المنظر عندما تلقينا بعد قليل أنباء تقول ان أبى قد هزم خصمه فى الانتخابات ، وكان من كبار الملاك الاغنياء ..

« وفى الصيف التالى تلقينا من مامى خطابا تقول : انها عينت وزيرة للصحة فى وزارة المقاطعة . وفى جميع أنحاء الهند أخذت الصحف والمجلات تنشر صورة مامى وتتحدث عن شعرها الناعم الجميل ، وتقول انها أول هندية تشغل منصب الوزارة ، بل ومن أوائل النساء اللواتى شغلن هذا المنصب فى العالم كله !.. وكنا نحن البنات الصغار نتلقى التهانى من الجميع فى فخر !..

« وقد استمرت حياتنا كما هى بعد أن أصبحت أمى وزيرة ، فيما عدا رحلاتنا الى مقر الوزارة ، نحمل لأمى طعامها فى سلة صغيرة ، ونسمع الناس يشيرون اليها قائلين : « جناب الوزيرة ! »

« وكانت مامى قد فرشت مكتبها فى الوزارة بذوقها البديع ، وملأته بأوانى الازهار المقطوفة من حديقة الوزارة . وقد فزع السكرتيرون أول الأمر عندما بدأت مامى تعيد ترتيب المكتب على ذوقها . وكانوا يعتقدون ان اية لمسة نسائية رقيقة فى المكتب سوف تبعده عن جو العمل الجاد . وعندما طلبت امى قطف الزهور من الحديقة لوضعها فى الحجرات عبر الموظفون عن استيائهم علنا ، وقال أحدهم لها :

ـ ولكن ياسيدتى ان هذا لم يحدث من قبل !..

فقالت له : فليحدث من الآن !

وحملت سلة صغيرة ونزلت الى حديقة الوزارة تقطف الزهور بنفسها !!

ورأى الموظفون وزيرتهم تقطف الزهور فى الحديقة امام اعين الرائحين والغادين ، فأسرعوا الى القيام بدلا منها بهذا العمل !

واصبح اسم فيجايا لاكشيمى أسطورة فى المقاطعة . واخذت كل أم تطلق اسمها على أول بنت تولد لها . كانت البنات الصغيرات يقلدنها ، والسيدات العجائز يتحسرن لأنها لم ترزق ولدا ، اذ أنجبت ثلاث بنات فقط !!..

وقد كان منظر امرأة تخوض مناطق الكوليرا وتزور اماكن المجاعات منظرا غريبا حقا . بل لقد ظل بعض الفلاحين البسطاء لايصدقون ما يقال لهم من أنها امرأة. حدث مرة وهى تلقى خطبة فى جمع من الفلاحين أن همس زوج فى أذن جاره يقول :

ـ تصور .. انها امرأة حقا !!..

وتلاحظ « تارا » هنا ان الحركة النسائية للمطالبة بحقوق المرأة لم توجد فى الهند اصلا . ذلك ان غاندى

دعا النساء منذ بدء الحركة الوطنية الى اتخاذ مكانهن فى صفوف الحركة الوطنية بجوار رجالهن . كما تلاحظ أن تحرر المرأة فى الغرب قد صاحبه تغير منظرها وملابسها ، فظهر الشعر المقصوص والثياب القصيرة البسيطة . أما فى الهند فقد ظلت المرأة رغم تحررها محتفظة بالسارى الجميل والشعر الطويل فأثبتن بذلك ان المرأة تستطيع أن تؤدى واجبها كاملا مهما كانت ثيابها رقيقة أو طبيعتها ناعمة !..

وتمضى الأحداث بفتاتنا الذكية المرهفة الحس ..

وببلوغها سن الشباب الباكر تعرف طريقها الى المظاهرات .. وتقع أختها الكبرى « ليكها » فى قبضة البوليس ، وتبقى هى وأختها الصغرى ريتا مطلقتى السراح ..

وتلتقى الأم والأب فى السجن لحظات ، يقرران فيها ارسال تارا وريتا الى بلد بعيد آمن تتلقيان فيه العلم ، ولما كانت الحرب العالمية الثانية ناشبة فى ذلك الوقت فى أوروبا ، فقد قررا ارسال البنتين الى أمريكا ..

وذهبت الفتاتان الى سجن الرجال ثم الى سجن النساء تودعان الأم والأب ، ثم ركبتا الباخرة الى أمريكا ، الى لوس انجلوس ..

فكيف رأت المؤلفة الشابة أمريكا ؟

الأنوار الساطعة ، الخاطفة ، المرنة.. الحياة السريعة التى تلهث مترنحة من التعب .. البائعات الفاتنات فى كل المحلات ، كل واحدة منهن تقف طول النهار وهى تحلم بالمخرج السينمائى الذى قد يمر بها مصادفة فيكتشفها ويجعلها نجمة سينمائية لامعة !.. الناس لايعرفون شيئا خارج حدود أمريكا .. تسأل واحدا من الناس : هل تعرف الهند ؟ فيقول لها : اليست تلك

البلد التى تقع بالقرب من مصر ؟ ! فتحزن ، لان كفاح اربعمائة مليون من البشر، وحضارة خمسة آلاف سنة ، ليست هنا الا .. « تلك البلدة القريبة من مصر ! » وتسال لماذا يعرف مصر ولايعرف الهند فتعرف السبب : ان هوليوود أخرجت أخيرا فيلما عن كليوباترا ! واذا سالها أحد عن الهند كان السؤال : هل عندكم سيارات وراديوهات كما عندنا ؟.. فاذا أجابتهم : ليس بهذه الكثرة شعروا بالتفوق والارتياح » ؟ !

وفى خلال حياتها فى أمريكا لا تنقطع لحظة واحدة عن متابعة انباء الكفاح الوطنى فى الهند ..

وتنتهى الحرب ، وتنال الهند استقلالها ..

وتعلم « تارا » يوما ان أول وفد يمثل الهند المستقلة سيصل الى أمريكا قريبا ليحضر أول دورة لهيئة الأمم المتحدة ، وأن على رأس هذا الوفد أمها .. السيدة فيجايا لاكشيمى !!

انها الآن فى قمة سعادتها.. لا تملك نفسها من الزهو، وهى ترى أمها تنتقل فى هذا المحفل الدولى ، وتصول وتجول بين أقطاب السياسة الدولية مثل فيشنسكى وغيره .. وهى تسجل ملاحظات سريعة طريفة على رؤساء الوفود .. بيفن ضيق الصدر بقواعد الاتيكيت التى لايعرفها جيدا .. وفيشنسكى بعيونه الزرقاء التى تنطق ذكاء وابنته الطالبة فى جامعة موسكو.. والأمير فيصل بثيابه الفضفاضة ، يغض طرفه كلما مرت به امرأة .. حتى ولو كانت أمها !.. واسم خالها نهرو يتردد على كل لسان ، ولا أحد بعد يجهل الهند !!

الآن ، تعود تارا الى بلادها ، تعود وقد أصبحت الهند بلدا مستقلا ، وأصبح خالها الطيب الذى كان يلعب معها فى الحديقة رئيسا للوزارة .. وعندما وصلت

« تارا » الى البيت الكبير ، كان خالها فى الحمام يستعد للذهاب الى حفلة رسمية ، فذهبت وجلست تنتظره فى حجرة نومه .. فلما عاد ورآها قفزت اليه وتعلقت بعنقه تقبله ، وهو يدور بها فى وسط الحجرة ..

ولكن .. ان وجهه يحمل من التعب والجهد والضنى اكثر مما كان يحمل فى أحرج أوقات الجهاد ، فلا بد ان مسئولية الحكم اشق من مسئولية الكفاح ..

ومضت تهيىء نفسها لكى تعيش مع خالها ، ومن أجل خالها ..

لقد اكتشف نهرو الهند خلال رحلاته وقراءاته واختلاطه بالملايين ، أما هى فقد أحبت الهند من خلاله

لقد قررت أن تجعل رسالتها أن تهيىء لنهرو بيتا مريحا ، بعد أن ماتت زوجته وتزوجت ابنته ، وبعد أن لاحظت قدرته الغريبة على العمل ، واحتقاره للراحة ، وعقله المشغول دائما بالخطط الواسعة والمشروعات ، واهماله التام لمطالبه الشخصية .. انه الرجل الذى تنطبق عليه حكمة جالاهاو « اننى أعمل كعشرة رجال .. لأننى صافى القلب ! » ..

انه لا يحكم بروح رئيس الوزارة .. ولكن بروح الفنان المستغرق فى اتمام لوحة خالدة !..

هكذا تمضى خواطرها عن خالها وهى تراه ينهض بهذ العبء الكبير ..

وهى لا تكاد تبادله كلمة واحدة .. لأن برنامجه لايخلو دقيقة واحدة من الزوار أو اللجان أو التقارير .. انه يعمل حتى فى الفراش ، حتى على مائدة الطعام ، بينما تكتفى هى بالتهام طعامها فى المطبخ ..

وفى احدى الليالى أصابها أرق جعلها تسهر فى فراشها حتى ساعة متأخرة من الليل . ورأى خالها النور مض

وهو عائد الى فراشه فمر بها .
قال لها وهو يجلس بجوار فراشها :
ــ ها نحن فى بيت واحد .. ولا أراك الا نادرا ..
قالها فى صوت متعب ، ثم استطرد : ما أكثر الكلام الذى أريد أن أقوله لك .. ولكن المسائل الشخصية كلها يجب أن تنتظر ..
ثم قال لها باسما كأنه يقترح نزهة : تعالى معى غدا نزور بابو ..
وبابو هو اللقب الذى كان ينادى به غاندى ..
وقد كانت رؤية غاندى هى راحة نهرو الحقيقية.. هى خلاصه من كل مشاكله المعقدة !!..
وذهبت تارا مع خالهـــا لزيارة غاندى ، فأحست بالراحة فعلا ، ففى الدوامة المحمومة التى كانت تعيش فيها الهند عقب الاستقلال، ظل غاندى هو العقل الهادىء والقلب المستريح.. ليس حوله سوى الاغانى والصلوات والهدوء !!..
ان غاندى لايتكلم ، ولا تشعر بأنه يريد أن يقنعك بشىء ، انه فقط يفكر امامك بصوت مسموع ..
أما فلسفته التى أوصاها بها حتى النهاية ، فهى : لا تسلكى الى الهدف السليم .. الا الطريق السليم ..
وبعد أيام اغتال احد المهووسين غاندى ..
وكتبت « تارا » تقول : سيظل الناس الى الأبد عاجزين عن ايجاد سبب معقول لصلب المسيح أو اعدام سقراط ، أو اغتيال غاندى !!

صديقي إينشتين

مؤلف هذا الكتاب ـ فيليب فرانك ـ ليس أديبا فقط ، ولكنه عالم أيضا ... وهو عالم فى نفس الفرع الذى تخصص فيه اينشتين ، وقد توثقت بينهما روابط صداقة وطيدة دامت أكثر من ثلاثين سنة ، عاشا خلالها فى أحداث وأبحاث واحدة ..

والكتاب فى حجمه الاصلى يزيد على خمسمائة صفحة.. وقد صدر قبل وفاة اينشتين بسنة واحدة.

وقد بدأ المؤلف كتابه متحدثا عن حياة اينشتين فى أواخر ايامه فقال :

يسكن اينشتين بيتا خشبيا بسيطا يقع فى حديقة مجاورة لجامعة برنستون الشهيرة ، بالقرب من نيويورك

وفى نهاية سلم ضيق ، بالطابق الاول يلقاك البرت اينشتين مرتديا صندلا وبنطلونا وقميصا .. أما مكتبه فعبارة عن مائدة عمل ، ومقعدين وثيرين ، ورفوف عليها مذكرات وكتب ، وآلة كمان ، وعلى الحائط صورتان لفاراداى وماكسويل ، وعلى المائدة أوراق صغيرة متناثرة مليئة بمعادلات وأرقام حسابية ، مكتوبة بخط دقيق جدا ، فهذه الاوراق تضم الكثير من أسرار الكون !!..

وبالنسبة لسكان برنستون ، كما هو الشأن بالنسبة لسكان العالم أجمع ، يعد البرت اينشتين من الشخصيات

الاسطورية فى القرن العشرين ، فهنا تروى قصص كثيرة عنه .. هذه واحدة من جاراته ، لها ابنة فى العاشرة من عمرها ، لاحظت يوما ان ابنتهـا تذهب كثيرا الى اينشتين فى بيته وتمكث عنده طويلا .. وسألتها أمها فى ذلك فقالت : « اننى أجد صعوبة فى حل واجباتى المدرسية فى الحساب ، وقد سمعت ان الرجل الذى يسكن البيت رقم ١١٢ يعرف الحساب جيدا ، فذهبت اليه أطلب منه مساعدتى ، وقد رحب بى كثيرا وشرح لى كل شىء ، وفهمت منه بوضوح وسهولة أكثر مما افهم من مدرستى فى الفصل بكثير ، وقد طلب منى أن اذهب اليه كلما احتجت الى شىء !! » .. وأسرعت الأم الى العالم الكبير تعتذر عن وقاحة ابنتهـا فأجابها : لا داعى لهذا الاعتذار ياسيدتى .. فأنا أستفيـد من الشرح لها أكثر مما تستفيده هى منى !!

وحين كان اينشتين فى الثانية من عمره ، لم يكن قد نطق بالكلام بعد ، وظن أبواه ان ابنهما سيكون شـاذا ناقصا ، فلما نطق بأول كلماته فرحت العائلة بذلك فرحا شديدا ، وكان أبوه يدير مصنعا كهربائيا صـغيرا فى ميونيخ ، بافاريا ..

أما أم اينشتين فقد كانت موسـيقية بارعة . وكان يقيم مع الأسرة واحد من أخوة اينشـتين ، يختص بالاشراف على الجانب الفنى فى مصنع أبيه ، ومنه تلقى اينشتين أول دروسه فى الرياضة ، وكان طفلا هادئا ليس فيه شقاوة الاطفال أو ميلهم الى اللعب والجرى والنط .. وكانت لعبة « العسكر » التى يلعبها أقرانه تسبب له الفزع . وحدث يوما أن كان يقف مع أبيـه يتفرج على استعراض عسكرى تتقدمه الموسيقى ، اذ صرخ باكيا فجأة : الرجال المساكين ! لن افعل مثلهم

أبدا حين أصبح كبيرا !
وفى التاسعة من عمره كان طفلا حالما ، جبانا ، لايكذب أبدا ، وكان مشهورا بدقته فى رواية ما يقع امامه بلا أى تحريف ، وفى العاشرة من عمره دخل مدرسة لويتيون فى ميونيخ حيث أغرقوه فى طوفان من القواعد اللاتينية واليونانية ، واينشتين مدين لذكاء أحد أساتذته ، الاستاذ رويس ، فانه لم يكره بالرغم من ذلك الثقافة القديمة ، وكان التلاميذ الذين يحصلون على درجات منخفضة يوضعون بعد انتهاء الدراسة فى حصص اضافية تحت اشراف أحد المدرسين كعقاب لهم ، ولكن اينشتين كان يفرح جدا حين يعاقب لأن الاستاذ المشرف على التلاميذ المعاقبين هو .. رويس .
وبعد سنوات طويلة ، حين أصبح اينشتين أستاذا فى زيوريخ ، قرر أن يذهب لزيارة أستاذه القديم ، وأخذ يتخيل ماسيكون من فرح أستاذه به حين يرى تلميذه قد أصبح أستاذا فى الجامعة .. ولكنه حين ذهب اليه ، فى ثيابه المهملة كعادته ، لم يعرفه أستاذه قط ، وحسبه طالبا فقيرا جاء يطلب مساعدة مالية ، فكان ذلك صدمة لاينشتين حتى أنه فر من وجهه هاربا دون أن يوضح الأمر أو يقول شيئا ..

وفى سن الثانية عشرة ، تلقى أول قبس من العلم .. حين بدأ يقرأ كتابا موجزا فى الهندسة ، فلم يكد يفتحه حتى أصبح لا يقوى على مفارقته .. ولكن حادثا مفاجئا بعد ذلك بسنوات ثلاث ، أثر فى حياته وغير مجراها ، فقد قرر أبوه تصفية مصنعه فى ميونيخ والبحث عن الثروة فى مكان آخر ، وسافر الى ميلان لتأسيس مصنع للمنتجات الكيمائية تاركا ابنه فى ميونيخ حتى يتم دراسته ، وكان الصبى متفوقا على زملائه فى الرياضة

تفوقا كبيرا وان ظل متخلفا بعض الشيء فى اللغـــات القديمة .

وكانت أشهر مدرسة علمية خارج المانيا هى مدرسة بوليتكنيكوم فى زيوريخ وســافر اينشتين الى زيوريخ وتقدم لامتحان القبول ، فأحرز درجات فى الرياضـة أذهلت الممتحنين، ولكنه رسب فى اللغات رسوبا شنيعا. واحتار عميد المعهد : فهو لايستطيع قبول الفتى الراسب فى اللغات ، وهو لايريد أن يفرط فيه بعد أن راى عبقريته المبكرة ، فأشار عليه أن يلتحق سنة بمدرسة صغيرة فى زيوريخ ويحصل على شــهادتها فيدخل المعهـد بغير امتحان ، وفى السنة التالية دخل اينشتين المعهد العتيد

وكان المعهد لما يتمتع به من شهرة دولية ، يضم بين جدرانه شبابا من جميع الجنسيات ، وبين طلبته الاجانب كانت فتاة هنجارية اسمها « ميلفا ماريتشى » لا تهتم الا بدراسة العلوم الطبيعية .. وبلغ اينشتين الحادية والعشرين وحصل على الجنسية السويسرية ، وكانوا يعطون المتازين حوالى ٣٠٠٠ فرنك فى الشهر ، وهو مبلغ كان كافيا فى ذلك الوقت لكى يعيش بلا هموم ، بل لقد فكر فى أن يتزوج ويبنى أسرة .. وبعد وصوله الى برن بقليل خطب زميلته ميلفا ماريتشى .. كانت أكبر منه بقليل ، ولكن اينشتين لم يكن يستطيع أن يشغل بالحب ذهنه الخلاق .. وقد استفاد منها اذ نظمت له تيار أفكاره المهوشـــة ، وأنجبت له طفلين ، والاطفال مصدر متعة عظيمة لاينشتين .

وعلى العكس من معظم العلمـاء والمخترعين الذين يقضون فراغهم فى لعب الشـــطرنج أو قراءة الروايات البوليسية ، نرى اينشتين يقضى فراغه فى اختراع صنوف من الادوات والآلات العجيبة لاستعمالها فى شئون الحياة اليومية .

وفى كل حياته ، ظل اينشتين معتصما بوحدته .. لايغادرها الا ليقابل من الاصدقاء من يستطيع أن يعزف لهم الموسيقى أو يتناقش معهم حول آرائه فى الكون ، وشخصيته البسيطة الجذابة ، السمحة ، طالما اجتذبت اليه الاصدقاء والناس ، ولكن اعتزازه بوحدته صد عنه الذين لم يفهموا هذه الوحدة .

وهو يقول : « ان الفوائد التى تعود من الاحتكاك بالناس والمسئوليات الاجتماعية ، تتعارض دائما مع رغبتى العميقة فى تجنب كل اختلاط أكثر مما يجب بالناس الذين أصادفهم ، لقد خلقت لكى أكون وحيدا ، لا أرتبط بفريق خاص أوجماعة بعينها ، اننى فى الحقيقة لست تابعا لدولة أو شعب أو صديق معين ، بل ولا حتى لعائلتى ، ان هذه الروابط تتعارض دائما مع رغبة كامنة فى الانطواء على نفسى ، تنمو مع الايام ، وهذه الوحدة قاسية ولاشك ولا أستطيع أن أعتذر عن اقتطاع نفسى من مجتمع الناس والاصدقاء وفى مقابل ذلك ، فاننى غير مرتبط بأى حكم سابق ، أو أى أفكار أو عادات للآخرين ، ولا أقامر أبدا بأن أبنى سعادة روحى على أسس متغيرة » .

ومع انه لم يعرف عن اينشتين أبدا انه بذل أى مجهود ليدعو لأفكاره بين الناس ، فانه يحب أن ينشر رأيه بين المحيطين به ، والذين يتصل بهم ، وفى « برن » كان أهم صديق له مهندسا ايطاليا اسمه «بسو» كان أكبر منه فى السن قليلا،كانت له روح ناقدة ذكية وحساسية شديدة . وكانت انتقاداته لآراء اينشتين كلها خالقة منتجة ، ومن أقواله التى ما يزال اينشتين يرددها : « اذا كانت فكرتك جميلة كالزهرة ، فلا بد أن تنتشر لها رائحة » .

وهنا يصل المؤلف الى المرحلة التى تعرف فيها الى اينشتين :

لم أكن أعرف الاهمية الخطيرة التي تنطوى عليها نظرية اينشتين فى النسبية قبل سنة ١٩١٢ ، حين قرأت فى جريدة نمساوية مقالا تحت عنوان « الدقيقة فى خطر .. حدث فى العلوم الرياضية » .. وشرح لنا استاذ الطبيعة حينئذكيف أنعالما طبيعيا اسمه اينشتين اثبت بطريقة رياضية لم يسبق لها مثيل ان الوقت يمكن ان يقصر ويطول ، أن ينكمش ويمتد ، وانه يمضى فى فترات معينة أسرع منه فى فترات أخرى . وان هذه الفكرة قد قلبت كل أفكارنا عن الروابط بين الانسان والكون .. فحتى تلك اللحظة كان الناس يولدون ويموتون ، والاجيال تتعاقب ، وبقى الزمن جامدا لايتزحزح ، أما الآن فكل شيء قد تغير ، فالزمن نفسه يمكن أن يعدل وكل ذلك بطريقة رياضية بسيطة .

وفى كلمات بسيطة دعا اينشتين الى الا نقيس الزمن الذى يستغرقه الحدث بالطريقة القديمة « الزمنالحقيقى الذى يستغرقه الحدث هو الذى تسجله ساعة دقيقة مرتبطة بطريقة ما بالحدث الذى يحدث نفسه ، وكل زمن آخر غير ذلك خداع » .

بهذا جمع اينشتين بين المكان والزمان فى صيغة واحدة ..

كما وحد بعد ذلك بين الكتلة والطاقة ..

ثم اكتشف نظرية جديدة للجاذبية تتعارض مع نظرية نيوتن التى تعلمناها جميعا فى المدارس .

وكان للأبحاث التى نشر اينشتين نتائجها فى برن دوى شديد فى أنحاء العالم ، فلم يلبث أن عين بعدها فورا استاذا فى جامعة زيوريخ ، ولكن مركز هذا الاستاذ من

الناحية المالية لم يكن مريحا ، فاضطرت زوجته الى أن تدير جزءا من بيتها « بنسيونا » للنزلاء !

وفى خريف سنة ١٩١٠ ، شغر كرسي أستاذ الطبيعة النظرية فى جامعة براغ فأسرعت الحكومة الالمانية تعرض الكرسى الشاغر عليه .. ووصل اينشتين الى براغ ، وقال الذين شاهدوه فى ذلك الوقت ان هيئتـه كانت أقرب الى هيئة مغنى أوبرا ايطالى منها الى هيئة أستاذ المانى .. وكان صيته وشهرته الهائلة بأنه عالم طبيعى غير عادى قد سبقته .. وأصبح كل شخص على أحر من الجمر لرؤية هذا الانسان النادر .

وقد عينت فى كرسي اينشتين حين ترك براغ بعـد ذلك ، ورحيله عن براغ يرتبط فى ذاكرتى بحادثة طريفة فقد كان على الاستاذ الجامعى فى النمسا فى ذلك الوقت أن يلبس بذلة شـبه عسكرية : قبعـة مثلثة الاركان مزينة بالريش المرتفع وسترة مزركشة وبنطلونا محلى بضفائر مذهبة ، وعباءة فضفاضة ، وسيفا !.. وقد اضطر اينشتين لشراء هذه البذلة حين عين فى براغ.. فلما انتهت مدته وقرر العودة الى سويسرا ، اشتريت أنا منه هذه البذلة حتى لا أتجشم ثمن بذلة جديدة ، وهى لن تنفعه بعد ذلك ، وكان ابنه الصغير ـ فى الثامنة من عمره ـ حاضرا هذه الصفقة ، فصاح ى أبيه يريد أن يحتفظ بالبذلة ليسير بها أبوه فى شوارع زيوريخ ويراه الجيران ... وضحك اينشـتين وقال : انهم سيقولون عنى حينئذ اننى أميرال من البرازيل مثلا !!

وكان صيت اينشتين قد ذاع حتى أصبحت الهيئات العلمية تتنافس على الظفر به ، وكان منها حكومة المانيا التي طلبته لكى ينظم الابحاث العلمية فى برلين بصفته استاذا فى جامعتها ، وبعد فترة من وصوله الى برلين

انفصل عن أسرته وعاش فى مسكن بمفرده ، كانت سنه حينئذ ٣٤ سنة .. اصغر من كل زملائه الاساتذة ..

وقد تعودنا ان نرى العلماء دائما مشغولين لا وقت لديهم ، ولكن اينشتين على العكس من ذلك كان يجد دائما الفراغ الطويل !! ٠٠ وقد قابلته فى برلين ــ و لنت اعمـــل فيهـــا بدورى ــ وكنت اريد أن أذهب الى «الابسرفاتوار» ولم أكن قد عرفت برلين جيدا بعد ، فاقترح على أن يقابلنى على جسر بوتسدام ليوصلنى الى هناك .. واستكثرت ان يقف هذا العالم الـكبير على الجسر ينتظرنى ثم يسير معى مسافة طويلة ليوصلنى ، وقلت له اننى اخشى أن اضيع له وقته ، فقال : « ان مهمتى هى التفكير.. وما الفرق بين التفكير فى البيت والتفكير على جسر بوتسدام ؟ » .

حقا .. ان أفكاره تنثال دائما كالمجرى الذى لاينقطع، فاذا قاطعته بحديث أو حوار ، فكما تلقى حجرا صغيرا فى مجرى النهر ، قد تحدث منه حلقات صغيرة ، ولكنه لا يعطل جريان النهر لحظة واحدة ، وروحه تدفعه عادة الى عمل شاق لا ينقطع بشكل قد لا تتحمله صحته فى بعض الاحيان .

وقد ظل أقاربه الأكثر غنى يعتبرونه كالشاة الضالة عن القطيع ، حتىاجرى له استقبال رسمى فىالاكاديمية البروسية ببرلين ، ورأوا كيف احيط فى ذلك اليوم بكل علامات الاحترام .. فأصبحوا من تلك اللحظة يفخرون بقرابته لهم ولا يجدون غضاضة فى استقباله عندهم ، بالرغم من فقره وغناهم !.. وقد استقبل هذا الوضع بروح مرحة طيبة .. وعند احد اعمامه قابل قريبته « الزا » التى عرفها فى ميونيخ طفلة ، كانت أرملة ولها ولدان .. وكانت امراة بارعة تخلق حولها جوا جميلا

وتقدم طعاما ممتازا وان لم تكن لتستطيع أن تفهم ــ مثل ميلفا الزوجة السابقة ــ أهمية هذا العالم الطبيعى .. كذلك كانت لها روح مرحة ليست جافة صلبة مثل تلك التلميذة السلافية .. وقد أعجبها اينشتين على اي حال .. لأنه كان شهيرا !!

وذات يوم خـــلال الحرب العالمية الاولى ، دعانى اينشتين الى تناول الغداء عند عمه ، وهناك رأيت الزا لأول مرة .. وقد قالت لى يومها بين الجد والهزل : « اننى أعرف أن صغيرنا البرت عالم عظيم .. فان كل الصناديق التى ليست لدينا مفاتيح لفتحها ، يفتحها اينشتين بسهولة تامة !! » .

وقبل انتهاء الحرب تزوج اينشتين من الزا .. فهذا الذى عاش دائما عيشة بوهيمية بدأ يعيش عيشـــة بورجوازية رتيبة .. وقد احتفظت الزا مع اينشتين بكل عاداتها الموروثة عن «السواب» موطنها الاصلى . فهى تهتم اهتماما زائدا بأن تصنع لحياتها اطارا ثابتا .. ولكن زوجة الرجل الشهير لايقف أمرها عادة عند المظهر ، وكل من اتصل باينشتين لم يستطع الا ان يحكم على الزا بقسوة ، ففى بيئات العلمـــاء ببرلين كان الجميع يقولون انها ليست المراة الجديرة باينشتين « ترى لو فكر اينشتين كما فكروا فأى امرأة اذن كان يمكن أن يتزوجها ؟ » واكد البعض انها تحيط زوجها بســـور لايقتحم وقال علماء آخرون انها تفضل أن يكون اصدقاؤه من المؤلفين والفنانين ورجال السياسة ، لأنها أكثر اتفاقا معهم ، ويسهل عليها مصادقتهم .

وقد حدث ان اعترضت بعض الاندية النســوية فى أمريكا سنة ١٩٣٢ على دخول اينشتين أمريكا بحجة انه على صلة ببعض المبـــادىء « الهدامة » فقال لمراســـل

الاسوشيتدبرس ساخرا : لماذا يكرهون هنا رجلا يريد ان يمنع من العالم كل أنواع الحروب .. ماعدا الحرب بين الرجل وزوجته ؟

فهذه الكلمة تدلنا على شيئين فيه : مبادئه الانسانية الواسعة ، وعدم سعادته فى الحياة الزوجية .

ومن تعليقاته اللاذعة التى تدل على قسوة تجربته « حين اكون فى البيت تكون زوجتى مشغولة بقطع الاثاث التى لديها ، وحين أخرج معها للنزهة أصبح أنا قطعة الاثاث الوحيدة تحت يدها ! »

كانت لاكتشافات اينشتين أهميـة غمرت العـالم أجمع ، وقد اهتم بها علماء الفلك اهتماما خاصا .

ولكن لم يكن ثمة من سبيل للتحقق من صحة نظرياته بدون حدوث كسوف كلى للشمس لقياس درجة معينة من انحراف أشعة الضوء ، تنبأ بها اينشتين.. وحدثت مصادفة رائعة اذ تبين علمـاء الفلك ان كسـوفا كليا للشمس على وشك الحدوث .

ونظم المعهـد الملـكى للعلوم الفلكية فى لندن بعثتين للتحقق من نظرية اينشتين فلما وقعت الهدنة فى سنة ١٩١٨ شرعت البعثتان فى العمل فورا وكان ذلك باشراف سير أرثر اديز أدينجتون ، احد القلائل الذين يفهمون نظرية النسبية .

وأرسل المعهد بعثتين الى نقطتين متباعدتين من الكرة الارضية .. واحدة فى جنوب البرازيل والثانية برئاسة ادينجتون نفسه فى احدى جزر غينيـا وحين وصلت البعثة الاولى الى البرازيل قوبلت مقابلة عدائية غريبة !! وكتبت أكبر جرائدها تقول : « بدلا من أن تتعب البعثة نفسها فى اثبات نظرية سخيفة لعالم المانى .. اليس الاجدر بها أن تبحث عن طريقة لاسقاط الامطار عندنا ،

ونحن نشكو الجفاف بهذا الشكل ؟ » . وكان الشعب يشكو الجفاف حقا ، وكان حظ البعثـة حسنا ، اذ أمطرت السماء بعد وصولها بأيام !

ومضت شهور قبل أن تعود البعثتـان الى لنـدن وتخرج الصور التى أخذتها فى المعامل بدقة متناهيـة تلافيا لأى خطأ محتمل . وفى ٧ نوفمبر سـنة ١٩١٩ وكانت لندن تحتفل بعيد الهدنة الاول، خرجت التيمس تحمل فى صدرها عناوين « الشهداء الابطال ، احتفالات الهدنة ، توقف المواصلات فى جميع أنحاء البلاد » وفى صفحاتها التالية حملت عناوين « ثورة فى العلم ، نظريات نيوتن تنقلب رأسا على عقب ! » . وتحتها تفاصيـل اجتماع المعهد الملكى الذى أعلنت فيه رسـميا نتـائج الابحاث . وأعلن المعهد أن بعثتيه اللتين سافرتا الى البرازيل وعنيتا بملاحظة الخسوف الشمسي خرجتا من مشاهداتهما وابحاثهما بأن الاشعة الضوئية منحرفة فى نطاق جاذبية الشمس وفقا لنفس النسبة التى قررها اينشتين فى نظريته عن الجاذبية .

وقد رأيت اينشتين بعد ذلك سنة ١٩٢١ فى براج .. كان قد تغير قليلا وان بقى شديد الشبه بعازف الموسيقى البسيط . وكنت قد تزوجت ، ونظرا لأزمة المساكن اضطررت أن أقيم أنا وزوجتى فى نفس المعمل حيث كنت اجرى ابحاثى .. وهو أيضا نفس المكان الذى كان فيه مكتب اينشتين حين كان أستاذا ، وقد اضطر مرة الى أن يقضى الليلة عندى ، نائما على مقعد طويل ، ليتجنب فضول الناس وتجمعهم حوله فى طريقه الى الفنـدق الذى كان نازلا فيه ..

وبعد ذلك بقليل سافر الى أمريكا للمرة الاولى ليلقى المحاضرات، وكان وصوله الى نيويورك نذيرا باستقبالات

هائلة ، ومظاهر من الحماسة زائدة .

وتجمع حوله الصحفيون والمصورون ، وساله واحد منهم : « كيف يمكن أن تلخص فى سطور قليلة نظريتك فى النسبية ؟ »

وسكت اينشتين برهة ثم قال :

ـ استطيع أن أقول لك اننا كنا نظن انه اذا حدث واختفت المادة من الكون كله فسوف يبقى بعد ذلك الفراغ والزمن .. ولكنه وفقا لنظرية النسبية فان الفراغ والزمن سيختفيان بدورهما .

واستدار الصحفيون الى زوجته يسالونها : هل فهمت شيئا ؟

فقالت :

ـ أوه .. كلا .. انه لم يشرحها أبدا .. ولكن اظننى سعيدة هكذا بدون أن أفهمها !

وقد سألت اينشتين عن حقيقة شعوره ازاء كل مظاهر الحماسة التى أحيط بها .. فقال :

ـ انني لم اكتشف بعد أشياء غير عادية .. واظن ان اي بطل من ابطال الملاكمة يحظى من الجماهير بأكثر من هذه الحماسة !..

ولما عاد اينشتين الى أوروبا ، لفحته موجة الاضطهاد التى شنها النازيون فى الجامعات الالمانية ، اذ بدأوا يطردون الاساتذة والعلماء بالجملة لأسباب عنصرية !

وتسابقت اليه الجامعات كل منها تدعوه اليها ، وتسخو فى الاغراء ، ولكنه كان قد قرر أن يترك أوروبا .. تلك القارة المضطربة المشتعلة كلها ، ويقبل وظيفة استاذ فى جامعة برنستون بجوار نيويورك ، وانصرف يعمل فى هدوء .

وعاد اسم اينشتين وصوره تشغل الصفحات الاولى

من الجرائد ، واصبحت النتائج التى ترتبت على نظرية النسبية التى أعلنها سنة ١٩٠٥ فى الصلة بين المادة والطاقة حديث الناس جميعا .. حتى قيض له أن يلعب دورا ايجابيا من أخطر الادوار فى تاريخ الانسانية ..

ففى سنة ١٩٣٩ ، بعد أبحاث خطيرة قام بها جوليو كورى الفرنسى وهان وليز الالمانيان بدأت الافواه تتناقل اسم قنبلة ذرية يمكن صنعها .. وكانت المانيا بالذات — فى استعدادها للسيطرة على العالم — تبذل جهودا جبارة للوصول الى صنعها .. وفى الولايات المتحدة حاول اثنان من علماء جامعة كولومبيا أن يحركا روزفلت ورجال القيادة الامريكية الى صنع هذه القنبلة .. وكانا يؤكدان فى الحاحهما ان هتلر لو عرف سر القنبلة الذرية اولا ، فسوف تكون هذه نهاية الحرية ..

وعبثا حاول الرجلان .. فماذا يصنعان بعد ؟.. لابد من ايجاد رجل له من الشهرة والسمعة والقوة ما يجعل لطلبه صنع هذه القنبلة قيمة كبرى لايمكن تجاهلها .. وقابلا اينشتين .. وشرحا له خطورة وجود هذه القنبلة بين أيدى النازيين ، وكان قد جرب النازيين من قبل ..

وفى ابريل سنة ١٩٣٩، كتب اينشتين رسالة تاريخية الى روزفلت :

«.. أن الابحاث التى قام بها جوليو كورى فى فرنسا ومزحى وسزيالارد فى الولايات المتحدة تجعلنى أعتقد ان مادة اليورانيوم سوف تكون ذات اهمية عظمى فى المستقبل كمصدر للطاقة ، وأعتقد انه من واجبى أن الفت نظركم الى ذلك .. والى ان مصادر هذه المادة فى الولايات المتحدة ضعيفة جدا ، على حين هى موجودة بكثرة فى كندا وتشيكوسلوفاكيا .. وقد علمنا ان هتلر

يبذل جهودا هائلة للحصول عليها ، وهو يقوم فى هذا السبيل بتجارب سرية خطيرة ، وان ميزانيات الجامعات الامريكية لأفقر من أن تقوم بمثل هذا العمل ، فعلى ميزانية الدولة أن تساهم ، وسوف يمكن حينئذ صنع قنبلة تحسم الأمر ، ان قنبلة واحدة من هذا النوع تحملها سفينة الى ميناء ما كافية لتدمير المدينة وما حولها من مدن تدميرا شاملا ، يمنع الحياة فيها لأمد طويل » .

***

وبغير اسم اينشتين ، المهور فى نهاية الرسالة ، لم يكن روزفلت ليوافق على اعتماد مليارات الدولارات للأبحاث الذرية .

وهكذا غيرت نظرية اينشتين ، ليس فقط الابحاث العلمية ، بل والاستراتيجية السياسية والعسكرية فى العالم أجمع كما أثر فى تاريخها تأثيرا خطيرا .

غير انه لما وجد القنبلة الذرية — وقد افلحت مع اليابان مرة — أصبحت تغرى الساسة والعسكريين بالعدوان .. وقف فى الصف الاول مع المطالبين بتحريمها وصرف البحوث الذرية الى الانتاج السلمى .. محذرا ومنذرا البشر أجمعين من هول ما ينتظرهم لو تركوا لشهواتهم العنان ..

بعد الحرب الذرية

هذه قصة غريبة كتبها الكاتب الانجليزى « الدوس هكسلى » وهو كاتب متشائم ، تنتابه القشعريرة منذ سنوات طويلة .. فهو يتأمل ما يسود العالم من توتر وقلق وخوف ومن خطر الحرب المعلق فوق الرؤوس فيقشعر فكره ، وقلمه.. ويكتب قصة «العالم الطريف» يتخيل فيها العالم وقد تقدم حتى أصبح يصنع أطفاله فى انابيب الاختبار!.. وفى كتاب «السلام والعلم والحرية» الذى قدمته اليك ، يثبت ان التقدم العلمى أصبح الآن لمصلحة الاستبداد ، لا الحرية ..

اما فى هذه القصة وعنوانها الاصلى «Ape and Essence» يتحدث عن العالم بعد ١٣٠ سنة . وقد تصور أن الحرب العالمية الثالثة قد نشبت وان العالم قد فنى تقريبا من القنابل الذرية والايدروجينية ..

والمؤكد ان «هكسلى» فى تشاؤمه هذا كله ليس على حق ، ومع ذلك فان لقصته هذه قيمتها ، كتحذير رهيب ، للذين يمهدون للحرب ، أو يتصورونها حلا لمشاكل البشر . . .

***

يقول « هكسلى » :

فى اليوم الذى قتل فيه غاندى ، كنت جالسا مع

زميلى بوب فى حجرتنا المشتركة ، بالشركة السينمائية التى نعمل فيها . وكان بوب قلقا ساخطا ، لا لمصرع غاندي ــ الرجل الذى دعا الى السلام وآمن بالانسان فلم نكتف بطرح الثقة بمبادئه بل قتلناه أيضا ــ لم يكن بوب قلقا ساخطا لهذا السبب ، بل لأن عشيقته الجميلة تريد منه أن يطلق زوجته ويتزوجها .. وزوجته تأبى عليه الطلاق .. والعشيقة تهدد بالقطيعة ، وقد بدأت تظهر فى الحانات مع مليونير برازيلى صامت .. وهو لايدرى ماذا يصنع !

وكنت أحاول أن أحدث صديقى عن المأساة الكامنة فى مصرع غاندى ، وأبرز ذلك بأنه آمن بالانسان نفسه ، لا بالعلم والقوة وغير ذلك ، وبأنه مضى يفتش عن الجوهر ، عن النور الداخلى ، لا عن الاردية الخارجية .. ولكنه لم يكن يستمع الى ، ماضيا فى حديثه عن عشيقته .. بل وعن سخطه علي «لورلوبين» الرجل صاحب الشركة السينمائية الضخمة التى نعمل فيها ككتاب سيناريو .. فقد ذهب بوب اليه وطلب زيادة مرتبه . ونظر اليه الرجل الضخم الثرى من وراء مكتبه وقال :

ــ لو هبط هنا المسيح نفسه .. فلن أرفع أجرك دولارا واحدا !..

واخذت اتخيل تلك الصورة البديعة : المسيح هابط أمام مكتب « لورلوبين » على رأسه هالة من النور ، وقد ضم يديه فى دعة ، يستعطف الرجل فى زيادة مرتب كاتب السيناريو .. وكيف أن المسيح سينصرف بعد ذلك آسفا ، يلفه ظلام الرجاء المرفوض !

وصاح بوب : اذا كنت قد شربت قهوتك .. فلنخرج

وخرجنا من المكتب ، مارين فى فناء الأستديو بالديكورات ، والابنية الزائفة ، والستائر والمناظر ..

حتى اقتربنا من باب الخروج ..
وكنت تائه الذهن أفكر في غاندى الذى قتل .. حين جذبنى بوب من ذراعى فجأة .. فأنقـذنى من الوقوع تحت سـيارة نقل ضخمة كانت تعبر الباب . وكانت السيارة تسير بسرعة ، وقد تكدسـت فوقهـا آلاف المخطوطات .. وهى قصص الافلام التى يرسلها الهواة والمغمورون كل يوم الى الشركة .. وكانت السيـارة تحملها الى حيث تحرق ويتخلصون منها ..

وصاح بوب : فى هذه السيارة أدب بمليون دولار !
وانحنى يجمع بعض المخطوطات التى وقعت منها ، يتصفحها . واستوقفنى مخطوط له عنوان غريب .. وقلبت الغلاف ، فوجدت فى أول صفحة منه شـعرا غريبا ، حزينا ، رائعا ، مطلعه :
الانسان .. يختار الوسائل فقط ..
أما الغايات ، فتختارها القرود !
وعدت الى الغلاف أقرأ اسم صاحب هذا السيناريو .. « وليم طاليس » كوتنوود ، كاليفورنيا ».. وقررت أن أذهب لمقابلة هذا الرجل الغريب ..

وركبت السيارة مع بوب الى تلك الضاحية النائية ، رفعتنا الهضاب وخفضتنا الوهاد ، حتى عثرنا على بيت غريب منفرد ، على ربوة مشجرة.. طرقنا بابه وسألنا : مستر طاليس هنا ؟
فأجابتنا سيدة عجوز : لقد ذهب منذ أسابيع ..
ـ ذهب .. الى أين ؟..
ـ الى هناك !
وأشارت الى قبر منعزل فريد ، تحت شجرة ضخمة تقوم وحيدة فى السهل المنبسط ، ولما أردنا أن ننصرف ، أصرت السيدة على أن ندخل ونجلس ، وطفقت تحدثنا

فى أسىعن مسترطاليس ، وطيبته ، وشذوذه ، ووحدته القاسية التى كان يعيش فيها ، مفكرا فى أشياء غريبة.. وكان قد استأجر منها هذا البيت لمدة سنة ، ودفع لها الايجار مقدما.. غير انها جاءت ذات يوم تحمل اللبن.. فوجدته فى الحمام ، جثة هامدة عارية وقد أوصى بالا يدفن فى مقابر المدينة ، واختار ذلك القبر الوحيد تحت الشجرة المنعزلة .

وسألتها : هل كان مستر طاليس مريضا ؟

فقالت : كلا .. لم يكن مريضا قط . وان كان يشكو من تعب فى القلب .

وأخبرتنا السيدة بمعلومات أخرى عن الرجل ، فقد مات فىالسادسة والستين ، وهى تعلم انه كتب سيناريو وأرسله الى احدى الشركات السينمائية ، ليحصل على بعض المال .

— لم يكن يريد المال لنفسه . بل كان يريد أن يرسله الى أوروبا ، فقد تزوج مستر طاليس من فتاة المانية قبل الحرب الاولى وأنجب منها طفلا ، وعاد الى أمريكا وقامت الحرب ، واليوم لم يبق له الا حفيدة على قيد الحياة هناك . كان يريد أن يرسل لها بعض المال ..

وذكرت صفحات كتبها طاليس فى السيناريو الذى معى .. عن البنات اللواتى يبعن انفسهن بعد الحرب من أجل قطعة شيكولاتة ، أو شريحة خبز ..

ترى فيم كان يفكر هذا الرجل طاليس ؟.. لايدلنا على ذلك غير مخطوطه الذى وجدناه مصادفة يقع بين المهملات فى الاستديو.. وهو سيناريو لفيلم تقع حوادثه فى سنة ٢١٨٠ ..

وهذا هو المخطوط :

أولُ منظر يظهر على الشاشة ، بحر واسع مضطرب

هو المحيط الهادى ، وعند الافق البعيد يلوح شــاطىء صامت مهجور لا معالم له ، هو شاطىء كاليفورنيا .. وثمة سفينة صغيرة ، تحمل علم نيوزيلندا ، تقترب فى بطء ..

واليوم يوم ١٢ فبراير سنة ٢١٨٠ وهؤلاء الرجال والنساء الواقفون على ظهر السفينة يتطلعون هم جماعة من العلماء والمستكشفين النيوزيلنديين فان نيوزيلندا ، حين نشبت الحرب العالمية الثالثة ، قررت أن تعتزل العالم لتنجو من شرور القنابل الذرية وأشــعة الموت وحرب الميكروبات .. واعتزلت العالم مائة سنة كاملة. لايدخلها انسان ولايخرج منها انسان . وفى تلك الاثناء كانت الحرب العالمية الثالثة تدمر العالم الخارجى تدميرا شاملا .. حتى كانت سنة ٢١٨٠ فقررت نيوزيلندا أن تخرج من عزلتها ، وارسلت على هذه السفينة أول بعثة من المستكشفين ، ليكتشفوا أمريكا من الغرب هــذه المرة لا من الشرق كما فعل كولومبس .

وفى ذلك الوقت كله ، وفى جانب آخر من العالم ، هو وسط افريقيا خرجتجماعة أخرى منالسود الذين نجوا من شرور الحرب أيضا يستكشفون نهر النيل ، من الجنوب الى الشمال هذه المرة .

واقتربت الباخرة النيوزيلندية من الشاطىء الخاوي .. وصاح رجل من الواقفين على سطحها : انظروا هذا هيكل حديدى قائم !.. كانت هنا آبار زيت !

فقال عالم جيولوجى من أعضاء البعثة : اذن فهذه المنطقة لم يحدث فيها أي انفجار ذري .

قال عالم الطبيعة : لايلزم حدوث انفجار ذرى لافناء الحياة .. يكفى أن يكونوا قد استعملوا اشعة الموت !

قال عالم الاحياء : بل ان الميكروبات التى استعملت

كان لها ولاشك النصيب الاكبر فى افناء العالم .

فقال العالم النفسانى : ان التأثيرات النفسية قد أدت مهمة الميكروبات الفاتكة فى حالات كثيرة .. فها هى الدعاية المتصلة فى الصحف والراديو ، ترفع الضغط العصبى عند الناس ، وتبث فيهم خوفا فظيعا ، خوفا هائلا ، خوفا مركبا .. فينطلقون أفواجا الى الانهار والبحار ينتحرون فيها بالجملة ويقتلون بعضهم بعضا ، وينهبون لغير غرض .. قد أصابهم مس من الجنون .. ألم يحدث ذلك فى نيويورك وبوسطن ولنـدن وباريس وكييف؟.. ان الحب يطرد الخوف ولكن الخوف لايطرد الحب فقط ، بل يطرد أيضا العقـل والتفكير السليم والثقة والخير .. ازرع الخوف بين الناس ينهار كل شىء !

وتلقى الباخرة مراسيها على الشـاطىء الساكن ، وينزل العلماء والمستكشفون الى الارض، ويهرعون جميعا الى الهيكل الحديدى القائم على تل بعيد .. فى حين يتخلف عنهم عالم النبات المشهور « الدكتور بول » اذ لفتت نظره بعض نباتات متحجرة ، فهو ينصرف الى فحصها .. والدكتور بول عالم مشهور ولكنه فى سن الشباب .. جميل الصورة ، تلاحقه آنسة تدعى «مس هوك» وهى عالمة فى النبات مثله ومساعدة له .. ومن الواضح انها تنصب شـباكها حوله .. وهو يحترمها ويقدرها بغير شك .. ولـكنه لا يتصور أبدا أن تغدو زوجة له ..

ويتغير المنظر على الشاشة ، وتتجول بنا «الكاميرا» فى ذلك الوادى الذى كانت تقع فيه مدن كاليفورنيا . وهوليوود .. ولوس انجلوس .. هـذه المدن الزاخرة قد تركتها الحرب الذرية الثالثة أطلالا خاوية ، وأكواما

من الجثث والجماجم والحجارة ..

وفى خرابة واسعة بجوار احدى هذه المدن ترى أول جماعة بشرية تسكن المنطقة وتهبط الكاميرا اليها .. أربعة رجال وامرأتان ، فى أسمال بدائية قذرة بالية ، لحاهم طويلة وشعورهم مرسلة وأظافرهم طويلة هائلة .. وعلى ظهورهم وصدورهم نقشت فوق الثياب بحروف ضخمة كلمة « لا » ، وهم جميعا يحفرون بهمة بعض المقابر القديمة وينبشونها بينما جلس رئيسهم يرقبهم وينظف أظافره بأسنانه .

ويعثر الحاضرون على تابوت يفتحونه ويخرجون منه جثة ملفوفة فى أكفانها ويرتفع صوت الرئيس وهو يقضم اظافره ، يسألهم :

ـ رجل أم امرأة ؟

كان رجلا ، ويبدو انه كان من الاثرياء ايضا ، ويمضى الحافرون يجردونه من القماش المتكفن به ، ومن بعض الخواتم الذهبية التى تزين أصابعه .. ويحاول أحد الرجال أن يخفى فى ثيابه خاتما منها ، ويلمحه الرئيس ، فيضربه بالسوط الذى فى يده ضربة قاسية ، تسقط الخاتم من يد الرجل .. ويقول :

ـ ستجلد ٢٥ جلدة .

ـ سيدى ..

ـ هذا هو القانون .. فكل محاولة لسرقة مال الجماعة يعاقب عليها بخمسة وعشرين جلدة .

وهم معذورون . فهم لم يعودوا يملكون آلات للصناعة ، ولا فحما يخرج البخار ولا كهرباء لتوليد القوى .. ولا أي مادة صالحة من المواد الخام .. فلا مفر لهم من الاعتماد الى حد كبير على المقابر القديمة ينبشونها ويستخرجون منها كل ذى قيمة .

ويدير الرئيس وجهه على وقع أقدام آتية تسرع ، فيرى اثنين آخرين من رجاله يقبضان على رجل نظيف ، حليق .. غريب الشكل .. ويدفعانه الى الارض أمام الرئيس .. انه الدكتور بول قد ابتعد عن زملائه دون أن يشعر فعثر عليه هذان الرجلان وأمسكا به وقيداه وقاداه الى هنا .

وعجب الرئيس لمنظر هـذا الرجـل .. ومد يده يتحسس بها ذقنه الحليقة وسأل :

ـ أتتحدث الانجليزية ؟

ـ نعم ..

ـ حسنا .. فكوا قيده .. من أين جئت ؟

ـ من نيوزيلندا ..

ـ نيوزيلندا ؟.. أبعيد هذا المـكان ؟

ـ جدا ..

كان صـوت الدكتور بول يخرج خافتا متحشرجا ، وقد جف حلقه .

ـ هل جئت على سفينة كبيرة ؟ لها شراع ؟

ـ كلا .. لقد جئت على باخرة ..

ولمع وجه الرئيس ... باخرة ؟..

تعنى انه ما زالت لديكم بواخر ؟ أتعنى انه تركها لكم

ـ من تركها ؟

ـ الشيطان ..

وكان الرئيس يشير على رأسه بهيئة قرنين ، ولم يفهم الدكتور بول شيئا وانطلق الرئيس يوضح الأمر :

ـ نعم .. فقد أصبح الشيطان سيد كل شيء ، بعد أن كسب المعركة حين صنع الانسان كل هذا ..

وكان يشير بيديه الى السهل المترامى من الخرائب والاطلال والحجارة ، حيث كانت فيما مضى .. لوس انجلوس ..

وأدرك الدكتور بول ما يعنى الرجل ، فقال :
ـ آه .. انت تعنى الحرب العالمية الثالثة .. كلا ، لقد كنا محظوظين فخرجنا منها دون خدش واحد .. فان موقعنا الجغرافى البعيد لم تكن له أي أهمية استراتيجية بالنسبة لكم ..
وقاطعه الرئيس : أما زالت عندكم قطارات ؟
ـ طبعا ..
ـ والآلات ما زالت تعمل ؟
ـ طبعا ... وقد كنت أقول ...
ولكن الرئيس لم يستمع بل صفق بيديه فى جذل ، ثم ربت على كتف الدكتور :
ـ اذن فسوف تساعدنا على اعادتها هنا كما كانت.. سيكون عندنا قطارات .. قطارات حقيقية ..
وفى غمرة حماسته هجم على الدكتور بول يقبله والدكتور يرتجف من قذارته .
ـ ولكننى لست مهندسا .. أنا عالم نبات ..
ـ ماذا ..؟
ـ عالم النبات هو الرجل الذى يعرف كيف يستنبت الزرع ..
ـ والآلات ؟..
ـ اننى لا أعرف الفرق بين الآلة البخارية والديزل..
ـ اذن فلن تستطيع أن تصنع قطارات ..
ـ مستحيل ..
ورفع الرئيس قدمه فى غضب .. ورفس الدكتور بول رفسة ألقته على الارض .. وحين كان الدكتور ينهض وينفض التراب عن ثيابه ، كان الرئيس يصيح فى غضب : ادفنوه !
وصاحت واحدة منهم : حيا أو ميتا ؟

ـ حيا ..

وهجموا عليـه ، يضـعونه فى احـدى الحفر وهم يضحكون ، بينما كان واحد يهيل التراب فى الحفرة .. حتى دفن نصفه تقريبا عدا فتـاة واحدة كانت تقف محتجة علىذلك.. وكانالدكتور بول يصيح فىالرئيس :

ـ الرحمة .. الرحمة !.. اننى أستطيع أن انفعكم .. أستطيع أن أعلمكم الزراعة .. وأضاعف لكم الطعام

واستوقفت هذه الجملة الاخيرة رئيس الجماعة ..

ـ تضاعف لنا الطعام ؟

ـ نعم .. أقسم بالله ..

ـ لا نعرف الله .. هذا تقسم به فى نيوزيلندا ... عليك أن تقسم باسم «بلّيال» ، وبليال هو اسم الشيطان فى الجحيم الذى صوره « ملتون » ..

فصاح الدكتور بول قائلا :

ـ أقسم ببليال العظيم !..

وأمر الرئيس به فأخرجوه .. وتقدمت منه الفتاة التى كانت تقف معترضة فأعطته جرعة ماء من زجاجة. وأصدر الرئيس الأمر بالذهاب الى مركز الرئاسة العليا

وسار الجمع فى طابور .. وتلفت الدكتور بولحوله ، فرأى انهم يسيرون فى أطلال مدينـة هائلة .. طرقات غطتها كثبانالرمل والتراب.. أكوام هائلة منالحجارة.. هياكل مزعزعة منهارة لمبان ضخمة كانت تقوم ها هنا يوما .. لا شىء أخضر على الاطلاق.. آلاف الآلاف من الجماهير والعظام البشرية ملقاة كالحجارة فى كل مكان لا تثير انتباه أحد ..

وفى أثناء الطريقاقتربت منه تلك الفتاة ، وقالت له :

ـ اسمى لولا .. ما اسمك ؟

ـ الفريد بول ..

ـ سأدعوك آلن .. انى أكره هـذه القبور ، على العكس من الآخرين ..

ـ يسرنى أن أسمع ذلك .

وأخذ بول يتأملها .. فاذا بها فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها على الاكثر ، حمراء الشعر ، دقيقة الحجم ، رائعة الجمال .. هى نموذج الزوجة التى يريدها .. لا عقل ولا ذكاء ، بل أنوثة وعواطف طيبة ساذجة .. ولكن هذه الاسمال التى تلبسها ، والاظافر القذرة ، وهؤلاء الوحوش الذين يحيطون بها ؟..

وتحدث بول مع لولا طول الطريق .. وعرف منها أشياء كثيرة فظيعة عن هذه الجماعة التى تعيش فيها .. فهى واحدة من الجماعات التى تخلفت عن الحرب العالمية الثالثة التى أهلكت كل شىء .. تتكون من بضعة آلاف من الرجال والنساء .. وهم اذ رأوا « الشيطان » ينتصر هذا الانتصار الباهر على الانسان وعلى قوى الخير ، عبدوه ، وسموه «بليال» ، والاله «بليال» يحرم اتصال الرجل بالمرأة وتكوين أسرة .. ذلك لأن أسلافهم الذين تعرضوا لأشعة الذرة ولم تقتلهم ، اثرت فيهم هـذه الأشعة القاتلة ، فى أجهزتهم الحيوية .. فأصبحت النساء يلدن أطفالا مشوهين .. بقدم واحدة ، أو بثلاث أقدام ، أو بأربعة عشر اصبعا .. وهكذا .. ودين «بليال» يقضى بقتل من يولد من الاطفال المشوهين وحلق شعور أمهاتهم عقابا .. فالمرأة تخشى لذلك أن تتصل برجل ! وقد كتبوا على ظهورهم كلمة « لا » لتذكرهم دائما بذلك !

ولكن الشيطان إله الشر ، يرغمهم على إتيان الشر والاتصال ، فهم كمجتمع القرود.. لا أسرة ولا أزواج.. الجميع للجميع ..

وارتجف الدكتور بول من هول ما سمع ، وكانت لولا قد وقعت فى قلبه ، فبدا يتأملها فى شغف .. وفهمت هى بغريزتها ، وقد شعرت فجأة انها أيضا تحبه .. ولكنها لا تعرف ما ينتظرها ، فهى تصرخ فجأة ، مبتعدة عنه : لا .. لا .. لن أنجب طفلا ! لن يقتلوه !

وفرت هاربة ، وعلى ظهرها تسطع كلمة « لا » !

ووصلوا الى قلب المدينة ، وكان ثمة جزار ينفض يده من دم ثور بعد أن ذبحه ، وقد فتح باب فرن كبير مشتعل لانضاجه ، ولمح بول بعض الرجال يذهبون الى بقايا بناء ضخم قريب ، كان فيما مضى دار الكتب العامة بالمدينة ، ويعودون بأكداس من الكتب والمجلدات والمخطوطات ، يضعونها وقودا للنار !

ولم يطق الدكتور بول ، وهو الاستاذ العالم ، هذا المنظر.. وكان احراق التراث الفكرى العظيم أبشع فى عينيه من كل ما رأى فصاح :

ــ هذا فظيع ! ألا تقرأون ؟.. ألا تتعلمون ؟

فقال الرئيس باسما : كلا .. اننا لانريدها ، اننا لا نتعلم غير كلمة واحدة ، هى هذه ..
وأشار الى كلمة « لا » المنقوشة على ظهور الرجال والنساء !

وسقط من احد الحمالين كتاب صغير ، التقطه الدكتور بول فاذا به ديوان شعر «شيلى» .. فدسه فى جيبه !
ورأى فى ناحية النساء الخاطئات يحملن المشوهين

وقد حلقت شعورهن وسأل فأخبروه ان الليلة ليلة « بليال » .. اذ يقوم الاسقف بقتل كل هؤلاء الاطفال المشوهين .

وفى الليل وقف يشهد الاحتفال فرأى رئيس الاساقفة على منصة عالية تتقدم الأم اليها تحمل طفلها باكية فيمسكه الاسقف من رقبته ويذبحه ذبح الشاة ، ويلقيه فى جب خلفه .. وتسقط الأم صارخة باكية بلا جدوى والحاضرون يرددون نشيدا دمويا رهيبا .

ونظر بول الى الاطفال وهم يذبحون .. والنشيد الرهيب ، وصراخ الأمهات وصيحات الاطفال .. وسقط مغشيا عليه ، وقد أطلق صرخة هائلة .

واستيقظ بعد وقت لا يدريه ، على الماء البارد يسكبونه على رأسه والصفعات تنهال على وجهه .. فاذا به يرقد فى حجرة رئيس الاساقفة .. وقد اقبل عليه هذا الاخير باسما ، وأمر له بالطعام فأحضروا له طعاما بدائيا وادوات مائدة فضية فاخرة ، مما وجدوه بين الاطلال من آثار الحضارة الدارسة ..

وكان رئيس الاساقفة رجلا ذكيا . أخذ يتحدث مع الدكتور بول وجرهما النقاش الى هذا الدين الجديد ، وكيف أدى اليه سلوك البشر فى تاريخهم السابق على ظهورهم .

ــ ان « الشيطان » أدخل فى رأس الانسان فكرتين كان فيهما القضاء المبرم عليه ، هما : التقدم والوطنية .. آمن البشر بالتقدم ، فصنعوا الآلات بأمر الشيطان .. وظلت الصناعة تتقدم والزراعة تجف وتنضب واعتمد العالم زمنا على استيراد الطعام من العالم الجديد

.. ثم جاء دور هذا العالم الجديد : الصناعة تتقدم أيضا والزراعة تجف وتنضب .. وصار الناس فى عالم غريب ، يتوفر فيه الراديو والقطار والطائرة .. ولا يوجد فيه طعام . وأحس مئات الملايين بالجوع الفظيع .. الجوع المركب .. الجوع الشامل .. والجوع يؤدى الى الحرب ، والحرب تؤدى الى الجوع ..

كذلك آمن الناس بالوطنية ، وظن كل واحد ان وطنه هو المقدس ولا شيء سواه .. انظر كيف أسكن الشيطان هذا الضلال فى رؤوس الساسة : المانيا وروسيا تتفقان على بولندا ، فاذا فنيت تحاربا وجها لوجه .. هتلر يقذف لندن بالقنابل ليدمرها ، وكذلك يفعل الانجليز فى برلين . كان هتلر يعلم النهاية . فلماذا أقدم عليها ؟ لأن « الشيطان » فيه أرغمه على ذلك . فاذا اقتربت النهاية ردد تشرشل كلمة هائلة ، التسليم بلا قيد أو شرط ! فتكون النتيجة أن يجوع الالمان ، وتبيع الالمانية نفسها نظير قطعة من الشيكولاتة !

وسأله بول : واذا كنتم تعرفون ان الشيطان شرير هكذا ، فلماذا عبدتموه ؟..

ــ لأنه الأقوى ، والمنتصر !

***

ويخبو الضوء على الشاشة ، ويتغير المنظر ، وقد انتصف الليل وصعد القمر الى كبد السماء .. وبول يسير مع لولا فى سكون . وفجأة ، يبرز من بين الاطلال رجل ضخم الجثة ، ما أن يرى لولا حتى يفتح فمه وتتسع حدقتاه ، ويتقدم ، فيحمل لولا قسرا ، ويختفى بها خلف الاطلال ..

ويقفز بول وراءهما ، وقد غلى الدم فى عروقه .. ثم يتذكر فجأة فى أى مجتمع يعيش اليوم ، فهنا لايستطيع أن يستأثر بامرأة . انما هى للأقوى وينكس رأسه فى خزى عظيم ..

ويمر به رئيس الاساقفة .. فيخبره بأن أصدقاءه المستكشفين كانوا يبحثون عنه ، فطاردهم الرجال بالسهام والنبال ، فلم يجدوا بدا من أن يعودوا الى باخرتهم ، بعد أن قتل واحد منهم ، راحلين الى كاليفورنيا ..

وهكذا انقطع عن بول أمله فى العودة !

ويشرق النور على الشاشة ، ويطلع الصبح على الدكتور بول وهو راقد فى وكر بين بعض الاطلال .. وهو يستيقظ من نومه ، ويتثاءب ، ويزفر من أعماقه :

ــ يا الهى !.. يا الهى !

وغطى وجهه بيديه ..

وتظهر أمامه «لولا» كأنما نبتت فجأة .. وهى تحمل فى يدها لفافة كبيرة ، وتصيح مقبلة عليه :

ــ آلن .. لقد بحثت عنك كثيرا ..

وتجلس بجواره ..

ــ هل نمت جيدا ؟

وتخرج من اللفافة خبزا وبرتقالا ، وتقطع له قطعة من الخبز ...

ــ انت جوعان ولا شك ... بعد ما حدث بالامس .

وتغير لونه فجأة ، وقال فى صوت ملتهب : لا تتحدثى عن الامس ..

فتأملته برهة .. ثم قالت له : انك تفكر كثيرا ..

وهذا خطر عظيم . اننا لو فكرنا فى الامر لوجدناه فظيعا .. فظيعا ..

وكانت ترتجف ، وقد امتلأت عيناها بالدموع .. ونظر اليها بول فى رقة ، ثم ضمها اليه.. ورفعت عينيها اليه فى فرح وقالت :

ـ هذا ما كنت أحلم به دائما ..

ـ حقا ؟

ـ ولكنه لم يكن ممكن التحقيق أبدا .. حتى أتيت ، لكم أتمنى الا تطول لحيتك ، حتى لا تبدو كالآخرين.. ولكنك لست مثلهم أبدا ..

فضحك وقال : لست مختلفا عنهم تماما .

ومال يقبلها فى عينيها ووجنتيها وثغرها .. وقالت : نعم .. ولكن انظر .. كيف نجلس سويا .. انت وأنا ؟ نتحدث سعداء .. ليس كالآخرين ..

وفجأة تنحنى لولا على يده تقبلها ، فيسألها : ماذا ؟

فتقول له : لقد فهمت الآن معنى الحياة .

ـ وأنا أيضا !..

لقد اكتشف الاثنان سويا ، من جديد ، الحب النبيل، وما نسميه : الزواج بواحدة !..

***

وتمضى أسابيع ، ونرى الدكتور بول ، وقد طالت ذقنه وأظافره ، فأصبح كالآخرين ، ونقشت على صدره وظهره كلمة « لا » .. ونرى معه رئيس الاساقفة .

وقد عثر الدكتور بول بين أطلال المدينة الدارسة على بقايا معمل من معامل جامعة كاليفورنيا ، فنظفه وأصلح منه ما استطاع وبدأ يجرى بعض التجارب . وعين له

رئيس الاساقفة اثنين يساعدانه وقد طلبت « لولا » أن تكون بين مساعديه ، ولكن الرئيس رفض.. فان المجتمع هنا لاينظر بعين الارتياح الى الصلة التى يبدو انها تربط بينها وبين بول .. لذلك يقرر الرئيس ارسال « لولا » مع فرق نبش القبور لابعادها عنه ...

وتنصرف لولا الى عملها .. ويقترح رئيس الاساقفة على بول أن ينضم الى دينهم ، ويعبد « بليال » مثلهم .. فيطلب بول مهلة اربعة أسابيع ، يفكر فيها فى الأمر .

***

وتمر الاسابيع الاربعة بسرعة ، ونرى « بول » فيما يشبه حديقة صغيرة يجرب فيها زراعة الطماطم. ويخرج «بول» من الحديقة وهو يصفر ويتمتم بأبيات من شعر « شيللى » .

وسار بين اطلال المدينة ، والسكون هائل راسخ .. سكون مدينة كان يسكنها ثلاثة ملايين نسمة ، اصبحت تضم ثلاثة ملايين جثة وبضعة آلاف فقط من الاحياء .. وهذه الخرائب والاطلال والهياكل المصدوعة .. وشعر « بول » بشعور غامض من ... السعادة !..

السعادة ؟.. الم يحطمها الانسان هنا منذ سنوات ؟ بلى .. ولكنها طبيعة الانسان المتفائلة ، التى استعاض بها عن طبائع القرود : من الحقد والخوف والنزاع الدائم

ودخل « بول » بقايا بناء ضخم .. فلاحظ انه كان « جاراجا » للمدينـــة .. وقصـــد الى بقايا سيارة «شيفروليه» ذات أربعة أبواب ، ملقاة أمامها جمجمتان لرجل وطفل.. وفتح أبواب السيارة الممزقة ونادى :

ــ لولا ..

ودخل وجلس بجوارها . وهم بضمها الى صدره فأبت ، وقالت فى حزن :

ـ اننا نرتكب خطيئة ..

ـ كيف ؟..

ـ انه لايريد .. وهو قادر على الانتقام من العصاة .. الشيطان !..

ـ ولكنك لست مثلهم .. فأنت ما تزال فيك مشاعر البشر واحاسيسهم .. شكرا لله .

ـ الشيطان سينتقم منا .

ـ لن يستطيع ..

ـ ماذا ؟.. انه استطاع فعلا .. ألم ينتصر ؟

ـ انتصر لأن الناس ساعدوه على النصر ، وما كان لهم أن يساعدوه .. انه قد يحطم كل شيء .. حتى يحطم نفسه .. ثم تطفو الفضائل أخيرا على السطح .

ـ هذا مستقبل بعيد جدا ...

ـ بعيد للعالم .. ولكنه قريب بالنسبة لأثنين .. لزوجين .. لى ولك .. ومهما صنع الشيطان ، فعلينا أن نعود الى طبائعنا .. الى حقيقتنا .

ويتبادلان قبلة طويلة .

ويعود المنظر الى معمل الدكتور بول ، ورئيس الاساقفة يبحث عنه .. وقد تبين انه هرب ، فيطلق الجنود فى أثره .

وتنتقل بنا الكاميرا أخيرا الى جبل هائل ، يتسلق سفحه لولا وبول ، وكل منهما يحمل على ظهره لفافة ضخمة .. ويقفان بعد سير طويل ، ويبسط بول خريطة كبيرة يتأملها ثم يقول :

ـ بقى امامنا ٨ ساعات سيرا على الاقدام ثم نصل الى غايتنا .. انهم يستقبلون الهاربين هناك استقبالا حسنا .

وتبتسم «لولا» وتخرج من لفافتها برتقالا وخبزا.. ثم تقول فجأة : انظر .

وينظر الى حيث تشير ، فيلمح فى قلب الوادى شجرة ضخمة وحيدة ، قد تعرت من أوراقها ولكنها ما تزال قائمة شامخة .. وتحتها قبر وحيد .

وينطلقان الى القبر يفحصانه ، ويقرآن عليه الأبيات الآتية :

وليم طاليس ١٨٨٢ ــ ١٩٤٨
لماذا تتردد وترتجف ، وتتلفت الى الوراء أيها القلب؟
لقد ذهبت الآمال ، مع كل ما ذهب .
لقد ذهبت ، وآن لك أن تذهب !

قالت لولا : يبدو انه كان رجلا حزينا ..
وناولت بول قطعة خبز ، أخذ يقضمها فى سكون .

ديجول ووحدة الغرب

بينما كان العالم مشغولا بمتابعة أنباء الخلاف الضخم التاريخى بين الاتحاد السوفييتى والصين ، داخل المعسكر الشرقى ، فوجىء بانفجار خلاف آخر لايقل عنه من حيث خطره ومغزاه التاريخى وهو الخلاف الذى فجره ديجول، برفضه دخول انجلترا السوق المشتركة . ورفضه لمشروع الدفاع الذرى الموحد للغرب ، وبتوقيعه معاهدة عميقة الأثر مع المانيا .

ومن المراقبين من يعتقدون ان هناك صلة قوية بين خلاف روسيا والصين ، وبين هذا الخلاف بين ديجول وانجلترا وأمريكا ، أو هذا الخلاف بين «أوروبا» وبين « الانجلوسكسون » كما يحب ديجول أن يسميه . والصلة هنا ليس معناها ان الخلافين متشابهان أو انهما يرجعان الى أسباب واحدة . ولكن الصلة معناها أن «الطقس» العالمى الذى أنتجهما هو طقس واحد . ففى الخلاف الاول تتمرد الصين على قيادة روسيا للمعسكر الشرقى وعلى طريقتها فى ادارة الحرب الباردة ، والاستعداد لاحتمالات الحرب الساخنة . وفى الخلاف الثانى تتمرد فرنسا على قيادة أمريكا للمعسكر الغربى وعلى طريقتها فى ادارة الحرب الباردة والاستعداد لاحتمالات الحرب الساخنة .. والغريب انه قبل ذلك كان ديجول معارضا

فى فكرة عقد مؤتمرات للأقطاب تماما مثل ماوتسى تونج!
وكان ديجول معارضا فى عقد مؤتمرات نزع السلاح .
الى حد انه رفض حضورها بتاتا ، تماما مثل ماوتسى تونج !

وأمريكا عندما تريد أن تغيظ روسيا تقول انها لن توقع معها اتفاقا بنزع الاسلحة الذرية الا اذا اشتركت فيه الصين .. ومنذ أيام أرادت روسيا أن تغيظ أمريكا وتعزز موقف ديجول فقالت انها لن توقع مع أمريكا اتفاقا على نزع الاسلحة الذرية الا اذا وقعته معها فرنسا!

ومن بين الانتقادات الاساسية التى توجهها الصين الى روسيا ـ خطأ أو صوابا ـ ان روسيا فى رسمها لاستراتيجية المعسكر الشرقى انما تراعى مصالح «روسيا» قبل مصالح المعسكر الشرقى بأكمله .. كما ان ديجول يتهم أمريكا بأنها تراعى مصالح أمريكا قبل مصالح المعسكر الغربى بأكمله !

والمقارنات دائما خطرة ، لأنها تضلل المرء أحيانا عن الفروق الجوهرية الاساسية . فالصين من حيث المبدأ تؤمن بضرورة وحدة المعسكر الشرقى وضرورة قيادة الاتحاد السوفيتى له ، ولكنها تعترض على سياسة الاتحاد السوفيتى ذاتها . أما ديجول فخلافه له شكل عكسى : فهو لايؤمن بوحدة المعسكر الغربى من حيث المبدأ ، بل يؤمن بضرورة انقسامه الى قوتين منفصلتين، وبعد ذلك يصبح الخلاف قليلا على الاستراتيجية السياسية العامة .

ولكن النتيجة واحدة ..

النتيجة هى ان الزعامة المطلقة للدولتين الكبيرتين ـ

روسيا وامريكا ــ داخل معسكريهما ، تتعرض لمحنة شديدة . وقد تحدث بعض النواب الفرنسيين فى البرلمان فقالوا : ان المعسكر الشيوعى الآن يفكر فى الأخذ بمبدأ « تعدد المراكز » فلماذا لا يحدث مثل هذا فى المعسكر الغربى ؟.. واذا كان كنيدى يرفض تعدد المراكز داخل معسكره ، فما الفرق اذن بينه وبين خروشوف ؟..

بل ان ديجول نفسه يرى الصلة بين هذين الخلافين الروسى الصينى والفرنسى الامريكى أشــد مما يراها سواه . فهو حين يتحدث عن أوروبا فى المستقبل البعيد يقول : « من الاطلنطى الى جبال الأورال » أى ان أوروبا فى رأيه تضم روسيا . ويتحدث عن ساعة تصبح فيها أوروبا هذه التى تمتد من الاطلنطى الى الأورال عازلا بين قوتين أخريين : الصين فى الشرق ، وأمريكا فى الغرب !

وهذه هى النظرة اليمينية المتطرفة ، التى ترى أن التاريخ يحركه صراع القوميات الـكبرى ، فى حين أن اليسارالمتطرف فىنفسالوقت يعود الى النبوءة الماركسية الاولى ، وهى : حتميـــة الصراع حتى المــوت بين الدول الرأسمالية . بل ونبوءة ستالين التى أطلقها قبل موته بقليل من أن الحرب قد تقع بين الدول الرأسمالية وبعضها وليس بينها وبين الدول الشيوعية ، وذلك بحكم الصراع الرأسمالى المحتومعلىالمصالح الاقتصادية. يعزز رأيهم هذا وجود متناقضات اقتصادية حادة وراء هذه الأزمة العنيفة داخل المعسكر الغربى .. وأن كانت مختلطة بخلافات أخرى أشد حول الدفاع ، والحرب الباردة ، وما الى ذلك ..

وننظر بعد ذلك الى قضية اليوم ، قضية التصــدع

التاريخي في المعسكر الغربي .. وهو التصدع الذي فجرته قضية دخول انجلترا أو عدم دخولها في السوق الأوروبية المشتركة ..

واكبر مايضللنا في فهم المشكلة هو هذا الاسم «السوق الاوروبية المشتركة » لانه يعطي احساسا بأن المسألة كلها تجارية . وهو احساس غير صحيح ، عبر عنه رئيس منظمة السوق حين قال : « نحن رجال سياسة ولسنا رجال أعمال » أما الاسم الصحيح الذي يستوعب ابعاد هذا الكيان الجديد ويساعدنا على فهم طبيعته فهو: الوحدة الاوروبية .

ان الوحدة الاوروبية ليست اختراعا جديدا. فبالرغم من انه لا توجد قارة مزقتها حروب أبنائها كالقارة الاوروبية .. فان فكرة الوحدة الاوروبية كانت تبرق من حين لآخر ، في رأس فيلسوف أو في رأس قائد طموح .

ودائما ، كانت هذه الفكرة تبزغ ، حين يكون هناك تحد خارجي .

في نهايات الامبراطورية الرومانية ، حاولت أوروبا أن تحتفظ بوحدتها في ظل هذه الامبراطورية ، ازاء موجات الغزو الخارجي ، ولكن عوامل التحلل والفناء كانت أقوى ، فتحللت الامبراطورية الى عناصر مختلفة ، هي بذور القوميات الحالية في أوروبا ..

وفي سنة ٨٠٠ بعد الميلاد بعد ١٤ سنة من جلوس هارون الرشيد على عرش الامبراطورية الاسلامية في بغداد توج شارلمان الفرنسي نفسه امبراطورا على أوروبا ، بعد سنوات قليلة من نجاح سلفه شارل مارتل في وقف زحف الموجة الاسلامية عند «تور» في جنوب فرنسا . وسمت أوروبا الوحدة نفسها باسم الامبراطورية الرومانية

المقدسة ، وكان « بابا » روما هو الذى توج شارلمان ، ارتباطا بالماضى السحيق .

وبعد ألف سنة كاملة ، فى سنة ١٨٠٠ بعد الميلاد .. استحضر نابليون « بابا » روما الى باريس ليتوجه امبراطورا بعد أن دانت له أوروبا كلها ، وعينه على تجربة شارلمان .

ويومها كانت الفكرة الدينية قد شحبت وبدأت الفكرة القومية فى البزوغ ، وأصبحت السياسة أكثر حرصا على استقلالها عن الدين : ففى سنة ٨٠٠ كان البابا هو الذى فاجأ شارلمان بأن وضع على رأسه تاج الامبراطورية .. أما فى سنة ١٨٠٠ فقد فاجأ نابليون البابا ساعة التتويج بأن أخذ التاج من يد البابا ووضعه بنفسه على رأسه ، متوجا نفسه بنفسه اشارة الى التغير الذى طرأ خلال ألف سنة فى علاقات القوى بين رجل الدين ورجل الدولة .

وفى سهرة تالية ، اعترف نابليون لوزير داخليته «فوشيه» بقوله مبررا حروبه المتوالية : « أريد قانونا أوروبيا ومحكمة نقض أوروبية ، وعملة أوروبية موحدة ، وموازين ومقاييس واحدة ، أريد قوانين واحدة لأوروبا بأسرها . هذا ياحضرة الدوق هو ما يناسبنى » .

وبعد مائة وثلاثين سنة ، حاولها هتلر على صورة أخرى ، أكثر تشويها .

ولكن هذه المحاولات كلها كانت تفشل . يقول الكاتب الفرنسى الشهير « اندريه موروا » ان السبب فى فشلها هو إن كل واحد من هؤلاء حاول أن يفرض الوحدة الأوروبية بحد السيف . وأضيف الى قوله هذا ان كل

واحد من هؤلاء حاول أن يفرضها على أساس وجود عنصر أوروبى متفوق على ما عداه وان المصالح الاقتصادية التى نمت مع التطور كانت مصالح انفصالية ، لم تنشأ متكاملة ، فلم يكن أمامها الا أن تتصارع وتشتبك فى حروب دامية .. أو كما يقول اندريه موروا : « تمزق وجهها بيديها » ..

ولاشك ان ديجول أسير هذه الرؤى التاريخية المتعاقبة ، لأن كثيرين جدا فى أوروبا يرون نفس هذه الرؤى وهو اذا كان يرى أوروبا من هذه الزاوية ، فهو اذن أكثر الناس منطقية مع نفسه فى كل تصرفاته السياسية

وقد قال أحد وزرائه منذ أيام ، عن تمرد فرنسا على أمريكا « اننا نقول علنا ما يقوله غيرنا من الاوروبيين همسا ! » .

وديجول — من دراسة مؤلفاته وتصريحاته وتصرفاته — ليس الرجل الذى يرى التاريخ فى حدود عشرات قليلة من السنين ، ولكن فى نطاق عشرات من القرون الطويلة.

وهو يعتقد ان هذه الصراعات الراهنة بين النظم الاقتصادية المختلفة، كالشيوعية والاشتراكية والرأسمالية، صراعات زائلة لا تلبث أن تذهب جفاء ، وتبقى الحقائق التى يراها خالدة : صراع القوميات ، والقارات والحقائق التاريخية والجغرافية الاخرى. وهو لهذا حين يتحدث عن التحولات الكبرى لايتحدث عن أوروبا وآسيا وأمريكا، وانما يتحدث عن الجنس الابيض والجنس الاصفر ، يتحدث عن أوروبا من الاطلنطى الى الأورال ، متخطيا تقسيمها الوقتى الحالى الى شرق شيوعى وغرب رأسمالى ... يتحدث عن انجلترا فلا يرى ان النظم الاجتماعية والاقتصادية

تجمعها مع غرب أوروبا كما يرى سواه ، انما يرى أنها
ـ كما قال بالحرف الواحد ـ جزيرة ، ودولة بحرية
دائما ، لها طبيعة خاصة ، لايمكن أن تلتحم «بالقارة».
فهو يعود الى الظروف « القديمة » التى يراها خالدة .

وهو فى هذا يختلف عن نظرة خروشوف وكنيدى معا.
خروشوف الذى يرى ان هذه الاعتبارات تزول متجهة
بالعالم الى عالم شيوعى واحد ، وكنيدى الذى يرى مثل
خروشوف ان هذه الاعتبارات تزول ولـكن مع اتجاه
العالم الى مجتمع راسمالى واحد .

ان ديجول من الاوروبيين الذين يعتقدون أن أوروبا
هى خالقة هذه الحضارة العالمية . هى خالقة الصناعة
والصواريخ والراسمالية والشيوعية على السواء . وهى
قد هان أمرها وتضاءل شأنها حين اختلفت وتناحرت
وتمزقت .. مما شجع « الخارج » عليها . أو كما قال
مفكر فرنسى فى هذا المقام : « اذا تشاجر الآباء .. ساء
أدب الأبناء ! » واليوم تواجه أوروبا تحديات خارجية
خطيرة : تحديات من آسيا .. ومن أمريكا .. ومن
أفريقيا .. لابد ازاءها أن تتحـــد أوروبا .. أوروبا
الحقيقية الصافية .. لكى تعود الى ســـابق عظمتها
وسطوتها من جديد ..

وانجلترا ؟

ما دمنا فى سياق هذه الرؤى التاريخية والذكريات ،
لابد من الاشارة الى حقيقة هامة وهى : ان نزعات توحيد
أوروبا ـ بالقوة أو بالحسنى ـ كانت تنبع دائما من
القارة ، ولم يكن لها أبدا اى صدى فى «الجزر البريطانية».
على العكس كان دور انجلترا التاريخى دائما : أن تحول

دون قيام قوة كبرى فى اوروبا تستقطب حولها بقية القارة فكما كانت تقوم دولة كبرى أوروبية ، تهدد بالسيطرة على القارة ، كانت انجلترا تقوم بتجميع الدول الاخرى فى حلف يستهدف تحطيم هذه الدولة الكبرى واعادتها الى حجم أقل. هكذا حاربت انجلترا مع روسيا والمانيا ضد فرنسا وحاربت مع فرنسا وتركيا والمانيا ضد روسيا .. وحاربت مع فرنسا وروسيا ضد المانيا.

واليوم ، يوجد فى أوروبا « القارة » من يقول : ان جيوش انجلترا نزلت أرض أوروبا مرات عديدة مع هذا وضد ذاك . أما جيوش أوروبا فلم تنزل أرض انجلترا مرة واحدة. انشعوب القارة تشعر انحسابها متساو. كلها تبادلت النصر والهزيمة علىحد سواء مره بعد مرة. أما انجلترا فكانت دائما فى صف المنتصر ، لم تعرف مرارة الاحتلال . وهذا أحد أسباب كبريائها وشعورها التقليدى بالتفوق على أوروبا .

ومن التاريخ القريب الثابت أن كونراد اديناور ، بعد الحرب العالمية الاولى ، وفى سنة ١٩١٩ بالتحديد، رأى أن الحل الوحيد لأوروبا هو تفاهم وتحالف المانيا وفرنسا. ويومها استنكر مواطنوه رأيه ، وأغرقته صيحة الثأر من فرنسا فلم يرفع رأسه الا بعد كارثة ثانية سنة ١٩٤٦.

ومن التاريخ القريب الذى ان لم يكن ثابتا فانالقرائن الكثيرة ترجحه ، ان ديجول شعر بنفس هـذا الشعور حتى والمانيا تحتل فرنسا ، فى غمرة الحرب العالمية الثانية. فيومها كانت فرنسا جاثية على ركبتيها. والمانيا التى تحتل أوروبا بأكملها كالوحش الجريح المحبوس فى قفص . أوروبا الغالب والمغلوب ممزقة محطمة . وفى

الخارج أمريكا و « الجزيرة » البريطانية وروسيا ، يجتمع اقطابها ليتصرفوا فى خريطة أوروبا . وقد كانت عين روسيا مقصورة على جاراتها الملاصقات . أما «الورثة» الحقيقيون لفرنسا فقد وجدهم ديجول فى أمريكا وانجلترا. الكل يحاولون تصفية الامبراطورية المحطمة والتهامها .

ولديجول تاريخ طويل من الصراع ضد انجلترا وأمريكا فى هذا المجال خلال الحرب : انتصر حينا كما حدث حين تغلب على الجنرال جيرو الذى قيل انه رجل أمريكا فى شمال افريقيا . وهزم حينا كما حدث حين أنذره تشرشل بالانسحاب من سوريا ولبنان . ولو عدنا الى مؤتمره الصحفى الشهير الذى عقده قبل استقلال الجزائر بقليل وذكرنا اتهامه العلنى الصريح لأمريكا فى هذا المؤتمر بأنها تريد أن ترث فرنسا فى الجزائر ، لوجدنا ان هذه الرؤى لا تبرح مخيلته هو بالذات .

هذا هو بايجاز التراث التاريخى الذى قد يفيدنا فى فهم جانب من جذور الأزمة الحالية ..

ان الناس حين يسمعون أنباء انشقاق المعسكر الغربى ، والحديث عن احتمالات قيام محور باريس موسكو .. وهذه الاشياء الغريبة .. تبدو لهم لوحة السياسة الدولية وكأنها نوع من الرسم التجريدى الغامض .. أو مسرحية من مسرحيات اللامعقول . ولكننا حين نرجع الموقف الى عناصره الأساسية يتضح لنا ان هذا اللامعقول معقول جدا .. وان اللوحة التجريدية لم يرسمها «ذيل حمار » كما قال خروشوف عن الفن التجريدى ، بل رسمتها مصالح ، وتواريخ ، وجراح ، كلها عميقة الجذور فى أرض الواقع ..

بهذا التاريخ كله .. عاد ديجول الى حكم فرنسا سنة ١٩٥٨ ، ليجد ان كيانا جديدا قد بدأ ينفذ قبل ذلك بشهور ، اسمه : السوق الاوروبية المشتركة .. فكان لابد أن يرتطم القديم بالجديد، ويتفاعل معه ويؤثر فيه.

فما هو هذا الجديد ؟

ان « معاهدة روما » التى سجلت مولد السوق الاوروبية المشتركة ، والتى وقعت هى وملحقاتها سنة ١٩٥٧ ، من أكثر المعاهدات التى عرفها العالم صعوبة وتعقيدا . ذلك انها كانت أشبه بعملية هندسية تريد أن تفتح الخزانات والسدود القائمة بين ست دول ، فى حذر شديد ، حتى لا تغرق هذه المصلحة أو تلك فى طوفان مفاجىء ..

ولسنا هنا فى حاجة الى هذه التفاصيل المعقدة . يكفى الاشارة الى ملامحها العامة التى تطلعنا على أبعاد التجربة واحتمالاتها المثيرة ..

ان الدول الست المشتركة فى السوق هى : فرنسا ـ المانيا الغربية ـ ايطاليا ـ هولندا ـ بلجيكا ـ لوكسمبرج

والفكرة فى السوقأن ترفع الحواجز كلها ـ لاالحواجز الجمركية وحدها ـ بين هذه الدول الست بالتدريج ، بحيث تصبح فى تاريخ محدد قريب هو سنة ١٩٧٠ ، كيانا واحدا من الناحية الاقتصادية .

* بالتدريج .. ترفع الحواجز الجمركية على السلع التى تنتجها الدول الست .. حتى تنعدم الرسوم الجمركية تماما . فتباع المنتجات الصناعية والزراعية التى تنتجها الدول الست فى اى مكان وتنتقل من مكان الى آخر وكأنها تتحرك فى بلدها .

* وبالتدريج .. ترفع القيود المفروضة على انتقال رؤوس الأموال .. حتى يصبح المول الايطالى مثلا قادرا على أن يؤسس مشروعا فى المانيا أو فرنسا أو هولندا أو غيرها من دول السوق وكأنه فى بلده . وفى سبيل هذا تتجه القوانين المنظمة لهذا النوع من النشاط ، بما فيها الضرائب ، الى التوحيد .

* وبالتدريج .. ترفع القيود المفروضة على انتقال الأيدى العاملة . وذلك على مراحل أيضا . ففى البدء يجوز لرب العمل الفرنسى مثلا أن يقبل عاملا ايطاليا اذا خلا المكان دون أن يجد له عاملا فرنسيا لمدة كذا أسبوعا . وبعد ذلك يجوز له ذلك اذا قصرت المدة . ثم يجوز للعامل الايطالى ــ بعد مدة أخرى ــ الذى يعمل فى فرنسا ، أن ينتقل من عمل الى عمل بدون شرط هذه المدة .. وهكذا على مراحل الى أن يصبح انتقال العامل من دولة الى دولة واشتغاله بأى عمل غير مشروط بأى شرط .

* وبالتدريج .. تعمل الدول على تقريب قوانينها الخاصة بالأجور والمعاشات والتأمينات الاجتماعية والخدمات .. الى آخره . وذلك بقصد توحيد ظروف العمل من جهة ، وبقصد جعل المنافسة بين جهات الانتاج عادلة . ففرنسا مثلا تقول ان المزايا الاجتماعية التى يحصل عليها عمالها أعلى من المزايا التى يحصل عليها العامل الالمانى . ومعنى هذا ان السلعة الفرنسية تتكلف أكثر من مثيلتها الالمانية ، الأمر الذى يجعل المانيا أقدر على منافسة السلعة الفرنسية . أما اذا تعادلت الخدمات الاجتماعية وبالتالى تعادلت التكاليف فهذا

يجعل المنافسة عادلة .

* وبالتدريج .. تزداد عملية التنسيق بين القرارات الاقتصادية التى تتخذها الدول المشتركة فى السوق .

وفى هذا المجال يوجد بنك أوروبى مشترك لمساعدة المناطق الاوروبية المتخلفة عن غيرها فى هـذه الدولة أو تلك ويوجد صندوق مشترك لمواجهة حالات البطالة التى قد تظهر فجأة بسبب السوق المشتركة فى هـذه البقعة أو تلك .

* وهـذا السوق ، له أربعة أجهزة تديره وتحركه طبقا لجدول مواعيد متفق عليه فى معاهدة روما وهى :

* مجلس لوزراء يمثلون الدول الست . وهو أعلى جهاز ، ويجتمع من حين لآخر .

* مجلس أوروبى دائم ، هو أشبه بمجلس تنفيذى للسوق يباشر عمله يوما بيوم .

* محكمة أوروبية من سبعة قضـاة تقوم بتفسير الاتفاقات التى قد ينجم نزاع حول تفسيرها .

* مجلس نواب من أعضاء فى برلمانات الدول الست ، يراقب أعمال المجلس التنفيذى .

وحتى الآن ، لابد أن تصـدر القرارات الاساسية باجماع كل الدول الاعضاء ، أى ان كل دولة محتفظة حتى الآن داخل السوق بسيادتها كاملة ، لا ترتبط الا بما توافق عليه . اما ابتداء من سنة ١٩٧٠ فسوف يكفي أن يصدر القرار بالاغلبية فتخضع له كل الاعضـاء . وبذلك يختفى حق الفيتو اى ان كل دولة حينئذ تعد متنازلة عن جانب من سيادتها كدولة مستقلة لمصلحة منظمة دولية أعلى سلطة منها .

هكذا استطاع « الرأسماليون » أن يحققوا الوحدة الاوروبية التى طالما تغنى البروليتاريون الاوروبيون بأنهم هم الذين سيحققونها ، بعد القضاء على الرأسماليين .
وقد كان لهذا أثره فى ردود الفعل المختلفة يوم ولدت السوق ! اذ اعتبرتها روسيا سما قاتلا ، ونظر اليها اليسار الاوروبى فى تحفظ أقرب الى المعارضة ، ورقصت امريكا طربا وفرحا . وهذا كله قبل أن تخطر على البال الاحتمالات الجديدة التى أتى بها ديجول الى هذه السوق .
وقد قلت فى صدر هذا الحديث ان كلمة «السوق» كلمة مضللة . وان الكلمة الصحيحة هى الوحدة الاوروبية وهذا لاينفى ان الاقتصاد هو الذى يلعب الدور الاول .
ولكن الاقتصاد كان دائما مفتاح التطورات السياسية . فمؤرخو أوروبا مثلا يقولون ان ظهور السكك الحديدية ورفع الحواجز الجمركية هو الذى حقق الوحدة الالمانية ، فحولها من عشرات الامارات والولايات المستقلة الى دولة واحدة . ونفس الشىء يمكن أن يصدق على أوروبا اليوم .
فهذه الخطوات الهائلة نحو الوحدة الاقتصادية ، لابد أن تؤدى الى علاقات عضوية بين هذه الاقطار ، يجعل الوحدة السياسية بعد ذلك خطوة منطقية بل وضرورية لاكمال هذه الآثار الاقتصادية .

بهذه الوحدة الاقتصادية لابد أن تصبح للدول الست سياسة اقتصادية خارجية واحدة . وبالتالى سياسة دولية واحدة . ولابد أن تقرب بين النظم السياسية الداخلية . وكذلك ستخلق علاقات وحدة بين الحركات العمالية والاحزاب السياسية . وحيث ان الضمانات الاجتماعية يجب أن تتشابه بين هذه الدول فمعنى ذلك

ان الضغط الاجتماعي للطبقات المختلفة في بلد ما لابد أن يسمع صداه في كل البلاد .. الى آخر هذه الحلقة.

وقد نجحت السوق حتى الآن نجاحا هائلا من الناحية الاقتصادية . فبينما زاد انتاج انجلترا الصناعي مثلا من سنة ١٩٥٨ الى الآن بنسبة ١٣ ٪ نجد أن انتاج المانيا زاد في نفس المـــدة ٢٩ ٪ وفرنسا ٢١ ٪ وايطاليـا ٤٣ ٪ وهولندا ٢٩ ٪ وبلجيكا ١٧ ٪ .

أما حجم التبادل بين هذه الدول فزاد بما يقرب من ١٠٠ ٪ .

وفي نفس الوقت تفتحت الاحتمـالات السـيـاسية الاكيدة الكامنة في فكرة السوق وفي بنـائه المضوي .. بدليل هذه الازمة السياسية الطاحنة . فلو كان الأمر أمر تجارة فقط لهان الأمر ولكن الأمر ابعد من ذلك بكثير

وهنا يجيء دور انجلترا ..

أقرب الدول الخارجية الى السوق ، وأولى الدول قابلية للتأثر بها ..

كيف تلقت انجلترا هدير هـذا الحادث التاريخي الجديد ؟

في البـدء هزت انجلترا كتفيها استخفافا بالتجربة كلها . وذلك انها بدورها نظرت اليها من خلال التاريخ القديم لأوروبا فوجدت ان الصعوبات أكثر من فرص النجاح .

وأذكر انني كنت في لندن قبل توقيع معاهدة روما وسألت صحفيا انجليزيا عن رأيه في المشروع واحتمالات دخول انجلترا فيه فقال لي : مستحيل أن يقبل الشعب البريطاني هذا الدخول . ان الانجليزي العـادي يكره

الالمان ، ويحتقر الطليان ولا يثق بالفرنسيين.. فكيف تريده أن يقبل أن يذوب فيهم ؟..

يومها .. كان الانجليز هم الذين يتحدثون عن الفروق بينهم وبين أوروبا .. وهى النغمة التى يغنيها ديجول الآن ..

« نحن امة بحرية .. البحر الذى شكل تاريخنا كما لم يشكله أى عنصر آخر . هو الذى منح شعبنا صفاته فى الصبر والمغامرة والقدرة على ارتياد الآفاق المجهولة ».

« نظمنا الديمقراطية المستقرة .. انها أعرق نظم فى العالم .. انها تعطى تاريخنا منطقا خاصا .. فلم نعرف ثورات فرنسا الدامية أو دكتاتوريات المانيا المجنونة أو تطاحن الاحزاب بالعشرات كما فى سائر بلاد القارة . انهم يريدوننا ، لكى ننقل استقرارنا اليهم .. ولكن قد يحدث أن ينقلوا فوضاهم الينا .

« الكومنولث.. آخر صورة للأمبراطورية العزيزة.. الرابطة السحرية التى تعطينا أسواقا عدد سكانها يبلغ ثلاثة أضعاف سكان السوق المشتركة . انهم يريدوننا أن ننفصل عنها .. أو أن يشاركونا فيها وكلا الأمرين مستحيل » .

« سياستنا الخارجية.. انها أكثر السياسات تشعبا وتعقيدا .. ولهذا نحن فى أشد الحاجة الى أن نبقى مستقلين . كيف نحرك سياستنا ذات الدهاليز والمنحنيات اذا لزمنا أخذ الأصوات قبل كل قرار ؟

ولكن هذا الموقف أخذ يتغير شيئا فشيئا . ليس عند كل الانجليز ، اذ ما زالت قوى كبيرة فى انجلترا ترفض دخول السوق من الأساس . ولكن عند طائفة كبيرة من

القادة والرأى العام .

عنـــدما قدمت انجلترا رسميا طلب الانضـــمام الى السوق ، قال لورد هيث مندوبها الذى قدم الطلب فى خطابه الرسمى ، ان الذى جعل انجلترا تقرر دخول السوق ثلاثة اعتبارات :

الأول : رغبتها فى العمل معا مع جاراتها (كلمة انشائية!)
والثانى : ان أوروبا عليها أن تتحد أو تندثر .

والثالث : النجاح الاقتصـــادى الهائل الذى حققته السوق فى السنوات القليلة التى مضت من عمرها ..

ولكن انجلترا أرادت ان توفق بين كل المتناقضات ، وتجمع بين شتى الامتيازات ..
أرادت :

* أن تدخل السوق المشتركة ..
* أن تضمن مصالح منطقة التجارة الحرة الاوروبية.
* أن تحتفظ بعلاقاتها مع الـكومنولث .
* أن تحتفظ (بعلاقاتها الخاصة) مع أمريكا .

وهنا ارتطمت انجلترا بديجول، الذى يرى أن انجلترا لن تكون داخل السوق سوى (طابور خامس) لأمريكا !

وكشف هذا الارتطام عن كل المتناقضات المحتدمة فى المعسكر الغربى : من خـلاف حول الدفاع .. وحول التعامل مع روسيا .. الى المصالح والشركات ورؤوس الأموال ..

ديجــول وإنجلــتــرا

لقد استمرت المباحثات بين انجلترا ودول السوق سنة ونصف سنة ثم فجأة ، أعلنت فرنسا رفضها دخول انجلترا . وهو القرار الذى فجر الأزمة الاخيرة ..

وقال المراقبون : ان ديجول يثأر من معركة ووترلو التى هزمت انجلترا فيها نابليون ! وان ديجول عرف ان غلطة نابليون هى ان الالمان كانوا فى ووترلو الى جانب الانجليز ، ولذلك عمد الى أن يجعل الالمان هــذه المرة الى جانبه .. فأسرع بعد هــذا القرار بأيام ، يوقع معاهدة مع اديناور ، وبدأت الهمسات تتردد بأنه على صلة خفية بموسكو !

والواقع ان الحجرة التى دارت فيها مباحثات انجلترا ودول السوق فى « بروكسل » والتى أعلن فيها وزير خارجية ديجول قرار الرفض . لا تبعد عن الارض التى دارت فيها معركة ووترلو بأكثر من عشرة اميال !

ومع ذلك فالشبه بين ديجول ونابليون ليس فى معركة ووترلو ، ولكنه فى القرارات الشهيرة التى أصــدرها نابليون سنة ١٨١٠ ، واعلن بها ما سماه بالنظام القارى ، ومن مقتضاه أن تحرم التجارة بين أوروبا وانجلترا وان يمنع دخول أى سفينة انجليزية الى إى ميناء أوروبى ! ويومها تحملت أوروبا هــذا النظام ، بمزيج من الوعد

والوعيد اقل من سنة ، ثم تمرد قيصر روسيا وخرج على الاتفاق .. فكانت حمـــلة نابليون الشـــهيرة على روسيا .. الحملة التى انتهت به الى وحول ووترلو .

ولكن الأمر لو كان مسألة ثأر ، أو رجوع الى تاريخ قديم ، لكفى فيه الرجوع الى أقل من عشرين سنة الى الوراء . روت الصحف الفرنسية هذا الاسبوع أن زائرا أجنبيـــا لقصر الاليزيه سأل موظفا كبيرا فيه عن سر خصومة ديجول لانجلترا . فأخرج الموظف من مكتبه كتاب مذكرات ديجول. قرأ له منه فقرة تقول : «جاءنى السـفير البريطانى بعد انذار انجلترا لفرنسا بسحب قواتها من شوارع دمشق (سنة ١٩٤٥) فقلت له طبعا نحن لسنا فى حالة تسمح لنا باعلان الحرب عليكم .. ولكن هذا العمل من جانب انجلترا لايمكن أن ننساه !»

ومرة أخرى، لايجب أن تدير هذه المقارنات التاريخية رؤوسنا فالفوارق بعد مائة وخمسين سنة من الزمن هائلة .. واكبر هذه الفوارق هى : ان ديجول لا يريد فى الواقع أن يطرد انجلترا من أوروبا .. انه يريد أن يطرد أمريكا !.. وهو اذا كان قد وجه الصـفعة الى انجلترا فلأنه يعتقد انها « حصان طروادة » الذى تريد أمريكا أن تدفعه داخل أسوار الوحدة الاوروبية النامية

فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، دخلت أوروبا الغربية تحت جناح أمريكا . اصبحت لأمريكا سطوة سياسية واقتصادية وعسكرية فى أوروبا . واليوم يريد ديجول أن يحطم هذه السطوة . أوروبا فى رأيه يجب أن تستقل . أوروبا هى الأم . وقد كان كل ما مر بها محنة ، عليهــا الآن أن تخرج منها وتعود الى ســابق

مجدها من جديد ..

الميزة الكبرى للسوق الاوروبية المشتركة فى رأيه هى انها ستجعل من أوروبا كيانا قوميا كبيرا فى حجم روسيا وأمريكا . فاذا كان هذا الكيان الكبير سيصبح تحت سطوة امريكا .. فما الفائدة اذن ؟..

ولهذا يجب أن نتأمل الموقف ازاء أمريكا قبل أن ننظر فى موقف انجلترا .

يقول ديجول : ان الدولة لكى تكون مستقلة ، يجب أن تظل مسيطرة على قوتها العسكرية والدفاعية ، وفى رأيه ان الفكرة الامريكية للدفاع الغربى تسلب أوروبا استقلالها العسكرى . فجوهر الفكرة الامريكية هو أن تنصرف أوروبا الى تعزيز قوتها المسلحة بالاسلحة التقليدية، بينما تنفرد أمريكا بانتاج الاسلحةالصاروخية، الذرية والهيدروجينية ، الحديثة . أما جوهر فكرة ديجول فهو أن أوروبا يجب أن تكون لها قوتها الذرية المستقلة ، وكل وجهة نظر لها ما يبررها .

كنيدى : يعتقد ان الخطر الوحيد الذى يهدد المعسكر الغربى هو المعسكر الشرقى . وان الاسلحة الصاروخية الامريكية الحديثة جدا كافيـة لحماية المعسكر الغربى كله وان ما يمكن أن تصنعه أوروبا من أسلحة فى هـذا المجال لن يصل الى واحد على عشرين مما لدى أمريكا الآن ولو انفقت فىهذا الأموال الطائلة والسنوات الطوال. بل ان محاولة أوروبا اللحاق بأمريكا وروسيا عسكريا يمكن أن تحطم أوروبا اقتصاديا ، أو تؤثر فى اقتصادها على الأقل الى حد خطير .

وهذه الفكرة كما هو واضح يحركها «حس تاريخى»

معين ، هو السائد فى أمريكا : فامريكا ترى ان ثم نوعا من « المجتمع الاطلنطى » الآخذ فى النمو باستمرار . وان هذا المجتمع الاطلنطى الذى يشمل أمريكا وغرب أوروبا يزدادكل يوم ترابطا وانصهارا سياسيا واقتصاديا وعسكريا . مثل هذا المجتمع لايمكن أن ينقسم ولايمكن أن تقوده وتسوده الا الولايات المتحدة الامريكية .

ولكن ديجول يرى التطور التاريخى من زاوية اخرى تماما ..

انه لايؤمن بأن الاطلنطى هو البوتقة التى ستصهر أوروبا وأمريكا فى كيان واحد . لايؤمن بما يقال من أن عصر النفاثات جعل الاطلنطى بحيرة مالحة فى قلب مجتمع واحد . بل على العكس يؤمن بأن البوتقة الاوروبية هى الحقيقة الباقية . اكثر من ذلك فهو يعتقد أن تقسيم أوروبا الى شيوعية ورأسمالية سيختفى ، سيصبح الشيوعيون بورجوازيين معتدلين وسيصبح البورجوازيون فى الغرب اشتراكيين معتدلين. واذا كانت أوروبا ستبقى مستقلة فلا بد أن تكون لها أسلحتها الدفاعية الخاصة بها ، المستقلة عن أمريكا ..

لماذا ؟.. يقول ديجول فى بعض أحاديثه « تذكروا ان حلفاءنا هم فى الوقت نفسه منافسونا » . ويقول : ان مصالح أمريكا وأوروبا يمكن أن تختلفا ذات يوم .. بل انه يؤكد ان هذا الخلاف سوف ينمو حتما كلما توحدت أوروبا وزادت قوتها وزاد نفوذها من جهة ، وكلما أدى هذا بالتالى الى انكماش قوة أمريكا نسبيا من جهة أخرى.

وازاء هذا الخلاف المنتظر أو المحتمل لابد أن تحتفظ أوروبا باستقلالها. ومفتاح هذا الاستقلال هو استقلالها

العسكرى ، بأن تكون لديها أسلحة العصر ، الصواريخ والقنابل الذرية والهيدروجينيـــة الخاصة بها ، والتى يتوقف استخدامها على قرار منها لا على قرار من أمريكا.

بهذا وحده لا تكون أوروبا تابعة لأمريكا ..

ويضرب ديجول مثلين : المثل الاول هو قصة مدينة ستراسبورج ، والمثـــل الثانى هو ماحـــدث فى حرب السويس .

* ففى سنة ١٩٤٥ ، حين كان الحلفاء يدفعون قوات هتلر الى الوراء ، وصلت الحرب الى مدينة ستراسبورج الفرنسية ذات القيمة التاريخية والقومية الكبيرة. وكانت أوامر ايزنهاور فيما يبدو ستؤدى الى تدمير المدينة . فالمهم لدى القيادة الامريكية العليا هو تدمير قوات هتلر بأسهل وسيلة . ولكن ديجول أصدر أوامره الى قوات فرنسا التى كانت تابعة له بأن تضع المحافظة على المدينة فى مقدمة أهدافها .

والعبرة : ان القرار الاستراتيجى العام قد يهمـــل المصلحة المحلية . وما حدث لستراسبورج سنة ١٩٤٥ قد يحدث لفرنسا كلها فى أى ظرف مقبل .

* وفى حرب السويس ، كانت قوات فرنسا التى جاءت لتشترك فى محاولة غزو مصر مندمجة فى قوات انجلترا وتابعة لها . ولذلك فحين اضـــطر أيدن الى اصدار الأمر بوقف القتال والانسحاب رغم أنف القادة الفرنسيين ، لم يكن أمام فرنسا سوى الاذعان والانسحاب.

وبصرف النظر عن نتيجة الحرب ، فالعبـــرة التى يريدهـــا ديجول هى : ان الدولة اذا قبلت أن تذوب قوتها فى قوة أخرى ، فهى تصبح عاجزة عن التصرف

تصرفا مستقلا ..

يروى عن ديجول انه يقول لوزرائه : انه لا ينظر فى تحركاته السياسية الى سنة ١٩٧٠ ، ولكنه ينظر الى سنة ٢٠٠٠ !

ماذا يمكن أن يحدث من « افتراق » بين استراتيجية أوروبا واستراتيجية أمريكا خلال هذه المدة ؟..

الرأى الفرنسى يقول : ان أمريكا تدافع عن أوروبا منذ نهاية الحرب ، نهاية أوروبا كانت ضرورية للدفاع عن أمريكا. فيها على الأقل قواعد الطائرات والصواريخ

الموجهة الى روسيا . ولكن هذه الضرورة تقل . وكل يوم يمضى تصبح أمريكا أكثر استغناء عن أوروبا فى استراتيجيتها العسكرية. بعد ١٥ سنة من نهاية الحرب

العالمية الثانيةظهرتالغواصات الذرية المحملةبالصواريخ وهى تغنى تماما عن كل القواعد العسكرية الارضية . فكيف يمكن التنبؤ بما قد يحدث فى خمس عشرة سنة أخرى من الآن .

الآن لم يعد الدفاع عن أرض أوروبا ضروريا للدفاع عن أرض أمريكا . فمن يستطيع أن يؤكد أن أمريكا ستضع الدفاع عن أرض أوروبا فوقمصلحتها الوطنية؟ لو فرضنا انه قامت حالة يمكن أن تتعرض فيها أوروبا

للحرب الذرية دون أمريكا فهل تعرض أمريكا نفسها للقنابل الذرية ، لمجرد الدفاع عنأوروبا ، واضعة بذلك مصلحة أوروبا فوق مصلحة أمريكا ؟..

ان الأمم تبقى ، ولكن المحالفات تتطور ، خصوصا اذا كانت محالفات بين دول يفصلها خمسة آلاف ميل من مياه المحيط .

انكنيدى يحب أوروبا ، ولكنه يحبها على انها «تراث» قديم للحضارة الغربية ، وان مصيرها التاريخى الوحيد هو أن تقودها أمريكا . أما ديجول فانه يرى ان أوروبا لها مستقبل لا يقل عن مستقبل أمريكا . بل يرى ان المستقبل لابد أن يعود اليها مرة أخرى .

هذا من الناحية العسكرية .. فماذا عن النـاحية الاقتصادية ؟

لقـد بدأ بعض الذين كانوا يرحبـون برأس المـال الامريكى فى أوروبا ، يديرون له ظهورهم .

ومنذ أسابيع نشرت الصحف انحكومة فرنسا نبهت دول السوق الاوروبية المشتركة الى خطورة «اغراق» دول السوق برؤوس الأموال الامريكية واستيلاء هـذه الأموال على بعض الصناعات الهامة. وفى الاسبوع نفسه كانت فرنسـا قد انتبهت الى نبأ يقول ان شركة سيارات كريزلر الامريكية قد اشـترت شركة سـيارات سيمكا الفرنسية الكبيرة . وان شركة أمريكية أخرى للأغذية قد اشترت عشرات الآلاف منالأفدنة فى فرنسـا لتحويلها الى مزارع خاصة تمون انتاجها ..

وهذا كله ليس غريبا ..

فالاحصاءات تقول ان فى فرنسا حوالى ٥٠٠ شركة تحكمها الأموال الامريكية بشكل مباشر أو غير مباشر .

وانه منذ بدء السوقالاوروبية المشتركة سنة ١٩٥٨ ـ أى فى خلال أربع سنوات ـ زحف الى أوروبا ١٥٠٠ مؤسسة أمريكية ، بعضها بدأ يعمل فعلا وبعضها ينتظر تطورات السوق ليبدأ العمل . ومن هـذه المؤسسات ٢١٨ مؤسسة فى فرنسا و٢١٥ فى المانيا و١٩٧ فى ايطاليا

و ٣١١ فى باقى دول السوق .

والاحصـــاءات تقول ان رؤوس الاموال الامريكية المستثمرة فى الانتاج فى أوروبا وصلت سنة ١٩٦١ الى ٣٥٢٣ مليون دولار فى انجلترا و ١١٧٠ مليونا فى المانيا و ٨٤٠ مليونا فى فرنسا و ٤٦٧ مليونا فى ايطاليا و٣٠٨ ملايين فى هولندا و ٢٥٦ مليونا فى بلجيكا .

والتقـارير الرسمية الفرنسية تقول ان ١٤ ٪ من رأس المال الانتاجى فى فرنسا كلها .. أمريكى !

وان الأموال الامريكية فى فرنسا تنتج ٧٥ ٪ من انتاج فرنسا من وســائل نقل و ٦٠ ٪ من الآلات الزراعية والتليفونات والمصاعد و ٥٠ ٪ من المصابيح و ٣٠ ٪ من الأدوات الكهربائية و ١٢ ٪ من الأجهزة الالكترونية .

كتب الكاتب الفرنسى ميشيل بوسكيه يقول : « ان ربة البيت الفرنسية حين تدخل دكان بقـالة تشترى بضائع أمريكية وهى لا تعرف : اللبن المجفف ، الأطعمة المحفوظة ، البسكويت . وهى تنظف بيتهـا بسوائل كيميائية أمريكية وتقتنى أدوات كهربائية أمريكية » .

وبينما يعتقد فريق من الاقتصاديين الفرنسيين أن هذا الوضع كان مفيدا لفرنسا ، لأنه الى جانب تهيئته لفرص العمل والانتاج ، قد أوجد صنـاعات جديدة ومهارات جديدة لفرنسا ، وجعل الصناعات الفرنسية نفسها تنشط وتتجدد حتى تصمد فى المنافسة .. فان فريقا آخر يقول أن هذا الوضع يحرم الدولة من أي فرصة جدية لعمل تخطيط قومى حتى فى الاطار الراسمالى لأن صناعات كبرى تتخذ قراراتها فى ديترويت وفيلادلفيا ونيويورك وليس فى فرنسا . ويقولون : ان هذا الوضع

يؤدى عمليا الى احتكار امريكا للتقدم الفنى والعلمى ، استنادا الى أن هذه الأبحاث تجرى فى أمريكا ، وتستورد جاهزة الى فرنسا .. مما يجعل الفروع الفرنسية لهذه الصناعات عاجزة عن الانطلاق بمفردها لو احتاج الأمر. تماما كالصواريخ الذرية التى تعرض أمريكا على أوروبا أن تستخدمها .. بشرط أن تبقى أسرارها فى يد أمريكا وان هذا أيضا يؤدى الى تبعية أوروبا لأمريكا من الناحية الاقتصادية والفنية والعلمية ، تبعية قد تصبح بعد عشرين سنة نهاية . لا رجعة فيها !..

ومن المقالات المثيرة التى نشرتها الصحف الفرنسية فى الشهور الاخيرة دراسة عنيفة عن الحرب الاقتصادية بين أمريكا وأوروبا فى الكونغو . فنحن نعرف جيدا مصالح بلجيكا وانجلترا وفرنسا فى الكونغو وما حولها ، والمتركزة فى شركات المناجم والتعدين وهى المصالح التى جعلت هذه الدول تحمى تشومبى وتحبذ استقلال كاتنجا حتى الرمق الاخير . فلما ساندت أمريكا أخيرا جهد الأمم المتحدة لانهاء استقلال تشومبى.. انفجرت صحافة غرب أوروبا تهاجم أمريكا. ولكن أعنف اتهامات هى التى وردت فى هذه الدراسة .

قالت هذه الدراسة : انه لوحظ انه كلما ضعف مركز تشومبى ، ارتفعت أسعار النحاس فى العالم . وانه ليس سرا أن الشركات الامريكية التى تنتج بمالها من فروع فى شيلى وبيرو ٤٠ ٪ من نحاس العالم ، تضغط دائما على حكومة أمريكا لتؤيد الأمم المتحدة فى ضرورة انهاء انفصال كاتنجا وان ادلاى ستيفنسون مندوب أمريكا الدائم فى الأمم المتحدة واكثر الامريكان حماسا لهذه السياسة هو

المحامى السابق لشركة «تمبلسمان وولده» التى حصلت أخيرا من حكومة الكونغو المركزية على امتياز استغلال مناجم الماس فى كاتنجا . وان الشركة السويدية « جرانجسبرج » التى تنقب فى أراضى كاتنجا يرأسها شقيق السكرتير العام الراحل داج همرشولد، وان شركة امريكية اسمها « أمريكان ميتال كليماكس » تسعى للحصول على امتياز استخراج المواد الاستراتيجية من الكونغو وفى مقدمتها الكوبالت واليورانيوم النقى . وان نائب رئيس هذه الشركة هو مستر آرثر دين رئيس وفد أمريكا فى مباحثات نزع السلاح الذى استقال أخيرا ليعود الى الاشراف على أعمال الشركة ..

وقال كاتب المقال ـ ادوار سابلييه ـ فى الختام : ان أمريكا تشن حربا اقتصادية ضد المصالح الاوروبية . وان أمريكا تخشى أن ينتهى النمو الاقتصادى الاوروبى الى منافسة أمريكا ذاتها . وانها لهذا تحاول أن تفيد أوروبا عسكريا . واستشهد بمقال كتبه الصحفى الامريكى الكبير جون جنتر وقال فيه : « لابأس أن نشجع أوروبا على أن تنمو اقتصاديا » بشرط أن «تصبح قادرة على الدفاع عن نفسها بدون مساعدة حلف الاطلنطى».

من يملك مفاتيح القوة الاقتصادية ، ومفاتيح القوة العسكرية ، يستطيع أن تكون له كلمة مسموعة فى عالم السياسة . ولذلك فان المحاولة ـ التى يمثلها ديجول ـ لتحرير قوة أوروبا العسكرية والاقتصادية من سيطرة أمريكا ، تهدف فى النهاية الى أن يكون لأوروبا صوتها المستقل فى عالم السياسة . لقد قبلت أوروبا ـ منذ زمن ـ ما يعتقد ديجول انه زعامة أمريكية مطلقة.وكلما

اندفع التقدم العسكرى فى مداه ، واتسعت الهوة بين روسيا وأمريكا من جهة وسائر بلاد العالم من جهة أخرى : زادت امكانية انفراد أمريكا وروسيا بتقرير مصير العالم .

وقد جاءت أزمة كوبا لتؤكد لأوروبا هذه العبرة . لقد ذهبت روسيا وأمريكا الى حافة الحرب الذرية وسار العالم كله خلفهما أوتوماتيكيا ، بحكم الارتباطات العسكرية والاقتصادية والسياسية ، دون أن تستشيرا أحدا ، روسيا وضعت صواريخها الموجهة فى كوبا رغم ما فى ذلك من دفع عنيف للحرب الباردة دون أن تستشير احدا . وكنيدى أعلن الحصار ووجه الانذار رغم ما فى ذلك من خطر قيام حرب ذرية دون أن يخطر أحدا ، وعندما اتفق الطرفان على التسوية اتفقا عليها بمفردهما ، والعالم مكتوف الذراعين ، ينظر . وأوروبا بالذات اول من سوف تدوسها الصواريخ ، لا راى لها على الاطلاق .

وقد اشارت بعض الصحف الفرنسية الى أن «السبب المباشر» الذى جعل ديجول يبدأ معركته الفنية المفتوحة ضد أمريكا وانجلترا معا هو تقرير سرى جاء فيه : ان قرار أمريكا نزع قواعدها الصاروخية فى تركيا وايطاليا كان جزءا من التسوية السرية التى تمت بين كنيدى وخروشوف خلال أزمة كوبا ، وان كانت أمريكا تؤكد علنا ان هذا القرار جاء نتيجة منطقية لاحلال الغواصات الذرية محل القواعد الارضية الثابتة التى يسهل تدميرها وتقول الصحف الفرنسية أن ديجول استخلص من هذا ان أمريكا عازمة الآن أكثر من أي وقت مضى على حل المشاكل رأسا مع روسيا ، دون استشارة حلفائها استشارة جدية ، حتى فى أمور تتعلق بأوروبا ذاتها ،

كقواعد الصواريخ فى ايطاليا وتركيا .

واغلب الظن ان ديجول استدار الى اديناور ، ولوح له بهذا التقرير قائلا : وبرلين ؟ ألا يجب أن نحسب حساب الهمس المستمر باحتمال بزوغ سياسة أمريكية روسية منفردة بالنسبة لبرلين ؟

المهم : ان الاستقلال السياسى لأوروبا هو التنمية المنطقية للاستقلال العسكرى والاقتصادى ، أو ان الاستقلال السياسى هو الغاية التى يهدف اليها ديجول ، ولا يمكن أن يصل اليها الا اذا حقق لأوروبا درجة من الاستقلال العسكرى والاقتصادى .

تقول مجلة الاكسبريس الفرنسية ـ والله أعلم ! ـ ان ديجول قال هذا الاسبوع لخلصائه : « اننى أحاول أن أنقذ أوروبا من تبعية أبدية .. سياسية وعسكرية واقتصادية وعلمية .. فاذا فشلت فمعنى ذلك أن تندثر أمجاد أوروبا الى الأبد .. وأن تخضع لحكم البرابرة » .

وبهذه الحيثيات كلها فجر ديجول سلسلة قنابله السياسية الكبرى ، التى بدأت برفض دخول انجلترا السوق المشتركة .

لماذا ؟..

لأن انجلترا ما زالت « غير أوروبية » .

لأن انجلترا ، كما سردت فى القسم الاول من هذا البحث ، هى القوة البحرية المنعزلة عن أوروبا التى كان دورها فى السياسة الاوروبية هو دور منع وحدتها ، وهى التى فضلت دائما علاقات عميقة مفتوحة عبر البحار ، وما زالت متمسكة بها فى صورة كومنولث ،

ولكنها قبل كل شيء طابور أمريكى خامس فى قلب الوحدة الاوروبية ، ودخول انجلترا السوق معناه دخول عميل قوى لأمريكا يمكنها من أن تحكم السـوق من الداخل فتنهار كل المبررات الكبرى التى يراها ديجول لقيـام هذه السوق ..

لقدكانت انجلترا تتباهى دائما بأن لها «علاقةخاصة» بأمريكا . وعندما عاد ديجول الى الحكم سنة ١٩٥٨ ، كان أول شيء اقترحه هو عمـل « قيـادة ثلاثية » للمعسكر الغربى من أمريكا وانجلترا وفرنسا ، بقصد الاشتراك فى هذه العلاقة الخاصة ، التى قد تصل الى حد تبادل الأسرار الذرية الكاملة. ولكن أمريكا وانجلترا رفضتا هذا الاقتراح رفضا أهان ديجول فى ذلك الوقت ، فهو اليوم يعامل انجلترا وأمريكا على هذا الاساس : على أساس هذه « العلاقة الخاصة » بينهما .

وباب الحديث عن هذه «العلاقة الخاصة» بين انجلترا وامريكا يفتح مجالات لا آخر لها ولا حاجة لها هنا . ولكن يكفى أن نتذكر كل التراث التاريخى المشترك الذى يربط انجلترا وأمريكا .

ويكفى أن نذكر ماجاء ذكره منذ قليل من أن استثمارات أمريكا فى انجلترا وحدها تصل الى أكثر من ثلاثة آلاف مليون دولار ، أى ما يساوى استثمارات أمريكا فى سائر بلاد غرب أوروبا . والصـلات بين الشركات الانجليزية والامريكية أقوى بكثير من صلات هذه الشركات بالمؤسسات الاوروبية. كذلك فان السياسة الدولية كانت على الدوام محل «تشاور خاص» بين انجلترا وأمريكا وان كان هذا قد شحب فى عهد كنيدى بالذات ، والشيء نفسه ينطبق

على الصلات العسكرية وعلى المعلومات الذرية المتبادلة بينهما . وقد كانت قمة هذا الارتباط فى رأى ديجول هى اتفاقية «ناسو» الاخيرة ، التى قبل فيها ماكسيلان نوعا من التبعية العسكرية لأمريكا فى مجال القوة الذرية الصاروخية حين قبل أن يهجر صواريخ «سكاى بولت» الى الصواريخ الامريكية « بولاريس » ..

ديجول يعتقد ان انجلترا ، بكل هذه الارتباطات ، سوف تكون عنصرا فعالا يدعو الى السياسة الامريكية داخل الوحدة الاوروبية ، سوف تستطيع انجلترا بما لها من نفوذ قوى وأصدقاء كثيرين أن تجمع حولها «كتلة أمريكية» داخل السوق ، وقوة اقتصادية أوروبية مستقلة وكتلة أوروبية ثالثة غير تابعة لأمريكا سياسيا ..

لهذا قرر ديجول أن يسد الطريق فى وجه انجلترا ..

ولأن هذا القرار الذى فجر الأزمة كان مجرد جزء من خطة شاملة ، فقد اعقبته سلسلة تحركات سياسية كبرى ، لاشك انها مدروسة ومحسوبة من زمن بعيد ..

* أولها .. المعاهدة التى وقعها ديجول مع اديناور. ان هذه المعاهدة تنص على تنظيم لقاءات منتظمة بين قيادة أركان الحرب فى البلدين ، وعلى اجراء مناورات مشتركة لجيوش الدولتين ، والتعاون فى صناعة بعض الاسلحة ، وتبادل الضباط والوحدات العسكرية ، وتنسيق الأبحاث العلمية فى المجالات العسكرية والاستراتيجية . والتشاور السياسى بينهما لتنسيق موقفهما فى المنظمات الاخرى كالسوق المشتركة وحلف الاطلنطى ..

فهى ليست معاهدة صداقة تقليدية ، بل انها حافلة

بالاحتمالات البعيدة.. ومع ذلك فلوعقدت هذه المعاهدة في وقت آخر لما كان لها نفس رد الفعل العنيف الذي حدث ، ذلك انها أبرزت كجزء من خطة شاملة. كخطوة في بناء « مركز ثقل » أوروبي جديد ينافس مركز الثقل الذي تمثله امريكا وانجلترا .

وقد سبقت هذا تمهيدات طويلة. أظهرها على السطح زيارة ديجول منذ شهور لألمانيا . وهي الزيارة التي أزاح فيها ديجول الستار ، في حركة رمزية ، عن ان له أقارب في المانيا ، وان عائلته لها جدود المان تزاوجوا مع الفرنسيين.. وقيل يومها ــ سخرية ــ انه يذكر الناس في الوقت نفسه بأن جدة ماكميلان أمريكية ! وأعمق هذه التمهيدات هو الترابط الاقتصادي المتعاظم بين المانيا وفرنسا . حتى قيل ان أهم ما في السوق المشتركة هو الزواج بين الزراعة الفرنسية والصناعة الالمانية ، وفي مجال المساعدات الخارجية تتفاهم السياستان الالمانية والفرنسية تفاهما عميقا . وفي احصاء أخير جاء أن المانيا توظف مئات الملايين من الماركات في المساعدات الاقتصادية لدول افريقيا الداخلة في الاتحاد الفرنسي ، وان ٨٠ ٪ من هذه الأموال تنفقها هذه الدول لشراء حاجات .. من فرنسا !

ولاشك ان المانيا ــ بحكم وضعها الخاص ــ ليست في مركز يسمح لها بأن تستغني بديجول عن حماية أمريكا العسكرية لها. ولكن حركة ديجول أريد بها جذب المانيا خطوة نحو فرنسا.. وكسر الولاء الالماني المطلق لأمريكا. وفتح الباب لاحتمالات واسعة في المستقبل. والضغط بهذا الحلف الفرنسي الالماني على بقية دول السوق

المشتركة وارغامها على الطاعة !

* وثانى هذه التحركات الديجولية كان فى محاولة فتح أبواب السوق امام دول اخرى أوروبية ، غير انجلترا. فبعد ايام من رفضه دخول انجلترا ، استقبل ديجول رئيس وزراء الدانمارك وعرض عليه دخول السوق ، والدانمارك اذا دخلت سوف تسحب وراءها اسكندينافيا كلها . وهى اذا كانت لا تستطيع أن تدخل السوق اليوم « على جثة بريطانيا » كما قال رئيس وزرائها الا انها قد اعترفت بأن العرض مغر ومثير وقابل للتحقيق . وفى الوقت نفسه نشط ديجول فى اسبانيا نشاطا واسعا ، وأخذ وزراؤه يعبرون جبال البرينيه واحدا بعد آخر ، بقصد جذب اسبانيا الى الكتلة الاوروبية المستقلة التى تريد أن تنمو ، قبل أن تتفاقم ارتباطاتها مع أمريكا . وآخر الأنباء تؤكد أن ديجول يفكر فى نوع من الارتباط العسكرى مع اسبانيا ، وانه سيحصل على «تسهيلات» عسكرية هناك كقواعد جوية تكون خطا متصلا من فرنسا الى دول افريقيا الفرنسية ، بعد ان استقل شمال افريقيا ولم يعد يصلح طريقا لفرنسا الى قلب افريقيا.

* وثالث هذه التحركات ، ما تشير اليه الأنباء والتعليقات الفرنسية ، من اهتمام واسع جديد لديجول بمنطقة الشرق الاوسط من جهة ، وأمريكا الجنوبية من جهة اخرى .. وعزمه على أن يدخل ميدان المساعدات الاقتصادية مدعما بالصناعة الالمانية — أسوة بأمريكا وروسيا — وقالت بعض صحف فرنسا : ان ديجول يعتقد ان دول امريكا الجنوبية مثلا تكره أمريكا ولكنها لا تريد أن تكون شيوعية ، وهنا يمكن أن تكون القوة

الاخرى ــ أوروبا ــ هى التى تقودها فى طريق التطوير الاقتصادى . بل قيل ان اتجاه ديجول لتسوية علاقاته مع اسبانيا يقصد بها فتح الطريق الاوروبى الى امريكا الجنوبية ، لأن نفوذ أسبانيا الروحى فى أمريكا الجنوبية عميق .. وعزلة أسبانيا عن أوروبا يعزل عنها ايضا أمريكا الجنوبية كلها .

* على أن رابع هذه التحركات ، وأخطرها ، هو الهمس المتصاعد عن اتجاه ديجول الى التفاهم مع روسيا

طبعا ــ وهذا تحفظ ينطبق على كل الاحتمالات الواردة فى هذا البحث ــ لا شىء يعنى ان هذه التطورات ستقع بين يوم وليلة ، أو ستقع بشكل حاسم ، أى بجرة قلم ، ينقلب بها الابيض الى أسود أو العكس . ولكنها احتمالات متتالية ، كل منها يفتح الباب أمام الآخر ..

وفكرة قيام «حوار مباشر» بين ديجول وخروشوف تبدو منطقية تماما مع باقى التطورات . ان كنيدى يتحدث مباشرة الى خروشوف . وديجول ثائر أساسا على فكرة انفراد كنيدى ، أى أمريكا ، بهذا الحوار . وهو يطالب بأن يكون لأوروبا دورها المستقل ، وبالتالى فمن المنطق أن يطالب اما بالتشاور على أساس المساواة بين أمريكا وأوروبا قبل أى بحث مع روسيا ، واما أن يكون لأوروبا نفس حق أمريكا فى الحوار المنفرد مع روسيا

وأنصار هذا الرأى يقولون ان أوروبا لديها فرصة أكبر من أمريكا لعمل تسوية مع روسيا . فأوروبا ــ الديجولية طبعا ــ ليس لديها مشاكل « ساخنة » مع روسيا متناثرة حول العالم ، من كوبا الى لاوس وفيتنام ،

مثل أمريكا. وديجول قد يفكر فى عقد تسوية مع روسيا نظير اخراج النفوذ الامريكى من أوروبا وديجول بالفعل أعطى روسيا شيئا لم يعطه لها أى حاكم غربى وهو : انه دعا رسميا الى ضرورة الاعتراف بنهر « الاودر » كحدود نهائية بين المانيا « الشرقية » وبولندا ، فى حين ان الموقف « الرسمى » للغرب انه لا يعترف بالحدود الجديدة بين بولندا والمانيا . ولكن أصعب مشكلة فى محاولة التفـاهم بين ديجول وخروشـوف هى برلين والمانيا ، لأن ديجول يرسم جانبا كبيرا من سياسته على أساس تأييد المانيا الغربية له . فكيف يوفق بين ارضاء خروشوف وارضاء اديناور ؟.. هل يبنى سياسته على أساس أن اديناور ــ زعيم المعسكر المتشدد ــ سوف يعتزل المسرح السياسى بعد أقل من سنة ؟

ان بعض المعلقين يقولون ان ديجول لايمكن ان يحاول التفاهم مع روسيا فى حين انه يتظاهر بأنه أشد الواقفين ضد نفوذها .. ولكن معلقين آخرين يقولون : لا تنسوا ان ديجول جاء الى الحكم بأن تظاهر بأنه سيكون أشد الحكام تشددا ضد ثوار الجزائر وظل يتظاهر بذلك حتى بدأ يفاوضهم سرا على الاستقلال !

ليس معنى هذا كله ان الطريق الجديد ، العجيب ، الذى يقتحمه ديجول ، سيكون مفروشـا بالزهور ، بالعكس ، انه يصطدم بعقبات هائلة ..

والدلائل تشير الى ان سياسة ديجول تحظى ــ داخل فرنسا ــ بتأييد كبير وتحظى بشىء أهم ، هو : حيرة خصوم هذه السياسة وبلبلتهم واضطرابهم ازاء هـذه المواقف الجديدة التى لم يتوقعوها قط : فاليمين المتطرف

يجد فى مغامرة ديجول الجديدة ، التى ترفع لواء الوطنية المتطرفة ، عزاء عن صـدمة هـذا اليمين المتطرف فى الجزائر ، والمحايدون يرون فى تصرفات ديجول اقترابا غير مقصود من فكرة تحييد أوروبا . واليساريون يرون ان كل بعد عن أمريكا ، قلعة الراسمالية الكبرى فأل طيب لهم .

ولكن الأمر خارج فرنسا على العكس من ذلك فأغلب دول غرب أوروبا تعارض اتجاه ديجول فى طرد انجلترا وأمريكا .

ورد ديجول التقليدى : انه لايطرد انجلترا نهائيا . انه فقط يبقيها خارج الباب حتى تقرر فعلا أن تصبح أوروبية وتترك كل ارتباطاتها الاخرى القديمة . ويومها أهلا وسهلا بانجلترا .

***

روت مجلة بارى ماتش ان أكثر ما يغيظ ديجول هو النشرة الجوية فى انجلترا ! فحين يغمر الضباب بحر المانش تقول النشرة : « ان الضبـــاب غمر المانش ، وأصبحت القارة الاوروبية معزولة تماما ! »

ويغتـــاظ ديجول من هؤلاء الانجليز الذين يرون ان الضباب يعزل أوروبا ، فى حين انه يعزل جزيرتهم ! كأن جزيرتهم هى القارة ، والقارة كلها جزيرة صغيرة مجاورة !

انه الآن يعزل انجلترا ويعلمها ان القارة هى الأصل !

فهرس

صفحة

صفحة

وكالات مجلات دار الهلال (٢)

انجلترا :

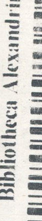
THE ARABIC PUBLICATIONS DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

بالبرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
R. 25 de Maroo, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRASIL.

هذا الكتاب

« افكار معاصرة » كتاب يجمع فيه احمد بهاء الدين مجموعة من الفصول الهامة التى كتبها فى السنوات الاخيرة ، والتى تتناول قضايا رئيسية فى الفكر والسياسة والثقافة ... وفى هذا الكتاب يلتقى القارىء العربى مع أحمد بهاء الدين كما تعود أن يلتقى به دائما ، فهو كاتب واسع الثقافة عميق الصلة بالفكر الانسانى المعاصر فى مختلف ميادينه ، وهو الى جانب ذلك كاتب اشتراكى ينظر الى الدنيا من وجهة نظر عربية رحبة .. وأحمد بهاء الدين صاحب مدرسة فى الكتابة تعتمد على الوضوح والجمال والبساطة والضمير اليقظ الحساس ، ومن هنا استطاعت هذه المدرسة أن تلتقى بقلوب الناس وعقولهم بلا تعقيد ولا عناء . وقد مكنت هذه الصفات لكتابات أحمد بهاء الدين من أن يكون لها تأثيرها الواسع على جماهير القراء العرب فى كل مكان . بل ان كثيرا من الدارسين الاجانب للثقافة العربية المعاصرة يرون فى أحمد بهاء الدين وجها مشرقا من وجوه هذه الثقافة وتعبيرا عن جانب من أصح الجوانب وأكثرها عمقا وسلامة فى العقل العربى المعاصر . وفى هذا العمل الفكرى الجديد الذى يقدمه « كتاب الهلال » ... القراء العرب رحلة واسعة وعميقة حول بعض المشاكل ... تواجه عالم اليوم وتنعكس على واقعنا العربى بصورة أو ب... لان الوطن العربى وثيق الصلة بكل ما يجرى فى العالم من ... وسياسية وحضارية ، بحكم موقعه وثروانه وتراثه القديم . و... بهاء الدين يمكننا أن نلتقى بنظرة فاحصة ومدققة وعميقة ... الدنيا من وجهة نظرنا العربية المتفتحة .. وفى هذا الكتاب نس... أن نعيش لحظات ممتعة مع أسلوب من أرقى وأجمل الاساليب ... الكتابة العربية فى عصرها الحديث .



١٨ قرشا